سوتوس خوندروبولوس

سيرة القديس نكتاريوس العجائبي

أسقف المدن الخمس

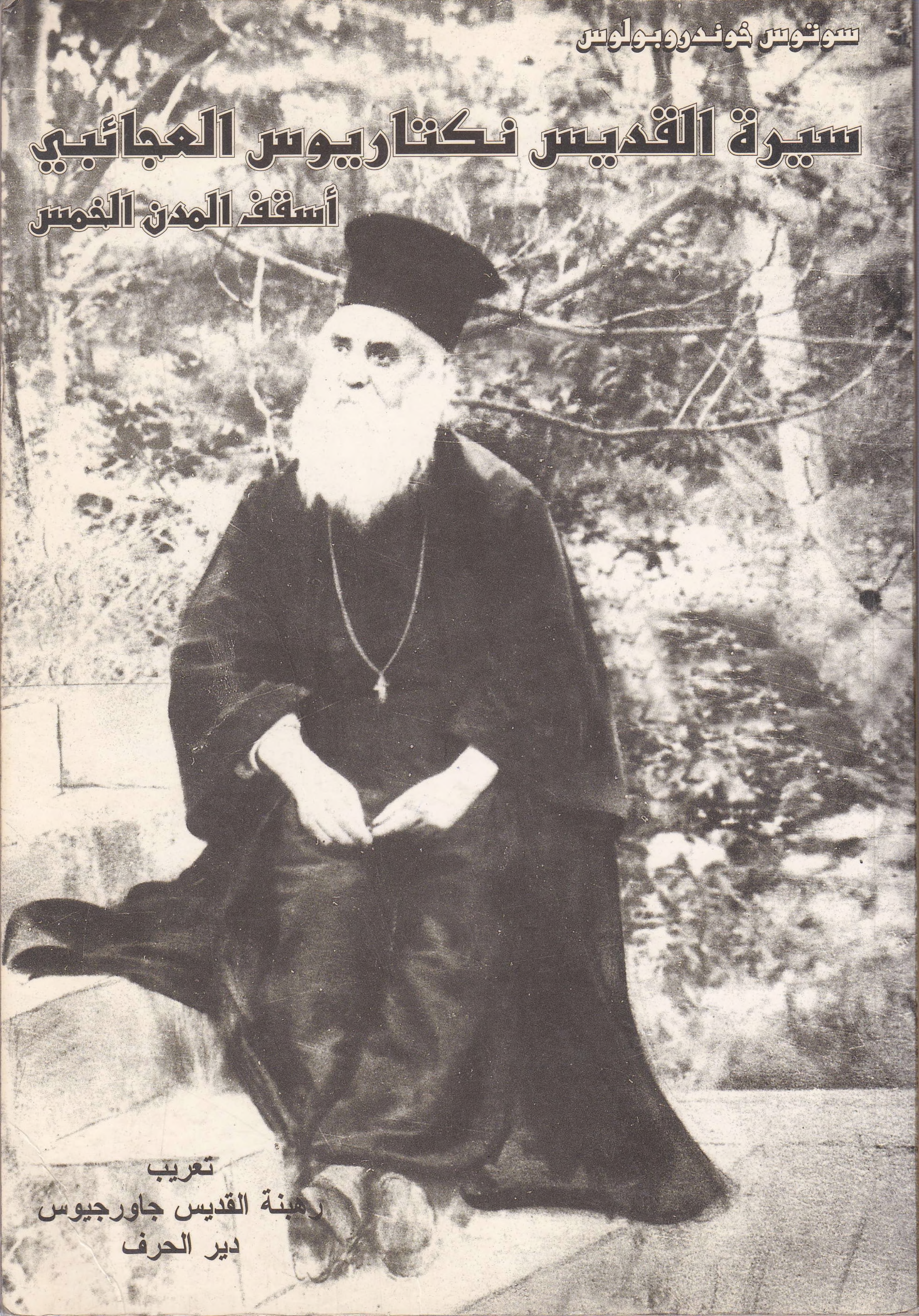

تعريب

رهبنة القديس جاورجيوس

دير الحرف

سوتوس خوندروبولوس

سيرة القديس نكتاريوس العجائبي
أسقف المدن الخمس

١٨٤٦ - ١٩٢٠

تعريب رهبنة دير القديس جاورجيوس
دير الحرف

توطئة

القديس نكتاريوس وجه محبوب جداً. لقد احسّ الناس بأهميته وقداسته بعد وفاته، ربما لأن السيد الكلي الحكمة ارتضى أن يجعله يقاسي الآلام العديدة والظلم والاهانات والافتراءات حتى آخر لحظة من حياته. ولكنه اليوم شفيع حار لنا كلنا. اذ هو حاضر عند التضرع اليه، ويستجيب الطالبين اليه بحرارة.

قصته عادية، وقد نلتقي بانسان على مثاله في أي يوم وأية لحظة دون أن نشعر به. انه كما قيل عنه: كالساقية الخفرة التي تروي الأرض العطشى، ولا يشعر بها أحد. وهو يعطينا بذلك مثالاً حياً لا يزول، وصورة بسيطة جداً عن القداسة، صورة خالية من التصنع والمواهب النادرة: لقد كان القديس نكتاريوس مثل أي واحد منا، انساناً عادياً لا يتمتع بأية ميزة خارقة، ولكنه بكل بساطة سلك الطريق الضيق، الطريق المغطى بالأشواك والصعوبات والآلام. كانت عنده الجرأة الكافية لكي يقبل كل ذلك محبة بالمسيح. ونحن لا نختلف عنه بشيء. أجل، من الممكن أن يكون هناك قديسون في القرن العشرين، قرن المادية والأنانية، قرن التطور العلمي الهائل والمعرفة. ومع ذلك فان هذا القديس يذكرنا بالحاح أن في العالم أشخاصاً "من العالم ولكنهم ليسوا من هذا العالم"، والحقيقة أن لا خلاص من دون المسيح.

ان سيرته تعيد الى أذهاننا في كل لحظة ــ نحن المشككين ــ بأن من الممكن سلوك طريق القداسة اليوم أيضاً! فقط تلزمنا الشجاعة والالتزام الحقيقي والثبات. وهي الى ذلك تنبهنا الى خطر ادانة الآخرين، واتخاذ المواقف السلبية حيالهم، وأهمية الحنو عليهم، والانعطاف الى مزاياهم الخفية، والشعور بمحبتهم، وملاحظة تواضعهم... وكم وكم من الأشخاص القديسين نحاذي يومياً وتعمينا كبرياؤنا عن تقدير مواهبهم وفضائلهم!

كان القديس أحد هؤلاء، أي القطيع الصغير، الذي "ينتظر الرب ويرث الأرض". سيرته دعوة لنا كلنا لأن نسلك بدعة ونحفظ الوصايا، ونحب الآخرين كأنفسنا (وما أصعب هذه الوصية!) وأن ننفتح للعطاء المجاني،

ونرتفع عن الأرضيات الزائلة لأن كل ما في هذا العالم فانٍ، "أمـــا الـــذي لا يُرى فهو أبدي".

هلموا أيهــا المؤمنـــون نكـــرّم

نكتـــاريـــوس

المولود في سليفريا وراية أبينا.

من ظهر في الأزمنة الأخيرة ومحب الفضيلة الأصيل.

بما إنه خـــادم المسيح الإلـهـــي

إذ يُنبِـــع الأشفية في كل الأحوال للصارخين إليه بإيمـــان.

المجـــد للمسيـــح من مجـــدّك

المجـــد لمن جعلك عجائبيـــاً

المجـــد للصانع بك الأشفية للجميع

آمـــيـــن

* * *

سيرة القديس نكتاريوس العجائبي

أسقف المدن الخمس

سوتوس خوندروبولوس

تعريب رهبنة القديس جاورجيوس
دير الحرف

الجزء الأول

الفصل الأول

+(يو ٢: ٢٣-٢٥): "وإذ كان في اورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه حين شاهدوا آياته التي صنعها. أما يسوع فلم يكن يأتمنهم على نفسه لانه كان عارفا بكل احد. ولانه لم يكن محتاجا الى شهادة احد عن الانسان لانه كان يعلم ما في الانسان."

+(ايوب ١٧: ٨-٩): "حينئذ يدهش المستقيمون عجبا وينهض الزكي على المنافق ويلزم الصديق طريقه ويزداد النقي اليدين قوة."

الاسكندرية ١٨٩٠

لا نزال في عهد الملوك والسلاطين في أوروبا. فبعدما انتهت ثورة عرابي باشا، وما رافقها من اضطرابات وسرقات ومجازر وتدمير، أصبحت بلاد النيل، الخصبة والعريقة في القدم، في يد الانكليز الذين بدأوا بعملية الترميم واعادة البناء.

في تلك الفترة كانت بلاد الفراعنة بمثابة الباب الذهبي للتقدم والرقي لسكان المملكة اليونانية الصغيرة. فكان الناس يرحلون بأعداد كبيرة عن وطنهم الأم ، الذي تحرر لتوّه من الحكم التركي، وعن جزر الأرخبيل الصغيرة وآسيا الصغرى التي ما زالت تحت نير العبودية، بل وحتى عن القسطنطينية، إلى مدينتي القاهرة والإسكندرية، سعياً وراء العمل في التجارة والتوصل شيئاً فشيئاً إلى الثراء.

وكانت البطريركية الأرثوذكسية في مدينة القديس مرقس في أوجها ، تتعاون مع الطوائف اليونانية للنهوض بها وارشادها روحياً، فتبني الكنائس والمدارس، وتعزز جذور النازحين الى المدينة. ودورها هذا كان فريداً لأن السكان الأصليين كانوا يعيشون في حالة من التأخر الكامل؛ كتلةً لا شكل لها تحت رحمة أول قادم ثري : فقراء مثل لعازر، وسخين، خائفين، يؤمنون بالخرافات ... ومستعدين للمجازفة بحياتهم من أجل بعض كسرات الخبز.

انه الربيع! الحادية عشرة صباحا. الشمس الساطعة تبسط حرارتـــها على حدائق فيلات الباشوات المليئة بالأزهار الكثيرة الألوان... وفي داخـــل البطريركية، في مكتب صغير قريب من كنيسة القديس ســابا، اجتمـــع بعـــد القداس الإلهي خمسة اكليريكيين وموظف متأنق، يشربون القهوة في أقـــداح كبيرة ويتناقشون بأصوات خافتة. كان بينهم ثلاثة كهنة برتبة ارشـــمندريت، يشغلون مناصب رئيسية في البطريركية، ومطران بـــلاد النوبـــة، وشـــماس وشاب.

واذ سأل المطران بصوت منخفض:

- "هل أنتم بالفعل خائفون من هذا المدعو نكتاريوس؟"

أجابه الارشمندريت:

-"لا يمكن أن تتصور يا صاحب السيادة مقدار الأذى والضرر الذي قد يلحقه بنا هذا المتعصب".

ثم قال زميله:

-"نكتاريوس هذا متزمت جداً، يرفض كل ما هو خارج حياة النسك. انـــه لا يفهم الصراع الذي يدور في بلادنا، ولا سياستنا الدبلوماسية. لا يزال يظـــن نفسه في عهد الآباء الأولين، ويريد أن "يخلـّص النفوس"... تصور ما قـــد يحدث لو انه سيم بطريركاً. سوف يبدد كل ما فعلناه: يوزع الأمـــوال علـــى الفقراء، والسكان الأصليين، ويفرغ سريعاً خزينـــة البطريركيـــة. ســيجلب الويـــل لليونانيين، ولنا".

فتمتم المطران:

-"أنت محق من جهة، لكنه يحوز على اعجاب البطريرك وحبه العظيـــم. لا تنسَ أن نكتاريوس ابنه الروحي، وأنه درّبه بنشاط وحماس وباهتمام أبـــوي كبير وجعل منه-لاهوتياً لامعاً. أني أتوقع التعقيدات والصراعات...

-"هل هذا رأيك؟ ولكن كل شيْء سوف يتدبر!

-" وكيف ذلك؟ أشك كثيراً في أن"..

-"تشك؟ إذن أنت غافل عمّا يحصل!

-"اجل، فلقد وصلتني بعض الأخبار...

-"إذن كفّ عن الشكّ، فاذا أخطر البطريرك صفرونيوس، لتكن سنوه عديدة، بطريقة ماهرة عما يحيك ضده نكتاريوس، ماذا سيفعل؟ انه بلا رحمة فيمـــا يتعلق بالمسائل الأخلاقية. وستجده يرفع عصاه ويضرب! في تلك اللحظـــات تجده يسترجع صباه وقوته... يكفي أن يقوم شخص رفيع المســـتوى باتـــهام نكتاريوس بالرياء...

-"وهل يعمل نكتاريوس ضده بالفعل؟"

قبل الاجابة، أجال الارشمندريت نظره حواليه في جميع الجهات ليتأكد من أن أحداً لا يمكن أن يسمعه، ثم تنفس عميقاً وقال:
-"بالفعل؟... هذا ما لا شك فيه. وبامكان امفيلوخيوس الحاضر هنا أن يعطيك براهين كثيرة. ماذا عندك لتقول لنا يا امفيلوخيوس؟"

ابتسم الأب امفيلوخيوس بطريقة غامضة، وهمس قائلاً:
-"لقد تعبنا من الخبث كفاية، ومن الصعب جداً أن ننخدع، نحن موظفي البطريركية.
-"ماذا تقصد؟
-"انه يقيم العلاقات مع النساء الجميلات اللواتي يوافينه مسرعات في وقت متأخر من الليل، أو عند انبلاج الفجر... تحت ستار الحاجة للاعتراف... وهو كثيراً ما يمرر التلميحات المبطنة لمعجباته من خلال عظاته... نحن خبراء في هذه الأمور. وعلامات الشر لا تتغير.
-"طبعاً، طبعاً، أجاب المطران. ويقول بعضهم أيضاً أن..."

فصرخ الارشمندريت الثالث الجالس قبالة المكتب:
-"ان طموحه سيتسبب بإطاحته. لقد قال: "شكراً" في ذلك اللقاء.
-"ليس هو من قال "شكراً" بل المدعوون!
-"لقد عرفت الكثيرين من الوصوليين والمحتالين، لكني اقسم أنها المرة الأولى التي ألتقي فيها بشخص مثله. أنا مشمئز يا اخوتي ومستاء. فهو يعمل بطريقة مدروسة، ومخططاته جهنمية. انه يعمل على تأليب الشعب. وهذا ما يجب أن نشرحه للبطريرك بعناية ودقة. فان "صوت الشعب كالسيل الجامح"، كما يقال! انه يحضّر الشعب للإطاحة بالبطريرك صفرونيوس الذي يقارب عامه التسعين. ويظن انه اصبح عاجزاً وغير نافع.
-"من منكم كان حاضراً في ذلك اللقاء الإجرامي؟" سأل الموظف المتأنق.
-"معظمنا كان حاضراً: امفيلوخيوس الحاضر هنا أولاً، والشماس على ما أعتقد أليس كذلك يا تريفن؟
-"اجل"، أجاب الشماس بخجل.
-"صفق له الجميع دون سبب، وصرخوا بعفوية:ستصبح بطريركاً عما قريب • فأجابهم:"شكراً."

فتمتم امفيلوخيوس:

-"هل بقي عندك مجال للشك؟ ان كل شيء مهيأ مسبقاً يا صاحب السـيادة. وكما قال لك أخونا العزيز منذ لحظة، انه يؤلب الشعب ضدنا. وللشعب دور كبير جداً في أمورنا في هذا البلد. وها هي اليوم مدينة القاهرة بكاملها تتحدث عن نكتاريوس. وينتظر الشعب الفرصة المناسبة حتى يدفعه للإطاحة بصفرونيوس والحلول محله".

فصرخ المطران:

-"يا للهول! ماذا ننتظر اذاً؟ علينا أن نقوم بالتدابير الضرورية لحماية البطريرك. فان كلمة "شكراً" التي أجاب بها الشعب هي دليل قاطع على نواياه الخبيثة.

-"تماماً. وقد وضعتنا العناية الإلهية لنعمل... غير ان...

-"تكلم. ماذا يشغل بالك؟

-"أظن انه يلزمنا الكثير من الشجاعة والمهارة...

-" هل هذا ينقصنا؟

-"لا أعتقد.

فهتف المطران بحماس:

-"اذن هيا الى العمل. أبلغوا جميع الذين على علم بالأمر، وسأطلب بعد ظهر غد مقابلة. تمرّنوا جيداً وتحضّروا للادلاء بشهاداتكم بوضوح ودقة وبطريقة مقنعة. فاذا فشلنا لسوء الحظ لن يبقى علينا الا أن نذهب وندفن أنفسنا في الصحراء.

-"لا تخف يا صاحب السيادة، فان ما سنقدمه للبطريرك من شهود ودلائل سيجعله متحمساً لاستعمال عصاه، وبما أنك صرت الآن معنا فان مصير نكتاريوس، أسقف المدن الخمس، محتوم منذ هذه اللحظة. لقد وقع بين أيدينا".

وضحك الارشمندريت في سره.

وفي الخارج حطّ طير من الصحراء بين أوراق شجرة غار برية للحظات، ثم طار وهو يطلق ثلاث صيحات غريبة ومتوجعة.

الفصل الثاني

+ (يو ٢ : ٣ ٥) "وفرغت الخمر فقالت أم يسوع له: ليس عندهم خمر. فقال لها يسوع ما لي ولك يا امرأة، لم تأتِ ساعتي بعد. فقالت أمه للخدم مهما يأمركم به فافعلوه".

+(ايوب ٢٩ : ٢) :"من لي بمثل الشهور السالفة ومثل الايام التي كان الله فيها حافظي ".

في هذا الوقت بالذات، توقفت في الحي اليهودي في القاهرة عربة يقودها أربعة رجال من سكان البلد الاصليين، أمام كنيسة القديس نيقولاوس الأرثوذكسية، بالقرب من مباني البطريركية. وفتح الرجال العربة لينزل منها كاهن أرثوذكسي شاب، أسود الشعر، ذو لحية وعينين واسعتين معبّرتين، وابتسامة خجولة، ووجه لطيف وهادئ. ولما وطأت قدماه الأرض، بارك الرجال الأربعة وأخرج بيده الأخرى بضع قطع من النقود، فأعطاهم اياها، ثم نزل بعده صاحب العربة. وكان رجلاً مسناً قوي الجسم، يضع قبعة ويلبس الأبيض. وكان يحمل بين يديه علبة مغلفة بورق ازرق ومحاطة بشريط ابيض.

-"هذا لك يا صاحب السيادة، قال هذا وانحنى أمامه .

-"ما هذا أيضا ؟

-"انه بلح... من البصرة. لذيذ الطعم، لم تذق مثله في حياتك. انها هدية متواضعة جداً.

-"أرجوك ، لا أستطيع أن أقبل هذا، فقد اهتممت بي كفاية حتى الآن. لا، لا يمكن...

-"ألا يمكن أن تقبل هذا الشيء البسيط؟

-"ان كاهناً أرثوذكسياً على شيء من الجدّ لا يسمح لنفسه بقبول الأطعمة النادرة. لو لم أكن أتحسس بالعمق آلام هذا الشعب، وظمأه الروحي الغير المرتوي، لكنت اخترت الحياة النسكية التي تجتذبني كثيراً. لكني أتيت من هذا الشعب الذي ينوء بحمله في صراعه اليومي لكسب الخبز. وأعتبر من واجبي أن اخدم هذا القطيع الكبير في اطار أمنا الكنيسة المقدسة... أرجوك ألا تصرّ كثيراً .

-"أنت تؤلمني برفضك يا صاحب السيادة. أرجوك أن تقبل هدية عائلتي هذه التي لا تليق بمقامك. واصنع بها بعد ذلك ما تريد. فكما قلت لك أثناء الطريق ، ان افراد هذا الشعب كلهم صغاراً وكباراً يحبونك كثيرا، ويكنّون لك الاعجاب. لقد مرّت قرون طويلة على هذه الأرض الأفريقية دون أن تحظى خلالها بكاهن مثلك يتصف بالنزاهة ومحبة الفقراء. وها ان صفرونيوس قد طعن في السن، وكل اليونانيين هنا يرغبون برفعك الى هذا الكرسي العزيز في القدم. وكما تعرف، فان المشكلات هنا قد تراكمت لدرجة...

-"لا اعرف ان كنتُ الشخص المناسب لهذا المنصب. الله وحده يعلم ذلك!

-"تماماً. انه هو الذي قادك الينا، وهو الذي سيرفعك الى هذا الكرسي.

-"حسناً، لا أريد أن آخذ الكثير من وقتك. أشكرك من كل قلبي، صلّ لأجلي أنا الحقير، واذهب بسلام ".

فانحنى الرجل المسنّ، وقبّل يد المطران، ثم عاد وركب عربته التي لحق بها جمع من الأولاد المحليين الحفاة، وهم يركضون ويصرخون.

وانزوى المطران نكتاريوس في غرفته الشبيهة بسائر الغرف قرب الكنيسة البطريركية، وحيداً بين أيقوناته ومجموعة كتبه ومؤلفاته... وفجأة سمع طرقات على الباب، فدعا الطارق للدخول. واذا بعجوز قصير القامة، منحني الكتفين، مشع العينين يدخل ويصنع له مطانية.

-"اهلاً وسهلاً يا جالينوس، قال المطران. ونهض مسرعاً لتقبيله. وسأله:

-"كيف حال أهل جزيرتي الحبيبة خيوس؟ وكيف حال سكان قرية ليتي؟ هل هم بصحة جيدة ؟

-"انهم بصحة جيدة يا صاحب السيادة. كيف وجدتَهم؟ أنت تعرفهم جيداً منذ أن كنت مدرِّساً هناك. فمنهم من يقضون أيامهم برغد، ولكن الأكثرين يعملون بجهد وتعب كبير دون أن يستطيعوا إسكات جوعهم. انهم يعملون كالعبيد، تنهكهم الأنواء والصخور والغربة والديون... آه طبعاً لقد وزّعت المال الذي أرسلته لي على العائلات التي عيّنتَها... انهم يعيشون في فقر مدقع يا سيدي. منذ مدة وأنا أعمل في خدمتك، لكني اليوم أقول لك اني مستاء لرؤية كل هذا البؤس في الوطن. لقد استأت من الكلي القدرة، وتساءلت لماذا يسمح لبعض المحظوظين بان...

-"آه يا جالينوس، ان التناقضات موجودة أينما كان. أنت هنا تعرف مسلكي، وتعيش معي كل يوم، وتجدني أرتقي؛ اني أرتقي يا جالينوس... ودون رغبة مني - نحو المسؤوليات العليا. لكن احفظ هذا جيداً في قلبك: اني ازداد اقتناعاً كل ساعة وكل يوم بأنه لا يحق لنا، وليس من العدل ابداً ان نحكم على الله من وراء هذا العالم المحيط بنا. هل تتذكر الرسام آرمنوبولوس الذي كان يرسم جدرانيات كنيسة الانجيليين؟ كنتَ تجد رسمه شديد القباحة، وكنت تقول ان عمله سيكون مشوّشاً. أما الآن فانك لا تتوقف عن تأمل رسوماته. فعندما نثق بالفنان، علينا ألا نحكم على عمله قبل أن يكتمل نهائياً. علينا ان نأمل وننتظر نهاية العمل بكل ثقة.

-"انت تجيد الكلام غير اني عجوز. واذا ما اختصرت خبرتي في هذا العالم وجدت أنها عبارة عن هموم ومرارة وزفرات... زوجتي، شريكة حياتي، ماتت. وولداي مبعثران: الواحد هنا والآخر في روسيا. ولو لم تكن أنت هنا لتقبلني في خدمتك، فما كان سيحل بي؟ كنت متّ هنا في أفريقيا وأنا أستعطي.

-"انتبه يا جالينوس، هنا بالضبط يكمن السرّ. استمع اليّ جيداً: لأني أجد هذه الحياة غير مرضية ولا خالية من العيوب، فأنا أؤمن تماماً بأنها ليست سوى محطة مؤقتة. وكالقطار الذي يستريح قبل متابعة رحلته نحو أماكن أبعد وأجمل: هكذا هو الموت. انه قطار يحملنا حيث كل شيء افضل من هنا بالتأكيد. اني أقول لك كل هذا لأنك للأسف لا تقرأ حتى الكتاب المقدس. لو كنت تقرأه...

-"حسناً ، أنا ذاهب لأني أتعبتك. فأنا أستغل طيبتك اكثر من اللازم. أنت مطران، وتخصص لي كل هذا الوقت؟... سنعاود التكلم في هذا الموضوع لاحقاً. لقد سمعت ان بعض الكهنة من رتبة ارشمندريت يحاولون القيام بخطوة ما... انهم لا يكنّون لك الحب يا صاحب السيادة."
-"لا بأس، فانا أحبهم. وهذا يكفي لأكون في سلام. متى عدت من الوطن؟ وهل كان البحر بحالة جيدة؟
-"لقد عدت من يومين، وكان البحر هادئاً كالزيت. وقد أعطوني في القرية طرداً لأسلمه لك. سأحمله اليك هذا المساء بعد صلاة الغروب. بارك يا سيد.
-"اذهب بسلام."

وأفلتت من بين شفتي نكتاريوس زفرة صغيرة! منذ ساعات وهو يتوق للوحدة هنا، بين أيقوناته، ومع كتبه ومؤلفاته. أخيراً!

آه للاهوت الذي هو علم كل العلوم، اللاهوت الأرثوذكسي، كم هو مجهول عند الكثيرين... بعد لحظات سيدعونه للطعام. لكنه اليوم لا يحس بالجوع. سيقول لهم انه يشعر ببعض التوعّك.

لمَ تراه يحب الوحدة الى هذه الدرجة؟ في السنة الماضية التقى في الاسكندرية بدوياً عجوزاً في صحراء سيناء، فقال له ان الحيوانات وحدهم والقديسين يستطيعون العيش في وحدة كاملة... فليحمه الله .

أما هو فما كان يعتبر أنه قد " خلص " بعد. كان انساناً خاطئاً، خاطئاً كبيراً. وكانت روحه تعيش في القلق كل لحظة. كان يرتجف ويعيش في الخوف المستمر. من حوله كل هذا الاكرام، وكل هذه الهدايا، وكل هذا الاحترام! بينما المجتمع من حوله طبقات، ينوء تحت نير الظلم...

منذ أن سيم مطراناً عيّن ممثلاً للبطريرك في هذه المدينة الكبيرة، وصار ساعده الأيمن. فماذا حقق حتى الآن؟ نعم انه يتصدّق، ويقتسم خبزه مع الفقراء، وما أهمية هذا؟ فحتى المسلمون يفعلون ذلك. انه يسهر على تطبيق العدالة كاملة؟ ولكن حتى الرومان كانوا يفعلون ذلك، ومثلهم عدد كبير من اليونانيين القدماء الذين كانوا وثنيين. كان يحرص على تزيين الكنيسة برسومات مقدسة من قبل فنانين حقيقيين؟ لكن هذا واجبه ككاهن، أن يهتم بذلك، ويسهر على تزيين بيت الرب. اذن؟ اذن لا شيء. انه مقصّر في كل ما يفعل. لقد سيم مطراناً في كنيسة تذخر بتاريخ عظيم، وفي بطريركية أرثوذكسية ذات شهرة عظيمة، فمن ذا الذي لا يذكر مدرسة الاسكندرية المشهورة، تلك النحلة التي كانت تصنع الثقافة؟

آه على الأرثوذكسية، كنز الحقيقة... ان قوات الظلام تحاربها، لكنها ما زالت صامدة في نفس هذا الشعب الصغير، شعب من غير راعٍ، يحيا حياة العبيد، وتهب عليه الأنواء من كل جانب...

وامتلأت عينا نكتاريوس بالدموع، وارتجفت يداه. فاقترب من المصلوب المعلق على يمين مكتبه وقال:

-"سيدي، لمَ رفعتني الى مثل هذه المرتبة الكبيرة؟ لقد توسلت اليك أن تجعل مني لاهوتياً، لا مطراناً مع كل هذه الأمجاد! منذ طفولتي تضرعت اليك أن تجعلني مجرد خادم بسيط لكلمتك. وأنت الآن تمجدني بأشياء وقتية وزائلة من هذا العالم. أنم ِ فيّ التواضع بجميع الوسائل التي تعرفها أنت، واجعلني أهلاً لأعيش قول رسولنا العظيم بولس:" لست أنا أحيا، بل المسيح يحيا فيّ".

الفصل الثالث

+(أيوب ١٦: ١٢-١٨): "كنت في دعة فهشمني. أخذ بقفاي فحَطمني ونصبني هدفاً له. تكتنفني سهامه. يشق بها كليتي ولا يشفق ويريق مرارتي على الأرض. يثخنني جراحة على جراحة ويهجم علي هجوم الجبار. لقد لفقت على جلدي مسحاً ومرّغت في التراب قرني. كوى البكاء خدّيّ وغشيت جفني ظلال الموت. على أن يديّ لا جور فيهما وعبادتي زكية.

+(يو ٣: ٤): "فقال له نيقوديمس كيف يمكن أن يولد إنسان وهو شيخ؟ ألعله يقدر أن يدخل جوف أمه ثانية ويولد؟ ".

كان ذلك في احدى أمسيات شهر أيار. المدينة الشرقية الكبيرة غارقة في الحرّ. لقد أخرج الأوروبيون ملابسهم البيضاء وخوذاتهم، ولبس الجنود الإنكليز سراويلهم القصيرة وحملوا هراواتهم. والبلد يعج بحركة واسعة تستهدف انشاء مخازن جديدة، مطاعم ومقاهٍ. وحدها الأحياء العربية بقيت غارقة في الجمود والفقر المزري، والجهل، والأمراض، والذباب...

وكان نكتاريوس من جديد في غرفته المتواضعة، جالسا أمام مكتبه، تحت المصلوب. يحدد مسؤولياته أمام الله والناس ويحضّر مخططاته للمستقبل. كانوا يتكلمون عنه بكثرة: مواطنوه والكاثوليك، وحتى البروتستانت يناقشون بعضاً من مزاياه التي يعتبرها هو مجرد واجبات على الكاهن الراهب، وخصوصاً على ممثل البطريركية. آه، كيف يمكنه أن يحفظ هذا القطيع، فلا "ينزع أحد منه إكليله" ؟ انه لم يقم حتى الآن بأي عمل هام. عندما سيم كاهنا كان يبتغي أن يوسّع نطاق عمله ليشمل الاهتمام بأولئك المساكين، سكان البلد الأصليين، أولاد آدم هم أيضاً. ولقد امتدت أحلامه ورغبته بالعطاء الى اللانهاية... في جميع الأحوال، عليه أن يتوصل على الأقل الى احصاء شامل لجميع الأرثوذكسيين الموجودين في منطقته. يجب أن يجد الوقت الكافي لزيارة الأشخاص المتعبين والضعيفي الإيمان، حتى ولو اقتضى الأمر أن يكون ذلك على حساب ساعات نومه. يجب أن يظهر كنز الأرثوذكسية، هذه الألماسة القيّمة، ليلمع ويجتذب. يجب أن تفهم كل نفس ما تدين به للمسيح المصلوب، الكلمة الكلي القداسة الذي قام من بين الأموات حقاً، ابن الله الحي. وتمتمت شفتاه:

البطريركي والادارة الاكليريكية. وقد سُمح لقداسته بالمكوث في بطريركية القاهرة اذا شاء، لمتابعة دروسه وكتاباته والمحافظة على شركته مع الكهنة. كما يُسمح لقداسته باقامة أسرار الزواج والعماد والدفن، والصلوات لراحة نفوس القديسين. لكنه ممنوع من التنقل رسمياً، ولأي سبب كان، إن في الريف أو في القاهرة القديمة، من دون الحصول على الموافقة الرسمية".

القاهرة في ٣ / ٥ / ١٨٩٠
صفرونيوس بطريرك الاسكندرية."

فارتجفت يداه وتحوّلت عيناه المعبّرتان الى بحيرتين عكرتين. وتمتم:
-"لماذا؟
-"لا تعذب نفسك بالانتقال لرؤية قداسته لأنه لن يستقبلك"، أجاب الشماس بطريقة آلية، وبوجه عابس وكثير الغموض.

-"ولكن لماذا؟" أعاد نكتاريوس السؤال.
-"من يعرف؟... لماذا لم تكلف نفسك يوماً عناء اكتساب ود بعض المناصرين لك هناك؟..." قال الشماس بطرف شفتيه، وهو يمسح الغبار عن جبّته.

-"انه الحسد... " نطقت شفتا نكتاريوس بصعوبة... لكن ما هو السبب؟
-"لو ذهبتَ إليه فلن يستقبلك. انه متوعّك على أية حال.
-"حسناً يا بني. اذهب بمباركة السيدة العذراء، واحرص على ألا تسيء يوماً الى المصلوب".

وما ان انصرف الضيف المزعج صافقاً الباب وراءه حتى وضع نكتاريوس القرار البطريركي على مكتبه الصغير وجمد في مكانه مستسلماً للبكاء. وتمتم:

-"والآن ؟... أهكذا يأخذ القرار دون سبب، دون أن يستدعيني، دون أن يقوم بتحقيق؟ دون مقابلة، دون أن يسمح لي بالدفاع عن نفسي؟... هل قمت بعمل في غير محله دون علم مني؟ يبدو لي أن أحدهم نبّهني بأني أجبت بكلمة "شكراً" على تمنيات الذين استضافوني في ذلك اللقاء... غريب! هذا محض خيال".

ثم انتصب وصرخ:
-"أجِلٌّ صفرونيوس وأحبه ولن أنسى ما حييت كل ما فعله من أجلي".

ووضع يده على قلبه وشعر بيأس شـــديد. وكـــأن ســـهماً مســـموماً اخترقـــه من جهة الى أخرى. ثم بدأ يرتعش وقد ارتفعت حرارته، وطفـــق يقول بحزن:
-"والآن ماذا أفعل؟"

وأحس بعرق بارد يتصبب منه، وبأن قواه تفارقه. فخاف وأوشـك أن يقع أرضاً. وفي تلك اللحظة حين وصلت النوبة الى قمتـــها، وقعـــت عينـــاه المليئتان بالدموع على المصلوب، فانفجر بالبكاء.

وعندها حصل أمر غير متوقع: فكأنه تلقى في لحظة واحدة الـــدواء الإلهي. فسكن تنهّده، وهدأ. وأحس انه بحال أفضل. فمسح عينيه، وارتســـمت على وجهه البريء الهادئ ابتسامة طفيفة.

-"هذه هي التجربة اذن!"... تمتم بهدوء. "انها تحصل هكذا، دون سابق انذار، كهجوم القراصنة. لتكن مشيئتك يا رب... وليكن ما ترغب به أنت".

وطارت به الذاكرة، خفيفة كالعصفور، لتحط على المقطـــع الثـــاني مـــن رسالة البطريرك: "وقد سُمح له... اذا شاء... فـــي غرفتـــه، لمتابعـــة دروسه وكتابات..." فقال في نفسه:
-"صبراً".

وتذكر في تلك اللحظة اقليمنضس الإسكندري الذي كـــان يقـــول: "ان الصبر هو نجمة النساك المبللة بالدموع"، فقال: "حتى ولو ذلِلت في عيون الناس... فسأصبر... لأن ذلك لا أهمية له..." وراح يردد في نفسه هذا الكلام مرات ومرات.

الفصل الرابع

+ (يو ١٨: ٢٣): " أجابه يسوع إن كنت تكلمت بسوء فاشهد علي بالسوء وان بخير فلماذا تضربني".

+(أيوب ١٩: ٧ و ١٣): "ها اني استصرخ على الجوار فلا أجاب واستغيث وليس من قضاء".
"زوى عني إخواني فاعتزلتني معارفي".

في عيون الناس... وراح يفكر أيضاً في الرعايا، في القطيع الصغير المتواضع والمختار الذي لا يعرف ما يحصل حتى الآن.

وكان زملاؤه المقربون في المكتب البطريركي أول من علم بالأمر. ثم الفقراء، والمرضى، والحزانى الذين كان يقدم لهم كل شيء، ويعوّضهم عن حرمانهم بفضل المنصب العالي الذي شغله...

لقد فهموا ما حل به، وعادوا يجرّون أحذيتهم البالية في الساحات خافضي الرؤوس.

كان العدو يجرّب الرب الكلي القداسة من جديد بآلام الأبرياء والصغار والمتواضعين.

ومضت أشهر لم يستلم خلالها الراتب الذي يعود لمنصبه. ولم تكن الهبات التي يتلقاها من أجل الكنيسة تبقى في حوزته اكثر من يوم واحد لقد كانت حاجات أصدقائه ومواطنيه المعوزين اكثر من أن تحصى، ولم تكن لتتوقف. هذا عدا تكاليف نشر المؤلّف الذي وضعه في شبابه: "كنز الأقوال المأثورة للقديسين والفلاسفة..." الآن لم يعد يملك شيئا"، لقد خرج كل شيء عن مسؤوليته واشرافه.

كان يتنهد عندما يرى بعض المساكين يخرجون من عنده فارغي اليدين، متعجبين من قوله لهم: "انه هو الآخر اصبح فقيراً، وانه يقع تحت وزر الديون". كانوا ينظرون إليه بحزن، ويجرُّون أحذيتهم البالية ويأسهم في ساحات البطريركية.

ورغم كل ما طـُلب منه، فقد ذهب ثلاث مرات إلى الاسكندرية ليجد الأبواب مغلقة في وجهه. كان صفرونيوس غائباً على الدوام، أو هكذا كـان يقال له. مرة كان يتـبع علاجاً بالمياه المعدنية الحارة، ومرة غيرها كـان في جولة، ومرة أخرى مسافراً الى سيناء.

أينما حل كان يرهقه بغض الوجهاء وهزؤهم واغتيابهم. لماذا؟

في طريق العودة كان يتوقف غارقاً في ذكرياته وباحثاً في أعمـاق ذاكرته عن سبب، عن أي سبب يمكـن أن يفسـر مثـل هـذا الاضطـهاد المفاجـئ. فاذا كان هناك البعض من "القطيع الملكي" يخططون ويرشـحونه للمركز البطريركي، فبماذا هو مخطئ ؟ لم يكن قد عبّر لأحد عن طمـوح كهذا ولا طلب مساندة لهذه الغاية. فلماذا اذن؟

خلال زيارته الأخيرة الى الإسكندرية تهيأ له انه سـمع اكلـيريكيَّين يتكلمان عنه بطريقة غير لطيفة، لاغاظته. قال أحدهما:
-"انتبه هوذا خليفة صفرونيوس".
فأجابه الآخر:
-"ماذا تراه يخطط الآن؟"

وتمتم نكتاريوس:
-"يا الهي، يا الهي وسيدي، أرجوك أن تقويني وتساندني".

الفصل الخامس

+(يو ١٢: ٢٧) "الآن نفسي قد اضطربت. ماذا أقول، يا أبت نجني من هـــذه الســاعة. ولكن لأجل هذا بلغت إلى هذه الساعة".

+(أيوب٦: ٢٦) "أفي أنفسكم أن تلوموني على كلمات يأس فرطت مني في الهواء؟".

ومع الوقت بدأ الجميع يفهمون شــيئا فشــيئا مــا حــدث، الرعايــا والقطيع..وانتشر من حوله حزن صامت يضغط على الصدور. كان السؤال نفسه يتردد على جميع الشفاه: "كيف أمكن أن يقع البطريرك في هذا الفخ؟"

وكان جمع كثير من الزوار من كل الأعمار والمستويات الاجتماعيــة يتوافدون إلى الكنيسة وحتى الى غرفته. فيطلبون رؤيتـــه والتحــدث اليــه، ليعبروا له عن محبتهم، ولينصحوه بالصبر!

-"أنت يا صاحب السيادة، أنت الذي جمّلت كنائسنا بالأيقونات المقدسة، أنــت الذي اعترفت بوجود الفقر ووزّعت على الفقراء كل ما كان لك، وما نطقــت يوماً إلا بلغة الملائكة، يطرحونك أنت جانباً؟"

وكان يرد عليهم بقوله:
-"لا أهمية لذلك يا أحبائي، انها عاصفة وستمرّ".

وبعد مرور أقل من شهرين على وصول الشماس الــذي حمــل لــه المغلف الأول، وصلته رسالتان لتحملا اليه الضربة القاضية. وكان في هـــذا الوقت القصير قد اكتسب بعض الخبرة، وعرف لحسن الحظ انه يمـــر فـــي تجربة. وصار قادراً على تمييز السهام المسمومة التي يوجّهها العدو باتجـــاه من يريد أن يبقى أميناً في النضال حتى النهاية.

قرأ الرسالتين ببرودة أعصاب، ومن دون حزن، بخلاف ما حدث في المرة السابقة. وقد جاء في الأولى:

"البلاغ الثاني.

... في بلاغ صدر بتاريخ ٣ أيار/ مايو ١٨٩٠، أقيل متروبوليت المدن الخمس، نكتاريوس كيفالاس، من مهامه في المكتب البطريركي في القاهرة، وكذلك من التمثيل البطريركي في الادارة الاكليركية. ومع ذلك فقد سُمح له بالسكن بحرية وتناول الطعام في مقر البطريركية، واقامة الخدم الإلهية بدعوة من المؤمنين. غير انه، وبسبب الحاجة إلى مدير جديد للمكتب البطريركي، وبعد ايجاد الشخص المناسب، لم يعد هناك من حاجة لبقاء قداستكم في مصر. ونأتي بهذا القرار البطريركي لنتمنى على قداستكم ترك المقر البطريركي، والرحيل الى حيث تشاء.

"وسوف تجدون بتصرفكم مع هذه الرسالة مبلغ ألف فرنك لتغطية مصاريف السفر. ومن جهة أخرى نعلم قداستكم بأنه بعد اجراء الحسابات وتسديد الأتعاب فان المركز البطريركي لا يدين لكم بشيء بعد الآن.

الاسكندرية في ١١ تموز/ يوليو ١٨٩٠.
صفرونيوس بطريرك الإسكندرية ".

أما الرسالة الثانية فكانت تحتوي على بلاغ الصرف:

" أنا الحقير صفرونيوس، بطريرك الاسكندرية، أعلن تنحية متروبوليت المدن الخمس من وظيفته. وبما أنه عاجز صحيا عن احتمال مناخ مصر، فعليه أن يغادر البلاد. ويبقى باستطاعته ان يمارس مهماته الاكليريكية حيث يذهب بشرط الحصول مسبقا على موافقة السلطات الاكليريكية المحلية. لهذا الغرض يمكن أن تفيد رسالة الصرف هذه، الصادرة عن مقام البطريركية.

الاسكندرية في ١١ تموز/ يوليو ١٨٩٠.
صفرونيوس بطريرك الإسكندرية ".

قرأ نكتاريوس الرسالتين مرات كثيرة، وبقي صامتاً. وفكر أن الماء تجري من الساقية الى النهر، والنهر يصب في البحر... بالطبع لم تكن حسابات أتعابه صحيحة. فمنذ أن سيّم مطراناً لم يتلقَ مرة راتبه بصورة

منتظمة. وكان المسؤولون يعرفون هذا الأمر جيداً. فكيف يدّعون هذه اليد النبيلة توقّع على مثل هذه الكذبة ؟... ثم نهض ورسم اشارة الصليب، ونظر الى المصلوب بمحبة. وبعد صمت طويل تمتمت شفتاه أخيراً:
-"سيدي صفرونيوس، اني مستعد لتلقي المزيد من ضرباتك، حتى الموت. فأنا أحبك دون حدود، وسأحبك طالما حييت ولن أنسى أبداً انك كنت الى جانبي مثل أب وحارس... وسأصلي لك ما دمت على قيد الحياة. الأمر ليس مهماً. ليمنحك الله السعادة. ولتكن سنوك عديدة. أما بالنسبة اليَ فلتكن مشيئة الرب ".

ثم نهض وانحنى قليلا، وقرّر أن يدع تيار النهر يحمله، كقطعة من الخشب.غير أنه انفجر بالبكاء.

الفصل السادس

+(أيوب ٢٤: ٤): "يطردون المساكين عن الطريق فيختبئ بائسو الأرض جميعاً".

+(يو ٧: ٤٨-٤٩): "هل أحد من الرؤساء أو من الفريسيّن آمن به. أما هؤلاء الجمع الذين لا يعرفون الناموس فهم ملعونون!".

فها نكتاريوس على ظهر باخرة يتساءل: "ماذا يحضّر له بعد سيد الجهادات الروحية؟" لقد طردوه، وألقوا به من النوافذ وهو الآن يسير نحو المجهول باتجاه أثينا عاصمة اليونان. اذ ليس له مكان آخر يلجأ إليه. غريباً بين الغرباء، يكاد يكون مرحّلاً الى وطنه، مطروداً. كان متروبوليت أثينا معروفاً بأنه رجل فاضل. وقد كتب له رسالة يطلب فيها حمايته، فتلقى منه رداً يفيد بأنه سوف يطرح الموضوع على المجمع المقدس، من غير أن يعطيه أملاً أكيداً.

وها هو يتجه نحو مدينة الفلاسفة ويقول في نفسه انه هو الآخر قد ينتهي في الفقر المدقع... فما كان يحمله من المال لا يكفيه سوى لوقت قصير.(في النهاية لم يستلم أتعابه كمتروبوليت). لقد انفق الألف فرنك في دفع ديونه وتكاليف النشر، وأجرة سفره على الباخرة، ولم يفضل في حوزته الا القليل...

... لاحقه الاضطهاد من جميع الجهات؛ فجأة صار كل أعضاء الاكليروس في الاسكندرية يكرهونه دون سبب. ويسخرون منه، ويشيّعون عنه أخباراً مختلقة، ويفترون عليه. وحده الشعب بقي الى جانبه، جمهوراً عاجزاً لا اسم له ولا سلطة! كم كانت روح هذا الشعب معذبة ومتعبة! مجموعة الذين على مثال "لعازر" وتقرّحاته، اخوة ملك الملوك والأمراء الذين من صلب ابراهيم!

في جيبه الداخلي، جنباً إلى جنب مع قرارات البطريرك ورسالة الصرف، وقليل من المال، رسالة وصلته من الجالية اليونانية الموجودة في القاهرة، نشرت في صحيفة في الاسكندرية ووقّعها اكثر من تسع مائة مواطن يوناني: كان حب الشعب له مؤثراً جداً: وكأنه نافذة صغيرة زرقاء فتحها في وجهه الرب العادل الذي يعلم ما في القلوب، لتخفيف صليب الحزن.

كانت النعمة الإلهية المقدسة ترسل اليه على الدوام سهام محبتها الذهبية لأنها تساعد دائماً المضطهَد، وتروي دربه الجرداء بالندى. انها ترسل أشـــخاصاً يشبهون سمعان القيرواني بهيئات مختلفة.

قرأ نكتاريوس الرسالة اكثر من عشر مرات، وكان كل مرة يطلـــب من الرب أن يسامحه:

"قداسة السيد نكتاريوس، أسقف المدن الخمس.

صاحب السيادة:

ان قراركم بترك مصر قد أحزننا عميقاً، لأننا نعتبر ابتعـــادكم عنـــا بمثابة خسارة لا تعوّض. ذلك ان كنيستنا في الإسكندرية تفقد برحيلكم رجـــل كنيسة عظيماً في الوقت الذي يفقد الشعب الأرثوذكسي أســـقفاً برهـــن عـــن استقامة نواياه وعمله الدؤوب تحقيقاً للخير.

* * * * *

"وليس من شاهد على فضائلك وقدراتك اكثر من أعمـــالك الخيريـــة التي لا عدّ لها ولا حصر تجاه المعوزين، والكنيسة البطريركية التي رُمِّمَـت وزُيِّنت بنجاح. في حين تشهد مؤلفاتك المختلفة التـــي تـــهدف الـــى تنشـئة المؤمنين تنشئة مسيحية، على استعداداتك النبيلة النابعة من قلـــب صالـــح تنامى كثيراً في المحبة المسيحية. نعترف بذلك...".

يا للسخرية! كان معظمهم يظنون انه هو نفسه قد قرّر الرحيل! كـــان من المستحيل وصف ما يشعر به: رجل غير ذي مكانة قد ارتقى الى قمة ثـــم ها هو الآن، ولأول مرة في حياته، يعاني من دوار الســـقطة، مـــن الـــهبوط السريع. لم يكن قد اختبر بعد "ثقل الصليب". وعليه الآن أن ينحني ويحملـــه، ويتقدم دون خوف ولا شكوى. والا فكيف سيتجرأ من جديد على اعارة يـــده "الملطخة بالوحل" للمسيح، مصدر النعم، ليشاركه في تضحيته الرهيبة!

الفصل السابع

- (يو ٦: ٣٤): "فقالوا يا رب اعطنا في كل حين هذا الخبز".

+(أيوب ١٤: ١): "الإنسان مولود المرأة قليل الأيام كثير الشقاء... انك على مثل هذا فتحت عينيك واياي نافذت للتحاكم معك".

في سريره، في الطابق الأسفل من الباخرة، كان الجو خانقاً والحرّ لا يطاق. وأحس نكتاريوس بانقباض في قلبه، وكأنه يشارف على الاختناق. فنهض، وبحث عن كرسي طويل، وصعد الى سطح الباخرة. كان هناك القليل من الناس، لحسن الحظ. فقد كان معظم المسافرين من اليونانيين والأوروبيين، نساءً ورجالاً، يتمتعون بالتفرج على حيَل ساحر إيطالي في صالون الباخرة؛ وكانت أصواتهم وضحكاتهم تصل بالكاد الى أذني نكتاريوس.

كان البحر شديد الهدوء، والباخرة تبحر في خط مستقيم نحو جبال كريت. وتوالت الأفكار في ذهنه: يا الهي، ما هو الانسان؟ وهو، نكتاريوس، من هو في الحقيقة؟ من أين أتى؟ ولمَ هو الآن، في الثالثة والأربعين من عمره، يبحر منفياً حاملاً صليبه على كتفه، بمثابة علامةٍ للقداسة؟ وبدأت الذكريات.

منذ سنوات في تراقيا الجنوبية، على أرض الأباطرة البيزنطيين القدامى، نشأ في عائلة كبيرة، الولد الخامس من بين ستة أولاد. كان والده عاملاً متعباً يعمل تارة في الأرض وتارة أخرى في صيد السمك، متواضعاً مثل حبة القمح. وكانت والدته أرثوذكسية يونانية ذات نفس شجيّة تبلّ خبزها اليومي بدموع الأمل. وكانت هناك انسانة محبوبة، جدته التي لا يمكن أن ينساها أبداً. ورغماً عنه اغرورقت عيناه بالدموع، ثم جفتا بسرعة وامتلأتا من جديد وجفتا من جديد. أيها الرب الاله، لم يكن يستطيع التوقف عن البكاء.

وتمتمت شفتاه: "أجيال من الاستعباد عاشتها الأرثوذكسية"، وراح يردد: "أيتها الأرثوذكسية، تعصف بكِ آلاف الأرياح، وتحاربكِ آلاف القوات

المظلمة وتثور، تريد اقتلاعكِ من العالم وتكافح لانتزاعكِ من قلوب النـــاس. أرادوا أن يجعلوا منكِ أملاً مفقوداً، متحفاً وماضياً مأساوياً وتاريخاً مرّ عليـه الزمن وانتهى. إلا أن الله القدير، الثالوث القدوس المحسن الكلـــيّ الوداعــة والحكمة، هو الذي يسيطر على هذه الفوضى، ويرميك في زاوية أبعـــد مــا يمكن عن التوقع ويغطيك كوردة تحت صخرة. انه يحافظ عليك في نفـــوس أبسط الناس، الذين ليس لهم أية سلطة أو معرفة دنيوية. وها أنت باقية حتـــى اليوم. ها أنت لا تزالين حيّة موجودة تغذين الأجيال الناشئة، وتفلحيـــن كــل بقعة جيدّة من الأرض، وتوزعين قوةً وحياةً وسماءً ونوراً وتفتحيـــن للنـــاس أبواب الأبدية".

بلى كانت أمّه التي حنتها الصعاب وجدّته التي حنتها السنون والآلام تحملان بصمت ودعة النعمة الالهية المقدسة وتحفظان الأرثوذكسية الوديعــة والشهيدة سليمة. كان يرى أمه وجدته تغلقان الستائر كل ليلة لكيـــلا ينظــر الأتراك القنديل مضاءً في غرفة الاولاد، ويرونهم جاثين أمام أيقونتي الثالوث القدوس ورئيس الملائكة، يصلّون ويصلّون... "تبارك نفسي الـــرب وليكــن اسمه القدوس..." وبعد أن تنتهي كل التلاوات ويحين دور الصلاة الفرديـــة، كانتا تذرفان دمعة صامتة وهما ترفعان نظرهما إلى سيدة السماوات، أم الإله الصابرة التي احتملت الكثير من الآلام على الأرض. فتقول أمه:
-"أيتها العذراء القديسة الملكة والسيدة، اني لا اطلب سوى أن تذكري زوجي وأولادي الصغار وصحتهم".

وتضيف الجدة وهي تتكلم عنه:
-"وأنستاز، هذا الصبي الذي احبّه كثيراً (وأنستاز هو اسمه بالمعموديـــة)... انه يشبه الملاك، ويصرّ بشدة على متابعـــة دروســه. يســتهويه الانجيــل والمزامير. ما العمل ونحن فقراء؟ والخبز يعوزنا؟"

وكان هو ينتظر جدته. كان ينتظر أن تنهض بصعوبة ليهرع إليـــها فتحضنه بين ذراعيها. وكانت لا تلبس غير قميص طويل فقد لونه مع الزمن. وكان وجهها الذي برزت عظامه مكللاً بشعر أبيض يبدو من تحت منديلـــها الوحيد الذي لم تضع غيره في حياتها. إلا أن عينيها كانتـــا تعكســان شــيئاً غريباً، عظيماً: شيئاً يعجز عن وصفه. وعندما تحتضنه كان يستســلم لــهذا الحنان الذي لا نهاية له. ثم يقول:
- تعالي يا جدتي، تعالي ولنقل معـــاً "ارحمنـــي يـــا الله كعظيـــم رحمتـــك" (مز ٥٠). فتوافق على الدوام، دون ملل أو تعب:

-"طبعاً يا حبيبي".

ثم تبدأ بتلاوة المزمور بهدوء، وعندما يقتربان من الآية التالية: "فأعلم الآثمة طرقك والكفرة إليك يرجعون"، كان يشعر بشيء يخترقه كالتيار الكهربائي، وكأنه "قوة سحرية"، فيمدّ يده كالبرق ويغطّي فم جدته قائلاً:
-"اعرف، اعرف يا جدتي أن أتابع". وكان ينهي المزمور وحده.

هكذا بدأت حياته.

وهكذا وجد نفسه لأول مرة على سفينة. كان في الثالثة عشرة، يرتدي ثياباً ممزقة، ويحمل كل متاعه في صرّة صغيرة. ولا يملك في جيبه قرشاً واحداً. لم يكن يملك أجرة بطاقة السفر. وكان القبطان ينظر اليه من سطح السفينة وهو يبتسم: لقد فهم مشكلة الصبي، وقد أضحكه ذلك. فسأله:
-"إلى أين تذهب يا صاحب السمو؟
-"إلى المدينة*".
-"لكن الذين لا يملكون المال لا يذهبون إلى المدينة!".

فلم يردّ. بقي واقفاً حزيناً يراقب عمل البحارة في رواحهم ومجيئهم قبل الانطلاق، وهم يحاولون تشغيل المحرّك.

أيها الرب الإله، ماذا سيحّل به؟ هل يبقى هنا في الوطن، كالجاهل، فلا يتعلم لكيما يفهم الكتاب المقدس؟ هل يبقى هنا وتتحطم كل أحلامه على شاطئ البحر؟

ولكن حدث شيء غريب: محرك السفينة يرفض أن يدور... انه يقحّ، ويرتجف، ثم يتوقف. واجتهد البحارة في العمل حتى تصبب العرق من جباههم، ولكن السفينة رفضت أن تقلع. وتغيّر مزاج القبطان، فغضب وبدأ يشتم، وكاد أن يكسر الدفة. ثم راح ينظر حواليه لكي يفهم ما يحدث، فالتقت نظراته بنظرات الصبيّ ورآه يبكي. كان في نظره توسّل صامت، وكأنه يتمتم:"خذني، خذني". وفجأة أومأ له القبطان بالصعود، فقفز الى السفينة بسرعة مودّعاً وطنه في قلبه، وفي اللحظة التي وطأت قدماه أرض السفينة، أقلع المحرّك كما "بقوة سحرية" وانطلقت السفينة.

---

* كانت كلمة المدينة في ذلك الوقت تعني بالتحديد القسطنطينية.

"قوة سحرية". أجل كان يضع في عنقه ذلك الصليب من الخشب المقدس الذي أعطته اياه جدّته. بعد وقت طويل، عندما وجد نفسه في البحر من جديد مسافراً الى فلسطين للصلاة في الأماكن المقدسة، هبّت عاصفة عاتية على السفينة حتى كادت تغرق. واذ أحسّ نكتاريوس بالخوف شعر بأن النهاية أصبحت قريبة. وفي وسط ذعره الكبير تذكر أقوال جدته:
-"يا بني اذا كنتَ يوماً في البحر وأوشكت على الغرق، أربط هذا الصليب بغرض ما وأنزله الى المياه فستهدأ الأمواج حالاً".

وحالاً نزع الصليب من عنقه، وربطه بطرف حزامه. ثم نزل الى الطابق الأسفل من الباخرة وألقى الصليب في الماء. وفي غضون دقيقتين أو ثلاث تغيّر كل شيء. اذ توقفت الرياح وهدأ البحر. أيها الرب! كم أنت طيّب، ان طيبتك ثابتة الى جيل وجيل!

إلا انه عندما رفع الحزام وجد أن الصليب الثمين قد اختفى، لقد ابتلعته المياه. فانفجر بالبكاء ولم يستطع توقيف دموعه. فسأله البحارة:
-" ما بك؟"

أجابهم بيأس:
-"هل تريدون أن تعرفوا ما بي؟ لقد ضحيّت بصليبي من الخشب المقدس لنخلص جميعنا. كان ذلك الصليب أثمن ما أملك في هذه الدنيا".

وبوصولهم الى يافا ألقوا المرساة. وفيما كان الركاب ينزلون من السفينة ناداه البحارة قائلين:
-"تعال يا صاحبنا، تعال واسترجع حافظك".

فسألهم بذهول:
-"كيف وجدتموه؟
-"قبل وصولنا الى المرفأ بساعتين، كنا نسمع صوت ارتطام منتظم على هيكل السفينة في الأسفل، على مستوى الدّفة. ولم نفهم ماذا يحصل. وأخيراً أمر القبطان بالنزول لمعرفة ما يجري. فاذا بنا نجد الصليب. اليك به، خذه. أنت تخيفنا، ونفضّل أن نعيده اليك..."

وردّد نكتاريوس في نفسه:" أنت بالفعل عظيم أيها الرب، ولا يمكن أن تنسى مخلوقاتك الصغيرة على أرضك أبداً، أبداً..."

لا شك أنه كان يحمل قوة خفية محيية تفوق قدرة البشر: ذلك الصليب، صليب الرب، الذي ما زال معلقاً في عنقه حتى هذه اللحظة.

أما تلك السفينة التي كانت تنقله ولداً الى القسطنطينية، فكانت تبحر على بحر هادئ كالزيت. ولم يملّ نكتاريوس من تأمل ذلك المنظر الطبيعي الذي يتوالى أمام عينيه: تراقيا الجميلة، بسهولها وشطآنها وتلالها. كم كانت جميلة هذه الأرض التي ما زالت تنوء تحت نير الاستعباد!

كان يحتفظ في قعر صرّته برسالة تعريف لتساعده على ايجاد عمل عند شخص يدعى ثيودوروس تسيليبي، وهو تاجر تبغ يعرفه أحد أخواله. فجأة رأى المراقبين يتقدمون باتجاهه وهم يدققون في تذاكر جميع الركاب. أيها الرب الاله. وفي غمرة الاضطراب صرخ:
-"أيها القبطان، أيها القبطان".

فسأله عجوز:
-"هل تبحث عن القبطان يا ولدي؟ لقد ذهب لينام بعد أن أنهى نوبته".

فتمتم مرتبكاً:
-"ماذا أفعل؟
-"ما بك يا ولدي؟
-"أنا فقير ولا أملك قرشاً واحداً. لقد تركت بلادي لأجد عملاً واحصّل العلم. أرجوك..."

ولم يستطع إنهاء جملته اذ انفجر بالبكاء، غير أنه أحسّ بيد لطيفة تلمس كتفه.
-"أنت تتألم يا بنيّ؟... أخبرني بقصتك.
-"من أنت أيها السيد؟ أني أشكرك... من أنت؟
-"مسافر استلطف بداية انطلاقك في الحياة... ولا يريدك أن تتألم بعد".
فرفع اليه عينيه المليئتين بالدموع. وفكر بأنه ما زال هناك أشخاص نبلاء مباركين بين كثرة الناس. ثم استعاد أنفاسه وتكلم، وتكلم طويلاً. وقصّ عليه كل شيء! كل ما كان في داخل قلبه: انه يحب أن يتلقى العلم... جدته هناك، في البيت، التي تتمنى أن يصبح قارئاً في احدى كنائس الرب الكبيرة...

لقد بارك الرب بالحقيقة هذا اللقاء. وقد دفع المسافر بـــــالطبع ثمـــن البطاقة، واستمع اليه بودّ وقد أصبح فيما بعد ــ وكأنه مـــلاك أرســـل مـــن السماء ــ وراء تحصيل نكتاريوس العلمي، وأسفاره وتقدّمه. انـــــها العنايـــة الإلهية أرسلته ليساعده في خطواته الأولى المترددة. لقد كان هـــذا الرجـــــل ابن أخ خوريميس العظيم، سيد جزيرة خيوس الذي ساعده كثيراً.

الفصل الثامن

(ايوب١٤ :٩) " ما الذي تعلمه أنت ولا نعلمه, أم ماذا استبان لك وخفي علينا."

(يو ٧ : ١٥) "وكان اليهود يتعجَبون قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم؟"

وتعود اليه أولى خطواته في القسطنطينية، كما في الحلم: آيا صوفيا والكنائس، والبطريركية... كل ذلك كان رائع الجمال، لكن القسطنطينية لم تكن حرّة لأنها لم تكن يونانية. عندما وطئت قدماه مرفأ غلاطية بدأت شفتاه تدندنان دون ارادة منه الأغنية التي علّمته اياها أمه في خفية عن الأتراك: "سيأتي يوم وتخرج فيه المدينة من سباتها، وتتذكّر سيدها. وعندها ستسجد له وتطلب منه: أيها السيد الكلي القدرة، ألم يحن الوقت لكي تنتهي التأوهات، ويلمع نور بلادنا من جديد؟"

واختفى الحلم ليحلّ محله الواقع المرير، عندما بدأ الصبي بالعمل. كان يقضي النهار بطوله منحنياً فوق الصناديق والعلب، ليحصل على قطعة صغيرة من الخبز. لم يكن ليتصور أن الحياة يمكن أن تكون قاسية ومتعبة إلى هذا الحد لصبي فقير ودون حماية في هذه المدينة الكبيرة. لم تفده رسالة التعريف التي حملها في صرته بشيء: اذ ان السيد ثيودوروس تسيليبي كان رحل الى مدينة أوديسّا. فراح يقطع الشوارع الواحد بعد الآخر، يطرق الأبواب بحثا عن عمل دون أن يعثر على شيء. كان صبياً مجهولاً. وكان الناس يحسبونه غريباً ويجيبونه باحتقار:
-" كيف نعطيك عملاً ونحن لا نعرفك؟

ولم يبق امامه الا العمل في الميناء أو أسوأ من ذلك. فاختار أن ينضم الى مشغل يجري فيه تعليب التبغ الخام. وكان عليه أن يعمل من الفجر حتى الليل مقابل طعامه لا أكثر.

بعد تعليب التبغ، كان عليه أن يسير في شوارع المدينة بكاملها جاراً عربة يد لشراء بعض الأغراض لسيده. وكان رئيسه رجلاً سيئ المزاج، وحدانياً، طويل القامة عريض المنكبين أسمر الوجه، ينهي كلامه بوابل من الشتائم. ولكن ما العمل؟ تذكر الصبي ما قاله له والده قبل رحيله:" كل بداية

صعبة". ورسم أنستاز على وجهه اشارة الصليب، وشكر الله لأنه لم ينتهِ في الشارع. وعاد الى عمله المضني باندفاع. ولم يكن لديه الوقت الكافي ليصلي كما يجب، وكان الحزن لا يفارق قلبه أبداً.

واستمرت دورة الأيام والليالي. من وقت لآخر كان يستفيد من بعض الدقائق ليتسلل الى احدى الكنائس ويرسم اشارة الصليب على عجل. ويتأمل وجه مسيحه الضابط الكل الذي يحبه كثيراً، والمرسوم في أعلى القبة. فيجده وقوراً سموحاً وعالماً بكل شيء. وكان المسيح يباركه ويؤاسي قلبه ببساطة. وكان يتمتم له:

-" مازلتُ قادراً على الاحتمال يا مسيحي. انظر الي، مازلتُ قادراً على الاحتمال. أرجو ألا تعرف أمي بأن رئيسي يضربني... لأني مازلت قادراً... لا أريد أن يحزن والداي. كل بداية صعبة."

وفي احدى المرات كان يمر بالقرب من كنيسة الكلية الطهارة التي حوّلها الأتراك الى مسجد "كاريه دجامي". فتوقف وبكى. ثم فكر بالدفتر الكبير الذي يضعه في صرته وينقل عليه جملاً من الكتاب المقدس وأقوالاً للآباء دون ترتيب. وفجأة خطرت له هذه الفكرة: أن يختار الأقوال الأبرز منها، ويكتبها بخط صغير على ورق تغليف التبغ. وهكذا ينشر جزءاً بسيطاً من كنز الايمان المقدس بين الناس. حتى ولو كان صغير السن فانه سيقدّم شيئاً من أجل حب يسوع، فتفرح روح جدته في السماء...

رائع! يا للفرح العظيم الذي تعطيه أقوال الرب! رائع! ولفرط تحمسه مضى يركض بأسرع ما يمكنه. فأضاع الطريق للحظة، واتجه نحو الأحياء المنخفضة من المدينة التي لا يذهب اليها الناس الشرفاء أبداً.

-"أيها الطائش! لقد دست على قدمي!" صرخ به رجل أنيق.

فأجاب الصبي وقد تابع ركضه:

-"المعذرة."

ومنذ ذلك اليوم صار همّه الوحيد ــ ولكن أيضاً فرحته الوحيدة ــ كتابة بعض الجُمل على ورق التغليف. كان يبقى حتى المساء ويكتبها في الخفاء، بعدما يخرج الجميع. كان يختار حوالي خمسين أو مئة ورقة تغليف. وكان يكتب:" ان لعنة الأم تقوّض أساسات البيت"، " لا تقل انك طاهر في

أعمالك ودون خطيئة أمام الله"، " تواضع أمام الرب وهو يرفعك"، "من أراد أن يكون أولاً فليكن آخراً وخادماً للجميع"، " قال ابراهيم: أنا تراب ورماد"، "ان الرب باتضاعه وتجسّده قد دلّنا على طريق الارتفاع الوحيد: التواضع"، "لا تجلّ الانسان كثيراً لأنه مائت"، "اذا كنت سعيداً فلا يكن لديك أية أفكار كبرياء"، "ان الكبرياء يدخل في القلب من باب الجحود والجهل"، "طوبى لصانعي السلام" الخ...

وكان الوقت يمرّ واذا به قد كتب سبع مرات كل الجمل التي نقلها في دفتره. صار يعرفها عن ظهر قلب ويكتبها تلقائياً. ثم حدث شيء غريب: فمنذ ذلك اليوم بدأ انتاج المشغل يتضاعف حتى لم يعد باستطاعة العمّال أن يلبّوا جميع الطلبات. ومع ذلك فقد بقي رب العمل سيئ المزاج، عابساً، يجمع الأموال، عديم الاحساس، حزيناً.

وبعد مدة حصل ما لم يكن في الحسبان: فقد بدأت ثيابه وحذاؤه بالاهتراء. وصارت أصابع قدميه تظهر من خلال حذائه، بينما الشتاء يقترب. ثم بدأت الأمطار بالهطول وبعدها الثلج المتواصل. وعانى الصبي من البرد. وفي احدى الأمسيات قصد مكتب رئيسه خائفاً، ووجده يأكل قطعة من الحلوى. فسأله المدير بفظاظة:

-"ماذا تريد مني؟

-"اعذرني يا سيدي، لكني أتيت لأريك ملابسي التي صارت مهترئة.

-"اكتب الى قريتك رسالة ليرسل لك أهلك غير هذه الثياب.

-"لكنهم فقراء، فقراء جداً. فوالدي...

-"اذهب من هنا فأنا مشغول. وانتبه جيداً والا فاني سأطردك".

وعاد أنستاز إلى زاويته الصغيرة لينام، وأمضى الليل كله يبكي على فراشه. ثم رأى في حلمه الضابط الكل الذي يحبه كثيراً واقفاً. وسمعه يسأله عن سبب بكائه المتواصل. فحاول أن يجيبه الا انه عجز عن الكلام. ثم استفاق وهبّ واقفاً، وتناول ورقة وقلماً وكتب*:

"عزيزي يسوع، لقد سألتني عن سبب بكائي: ان ثيابي مهترئة، وقد تمزّق حذائي. صرت عاري القدمين وأتألم. أشعر ببرد شديد بسبب الشتاء. لقد ذهبت البارحة لأشرح هذا لرئيسي، إلا انه طردني. قال لي أن اكتب

---

* هذه الرسالة لم تعد موجودة في الحقيقة، الا اننا استطعنا تركيبها على نحو تقريبي بحسب ذكريات العائلة.

رسالة الى أهلي ليرسلوا لي ما احتاج اليه.عزيزي يسوع، منذ أن بدأت العمل وأنا لم أرسل قرشاً واحداً الى والدتي... فما العمل الآن؟ كيف أعيش من دون ثياب؟ أني أرفأها وأرفأها لكنها تتمزق من جديد. سامحني اذ أزعجك. أجثو أمامك وأعبدك.

عبدك أنستاز ".

ثم وضع رسالته في مغلف وكتب عليه:" الى ربنا يسوع المسيح في السماوات".

واذ طلع الفجر نهض ولبس ثيابه بسرعة وذهب الى البريد (كانت قد أوكلت اليه خمس رسائل أخرى لايداعها في البريد في اطار عمله). كانت الشوارع مقفرة، الا انه التقى بجاره السيد ثيميستوكليس الذي يملك المخزن المقابل ويبيع فيه أطراً ولوحات وسكائر... فبادره:

-"الى أين تذهب في هذه الساعة يا أنستاز؟

-"الى البريد.

-"أنت مبكّر جداً.

-"لقد نسيت شيئاً البارحة...

-"أعطني الرسائل التي معك وأنا أضعها في البريد لأني ذاهب إلى هناك. هل تشعر بالبرد أيها المسكين؟ عد الى بيتك لأنك ستصاب بالمرض، ومن سيهتم بك عند ذلك؟

-"اني أشكرك."

ما الذي دعاه فجأة لكتابة هذه الرسالة؟ كيف وجد هذا الولد الجرأة الكافية لمثل هذا العمل؟ كانت الحاجة بالطبع أمّ الاختراع. ولم يكن عنده خيار آخر. في الحقيقة يجب ألا ننسى أن العمل يعطي ثماره.

وثيميستوكليس هذا، صاحب المخزن المقابل، ماذا نسميه؟ أملاكاً أم رسولاً للمحبة؟ انه حتماً رسول الله العلي. كل عطية من الله تجعل الانسان مديناً له، وأسيراً... لا بد أنه فتح عينيه باندهاش، هذا الجار الطيّب، عندما رأى تلك الرسالة الغريبة. وبعد أن فتحها تحركت مشاعره وتأثر. وبعد أيام أرسل بالبريد طرداً يحتوي على ثياب جديدة وحذاء، وملابس داخلية، وبعض المال. وفوق الملابس وضع ورقة كتب عليها بخط جميل هذه العبارة:" من المسيح الى أنستاز".

وكانت فرحة الولد لا توصف، فقد جثا على ركبتيه وشكر الرب من كل قلبه وهو يردّد:" يا يسوعي. أيها المسيح المحبوب، كنت أعلم أنك ستشفق عليّ."

وكاد لعرفانه بالجميل ان ينسى موعد ذهابه الى العمل. ثم حصل له حادث رهيب، أليم، محزن وخطير. الا انه كان في الحقيقة نعمة، فتحت على أثرها أبواب مصيره. اذ عندما وقع نظر رئيسه عليه، ووجد انه فجأة ينتعل حذاءً جديداً ويلبس الثياب الجديدة والأنيقة، تعجّب، وانتابه الشك. وقفز نحوه، وأمسك برقبته وانهال عليه بالضرب والركل حتى سال دمه، وكاد أن يقتله. ورغم أن أنستاز جثا على ركبتيه وقبّل يديّ رئيسه صارخاً: "أنا لست بسارق"، لم يكن رئيسه ينفك عن سؤاله: "من أين لك هذا؟" وكان أنستاز يجيب:

-"انه المسيح الذي أرسله لي، صدقني.

-"المسيح؟" وكان يعاود ضربه وركله.

لحسن الحظ أن الجار سمع الصراخ ووصل ليحول دون مقتل الصبي. فأخبر بكل شيء، ولولا ذلك لوُضع الصبي في السجون التركية بسبب معلمه القاسي القلب الذي كان يجمع المال دون توقف ولا يبتسم أبداً...

واذا بصوت ولد صغير يحوّل أفكار الأسقف نكتاريوس ويُبعد روحه عن الذكريات: وجد أمامه صبياً ناحلاً أسمر، يكلمه بلغة أفريقية يجهلها تماماً. كان الصبي يلبس ثياباً ممزقة ويداه ترتجفان من البرد. من أين أتى؟ وكيف هرب من والديه؟ كانت عينا الولد تحدّقان فيه وتجذبانه كالمغناطيس. وقال بصوت خفيض أبحّ: "غوبي... "

فتمتم نكتاريوس :

-"يا عصفوري الصغير!"

ثم نهض وفتش في جيبه ليجد حبة من السكاكر، فأعطاها للولد الذي رفع نظره المليء بعرفان الجميل. وفي تلك اللحظة مر شاب من العاملين على متن السفينة، فقال له:

-"هذا الصبي من تنزانيا يا أبتِ، لقد قُتل أبواه هناك واختفى اخوته الخمسة. ثم وُجد وحده في الاسكندرية، فأخذته سيدة انكليزية عجوز تحت رعايتها."

وعاد نكتاريوس الى الحاضر. فانحنى وأخذ الولــد بيــن ذراعيــه. فصاح الشاب:
-"سوف تتسخ ثيابك بسببه يا أبتِ! فهو يتنقل في كل الأنحاء كالهر الصغـير. وقد وجدناه منذ نصف ساعة في غرفة المحركات."

فقال نكتاريوس:
-"لا بأس، لا توبّخه."

واستمر واقفاً يداعب الولد، وكان يتنهد بين الحين والآخر ويقول:
-"الأولاد! الأولاد! الصغار، التعساء! بلى، هناك دائما أسوأ."

وكانت السفينة تتابع ابحارها الهادئ. فتقدم الشاب وأخذ الولــد بيــن ذراعيه وقال:
-"تعال معي يا غوبي الى أسفل."

فحاول الولد المقاومة بينما كان الشاب يُنزله الأدراج رغمــاً عنــه. وقبل أن يعود نكتاريوس الى الاستلقاء، ألقى نظرة على البحر. "يا للروعــة! لكن كم من الأحزان مخفية في البحر! كم من مرة في حياتي... آه يا الــهي، اننا نجد دائما من هو أكثر تعاسة منا!"

وجرّ نفسه نحو كرسيه الطويل، وعاد فكره من جديد الى طفولتـــه. بالطبع لو لم يرسل له الرب ذلك الرجل الصالح، فما كان سيحل بــه؟ كــان مات طبعاً بسبب الضرب. وهذا الولد التانزاني الذي مــات أبــواه واختفــى أخوته... أية جلجلة هي الحياة! ليس عليه اذن أن يقلق ويرتعد كلمــا فكــر بالمستقبل، ولا أن يخاف. رسم على وجهه اشارة الصليب وتنفس عميقاً: فــي الوقت المناسب أرسل الله الكلي القدرة الرجل المناسب ليعطي لحياته اتجاهــاً جديداً. ومن جديد عادت الى ذهنه الذكريات...

* * * * *

منذ ذلك اليوم بدأت حقبة جديدة بالنسبة اليه. فقد عمل فــي مخــزن الجار لمدة من الزمن، وحظي بمعاملة أكثر عدالة بكثير، وببعض اليُسر. لقـد صار بامكانه أخيرا أن يقــرأ الكتــاب المقــدس فــي المســاء والمزامـير والساعــات. وان يصلي ويشكر مخلــّص العالم من كل قلبه. فعندمــا يجـد

المرء وضعاً ثابتاً يؤمّن له بعض أوقات الفراغ وبعض الحرية، فان كل مـــا يتمناه يصبح ممكناً وبمثابة راتب له. يكفي عدم الاساءة إلـــى المخلــّص، وترك "الأنا" جانباً وابعاد الأفكار الدنيوية والجسدية التي تتمـــرد علـــى ارادة المخلــّص.

لن ينسى أبدا تلك الكلمات التي قالها له شيخ قابله في كنيسة القديســة تقلا، وكان أول معرّف له في القسطنطينية. قال له العجوز:
-"الآن ان كنت تشعر بالتأكيد بأنه عليك أن تكــرّس ذاتــك لكلمــة الــرب والأرثوذكسية، وتؤمن بصدق أن هذا ما يجب أن تعمل له بكل طاقاتك، لأنك بذلك تحقق مصيرك كانسان، فاترك عند ذاك نفسك تنقاد بالايمـــان، وبـهذا اليقين الكلي تجد طريقك". في هذه الحال تستنير جميــع الأمنيــات روحيــاً، وتتحقق يوماً بعد يوم."

بعدما ترك مخزن السيد ثيميستوكليس، بدأ العمل في حقل الكنيســة. فصار يعلم الصغار الحروف الأبجدية في كنيسة القبر المقدّس. وكـــان فـــي الوقت نفسه يتابع تعليمه ليصبح مدرّساً. كانت هذه فترة ذهبية بالنسبة اليـــه: فترة تحضير ورجوع الى الذات. ولم تكن مغريات هذا العالم لتلفت انتباهـــه لحسن الحظ. واليوم يمكنه أن يقول ان احدى الدراسات التي وضعها حـــول كتابات الآباء ترقى الى تلك الفترة: فقد ألف كتابه "كنز الحكماء" ليلـــة بعـــد ليلة. وقد نشره في وقت لاحق ولقي نجاحاً كبيراً.

في تلك الحقبة عينها ساعدته الدراسة والحياة الداخلية والصلاة علـــى اكتشاف رغبته بالحياة النسكية بشـــكل واضـــح. اذ ان عظمـــاء الصوفييـــن الأرثوذكسيين قد نموا في الوحدة والتفتيش عن الحياة الالهية، وهذا ما حصل له. فان العزلة تساعد الروح على فهم وجود الحياة الأخرى. ان العزلة تحـثّ الانسان على الجهاد الأعظم، وهي خصوصاً تحضّر النفس للموت.

يولد معظم الناس في الكون الواسع، ويكـــبرون ويحصّلـــون العلـــم ويكتسبون الخبرة. ثم يهرمون ويموتون من غير أن يتأملوا ملياً في ما بعـــد الموت. يأتون الى هذا العالم ثم يرحلون دون ان يفكروا، لأن قلـــق اللحظـــة الحاضرة يثقل كاهلهم. ومع ذلك فان الهنا ومخلصنا والمحسن الينا قد حـــول جميع تعاليمه إلى أحداث تاريخية خلال أكثر من ألف وثمان مئة عـــام. لأن كل كلمة من كلماته قد امتزجت بقلوب الناس كأنما لتؤلف معها مزيجاً مـــن الحقيقة: فقد لفت انتباهنا جميعنا الى ما هو أبدي، وما هو بعد الموت. وليـــس

من شك في أن السرّ الكبير للحياة الانسانية هو أن من أراد أن يخلـّص نفسه يجب أن يرضى باهلاكها.

* * * *

وبدأ نكتاريوس يشعر بميله نحو الحياة الرهبانية، ولكن من غير أن يتأسف لعدم كونه ناسكاً. كان ما يزال شاباً، ويعتبر أن واجبه يقتضي التفاني في خدمة قضية الكنيسة الكبرى. لقد كان يحبها، فمن واجبه اذن أن يخدمها.

ولكن حتى نستطيع أن نحبّ فعلاً علينا ان نثق ثقة تامة بالمستقبل. وأن نؤمن بالسعادة، تلك السعادة التي تبدأ بألم ودم الصليب للوصول الى الخلود. هذه السعادة قد أعدّت لكل واحد منا دون استثناء: أكان اسود البشرة أو اصفر أو احمر أو اسكيموي.

وخلال هذه الفترة، عرف نكتاريوس لأول مرة في حياته فرح الحياة الليتورجية خلال صلوات السحر والغروب التي كان يواظب عليها كل يوم. وكانت روحه تسجد متأوّهة بورع، تأسرها هذه الترنيمة الأرثوذكسية الفريدة: "انني أشاهد خدرك مزيناً يا مخلـّصي... "

وعلى كل حال لم يكن قد ذاق منذ طفولته الأولى مياه العذوبة والراحة المتدفقة الا في الكنيسة. ولم يمل في حياته الى التكتمات والهمسات التي تنتهي بالهزليات والعبارات الملتبسة التي تهدف الى اضحاك الآخرين. وهذا لحسن الحظ فان هذه التكتمات والهمسات هي فخاخ من الشرير، تحرّض الجسد على الثورة وتوقظ الخيال المريض. تستولي على النفوس البريئة وترميها ـ كالطابة ـ في لعبة الكفر، وفي عادة حياتية شريرة. وصار يجد فرحته الكبرى في الصلاة السَحَرية. أين يمكن أن يوجد الفرح الحقيقي؟ أفي السهرات، أفي عتمة حانات الليل، والكحول والسكر، أو في الاحتفالات المصطنعة؟ كيف يعمى الناس عن رؤية السعادة المضيئة في الخليقة، في عظم أعمال المحسن؟ انها هنا هذه السعادة، نذوقها منذ اليقظة، في النزهة الصباحية، في نقاوة القلب، في تغريد العصافير، بين الزهور، في الترنيم للرب، في القداس الالهي...

هكذا مرت تلك الفترة من حياته، ولكنه كان على طريــق البلــوغ. ووصل الى عامه العشرين، وعندها طويت الصفحة الذهبية.

* * * * *

وركب من جديد السفينة متجهاً الى جزيرة خيوس الزاخرة بالتاريخ.

في احدى أمسيات الربيع، ودّع ملكــة المدائــن المســتعبَدة واتجــه جنوبــاً: "كل مرة الى مكان أبعد... أبعد". لقد ترك المدينة الى الأبد، وآيــا صوفيا، والأرض التــي أعطــت رهبانــاً أمثــال كــيرللس وميثوديــوس، وثيودوروس الاسطوديتي، وبطاركة أمثــال الكســندروس، وغريغوريــوس الخامس، وأباطرة أمثال قسطنطين ويوستينيانوس ومخائيل الباليولوغس.

وتمتم نكتاريوس:

-"الوداع يا مدينة ملك الملوك، مدينة العذراء الظافرة في الحــروب، أرض الشهداء ومهد الأرثوذكسية الدامي. الوداع. وتقبّلي شكري المتواضع، أنا عبد الرب الفقير والغير المستحق".

كان يحمل رسالة تعريف موجهة الى مدير ميتوشــي. وكــان فــي طريقه لرؤية المتروبوليت غريغوريوس، وللقاء عائلته التي اســتقرت فــي خيوس: فقد نزح أخوه خارلمبوس أولاً للعمل عند بعــض الأصدقــاء ممــن يملكون مراكب تجارية ومراكب للصيد، ثم تبعته بقية العائلة، لأن المعيشــة في الوطن الأم كانت شديدة الصعوبة.

ان المدينة التي جرت فيها مجازر اليونانيين كــانت قــد احتضنتــه وصارت له وطناً ثانياً مباركاً من الرب. لقد أمضى فيها عشر سنوات متتالية عمل خلالها كمدرّس في احدى قرى خيوس وتدعى ليتي. فعلم فيــها أولادا ودعاء بسطاء يعاني أهلهم الأتقياء من مرارة البحر والبؤس.

وصار يكتشف بوضوح أكثر فأكثر عظمة الاله وحقيقته، في مســار الحياة المأساوي، كما في هدوء غرفة الصف الحزين بعض الشيء. وكــانت هذه أيضا مرحلة ضرورية في حياته: فقد توضّحت له حقيقتان هامّتان يومــاً بعد يوم، وانطبعتا عميقاً في نفسه: الأولى أن كل إنسان يولد خاطئاً شاء ذلــك أم أبى، وأن العالم الذي يعيش فيه مليء بالسقطات وعليه أن يجــاهد أكــثر

فأكثر ضد الخطيئة. وأما الحقيقة الثانية فهي أن المسيح، كلمة الله، والأقنوم الثاني في الثالوث القدوس، الذي صُلب لأجلنا وقام، وقد لمس توما جراحاته، هو المخلـِّص الوحيد.

وقد كانت هاتان الحقيقتان بالنسبة اليه بداية الطريق الى السماء ونهايتها. وأما البداية فهي أن تعرف أنك لست سوى ذرّة صغيرة من الغبار، وأنك خاطئ. والنهاية هي أن تقبل بأن المسيح قد تنازل واتخذ صورة عبد، صورتك أنت ليخلـِّصك، ليخلصك أنت شخصياً. وليس هناك سوى طريق واحد، ولن يوجد غيره أبداً. لا طريق بالقرب منه، ولا موازٍ له: "أنا هو الطريق والحق والحياة... لا يقدر أحد أن يأتي الى الآب الا بي". ان فعل الخلاص هو فعل المسيح المخلص من الألف الى الياء. انه هو الذي يدخل القلب، مع الروح المعزي، ويعطي معرفة الخطيئة والتوق الى التوبة، دون اكراه أحد أو الحد من حريته. "يمكنك يا بني أن تحصل على سؤال قلبك، وبالأولى ما أنت بحاجة اليه".

عشر سنوات كاملة قضاها هناك بالتعليم في ليتني، حيث المرفأ الجميل والشمس الساطعة والبحر الأزرق ومراكب الصيادين. لو تسنى له أن يكتب يومياته لكان وضع كتباً عدة تحمل عناوين أمثال: الشمس، البحر، وجوه الناس المنفيين، هموم كثيرة...

كم وكم من المرات بقي بقرب أمهات يشاهدن أطفالهن يموتون، وبقرب أشخاص يسهرون الليل يصارعون الأمراض الصعبة. وبقرب آخرين فقدوا عملهم واصبحوا عاطلين عن العمل، لا سلاح في أيديهم في وجه مشكلة العصبية، مشكلة الحصول على الخبز اليومي: ولكنه في حياته لم يتخلَّ عن الصلاة ولا عن الصبر ولا الأمل الشجاع، فكانت الأمور تسير بشكل افضل، وكان الناس ينجون من جو اليأس.

ان الألم ينبت في كل مكان، ويمدّ أغصانه الى جميع الأجيال، والى جميع الطبقات الاجتماعية وكل الأعمار. هو أيضا مرحلة في المسيرة البطولية من أجل الفوز بالخلاص ما دام المسيح نفسه قد مر في طريق الجلجلة الرهيب.

لقد وجد هناك، عند هؤلاء الفقراء، أولاد صيادي تلك الجزيرة الجميلة، أرضاً جيدة. فزرع فيها ــ الى جانب الحروف الأبجدية ــ الحقائق الكبرى للايمان المقدس، وأشعل شعلة الأرثوذكسية. وكثيراً ما كان يتذكر

بتأثر كبير مثال قزما الأيتولي، هذا المحسن الكبير للشعب. لم تكن الكنيسة قد طوبّته بعد، الا انه حتماً في السماء، يشرق وجهه الرسولي كـــالنجم بقـرب صاحب العرش المقدس الذي يفرح بتسابيح الملائكة والقديسـين. لقـد روى بدمه الأرض اليونانية المستعبدة وحقـّق له السيد الرب النبوءة التي كان يتنبأ بها أمام انتظار الجميع: بأن اليونانيين سيتحررون. وكثـيراً مـا صلـّى نكتاريوس في الأوقات الصعبة، وطلب مساعدة هذا القديس قائلاً: "يـا أبـتِ قزما، يا من استشهد ببطولة من أجل هذا الوطن الأليم، واكتشف بصفاء ذهنه حقيقتين أساسيتين: أولاهما أهمية المدرسة والتنشئة الضرورية على دراسـة الكتاب المقدس؛ وثانيهما خطر استعباد الأمة الروحي تحت نير الافرنـج* . كان الأتراك بسيوفهم المدماة، والمجازر، أفضل من دبلوماسـية الافرنـج، هؤلاء الأشقـاء ذوي الرقاب القاسية الذيـن يدوسـون كـنز الأرثوذكسية برئيسهم البابا، وادعائهم بالتصدّر، ودعاياتهم الماكرة.

كل يوم تقريباً في ليتي، وفي المدرسة حيث كـان يعلـّم النفـوس الصغيرة الجاهلة، كان يتذكر الأب قزما؛ ويصلي اليه لكي يتشفع أمام الـرب من أجل تقدّمه الشخصي وعمله لخير هذا الشعب. طبعاً لم يكـن ذا أهميـة، وليس باستطاعته مقارنة نفسه مع قزما. فهو لم يكن سـوى مـدرّس بسـيط ومسكين.

لكنه الآن يتذكر أيضاً حادثة حصلت لوالده وشقيقه في ذلك الوقت في عرض البحر. كان قد خرج الثلاثة معاً في زورق خاص بالصيادين، باتجـاه الشمال نحو ميتيلين. فهبّت رياح عاتية وهاجت أمواج البحر. وكان نكتاريوس مستلقياً في المقدمة يغطّ في النوم. وفجأة صدمته موجة قوية وكادت تلقي بـه في البحر. فاستفاق ووجد شراع المركب يتمزق الـى جزئيـن، والأمـواج تتلاعب بالمركب يميناً وشمالاً بعد أن فقد اتجاهه. بينما وقف شقيقه ووالـده شاحبين ينتظران الموت. فهب نكتاريوس من مكانه بسرعة الـبرق، ورسـم اشارة الصليب على وجهه ثلاث مرات، ونزع حزامه وربط جزئي الشـراع ربطاً سريعاً. فاستعاد الزورق توازنه، بينما كان الاثنان ينظران اليه بذهـول وقد ملأهما الاعجاب.

وبعودة الجميع الى البيت، سمع والده يقصّ الحدث لوالدته، ويسـتنتج بقلبه البسيط أن الصبي سيصبح يوماً قديساً:

---

* كانت كلمة الافرنج تعني الأوروبيين الغربيين من فرنسيين وألمان وايطاليين.

-"استمعي اليّ جيداً يا بالو، ان ابننا أنستاز سيصبح يوماً قديساً". وقفز نكتاريوس فجأة، ووقف ازاء والده مقاطعاً اياه بقوله:
- توقف يا أبي، ماذا تقول؟ توقف بحق السماء! أنا، قديس؟ أنا الخاطئ، الخالي من لباس العرس، غير المستحق، المثقل بالخطايا، والمهمِل؟"

وللحظة قصيرة، التقت النظرتان: عينا الأب المجاهد والكثير الأولاد، تنظران بصمت، في نوع من فضولية وديّة. ونكتاريوس يسمعه يتمتم بصوت مرتجف:
-"يا بني، يا بني..."

الفصل التاسع

+(ايوب٤٢: ٥و٦) "كنت قد سمعتك سمع الأذن أما الآن فعيني قد رأتك... فلذلك أنكر مقالتي واندم في التراب والرماد".

+(يو١٣:٨) "فقال له بطرس لن تغسل رجليّ أبداً. أجابه يسوع إن لم أغسلك فليس لك نصيب معي".

هناك في جزيرة خيوس، تحققت أول رغبة في حياته، لما حانت الساعة المباركة التي لبس فيها ثوب "الحداد الذي هو مصدر الفرح"، زيّ جنود الكنيسة. وسمع رئيس الدير المسنّ يسأله:

-"لماذا أتيت يا أخي؟... هل ترغب في اعتناق الحياة الملائكية؟

-"أجل، بموازرة الرب أيها الأب الجليل".

في ذلك الدير المشهور في خيوس، في خريف عام ١٨٧٦، صار راهباً. ولم يعد السيد أنستاز كيفالاس، المدرِّس العلماني، بل صار يدعى الأخ لعازر.

وحينذاك غرق كيانه كله في بحر من الجزع اذ حمل على عاتقه هاجس المسؤولية. كان قلبه يخفق بشدة، فقد اختار الطريق التي يهرب منها الكثيرون. انه انسان من الأرض، يتحدّى الرب الهه بقبوله عهداً علنياً يلزم فيه نفسه بالصلاة طوال حياته من أجل الشعب الجاهل، ولأجل التنقية من الخطايا والخلاص الأبدي.

لقد تعلّم من تعليم الكنيسة التقليدي ما هو الراهب الأرثوذكسي: انه منارة ونور يضيء في الظلمات. فقد اعتنق العفة والفقر والطاعة بطيبة

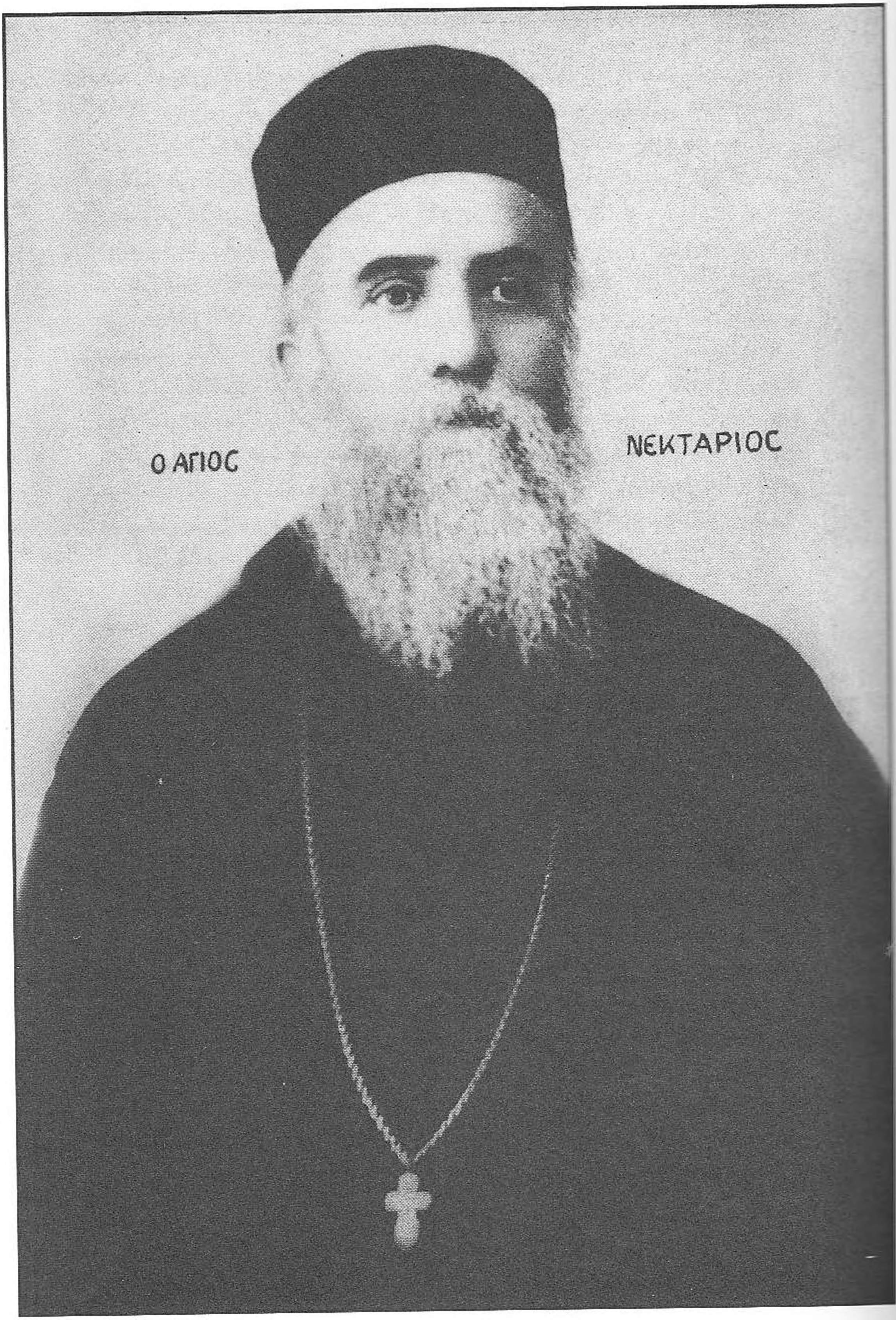
Ο ΑΓΙΟΣ
ΝΕΚΤΑΡΙΟΣ

خاطر ودون أن يُكرهه أحد. وكان يعلم حق العلم أن هذا التنسك وهذه الحياة البطولية التي التزمها لا تلزم الله المحسن اليه بتشريفه في منزلة مميزة على الاطلاق. ولكن وبما أنه اختار في أعماقه هذه الطريق وطلبها في صلاته الى المشارف السماوية في كنيسة المسيح المجاهدة، فهو الآن كرجل ارضي وكراهب ملزم بأن يحارب الشياطين المرعبة ليل نهار ويقهرها، ويتدرّب على العيش بفرح وأمل، وينقل كل ذلك الى جميع الذين يحيطون به. لقد قبل بملء ارادته أن يصبح هو أيضا، بانفراده، متشفعاً متواضعاً لاخوته في العماد والاعتراف بالايمان.

كانت كل دمعة يذرفها بصمت، وكل تنهّد داخلي وكل نظرة يلقيها نحو السماء صلاةً يرفعها من أجل قريبه، ذلك الأخ المجهول، صلاةً من اجل العالم في كفاحه ضد الموت، من أجل البحّارة الذين يتعرضون لخطر الغرق، من أجل الجنود الذين يخوضون الحروب، والأسرى الذين يتآكلهم العفن في الزنزانات، والمرضى الذين يقضون في أسرّتهم يغلّف البرد أجسادهم...

لقد تألم لترك بيته وعائلته، لينخرط مدى الحياة في هذا الجيش المقدس الذي عليه أن يتحمّل فيه الصراع الملتحم دون نهاية مع الرئاسات والقوات الشريرة ورئيس هذا العالم.

ومع ذلك فقد اختار بملء ارادته طريق التضحية الضيق لأن هذا الاختيار يجيب عن السؤال المقلق الذي كان يساور أعماقه: "أين هو الله؟ وأين هو قريبي؟" كبيرة هي الكرامة، عظيمة هي المسؤولية.

وقد أمضى في الدير ثلاث سنوات في النسك والتقشف، فاستنارت روحه من النور الذي يفوق كل الأنوار. وصار يقترب يوماً بعد يوم من السر الأعظم ويتعلم منه التواضع الذي هو ينبوع السلام. "لنهربنّ من كلام الفريسي المتشامخ، ونتعلّم تواضع العشّار بالتنهدات...".

ان حكمة الرب المحسن لعظيمة في كل شيء! لأنه ماذا يمكن للانسان أن يحقق في هذا العالم الزائل عن طريق الطموح؟ انه لا يجني سوى الاعتراض والمرارة والندم: في الحقيقة ان الطموح ليس سوى احدى حيل الشياطين. في حين أن السرّ الأعظم يفتح الأبواب الدهرية ودروب البطولة والمعرفة والصداقة والمحبة. ما همّ ان كان العمل صعباً، وان زادت

الأتعاب تعباً جديداً؟ وان نقص الطعام قليلاً؟ فان سلام الروح كنز لا يثمن، والرب الاله بحكمته هو المحسن الينا، وأبونا المعيل.

بقليل من الجهد استطاع أن يحبّ جميع رهبان الدير. وفي المقابل وبلا قصد، اكتسب محبة الآخرين من غير أن يعتبر نفسه مستحقاً لهذا الحب.

وفي ذكرى دخوله الدير رسمه المتروبوليت غريغوريوس شماساً، وأعطاه اسم بطريرك القسطنطينية الجليل الذي حمله حتى رقاده: نكتاريوس. وقد جرى حفل سيامته في كنيسة القديس ميناس، هذا القديس اللامع والشهيد اللابس الجهاد والصانع العجائب الذي يستجيب طلبات كل الذين يطلبون معونته وحمايته.

وعندما أعلن لأول مرة في القداس الالهي: "اذ قد تناولنا أسرار المسيح الاله المقدسة الطاهرة غير المائتة، المحيية الرهيبة، فلنستقم ولنشكر الرب حق الشكر"، انهمرت الدموع على وجهه وارتجف صوته وكاد يغمى عليه. وفكر في ذاته:"أيها الرب المحسن والمحب البشر!" وتابع بكاءه.

صار بامكانه الآن أن يدخل الى الهيكل خلال القداس الالهي، ويشارك في الذبيحة. ويتأمل الحمل الالهي المذبوح في كل مرة، ويتناول الجسد الكليّ الطهر ودم المحسن الثمين... فكان يسيطر عليه الخوف والقلق.

وفي ذلك اليوم، بعدما انتهت الزيارات والتهاني والتمنيات، أحسّ ببعض الانزعاج وشعر بالحاجة الى أن يخرج ويمشي.

فأذن له رئيس الدير بالانفراد لفترة قصيرة في الحقول. ان جزيرة خيوس جميلة بكاملها: ان على الشاطئ أو في الداخل. ان الشواطئ جميلة وكثيرة الوعورة، أما في الداخل فتتوالى باقات من الأشجار فوق التلال. كان الوقت بعد الظهر، بعد صلاة الغروب. واختار نكتاريوس المشي في وسط الأراضي. ودون أن يشعر مشى ببطء مسافة أربعة كيلومترات وهو يتأمل غروب الشمس في الأفق. كان النور يتضاءل شيئاً فشيئاً، والصمت ينزل ويغلّف المشهد كله، بمثابة بركة من السماء. وأحسّ نكتاريوس بفرح عظيم في هذه اللحظة السرية من هبوط الليل، فبكى مجدداً من الفرح والامتنان وصلّى هكذا:

-"بعد وقت قصير يا رب تشرق شمسك من جديد. اني أحمدك وأشكرك من كل قلبي. لا تتركني أبداً، أنا عبدك. ولا حتى للحظة قصيرة. والا فكيف أعيش من دونك؟ ولماذا أعيش؟ لا تدعني أفكر ولا للحظة واحدة أنني صرت على شيء من الأهمية. وعندما يخطئ اخوتي الناس من حولي، فلتكن لهم هذه الجبّة مثل ذراعيّ الأم التي تهدّئ الأحزان وتؤتي الطمأنينة والسلام."

* * * * *

الا أن أحداً يصرخ في هذه اللحظة على سطح الباخرة باللغة الانكليزية. ثم يهب الهواء، ويتغيّر لون البحر...

كم كان يتمنى لو أنه يقوم بهذه الرحلة في ظروف أخرى! توقف سيل أفكاره ونهض مضطرباً: لم يكن أحد من حوله سوى شاب وفتاة يتهامسان بحنان على بعد أمتار منه، وفكّر:
-"هذا أفضل."

ورسم من جديد اشارة الصليب، ثم سار على طول سطح السفينة مرتين أو ثلاثاً ليتنشّط. ثم عاد الى الجلوس ووضع في فمه الجاف المرّ الطعم قطعة من السكر. ما أجمل البحر في هذه الساعة: أبيض في بعض الأماكن وأخضر في أماكن أخرى، وأزرق في الأماكن البعيدة العميقة...

"ما أعظم أعمالك يا رب".

ونهض نكتاريوس من جديد ونظر الى بعيد. ثم فكر بالنزول الى صالون الباخرة ليطلب فنجان قهوة، الا أن أصوات المسافرين الذين يلهون برفقة الساحر ما زالت تصل الى أذنيه. فعاد الى الاستلقاء على كرسيه الطويل. يا ليته ينسى كل شيء وينام نوماً عميقاً يهدهده ترنّح السفينة. لكنه عجز عن النوم. فقد لاحقته ذكريات سنوات شبابه، وأجبرته على أن يتذوّق في نفسه من جديد الساعات المثمرة أو الصعبة التي مرّ بها: وكانت تلك على الأقل طريقة "لاعادة النظر في حياته ولتنقية ذاته".

كم كانت جميلة تلك الفترة، فترة الفقر والبساطة، التي قضاها هناك في خيوس... لكن من النادر جداً أن يستطيع المرء الاحتفاظ بالأوقات

الجميلة في حياته حتى يتمتع بها. فانتظاره القلـــق وانشغالاته الدائمـــة، كـــل ذلك يجعله ينسى طعم الحاضر الذهبي المفعم بالمعاني، ويمحوه...

في خيوس... في خيوس جزيرة المجزرة، الجزيرة الشهيدة التي لـــم ينطفئ فيها نور الأرثوذكسية ولا للحظة واحدة على الاطلاق.

الفصل العاشر

+ (ار ٢٠ : ٧) "قد خدعتني يا رب فانخدعت. ألححت عليّ فغلبت. صرت ضحكة كل النهار فكل واحد يستهزئ بي".

+ (مر ٩ : ١٢) "فأجاب وقال لهم ان ايليا يأتي أولاً ويرد كل شيء. وكيف هو مكتوب عن ابن الانسان أن يتألم كثيراً ويرذل".

في خيوس تدبرت كل الامور تدريجياً نحو الافضل. فبعد سيامته بأيام، وبعد صلاة الغروب، أرسل المتروبوليت غريغوريوس في طلبه. كان غريغوريوس شيخاً طيب القلب، وأستاذاً في النسك. وقد جلس الى جانبه رجل ضاحك الوجه، متوسط العمر، ذو لحية صغيرة غزاها الشيب، أنيق الملبس، ويضع فوق سترته ساعة ذهبية.

فقال المتروبوليت :
-"نكتاريوس، أقدم لك السيد جان، من نبلاء القوم. انه محسن عظيم، وابن محبوب لكنيستنا: السيد جان خوريميس ".

وبطبيعة الحال، كان نكتاريوس يعرف الرجل، فقد سمع عنه الكثير، وقابله مرتين أو ثلاثاً في بعض الأعياد الليتورجية الكبيرة، فصنع له مطانية.
وقال المتروبوليت :
-"اقترب يا نكتاريوس، اقترب. انه يودّ التعرف اليك وسماع قصة حياتك منك أنت. اعتقد أن بامكانك الوثوق به تماماً، ودون خوف".

فشعر نكتاريوس بالخجل، واحمرّ وجهه قليلا. وجلس بقرب الوجيه الذي بدأ يطرح عليه بعض الأسئلة بصوت عذب وبطيء : أين ولد؟ وكيف كانت بدايته في الحياة؟ وكيف وصل الى جزيرتهم؟ ثم قال له:
-"لقد علمتُ أنك تتفوق في الحياة النسكية والصلاة والثقافة العامة."
واحمرّ وجه نكتاريوس أكثر فأكثر. وقال:
-"أشكرك، أشكرك ".

ثم استجمع قواه وبدأ يروي قصة رحيله من سيليفريا مشفوعاً بتمنيات أمه، وحاملاً معه صرته الصغيرة وفقره...
-"وقد شاء الله يا سيدي أن يتعطل محرك السفينة ، وان تعجز عن الانطلاق. فأشفق عليّ القبطان وسمح لي بالصعود. لكني فيما بعد، وعند التدقيق في التذاكر، وجدت نفسي من جديد في موقف حرج: اذ كان القبطان قد انسحب الى غرفته ليستريح، ولم يكن المدقّق يعرف القصة... فكان يأمرني بدفع ثمن تذكرة السفر. وكنت أقول له بأني لا أملك المال... لكن هنا أيضاً لم يتخلّ الرب عني، بل أرسل اليّ شابا فاضلاً، طويل القامة، وبعد أن سمع قصتي سارع الى دفع ثمن تذكرتي... لكن، ماذا يحصل لك يا سيدي؟ ولماذا تبكي؟"

كان خوريميس يغطّي وجهه بيديه ويتابع بكاءه. فاستولى القلق على غريغوريوس الذي نهض واقترب منه. وبعد لحظات صرخ خوريميس:
-"يا ولدي، لماذا لم ألتقِ بك قبل الآن؟ أية مصادفة هذه! أهو أنت ذلك الولد الصغير الذي رحل وحده من سيليفريا حتى يعمل ويدرس؟ ان الرجل الذي تتكلم عنه هو ابن أختي، وقد أخبرني بالقصة فتأثرت كثيرا. ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث عنك. ليتمجّد الرب! الى الأمام اذن! أطلب من قداسة المطران الاذن والبركة وسافر بسرعة الى أثينا لمتابعة دروسك. وسوف أغطّي بنفسي حاجاتك كلها ".

يا الله ، كيف يجد الكلمات للتعبير عن الامتنان الذي يملأ قلبه ؟

ووجد نكتاريوس نفسه من جديد على متن باخرة تشق بحر ايجه. دائما الى مكان أبعد... وتسنّى له اكتشاف العاصمة: مدينة الفلاسفة التي أصبحت بعد قرون من التاريخ مجرّد قرية كبيرة، أو نواة مدينة.

ونزل في مرفأ البيريه وقد سيطر عليه الحماس لفكرة متابعة دروسه. وكلما ازداد حماسه كلما اتسعت الامكانيات! كان كل شئ يسير نحو الأفضل. فمنذ نزوله في المرفأ وحماية خوريميس تتبعه أينما حلّ، كالملاك الحارس. منذ خمسة عشر قرناً وصل الى هنا باسيليوس وغريغوريوس لمتابعة علومهما في الأكاديمية المجيدة. كان يقفز من الفرح! لم تكن كل الأمور رائعة في المدينة، الا أن وجوده فيها كان من دون شك نعمة الهية.

كانت أثينا له المدرسة الثانوية والدراسة والقداس الالهي وحسب. ولم يكن يشعر بمرور الوقت. ولم ينتبه مرة الى الشوارع الضاجّة بالحركة، ولا الى القصر الملكي والسيارات والمقاهي والصحافيين والنوّاب...

ومرت السنوات: فاكتسب بعض العلاقات في الأوساط الاكليريكية، والتقى بعدد قليل جدا من الناس، وأمضى عطلاته الصيفية في خيوس ثم حصل على شهادته. وكان السيد خوريميس في غاية الرضا عن نتائجه. فأرسله الى الاسكندرية ليقدّمه الى البطريرك الذي كان من اصدقائه. واستقل نكتاريوس الباخرة من جديد. دائماً الى مكان أبعد... نحو أراضي الجنوب!

كان صفرونيوس في هذا الوقت شيخاً جليلاً يقارب الثمانين من العمر. وقد عمل بنجاح في البطريركية المسكونية في القسطنطينية لثلاث سنوات. ثم اضطرته أحداث البلقان المأساوية الى الاستقالة. وتبوّأ الكرسي البطريركي في الاسكندرية عام ١٨٧٠. وكان يؤدي جميع مهامه رغم تقدمه في السن. وما أن سجد أمامه نكتاريوس حتى نظر اليه بعين الرضا، وبعد وقت قليل جعله ذراعه الايمن. لقد كان هكذا: إما والداً حنوناً، أو انه يقفل بابه ولا يعود يفتحه أبداً.

وما أن استمع الى نكتاريوس حتى قال له :
-"عد الى أثينا وتسجل في الجامعة، وسوف نعطيك رسالة تعريف فتساعدك السلطات الاكليريكية المحلية. لا تبتعد عن الطريق التي رسمتها بنفسك: أي النسك والصلاة. وسيبارك الرب طريقك حتى النهاية. ابتعد عن أهل العالم وعن الاخوة الكذبة ".

وعلى الأثر ترك نكتاريوس الاسكندرية عائداً الى البيريه، ومنها الى ديره في خيوس. وكان رئيسه الأب نيسيفوروس – ليتقبّل الرب روحه – بمثابة أب صارم وعادل. وقد وافق على فكرة البطريرك، وسمح لنكتاريوس بمتابعة دراساته الجامعية. وما زالت بحوزته تلك الرسالة التي يحملها بين أمتعته:

"لقد أعطي الاذن للشماس نكتاريوس كيفالاس، الراهب في " الدير الجديد"، للذهاب الى أثينا ومتابعة دروسه الجامعية. نوصي به رؤساءه لكونه رجلاً تقياً، فاضلاً، مسيحي الأخلاق..."

وعاد من جديد الى الدراسة في مدينة بالاس القديمة. الا انه أصيب بحزن كبير في خضم هذه التنقلات الكثيرة: كان خوريميس المحسن اليه قد فارق الحياة. وقد آلمه كثيرا موت هذا الرجل: لقد كان خوريميس هو الآخر ولداً فقيراً ألقي به في هذا العالم الواسع ليناضل من أجل الحياة: وقد لقي الأشواك والنباتات السامة أينما حلّ، ولكنه وجد أيضا بعض الورود العطرة هنا وهناك.

أمضى نكتاريوس ليلة كاملة في كنيسة صغيرة في لوكابيت، صلّى خلالها من أجل راحة نفس خادم الرب جان، صاحب النفس النبيلة، ذلك المحب لوطنه وابن الكنيسة.

وهنا أيضا لم يتخلّ عنه الرب الرحيم، الذي نتساءل دائماً عندما نفكر برحمته، لمَ يحبّ جميع الناس الى هذا الحد: الأشرار منهم والصالحين.

وفي الوقت الذي أحسّ نكتاريوس بأنه مرغم على الاستجداء من صفرونيوس كل المال الذي يلزمه، وجد في نفسه الجرأة الكافية للاشتراك في مباراة جامعية، فحصل على منحة دراسية: مئة دراخما (قديمة) بالشهر، كانت كافية لمتابعة دروسه وانهائها بسهولة.

وحدها حكمة الله هي التي تغني الانسان حقا وتقرّبه من الروائع الروحية الى أن يصبح مبدعاً وفناناً. ولكن اليونان كانت معروفة بتقاليدها التقوية وتاريخها العريق. وقد حاول نكتاريوس في دراسته أن يتعرّف قليلا الى شعب هذا البلد الحرّ: فلم يجد الا الظلم والفوضى في كل مكان. فالكنيسة المجاهدة كانت قد تلقت ضربة قاتلة على عهد فارماكيدس*.

* ولد فارماكيدس ثيوكليطوس (١٧٨٤ — ١٨٦٠) في تسّاليا في اليونان. وتابع دروسه في المدرسة البطريركية في القسطنطينية، ثم في بوخارست حيث سيم كاهنا. درس اللغات اللاتينية والفرنسية والألمانية. وتابع دروسه اللاهوتية في ألمانيا. وبعودته الى اليونان عام ١٨٢١ عمل بنشاط في "مخطط اعادة تنظيم الكنيسة". وكان أحد اكثر المتحمسين للكنيسة اليونانية المستقلة (autocéphale). وتمّ الانفصال في العام ١٨٣٣، واستقلال الكنيسة سنة ١٨٥٠ .وقد آلم هذا الانفصال عن بطريركية القسطنطينية نكتاريوس لاسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن.

خلال السنوات الصعبة، كانت أنظار الاكليروس قد اتجـــهت نحــو الأرض والوحل. وراحت العادات تتغير قليلا مع مرور الســـنين. وتوقــف رجال الاكليروس عن الاضطلاع بدورهم كمرشـــدين للشــعب، ومنــيرين لطريقه، وعاضدين له في وقت الشدائد. وشيئاً فشيئاً بـــدأوا يســتقرون فــي "مهنتهم" داخل اطار من الرتابة والروح السلطوية.

وفهم هذا الشعب الذكي والغني بتاريخه الطويل، فهم بــالغريزة مــا يحدث، الا أنه كان مقيداً من قبل السياســيين والديمــاغوجيين والمثقفيــن... فالتجأ الى الهجاء والسخرية. انها لمصيبة كبرى أن تصبح الأسرار المقدســة عرضة لتعيير الالحاد ومدعاة للسخرية!

*   *   *   *   *

وكانت الحياة صعبة جداً في أثينا في تلك الحقبة من الزمن. وكثــيراً ما كان نكتاريوس يتخلى عن طعامه لانقاذ أحد أولئك الذين مــات "الكلمــة" لأجلهم، الذين كان يراهم من حوله، يضنيهم البؤس والشقاء. ما زال يذكــر أرملة شابة من كاريستوس كانت قد فقدت ولدها الوحيد وأصيبت بالجنون من الألم واليأس. وصارت تهيم في شوارع أثينا عارية القدمين، منبوشة الشــعر، تحمل على وجهها المرارة والوجع. كان منظرها مؤثراً جداً، يفتت القلــوب. ورغم ذلك فقد تعب نكتاريوس كثيرا لاقناع بعض من رفاقه فـــي الدراســة باقتطاع جزء صغير من طعامهم لانقاذ هذه المسكينة. وكان يقول لهم :

-"انها مشيئة الله يا رفاقي الأعزاء، انها مشيئة الله ".

فتجرّأ احدهم وأجاب بوقاحة (وقد أصبح فيما بعد متروبوليتاً) :

-"وهل هذه مشيئة الله ان أؤذي صحتي وأحرم نفسي، وأعاني مــن الجــوع لكي أنزع نقطة ماء واحدة من محيط البؤس هذا الذي يحيط بنا ؟"

فنظر اليه نكتاريوس باندهاش، ويذكر انه ردّ عليه بالقول :

-"ان كل ما يؤدي الى تحقيق أحلامنا والوصول الى أهدافنا البشرية يعــزّز ارادتنا الشخصية. فهل طموحنا مثلا بتعليم الايمان المسيحي، هو مشيئة الله؟"

فأجاب أحدهم :

-"بالتأكيد.

-"آه... لا نعرف. اننا باشرنا هذا العمل برأينا الخاص، وارادتنا، واختيارنا".

ومن الممكن جداً أن تكون هذه المحادثة قد أتت ثمارها الايجابية. ومن ثم برز في هذا الجو الروحي الموحل، مثقف علماني غيور، وعارف معرفة واسعة بالكتاب المقدس: هو أبولستوس ماكراكيس. وقد كرّس حياته بكاملها ونشاطه كله لتخليص الكنيسة اليونانية من السموم وتطهيرها. فهاجم بكل قواه عبر كتاباته وخطاباته البليغة، التيار السيموني*، والتجمعات السرّية الماسونية، وجميع النظريات المادية التي كانت مستشرية في الجامعة. ولكنه تمادى للأسف في اعتقاداته حول ماهية النفس، كما عمل أيضا في الحقل السياسي. وقد رغب نكتاريوس كثيرا في لقاء هذا الرجل لكن الفرصة لم تسنح له أبدا. فكان يقرأ كتبه ومقالاته، ورغم انه كان يخالفه الرأي في بعض مواقفه المتطرفة، (وقد شرح ذلك بوضوح في احدى دراساته)، فكان يجد فيه بسالة جنود المسيح. وفي النهاية، وعندما اختلف المجمع المقدس مع ماكراكيس حول ماهية النفس، رأى نكتاريوس أن واجبه ككاهن يملي عليه الطاعة "للأقدمين"، فتوقف عن الاهتمام بماكراكيس.

وقد كانت لحياته الطالبية أوقاتها الحلوة أيضا: فهو يتذكر تلك النزهة التي قام بها مع اثنين أو ثلاثة من زملائه في فاليريا، في يوم مشمس. وقد تشاركوا في دفع مصاريف ايجار عربة حصان، وذهبوا الى شواطئ تسالونيكي حيث تأملوا بانشراح كبير بساطة الطبيعة، وشمس أتيكي الشقراء والمياه الزرقاء. وكثيراً ما كانوا في أمسيات مماثلة ينشدون ترنيمة الغروب الظافرة:" يا نوراً بهياً لقدس مجد الآب... " بقلب فرح أمام المحسن الكبير. وكم وكم من الذكريات الأخرى...

في النهاية كل شيء يمرّ ويزول، فلا يبقى الا ظلّ الذكرى. وفي نهاية تلك الأعوام حصل نكتاريوس على شهادته. انّ كل ما نبتغيه يفقد معناه، ويصبح باهتاً عندما نحصل عليه. كل شيء يصبح باهتاً ويترك فراغاً في النفس، الا اذا بقينا في المكان الذي أراده الله لنا. فاذا كان مبتغانا في الموطن الأبدي اذ ذاك يبرز في حياتنا لون جديد: اخضرار الأمل.

حمل نكتاريوس شهادته واستقلّ الباخرة من جديد عائداً الى الاسكندرية حيث استقبله البطريرك فاتحا ذراعيه.

---

* نسبة الى سيمون الساحر.

حتى ذلك الحين كانت العناية الالهية تنير حياته كالشمس، وكان قلبه يفيض بالامتنان. كل ذلك كان كالديون التي تتراكم عليه...

"الحصاد كثير وأما الفعلة فقليلون."

لم يكن ينسب الى نفسه شيئا. لا شيء على الاطلاق: فكل ذلك من نعم الله، ومن الكنيسة الارثوذكسية الشهيدة. ولكي لا ينسى ذلك أبداً، ولا يدخل المجد الباطل قلبه من ثغرة ما، فقد أحضر قطعة من الكرتون الأبيض السميك وكتب عليها بحروف جميلة تاريخ رحيله من سيليفريا يوم كان صغير السن لا يملك قرشاً واحداً.

وقد أعلن له البطريرك مرات عدة :
-"يا نكتاريوس، ان بطريركية الاسكندرية تعتبرك واحداً من أكثر عناصرها الذين يُتوقع لهم المستقبل الباهر. وأنت منذ الآن جاهز يا بنيّ".

وكان يردّ :
"-سأكون ممتناً لك على الدوام".

واليوم أيضا، ما زال شعوره هو نفسه.

* * * * *

وقد سامه البطريرك بنفسه كاهناً في كنيسة القديس سابا البطريركية، بكثير من الأبهة وبكل روعة الليتورجيا البيزنطية: كان ذلك نهار أحد، وقبل يومين من عيد البشارة، منذ أربع سنوات (١٨٩٦)... وكانت الكنيسة مكتظة لدرجة انه لم يعد هناك مكان لعصفور صغير. ورداً على كلمات البطريرك المليئة بالاطراء، أجاب نكتاريوس بهدوء وبتأثر ودون تصنع، متكلماً عن مثل الزارع: فقد قدّمه صفرونيوس خلال سيامته على أنه زارع للكلمة الالهية. الا ان الشفتين الكليتي القداسة قد قارنتا الكلمة الالهية في هذا المثل البديع بحبّة القمح، دون أن يكون هناك شبه مادي بالطبع لأن الكلمة هي روح، فهي تنتقل كالروح. ولكن لها بعض صفات حبّة القمح. فان حبّة القمح شيء لا أهمية له، ويمكن أن يسحقها أصغر وزن. انه الأمر بالنسبة الى الكلمة الالهية الصغيرة جداً ظاهرياً، والتي لا أهمية لها

على شفتي الكاهن، ويحتقرها دائماً كبار هذا العالم. أما اذا وقعت حبّة القمح في الأرض الجيدة، فانها تتحلل وتموت. وبعد ذلك تعود الى الحياة وتنبت بقوة لا مثيل لها، وتخترق التراب لتزهر وتعطي ثمراً قد يصل الى المئة. وهكذا وبدرجة أكبر بكثير، تخرج الكلمة الالهية من شفتي الكاهن أو الراهب أو المؤمن المندفع، وتقع في قلوب البشر. لكن ليس كل قلب بشري كالأرض الجيدة. فبعضها محجر أو مليء بالأشواك، والبعض الآخر متسمّم. آه لو كلنا نستطيع ان نصبح أرضاً خصبة!

هذه الأرض الجيدة هي مباركة جداً! سرّها هو الصبر، الصبر الممتزج بالاتضاع... "الصبر، ذلك السماد المحيي، التبرير الذي لا يناقَض ابداً، الاكليل الأبدي ".

وبعد أن اصبح كاهناً، واعظاً، وأباً روحياً، تلقى بعد خمسة أشهر رتبة الارشمندريت من يدي متروبوليت النوبة في كنيسة القديس نيقولاوس بالقاهرة. وأعطي حالا مسؤوليات الواعظ وأمين السر البطريركي في القاهرة. وبعد شهرين عُيّن مدبّراً ادارياً للبطريركية.

فهل أربكه هذا الارتقاء في السلك الاكليريكي، وهذا المجد الغير المنتظر؟ خلال كل هذه الفترة، حافظ على الصوم الكامل مساء كل ليلة، فلم يكن يأكل أو يشرب على الاطلاق، بغية درء سهام الشرير المحمّاة. كان يتلو بتقوى، جاثياً على ركبتيه، قانون أندراوس الكريتي، ويصلي لينال الحكمة والمعونة الالهية.

اذ ذاك بدأ يعرف الشعب، وصادف لديه حالا المصائب والألم، وانحنى نحو تلك الصحراء المحترقة ليحمل اليها بعض الطراوة. عمل بجهد في حقل الرب ليزرع الكلمة الالهية. كما عمل بجهد لتجميل الكنيسة البطريركية العائدة لشفيع البحارين المتواضع، القديس نيقولاوس، المعروف بعجائبه الكثيرة في البحار. وقد أحضر أفضل فنان في رسم الأيقونات ليرسم الانجيليين الأربعة، والأنبياء، والمخلص، والعذراء المجيدة مريم، والثالوث القدوس الكلي التسبيح. كم قام بمساع وخطوات، وأتعاب وتوسلات، لجمع التبرعات.

"تبارك الله في قديسيه ".

بعد أشهر من العمل الجاد، وفي الخامس عشر من كانون الأول من العام ١٨٨٩، أتت الترقية الأرفع لتطرق باب نفسه: لقد انتُخب أسقفاً.

لم يكن ذلك قد خطر بباله مرةً، ولم يطلبه ابداً. ولم يكن ينتظره. لكن الأحداث في مصر تتابعت بسرعة كبيرة: العمل والمسؤوليات والأمجاد... فجأة رقد نيلوس متروبوليت المدن الخمس، فاختار البطريرك صفرونيوس نكتاريوس، مفضّلاً اياه على اثنين آخرين من المرشحين لهذا المنصب.

وقد سيم متروبوليتاً للمدن الخمس في كنيسة القديس نيقولاوس نفسها مع كل ما تتضمنه الليتورجيا البيزنطية من الروعة، على يد البطريرك، وبرفقة انطونيوس متروبوليت كورفو السابق، وبورفيريوس متروبوليت سيناء. هذا ولا يمكن أن تـُمحى وثائق ذلك الانتخاب والتنصيب.

وتذكر نكتاريوس كم كان جاف الحلق، وكم ارتعدت شفتاه في ذلك الأحد، خلال تلك الخدمة الليتورجية التي لا تـُنسى، والتي احتـُفل بها بكل الأبهة البطريركية. وكيف انه وقف أمام الباب الملوكي يعترف بالايمان الأرثوذكسي:

"برحمة الله،
أنا نكتاريوس، المتقدم الى كرسيّ المدن الخمس المقدس، أوقع بيدي..."

لقد رُقي الى الكرامة الأسمى، والدرجة الروحية العليا. فألبس التاج والحلة الأسقفية، وبدأ مهمة جديدة.

لكن كيف أحبه الشعب الى هذا الحد، وتعرّف اليه بهذه السرعة؟ لقد ذاع صيته في المدينة كلها. هذا الصيت الخطير والمدمّر: من هو لكي يحبه الناس بهذه القوة، ويتكلموا عنه بهذا المقدار؟ "ما الانسان الا نفخة تمرّ ولا تعود".

أما بالنسبة اليه، هو التافه، المأخوذ من التراب، الذي أغدق عليه الرب المخلـّص اعظم الخيرات، فأية مصيبة تحلّ به اذا نسي مَن يكون،

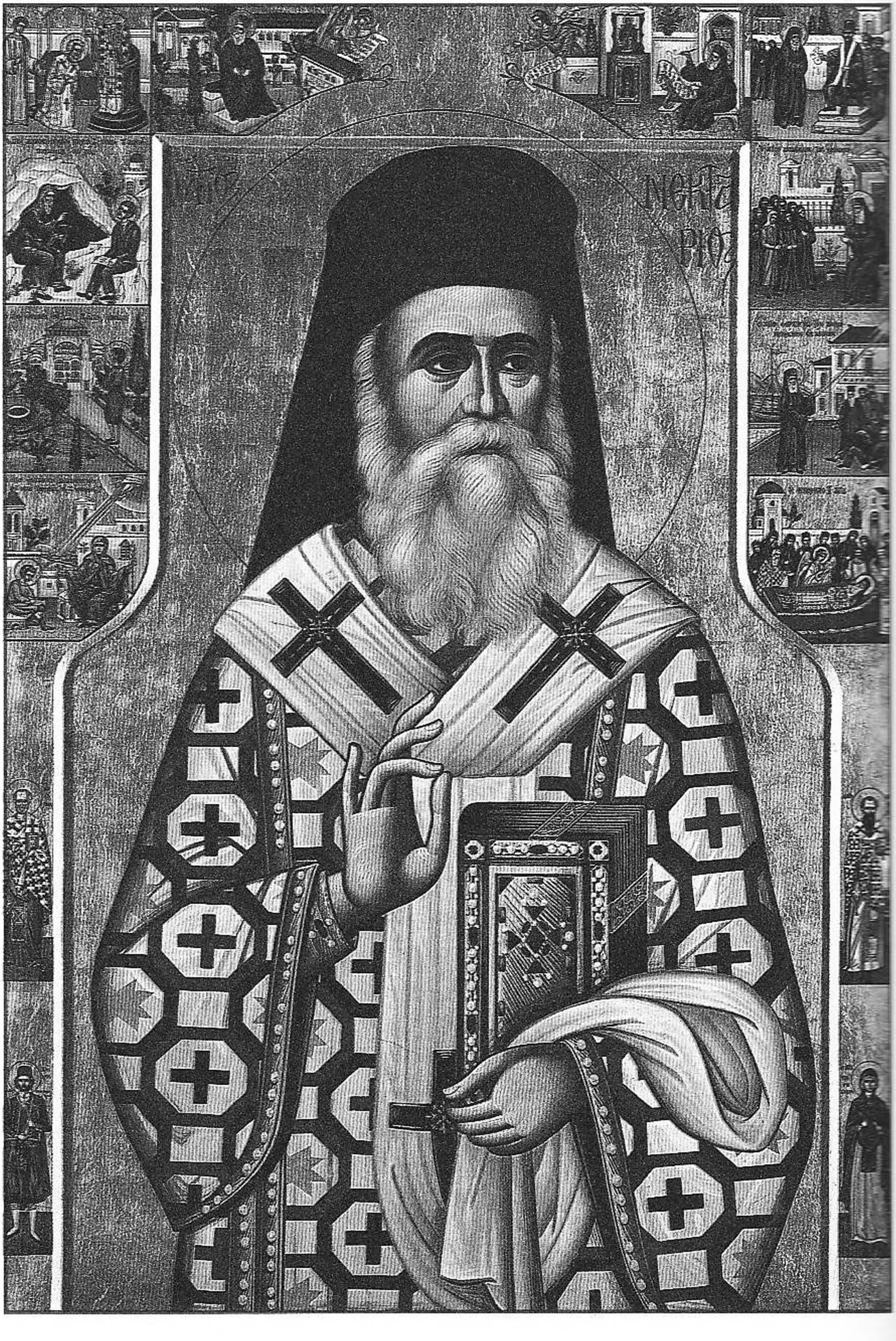
ΝΕΚΤΑ
ΡΙΟΣ

أو أخل بوعده، أو نام على أمجاده ورضي بمغريات العالم؟ "كان الأفضل له الا يولد".

وتعاظم صيته، وكان ذلك مثل السم الذي يلسعه كالسوط. لقد كان من عادة والده الفلاح، العامل البسيط من سيليفريا، أن يقول له:
–"يا بني، اني أفضّل أن أكون حبة قمح بدل حجر من الماس".

وكان الأولاد يجيبونه :
–"ماذا نقول يا أبي؟ نحن نريد ان نكون أحجاراً من الماس!"

ولكن الوالد كان يجيبهم مبتسماً هو أيضا كالأطفال:
–"يا خرافي الصغار، ان الذي يتسلق الجبل ويرتفع ويبني، يحدث ضجة، شاء ذلك ام أبى. فتأتيه عندها البركات واللعنات".

البركات واللعنات! لقد كنت على حق يا أبي: انظر اليّ الآن، اني مسافر الى المنفى.

لقد بقي صامتاً من الدهشة في وجه الافتراءات، رغم انه طُرد، وشُتم، واحتُقر. وها هو الآن في طريقه الى أثينا، الى اليونان القديمة عاصمة بالاس، التي تعاني من وطأة السياسيين والمثقفين. كان مفلساً، يحمل حقيبتين او ثلاثاً، ومجموعة من المخطوطات التي تنتظر الناشر، وبعض الكتب، وقلبه المتألم.

في السماء طائر يطير عالياً: أهو نسر؟

ودون أن يفكر، نهض نكتاريوس من كرسيه وفتح يديه مصلياً: "يا أبتاه اغفر لهم هذه الخطيئة. أنر عقولهم ليعودوا الى أنفسهم ويعترفوا بخطاياهم، وينالوا الغفران الذي منحتنا اياه بدمك الثمين. وخصوصاً ايها الأب الكثير الرحمة، اغفر للبطريرك: فهو شيخ وقد تعرّض للخدعة. وكثيرة هي المسؤوليات التي ترهق كتفيه الضعيفتين! في جميع الأحوال يجب أن أحفظ جميله الى الأبد". واذ أنهى صلاته تبيّن له باندهاش أن المركب قد ترك المحيط الليبي وهو يقترب من الأتيكي. وسمع صوتاً دافئاً يقول له:
–"يا صاحب السيادة، ان القبطان يدعوك الى مكتبه لتناول المانغا، فقد فتح الصندوق لتوّه."

فاستدار نكتاريوس متعجّباً، ورأى رئيس الخدم بلباسه الجميل. وتمتم:
–"يا الهي، لقد نسيت أين أنا. ماذا حصل لي؟... انها الذكريـــات، همســات الماضـي!"

وأجاب رئيس الخدم قائلاً:
–"أشكرك يا ولدي. أنقل امتناني الى القبطان، ولكني أفضّـــل الـــنزول الـــى حجرتي. أين نحن الآن ؟
–"في بحر ايجه.
–"في بحر ايجه! ان الطقس جميل. ليتمجّد الرب!"

فسأله الشاب باندهاش :
–"لقد بقيتَ وحيداً لساعات طويلة... ألا تشعر بالبرد ؟
–"لا أعتقد، قال نكتاريوس. لا بأس، لا بأس على كل حال".

ونظر الى الشاب بحنان، واستطاع أخيراً أن يبتسم!

الجزء الثاني

الفصل الأول

+ (ار ٢٠: ١٠):"قد سمعت مذمة من كثيرين والهول أحاط بي. يقولون اشتكوا فنشتكي عليه. كل من أصحاب سلامي والملازمين لجانبي يقول لعله يخدع فنقوى عليه وننتقم منه".

+(مر ١١ :٢٥) "ومتى قمتم لتصلوا فان كان لكم على احد شيء فاغفروا له لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السماوات زلاتكم".

تأخرت الأمسية ونحن في أواسط الخريف. في مكان ما عند أبواب أثينا، وفي حيّ يكاد يكون مقفراً، كان هناك راهب يسير باتجاه غرغاريتا، بقرب صخرة فيلوبابوس. كانت عاصفة كبيرة قد غرّقت المدينة بالمياه، فتحوّلت الحقول المجاورة إلى مستنقعات من الوحل.

كان الراهب يتقدم بخطى منتظمة، رافعاً جبّته، بينما كان حذاؤه الضخم يغرق في الوحل السميك. ثم استدار وراح يقطع حقولاً مليئة بالأوساخ. وبعدها دخل في حقول من القمح، ثم مرّ أمام بعض من المنازل المنخفضة القليلة، مفتشاً عن رقم ما على احد الأبواب. أخيراً توقف إلى الجهة اليمنى، ونظر إلى حذائه الموحل، ثم هزّه مرات عدة ليسقط عنه الوحل. واقترب من باب بنيّ ودق عليه بالمطرقة.

وفي الحال فتحت له الباب امرأة عجوز، وقبل أن يتفوّه بكلمة، أشارت اليه باتجاه سلّم خشبي يقود إلى ممّر مزجّج حيث توجد غرفة. وفكرت المرأة العجوز:

-"إن رجلا يرتدي جبّة سوداء لا يمكن أن يأتي الى هنا الا لرؤيته هو، المطران المنفي...!"

فقال الراهب:

-"شكراً". متجنباً كل كلمة زائدة مع امرأة، حتى ولو كانت عجوزاً. وتقدم وهو يمسح حذاءه الموحل مرات عدة على الحصيرة. وصعد السلّم وطرق باب الغرفة. ثم انحنى ليقبل يد الأسقف قائلاً:

-"صاحب السيادة".

فقال نكتاريوس:

-"هذا أنت يا سيناسيوس؟ منذ متى أنت هنا؟

-"منذ أسبوعين.
-"مضى عليك أسبوعان هنا، والآن تأتي لزيارتي؟ أأنت أيضاً تتجنب لقائي؟
-"أنت تعرف كم أن المشاغل كثيرة يا سيدي، والمواعيد... مضى عليّ يومان لم أنم خلالهما ساعة واحدة. وقد خارت قوّتي.
-"هل كنت في الاسكندرية أم في سيناء؟
-"في سيناء".

وتلا ذلك صمت طويل. ثم قال نكتاريوس:
-"لا بدّ انهم أطلعوك على كل ما جرى، بما انك اكتشفت مخبأي".

فأجاب الراهب:
-"لقد علمت بكل شيء، ولست أجد ما أقول لك: لقد توقف قلبي عن الخفقان. انه الحسد يا سيدي، الحسد... ان رئيس ديرنا يقول بكثير من الحكمة: ان الحسد تاج الشيطان وصولجانه".
-"ليتمجد اسم الرب".
-"لقد ضاع صوابهم يا صاحب السيادة بسبب قدراتك وجدارتك. فقد استنفدت قواك في خدمة العرش البطريركي. ولو أنك بقيت في مصر لأصبحت الآن حتماً بطريركاً. لأن الاكليروس والشعب كانوا رفعوا الصوت عالياً، وقلبوا الأمور لصالحك رأساً على عقب. وهذا ما يحصل في الوقت الحاضر على كل حال، وجميع الشعب يتكلم عن ذلك.
-"لم أفكر أبداً بكل هذا يا سيناسيوس، أؤكد لك. وأنا اصلّي ليل نهار من اجل صفرونيوس.
-"رغم كل المرارة التي تجرّعتها بسبب عناده الناتج عن الشيخوخة!"
-"المجد لله على كل شيء".

وتابع الراهب:
-"لقد خطرت لي فكرة. أرجو أن تسامحني عليها سلفاً، وألا تخبر بها أحداً: ان صفرونيوس محتال، انه عجوز ماكر. وهو يعرف انك لا تلام على شيء، وهو على علم تام بفضيلتك، لذلك اشك كثيراً بأنه قد خُدع من قبل هؤلاء المتآمرين: لا بد انه علم برغبات الشعب، وخشي أن ترتقي العرش قبل موته...
-"هذا غير معقول!
-"في هذا الوقت يتابع موظفو البطريركية حَبك المؤامرات ضدك، وإشاعة الفظاعات حولك إلى درجة انهم سوف يدمرونك كلياً".

وتعجّب نكتاريوس:

-"هذا غريب! ألا يكفيهم أني تركت مصر وتوقفت عن تأدية مـــهامي كأســقف البطريركية؟ وماذا سيفعلون أسوأ من ذلك؟
-"انهم خائفون يا سيدي. يخافون أن تعود يوماً. ويخافون غضب الشعب. أنــت تعرفهم جيداً: انهم حقيرون، عاجزون، غريبون عن الفضيلة. لم يحـــلّ عليـــهم النور الإلهي ولا النعمة المشعّة. ولهذا تجدهم يعملون ليل نهار بهدف إقصــائك عن الكنيسة الأرثوذكسية. أنصحك باتخاذ الحذر، والاحتماء.
-"وماذا افعل؟"

فقال الراهب:
-"اكتب الى صفرونيوس، احتجّ على ما حلّ بك، وسَله كيف ولماذا طردك دون سبب، ودون أن يسمح لك بالدفاع عن نفسك، ودون حكـــم اكلـــيركي؟ ولمـــاذا جرّدك من لقب متروبوليت؟ رغم أن انتخابك وتنصيبك مسجلان فـــي القـــانون البطريركي. هل أعطاك تعويضاً مالياً على الأقل؟
-" لم احصل على شيء منذ تنصيبي.
-"لماذا؟
-'كانوا في كل مرة يتحدثون عن الصعوبـــــات الماديـــة التـــي تعـــاني منـــها البطريركية، ويؤجلون الدفع إلى موعد لاحق.
-"آه، لا ، كم تتألم! أني أرى... أن ثيابك رثّـة... وافهم كيف التجأت الى هـــذا المكان البعيد... لقد عانيتُ مصاعب كثيرة حتى أجدك.
-"ليتمجّد الرب. لقد وجدتُ هذا المأوى لقاء بدل ايجار زهيد جداً. ومع هذا فاني مدين بشهرين لصاحبته. أن شقيقها على علاقة قرابة مع راسم الأيقونات الـــذي زيّن كنيسة القاهرة...
-"وما رأي متروبوليت أثينا؟ هل أنكرك هو الآخر؟
-"لا لم ينكرني.
-"هل يرغب باعطائك منصباً ما؟ لان هذا من مصلحته.
-"أني لست ألوم الأسقف جرمانوس على الاطلاق. فكما تعلـــم هنـــاك أيضـــاً المجمع المقدس. وقد عرفت أن أعداءه هنا كثيرون. ومن ناحية أخـــرى فـــهو يعتبر أنني أعبر في هذا المكان، وكأني مسافر. كما أن جرمـــانوس يســـاعدني كثيراً رغم مشاغله العديدة. وخصوصاً انه يعهد الـــيّ باقامـــة بعـــض الخـــدم الليتورجية، ولكن هذا نادر جداً.
-"اسمح لي يا صاحب السيادة، أنا الراهب المتواضع، بان أهبك شيئاً صغـــيراً جداً بالمقارنة مع ما فعلته لأجلي عندما أدخلتني إلى سيناء... انه مبلغ صغـــير استطعت أن ادّخره من مصاريف تنقلاتي. لا ترفضه أرجوك".

فهبّ نكتاريوس واقفاً في لحظة، وامتلأت عيناه بالدموع:

-"لا يا سيناسيوس، ان هذا لا يجوز. فأنا اعرف انك تعساني الكثير بسبب صحتك الضعيفة، واعرف جميع الحاجات التي عليك أن تواجهها.
-"بالنسبة اليّ يا صاحب السيادة، فان الدير يعطيني ما يلزمني بينما أنت...
-"بالنسبة اليّ أنا، فان الرب هو الذي يتكفل بي. ولا اعتقد انه تخلى عني.
-"هذا فرح لي. على كل حال فأنا لا املك سوى مئة دراخما.
-"لا تلح يا سيناسيوس. ولا تهتم، فسوف تتدبر كل الأمور".

وأحس الراهب بإحراج كبير، فأعاد يده إلى جيب جبّته. ثم امتد بينهما صمت قطعه الراهب بعد لحظة بقوله:
-"كيف تشغل نفسك يا صاحب السيادة؟"

فأجاب نكتاريوس:
-"بالقراءة في اغلب الأحيان. بالقراءة والصلاة وبتأليف بعض الأعمال اللاهوتية. فماذا يمكنني أن افعل يا سيناسيوس؟ لقد عدت الى اهتماماتي المفضلة. واعمل في مؤلفاتي قدر الامكان".

وعاد الصمت من جديد... وبينما كان الراهب يراقب حذاءه الموحل وقع نظره على كدسة مخطوطات على الطاولة الصغيرة. وأحس من جديد بالاحراج، فنهض أخيراً وقال:
-"لقد تأخر الوقت، ويجب أن ارحل. مازال عليّ أن أمرّ على دير بيتراكي لرؤية الرئيس، وها أنا قد تأخرت.
-"أشكرك يا بنيّ من كل قلبي، لانك تذكرتني.
-"وهل أنساك؟ يا الهي!
-"سأسجل زيارتك في ذاكرتي الى الأبد. هذه الزيارة التي وافيتني بها في أيام الحزن. اذهب بسلام، وانقل سلامي الى كل من يسأل عني ويهتم بشخصي الحقير".

ومكث الاثنان واقفين للحظة وصامتين. وتساءل الراهب في نفسه: "كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟". ثم انحنى وقبّل يد الأسقف الذي انحنى بدوره وقبّله بتأثر.
-"لم يكن لي فضل كبير عليك في مصر، ومع ذلك فانك لم تتردد أمام كل هذا التعب لتأتي وتزورني. اذهب بسلام يا أخي وسأتذكرك على الدوام".

الفصل الثاني

+(يو ٧ : ٥ – ٦) " لأن اخوته لم يكونوا يؤمنون به . فقال لهم يسوع إن وقتي لم يحضر بعد ، أما وقتكم فانه عتيد في كل حين ."

+(مراثي أر ٣ : ٢٦) " خير أن ننتظر خلاص الرب بسكوت ".

لم تكن السيدة أندروماك ، صاحبة المنزل في غرغاريتا، قد رأت في حياتها أسقفاً يعيش في مثل هذا الفقر المدقع، حتى ولو كان مضطهداً. وقد كتبت رسائل عدة الى أخيها المقيم في مصر، وتلقت منه أفضل المعلومات: "انه تقي، روحاني، يحب الفقر، متعلم..." اذن؟ كان هذا بالفعل أمراً غريباً.

وبالطبع كانت تخجل أن تطلب الايجارات المتأخرة من هذا الرجل المتقشف، والصدّيق ايضاً. وها هو قد أمضى ثلاثة أيام محتجزاً في غرفته، دون ان تصدر عنه حركة تدل على انه ما زال حياً...

كانت أندروماك تعيش وحدها تقريباً منذ سنوات. تيتّمت في سن مبكرة، ثم تزوجت وترملت. وها هي تقارب الخامسة والاربعين من عمرها، وحيدة ودون أولاد. كانت تكسب عيشها بالعمل ليل نهار في صنع التخاريم المصمّمة للثياب الداخلية للعرائس، او النساء الثريّات. وقد ادّخرت مالها قرشاً فوق قرش، وقضت أيامها في الحرمان، حتى استطاعت أخيرا ان تبني هذا البيت الصغير في وسط الحقول، وهو كل ما استطاعت ان تفعله. واما الآن وقد راحت تأمل بادخار بعض المال لشيخوختها بتأجيرها الغرفتين، فها هي الغرفة الغربية فارغة على الدوام، بينما الأخرى... وفجأة خطرت لها فكرة، واضطربت نفسها بشدة: هل أمضى هذا الكاهن الغريب أيامه الثلاثة دون طعام؟ ماذا يحصل له؟ هل هو صائم، أو انه... أيتها العذراء القديسة خلصينا! هل هذا معقول؟ هذا الأسقف، هذا الأسقف الرفيع الشأن، الذي لا يملك قرشاً واحداً يشتري به الخبز والجبنة؟ هذا أمر سخيف، مستحيل!

ولكن الفضول كان يتآكلها، فقررت أن تنبش خزانة طعامها وتحضّر له طبقاً طيباً وتزعجه... وقالت في نفسها: "انه مثل القديس سابا، يحب الوحدة ويخفض نظره على الدوام. يتكلم قليلاً، وشديد الخفر..."

وكان من الصعب ايقاف أندروماك عندما تقرر عمل شيء ما. فركضت الى المطبخ وأشعلت النار في غمضة عين. الحمد لله أنها تملك دائماً بعض الأشياء الصغيرة في خزانة طعامها. وها هي تسخّن بعض مرقة الدجاج، وتقلي بيضتين طازجتين، وتقطع شرحتين من الخبز، وتضيف قطعة من الجبنة في صحن، وتضع قطعة من الحلوى في صحن آخر مع تمرتين من الليمون.

ووضعت كل هذا على صينية كبيرة وصعدت درجات السلم . وطرقت الباب بخفر مرة ومرتين . فلم تسمع جواباً . فشحب لونها من الجزع وكادت تصرخ :"ايتها العذراء القديسة ". لكنها تمالكت نفسها وطرقت الباب من جديد . فلم تسمع شيئا . فصرخت:

-"يا صاحب السيادة".

لا جواب. أخيراً وضعت الصينية أرضا وفتحت الباب، وماذا رأت؟ يا الله! كان الأسقف راكعاً أمام المصلوب يصلـّي وهو يرفع يديه بتوسل، وعيناه تحدقان بالمصلوب. فأدخلت الصينية بسرعة ووضعتها على الطاولة الصغيرة، بقرب الكتب والمخطوطات، وتحضرت للخروج. ولكن الأسقف نهض بهدوء، ونظر اليها بعينيه الكبيرتين الدامعتين، وحيّاها قائلاً:

-"صباح الخير يا سيدة أندروماك. أعرف باني قد تأخرت في دفع الايجار. لكنني كتبت رسالة الى أحدهم البارحة...

فتمتمت أندروماك :

-"لا تتعب نفسك يا صاحب السيادة . كم نحلت! لا بد انك تتبع صياماً قاسياً فان عظام وجهك قد أصبحت بارزة!

-"انها تجربة، ولن تدوم طويلا. صحيح أنها المرة الأولى في حياتي التي أواجه فيها تجربة بهذه القسوة، ولكن لتتم مشيئة الرب: انها وحدها التي يجب ان تسيّر حياتنا بكاملها: فكل ما يسمح به الرب جيد. انه وحده من يملك الحكمة .

-"ولكن كيف تكون معدماً الى هذه الدرجة، ولا تحصل على أي عون، أعني من قبل الكنيسة؟"

فأجاب نكتاريوس:

-"انه فخ من العدو الشرير . فهو يحاول أن يجعلني أفقد صبري، ويجبرني على ان أغضب."

كانت أندروماك تسمعه يتكلم ويبوح بأسراره للمرة الاولى . وكانت تصيخ السمع جيداً. فتابع :
-"الا انه من الواجب أن نعطي مجداً لله. يا سيدتي العزيزة، ان المسيح مخلصنا الكثير الوداعة، والأقنوم الثاني من الثالوث القدوس، هو الكلي القدرة، من عادته أن يختبئ، وهذا بسبب تواضعه العظيم، رغم انه ملك الملوك. ويبدو متواضعاً ووديعاً على الدوام. ولا يظهر في عظمته التي أخذها من والده، كقاهر الموت، للذين ينادونه. ومع ذلك فهو يظهر لجميع الذين يبحثون عنه بقلب طاهر ولجميع الذين ينادونه بحرارة. كوني على ثقة من ذلك."

فشحب لون أندروماك ورسمت اشارة الصليب ، فتابع نكتاريوس :

-"انه يظهر، ويفيض عليك بتعزية لا توصف، وبعذوبة كبيرة، ونور، وأزلية، وسعادة، سعادة لا يمكن أن ينزعها منك أحد..."

فتمتمت أندروماك من جديد :

-"اسمح لي يا صاحب السيادة، انا الخاطئة، بان أقدّم لك خدمة متواضعة... صحن من الشورباء."

فنظر نكتاريوس الى الطاولة وعندها رأى الصينية ، فاستدار نحو المصلوب وتمتم بعض الكلمات بانسحاق قلب. فهل كان ذلك شكراً لله؟

ثم قال لها بصوته العذب، الخافت بعض الشيء:

-"أشكرك، لقد أتيت في الوقت المناسب. ليكن الله معك في كل عمل تقومين به، ولا يحرم بيتك من النّعم الأرضية ابداً. أرجو ان أنجح في تسديد الايجارات بسرعة. يؤلمني اني اعجز عن دفع المستحق لك. أرجو ان يستقبلني الأسقف اليوم... أشكرك من جديد".

وأحسّت أندروماك بتأثر شديد، وأخرجت منديلها كانت تشعر بان هناك شيئاً يحدث في منزلها: شيء مأساوي وعظيم. وكأن قوة غريبة، غير منظورة تنزع من قلبها شيئاً فشيئاً التفكير في مصلحتها المادية، وتضع مكانه

حب الخدمة، في هذا الوقت العصيب، وأمام رجل بهذه القداسة. انـــــها المحبـــة تزهر في قلبها. فقالت:

-"لا تفكر في الايجار بعد الآن يا صاحب السيادة ".

كان صوتها يرتجف وعيناها تلتمعان وهي تتابع:

-"نعم انا أرملة، ووحيدة. لكني أستطيع تدبير خبزي اليومي..."

فرفع نكتاريوس يده وباركها، وتمتم:

-"انت كالواحة في الصحراء. لتتشفع بك سيدتنا والدة الاله".

الفصل الثالث

+ (يو ٧ : ١٣) "غير انه لم يكن أحد يتكلم فيه علانية خوفاً من اليهود".

+ (١ ملو ١٨ : ٢١) "فتقدم ايليا الى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين. ان كان الرب هو الله فاتبعوه ، وان كان البعل فاتبعوه. فلم يجب الشعب بكلمة".

لم ينجح في مقابلة رئيس الأساقفة على وجه السرعة. ان جرمانوس كاليغاس الذي نصّب منذ فترة قصيرة كان متفانياً، فائض الحيوية، يبتغي تطهير الكنيسة اليونانية والنهوض بها من الوحل. لكنه كان يصطدم بمقاومة متواصلة: فقد كان محاطاً بالأعداء والمؤامرات. وعندما كان نكتاريوس يذهب لمقابلته، كان يُقال له ان جرمانوس مريض، أو انه يشارك في لقاء المجمع المقدس. وأحيانا انه "كثير الانشغال"، او انه قد خرج للتو؛ واما انه مسافر الى اثينا... لكنهما التقيا أخيراً عند ظهر أحد الأيام، في رواق مكتب رئيس الأساقفة.

فقال جرمانوس:
-"اني أحاول الحصول على موافقة المجمع المقدس ليسمح لك بالوعظ في الكنائس".

كان جرمانوس يكلمه بلطف، الا انه كان يجيل النظر حوله بقلق. فأجابه نكتاريوس:
-"سيدي ، اني لا أصبو الى مركز أسقفي . لقد عدلت عن هذه الفكرة . اني لا أبغي سوى أن أكون واعظاً، لأنشر كلمة الله. لا أريد مالاً ولا مجداً، ولا أريد أن أبقى دون عمل. أريد أن اعمل من أجل عظمة ملكوت الله في النفوس التي تتوق الى ذلك.
-"آه، ان الحواجز أمامك عديدة، يضاف اليها انك تبدو غريباً. لا بأس، سأحاول الحصول على موافقة المجمع المقدس".

فجمد نكتاريوس في مكانه حزيناً. ثم تمتم :
-"لست أخشى العيش في حجرتي الصغيرة أو في الصحراء، لكن الشعب المتشرد يتوه. انه يشعر بالعطش للملكوت، ولرحيق الارثوذكسية".

راح جرمانوس يحدّق بقلق في وجه هذا الزائر الذي يردد عليه كلمات غالباً ما كان يسمعها. ثم ابتسم له بتهذيب وطمأنه بقوله:
-"سأفعل كل ما بوسعي".

لم يكن يمضي يوم من دون أن يخرج نكتاريوس ويطرق الأبواب. ويبدو أن ناطور البطريركية لم يكن يستبشر خيراً عندما يراه. فما أن يبصره حتى ينظر اليه باحتقار، وكأنه رجل محكوم عليه، أو فاعل سوء. وكان نكتاريوس يطرق الأبواب بالحاح وصبر. لم ينسَ أحداً من أعضاء المجمع المقدس، أو متروبوليتاً واحداً، أو رجل سياسة، أو نائباً، أو واحداً من الأعيان. عمّ كان يبحث؟ عن مكان في الكنيسة، ليستخدم خبرته وقدراته الروحية مقابل لقمة الخبز. لكنه لم يحظَ بشيء. أينما كان يذهب كان الناس ينظرون اليه باستخفاف، مثل ناطور البطريركية تقريباً. وكانوا يقطعون له الوعود، الوعود التي ينسونها ما أن يتجاوز عتبة الباب... وكان بعضهم يسخرون منه، فيقرأ نكتاريوس هذه السخرية في نظراتهم. آه هذه الوعود: "عد في الأسبوع القادم، فستحظى بشيء ما... أو في الثامن من الشهر المقبل..." لمَ يعجز هؤلاء المسيحيون عن قول الحقيقة؟

وكان يعود متعباً، خائباً، دون جدوى، جارّاً قدميه نحو منزل غارغاريتا. وكان يشعر بالخجل وينقبض قلبه عندما يفتح الباب البني اللون. كان يرزح تحت الديون الكثيرة، وتعيله تلك المرأة الطيبة القلب التي تفني عينيها ليل نهار في عملها.

ثم حلّ الشتاء ببرده وغيومه وأوحاله. وغرقت المدينة كلها في الوحل. وكان المارّة يهرعون بعجلة، مُنحني الأكتاف، مستغرقين في أفكارهم. ولم يكن بينهم وجه واحد هادئاً أو مرتاحاً... شتاء، وحدة، شك، اكفهرار، أوحال.

في النهاية اضطر نكتاريوس الى أن يكتب الى شقيقه خارالمبوس الذي يقطن في خيوس، وكان رب عائلة كثيرة العدد ويشقى من أجل الخبز اليومي:

"شقيقي العزيز، بكثير من الألم أجد نفسي مضطراً لطلب معونتك لأني في أشد الحاجة لذلك. اني أمر في مرحلة شديدة الصعوبة في اثينا، ولست أجد غير الازدراء والسخرية من جميع أعيان البلاد والشخصيات المعروفة..."

واخيراً وصلته مساعدة بسيطة من شقيقه. كما طلب منه جرمانوس أن يقيم بعض الخدم الدينية قبل الميلاد، وهذا ما سمح له بتمضية الأعياد حتى عيد

الظهور الالهي في الصلاة والقداسة. فيما بعد، وعندما بلغ الشتاء أوجــه، ازداد الحرمان، وعاد نكتاريوس من جديد الى الحزن. وصارت نفسه عرضة للبـؤس والشك والجوع من جميع النواحي، مما كان يدفع قلبـــه نحـــو تجربـــة اليـــأس والهاوية. فقد كان مضطراً في الوقت نفسه الى أن يحافظ على كرامته وعلـــى احترامه لمنصبه، وان يتجنب الاغتياب. كان المسيح المخلـــص هـــو تعزيتـــه الوحيدة في تلك الاوقات المؤلمة: لم يكن من المعقول ان ابن الله الحيّ لا يـــرى ما يحصل له، ولا يراقب باهتمام كل ذلك. "لا يسقط عصفور واحد الى الأرض ويموت الا بارادة الله الآب". وكان يتمتم في صلاته دون انقطاع:

-"سأصبر يا رب واحتمل".

ثم نصحه أحدهم بمقابلة وزير الاديان شخصياً، لطلب وظيفـــة واعـــظ حتى ولو كان ذلك في الريف. وقد لزمه عشرون يوماً لكي يحظى بهذه المقابلة. كان الوزير رجلاً متوسط العمر، أشيب الشعر، ذا لحية قصيرة مشذبة، شـــديد الأناقة، ويضع سلسلة ساعة ذهبية. فاستقبله الوزير قائلاً:

-"صباح الخير يا صاحب السيادة، ماذا تبتغي؟

-"لقد أتيت من الاسكندرية يا معالي الوزير، كما تعلمون... وقد أبعدني صاحب القداسة البطريرك صفرونيوس ـــ الذي كان حاضناً لي، وسأظل أحترمه دائمـــاً ـــ بعد أن خُدع بوشايات كاذبة حولي. وها أنا الآن في حالـــة العـــوز التـــام. أرجوك أن تعطيني وظيفة واعظ حيثما تشاء، فأنا أتحرق لخدمة الكنيسة، شهيدة المسيح. ولنقل كلمة الله، وتهيئة النفوس للخلاص".

ففكر الوزير للحظات، ثم رفع يده اليمنى، وبدت أزرار كمّـــه الذهبيـــة بينما كان يسند ذقنه على يده. وقال:

-آه، ان بلدنا بحاجة ماسّة الى الواعظيـــن... ولكننـــا للأســـف لا نســـتطيع أن نعطـــي سيادتكم وظيفة كهذه.

-"لماذا؟

-"لأنك غريب ولا تحمل الجنسية اليونانية..."

شحب وجه نكتاريوس وصار أبيض. وجمد في مكانه ينظر الى اللحيـــة الصغيرة المشذبة، والشعر الأشيب، وأزرار الكمّ الذهبية. ثم تمتم:

-"هكذا اذاً. فأنا لم أعد أحمل الجنسية اليونانية".

-"أستطيع الذهاب حتى الى الجزيرة الأكثر وحشية يا سيدي الوزير، شـــرط أن يكون فيها قطيع أرثوذكسي.
-"أرجو أن تتكرّم باعطائنا عنوانك حتى نستطيع أن نعلمك، خلال بضعة أيـــام، بتعيينك واعظاً في منطقة ايبوس . امنحني فقط الوقت اللازم لكي يصدر قـــرار تعيينك في الجريدة الرسمية".

فتمتم نكتاريوس وقد امتلأ بالفرح:
-"أشكرك يا سيدي الوزير، وأنت أيضا يا سيدي".

ثم رفع عينيه الى الأعلى، نحو زخرفة السقف، ورسم اشارة الصليـــب ثلاث مرات.

الفصل الرابع

-(يشوع بن سيراخ ٢ : ١٧) "الذين يخافون الرب قلبهم مستعد على الدوام."

كان يسير حوالي الظهر في الشارع، ولا يتوقف عن تمجيد الله وحمده. لم يكن يرى المارة ولا العربات، ولا يسمع موسيقى الأرغنات الصغيرة المتنقلة، ولا أصوات حوافر الخيل، ولا صراخ باعة الصحف. كان ما زال يبكي، ولكنها دموع الشكر والامتنان. لم تكن هذه الحقيقة لتخطر بباله: هو الذي كان في الأمس القريب أسقفاً وممثلاً بطريركياً، ومرشحاً لاعتلاء عرش الاسكندرية، يشقى اليوم ويتوسّل كثيراً لكي يعيّن في وظيفة واعظ بسيط في منطقة من اليونان تكاد تكون مقفرة... لم يكن هذا قد حصل قبل الآن. كان الأمر مذهلاً ولا مثيل له في تاريخ الكنيسة. وكان يردد عند كل خطوة:

- الله حيّ وروحي حيّة... الرب راعيّ فلا يعوزني شيء تباركْ نفسي الرب!..."

وعند وصوله الى بيت غارغاريتا الصغير، كان وجهه مشعّاً ومتحولاً. كان كالولد تماماً. وكأنه عاد الى أيام طفولته الأولى في سيليفريا، عندما كان يستمع في دفء ذراعيّ جدته الى ما تخبره عن أسرار الملكوت الخفية.

وما أن دخل باحة البيت حتى قال للسيدة أندروماك بابتسامة فرح طفولية:
- أخيراً، أخيراً يا سيدة أندروماك، ترأف الله بي! سأرحل الى شالكيس خلال بضعة أيام.
تعجبت المرأة وبدا عليها الذهول.
- سوف ترحل يا صاحب السيادة؟ الآن؟ "

فأجاب:
- سأسدد لكِ كل ديونك... كما اني سوف أذكرك في صلواتي على الدوام، مع حفيدتي العزيزة. آه يا سيدة أندروماك كم كنت طيبة معي في أيام المحن!"

فانحنت أندروماك لتقبل يده باحترام، ولم تستطع تمـــالك نفســها عــن البكاء. فقالت بيأس:

-"يا للأسف... يا للأسف...

-"ماذا؟

-"ألا تفهم يا صاحب السيادة، ألا تعلم أن الله معك، وأن وجودك يشع بالبركــــة المقدسة؟"

الفصل الخامس

+ (يو ١٦ :٣٣) "قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام. انكم في العالم ستكونون في ضيق ولكن ثقوا فاني قد غلبت العالم".

+(يشوع بن سيراخ ١٨ :١٠ ١١) "فلذلك طالت عليهم أناة الرب وأفاض عليهم رحمته . رأى وعلم أن منقلبهم هائل".

كان الشتاء يقترب من نهايته عندما وصل نكتاريوس بالباص الى مدينة تشالكيس الرائعة الجمال وذات التاريخ الغني، عن طريق ثيبوس. كان المنظر أخاذاً، لأن أشجار اللوز والخوخ والكرز كانت كلها مزهرة. وراح نكتاريوس يتأمل خضرة الحقول الملتمعة بالمطر تحت أشعة الشمس النازلة من بين غيمتين. وفاضت روحه بالاعجاب لفن الخالق وحكمته. ولم يتوقف عن الترتيل: " تفتح يدك فيمتلئ الكل خيراً".

كان يحس بعمق وقوة بوفرة النباتات وتلاعب الالوان، وسحر ساقية صغيرة ، او أغصان مهيبة متفرعة من شجرة كبيرة في وسط الحقول. وكان يشعر بأنه يولد من جديد.

لقد مرّ في منطقة الأوريبوس من قبل: عندما كان لا يزال طالباً وشماساً بسيطاً، وقد جاء اليها في رحلة مع اصدقاء له. في ذلك الوقت أيضاً تأثر بجمال طبيعة بلاده. انها بالحقيقة ظاهرة فريدة من نوعها في العالم: هذا المضيق الذي تسير فيه المياه لمدة ست ساعات في اتجاه، وفي الساعات الست التالية في الاتجاه المعاكس . لقد كان هذا دائماً مدعاة للدهش.

قبل ان يسافر، كتب رسالة الى أحد أصدقائه في القسطنطينية كان قد دبّر له غرفة في منزل من طابقين، خلف مبنى المحكمة. كانت الغرفة هادئة، متجهة الى الناحية الشمالية الشرقية، حسب رغبته. ولها شرفة صغيرة من ناحية الشرق .

كان الأسقف كريستوف ستاماتيادس غائباً. فاستقبله موظفو المطرانية ببرودة وحذر. الا انه لم يلاحظ شيئاً من ذلك: فقد كان قلبه مليئاً بالفرح، سعيداً لأنه يحمل تقدمة جديدة للشعب الأرثوذكسي.

في تلك الليلة الأولى التي أمضاها في أرض ايبوس قرأ صدفة على ضوء مصباحه بعض الصفحات من كتاب "الحرب اللامنظورة"، للقديس نيقوديموس الآثوسي، وهوأحد كتابه المفضلين. وفجأة تغيّر مزاجه، وتذكر أن كأس الحياة الدنيا لا يمنح سوى أفراح نادرة وقصيرة الأمد. واخترق نفسه خوف لا يوصف، فان جهاداً جديداً يبدأ. كان عليه ان يعظ في الكاتدرائية، ولقد اختار للأحد الأول موضوع "الحياة الآتية الأبدية". وكان قد سبق له أن حرّر نصاً حول هذا الموضوع بالاستناد الى كتابه:" كنز الحكماء والقديسين".

"لأن ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثِقَل مجدٍ أبدياً لا حدّ لسموّه. اذ لا ننظر الى ما يُرى بل الى ما لا يُرى. لأن ما يُرى انما هو وقتيّ واما ما لا يُرى فهو أبديّ" (٢كور٤: ١٧ – ١٨).

"ان كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط فنحن أشقى الناس أجمعين" (١كور١٥ :١٩).

كانت هذه كلمات بولس العظيم. واستلقى نكتاريوس لينام بينما كانت تتوالى الأفكار. كانت ماثلة في ذهنه صورة الرسول الحيّة. وقد هبطت عزيمته للغاية، فقد فكر بفخاخ العدو الشرير الذي يحيك آلاف المؤامرات الخبيثة لابتلاع نفس المسيحي الأمين. وجمد في مكانه وراح يردد دون انقطاع :"يا رب ارحم! يا رب ارحم!"

ولم يعرف النوم سبيلاً لعينيه، ولم يستطع جسده أن يسترخي رغم تعب السفر المضني. وتوالت الأفكار... راح يفكر في الحكماء والمثقفين ورجال العلم في هذا البلد الصغير: كم يبتعدون عن الحقيقة! وكم يجهلون خفقات قلب الشعب الصامتة! نعم، منذ عهد فارماكيدس، كم اتبع الناس طرقاً خاطئة، وكم من هذر! وكم من تقليد للغرب! اذ يُجتذب الكثيرون الى روح النهضة الغربي، ويتذوق آخرون الالحاد الشوفيني الفارغ.

لم يعودوا يعلمون الطلاب غير محبة الأشياء الزائلة: كألعاب ديلفوس*، واستعادة أسرار ايلوزيس**، وقطع الرخام المحطمة في المعابد الأثرية، وآلهة الماضي التي تمثل جميع الأهواء ومجون الميثولوجيا! دون أن يشعر أحدهم للأسف بمشاعر اليونانيين القدماء، وتعلقهم بكنز الأرثوذكسية، ما عدا

* في العهد الروماني ، كانت هذه الألعاب تجري كل أربع سنوات ، على غرار الألعاب الأولمبية (المترجم).

** ايلوزيس : مرفأ في اليونان كان يشهد في العهد القديم احتفالات " بأسرار مرتبطة بعبادة الآلهة ". وكان التدرّب على هذه الطقوس يؤمن للانسان الخلاص في الحياة الاخرى (المترجم).

اثنين أو ثلاثاً ممن خلفوا كولليفاديس***، الذين كانوا قد اكتسبوا مؤخراً مكانة في الصحافة اليونانية. آه من المجد! مجد العالم! المجد الذي يمرّ ويطويه النسيان! كم بحث عن هذا المجد الحكماء والمثقفون والكتّاب ذوو النفوس الضعيفة! كانوا يختارونه ويسعون وراءه ويتفانون من أجل ابتسامة واحدة منه! لا شك في ان عظام مرقس اوجينيكس وفريانيوس كانت تتقلب في قبريهما!

اخيراً جاء النعاس وأشرقت الشمس على أول أحد كان عليه ان يظهر خلاله في الكاتدرائية. منذ الليلة السابقة كان قد تحضّر جيداً ودرس موعظته واختار بعض أقوال الآباء، كما صام وتلا صلاته.

وقد دهش كثيراً اذ وجد أن عدد المؤمنين قليل جداً في القداس الالهي، رغم نشر خبر وصوله في جميع كنائس المنطقة، الى جانب خبر تعيينه في وظيفة واعظ. واستغرب ذلك لأن هذا الشعب كان معروفاً بايمانه المسيحي الحار.

ولما صعد الى المنبر وجد أمامه أشخاصاً قلائل، الا أن الوجوه كانت تحمل سمات اللامبالاة والسخرية. ومع ذلك لم يفقد نكتاريوس برودة أعصابه، فاستدار نحو أيقونة المخلص ورسم على وجهه اشارة الصليب ثلاث مرات ثم بدأ موعظته بالقول:

"اخوتي الأعزاء جداً ،

أنا سعيد لأني أبدأ عملي في بلادكم كمبشّر بالكلمة الالهية. تذكرني أرض ايبوس الجميلة جداً بـ..."

فارتفع على الأثر لغط رافض من جميع الأنحاء: تمتمات وابتسامات وهزء... ثم صرخ أحدهم:

-"اخرج ايها المرائي، ايها الفرّيسي!"

فأخذ نكتاريوس نفساً عميقاً وتابع:

- ...انها تذكرني بالحروب البطولية وبأيام الاستعباد، والصبر الشديد العزم الذي تحلى به الأساقفة الحكماء، كرئيس أساقفة بلغاريا ثيوفيلكتوس، هذا المفسّر الرائع للكتاب المقدس".

*** رهبان أعادوا احياء الهدوئية في جبل آثوس في القرن الثامن عشر .

من جديد علت التمتمات والتأوهات والهزء... فتابع نكتاريوس رغم ذلك:
-"انها تذكرني يا اخوتي بالقديس جراسيموس الايبوسي، تلميذ القديس غريغوريوس الذي نشأ في آسيا الصغرى وشيّد دير القديس غريغوريوس في جبل آثوس. انها سلسلة ذهبية من الأساقفة والنساك والمؤمنين..."

فسُمع صراخ جديد في الجمع :
-"اخرج أيها المرائي! أخرج أيها الفرّيسي!"

فأحسّ بعرق بارد يتصبّب منه، وقام بمجهود كبير حتى لا يقع أرضاً. وانخفض صوته وكأنه انكسر:
-"لكن لنوقف الآن المقدمة حول روعة بلادكم، وننظر الى الثروات الالهية، الى الكتاب المقدس والانجيل المقدس... وسيكون موضوعنا رغبة كل انسان: ألا وهي الأبدية. ان الذي يرغب في الراحة..."

ولكن أحداً من الحضور لم يكن يعيره أي اهتمام، ولا يصغي لما يقول. وبعد لحظات دخل الهيكل منحنياً، متمرمراً، يخفق قلبه بتقطّع، وكأنه بقايا انسان...

هل كان السبب هذه المقدمة التي لم تعجب الناس؟ أم انه الموضوع؟ وهل كانوا ينتظرون تعليقاً حرفياً على انجيل اليوم؟ لكن لماذا الهزء والسخرية؟

واذا بعينين تنظران اليه باشفاق، وتبتسمان بطريقة لغزية. كان هذا كاهناً يمرّ في المكان. فقال له بصوت قوي وجهير:
-"انها ليست غلطة أهل شالكيس. فان شهرتك قد سبقتك الى هنا. ان سمعتك سيئة جداً يا صاحب السيادة. فالذين يضطهدونك رجال قساة لا يعرفون الرحمة، ويبتغون هلاكك".

ثم دعاه الكهنة بلطف الى تناول القهوة معهم بعد القداس الالهي، الا انه رفض. فقالوا:
-"عندنا بروتي من قمح "كيمي" يا صاحب السيادة.
-"أشكركم، ربما في مرة أخرى.

ما كان عنده شيء للقول. وما فائدة الثرثرة؟... كان يفضّل الوحدة ألف مرّة.

وعاد الى غرفته يملؤه الألم ويضنيه الجوع بعد صيام طويل. الا انه كان عاجزاً عن تناول الطعام، واحسّ بطعم مرّ في حلقه، وكأنه السّم. فبدّل ملابسه وجلس بثقل الى طاولته الصغيرة، يبكي وتتبلل لحيته بالدموع...

ثم تناول الكتاب المقدس ، وقبل أن يفتحه وقف ونظر الى المصلوب، وسأله:
- ماذا فعلت يا ربي لكي يكرهوني الى هذا الحد؟"

وفي اللحظة نفسها أحسّ بقشعريرة وبلهيب يخترقان جسده وقلبه. وأتاه صوت صامت من الصليب، صوت نزل عليه وغلفه:
- وأنا ماذا فعلت حتى أبغضني الذين صلبوني، الى هذا الحد؟"

فأخذ نفساً عميقاً وأحسّ بارتياح كبير... " فهمت، أغفر لهم... لا بأس، سأعود اليهم وسأكرر المحاولة."

الفصل السادس

+ (لو ٤ : ٣٠) "أما هو فجاز في وسطهم ومضى ".

+(جا ٨ :١٤) "باطل يجري على الأرض . صديقون يصيبهم ما يليق بعمل المنافقين ، ومنافقون يصيبهم ما يليق بعمل الصديقين . فقلت هذا أيضاً باطل ".

كان الأحد التالي اسوأ بكثير . وكان نكتاريوس قد اختار موضوع "سمو الروح وغياب الحقد". وكان الجمع أكثر معاداة وقسوة. وما أن استهلَ الكلام بالقول: "اذا غفرتم للناس خطاياهم..." حتى بدأت الوشوشات والضحكات والهزء مع الصياح والصراخ: " أخرج أيها المرائي، أيها الفرّيسي!" وسادت الكنيسة الفوضى الكاملة.

ورغم أنه بات الآن يعرف السبب، فقد تلقى الصدمة عنيفة كل العنف، كضربة الصاعقة. فتراجع من جديد نحو الهيكل بائساً، ذليلاً. وقد أصيب بالذهول والاضطراب التام، حتى انه لم يعرف وقتئذٍ من كان الذي يكلمه، ولا ما يقال له. فانسحب الى زاوية المذبح وراح يردد بطريقة آلية هذه الآية من رسالة بطرس الأولى:"... وان كنتم الآن لا بد لكم من الغم اليسير في تجارب متنوعة... تفوزون بعاقبة الايمان بخلاص النفوس". وهذه المرة أيضاً عجز عن تمالك نفسه، فانفجر بالبكاء.

ثم سمع من يقول له:" يا سيدي، انهم يضطهدونك بدءاً من أثينا..." فالتفت الى يمينه، ورفع رأسه قليلاً، ورأى كاهنين أو ثلاثة مع رجلين علمانيين منتفخين تكبّراً. ولم يعرف من منهم تكلم، ولكن كان بجانبه الشماس والحزن بادٍ على وجهه. وكانت الأصوات المكظومة والضحكات لا تزال تُسمع من الخارج. فقال نكتاريوس:

-"ليرأف الله بهم. سيفهمون كل شيء فيما بعد، لا بأس..."

وتلا ذلك صمت، ثم قال أحدهم:

-"الآن فهمت يا صاحب السيادة..."

فأجاب:

-"لا أريد أن يحل بهم ما قال القديس بولس لأهل كولوسي:"... أما الظالم فسينال ما ظلم به..." لا ، لا أريد".

ثم أحسّ بالراحة من جديد، وكأنه في سلام، فخرج من الهيكل من الباب الجانبي. وعندما عاد الى غرفته وبدّل ملابسه، نظر مرة أخرى أيضاً الى المصلوب... يا للمصادفة، لقد كان ما زال يحسّ بالجوع: فمنذ البارحة ظهراً لم يتناول شيئاً غير القربان. وتمتم:
-" ربي، ان كنت تبتغي أن اترك العالم، فلتكن مشيئتك. قد لا أكون مؤهلاً لاصطياد النفوس، أنت وحدك تعرف. اني أشفق على هذا الشعب المهمَل الذي انهكته الصراعات اليومية، عائشاً في وسط ذئاب كاسرة، ودون أن يتلقى أي توجيه روحي. لكنك أنت يا الهي تعرف أكثر من الجميع... سوف أبقى حتى الأحد المقبل، واذا لم أنجح في استرعاء الانتباه، وجذب النفوس الى كلمتك الالهية فسأرحل... سأمضي ما تبقى من العمر داخل قلاية في جبل آثوس، ولن يراني العالم بعد ذلك".

وعندما أنهى هذه الصلاة القصيرة قال في نفسه: "لقد وصل الأمر الى حدّ أنهم يضطهدوني حتى في أثينا. غريب!

وعادت الى ذاكرته رسالة الوداع التي استلمها من اليونانيين المقيمين في القاهرة:
"... لقد حزنا وتأثرنا جداً لقراركم ترك مصر، لأننا نعتبر ابتعادكم عنا بمثابة خسارة لا تعوّض. فان كنيستنا في الاسكندرية تفقد برحيلكم أسقفاً من ابرز الأساقفة، في الوقت الذي يفقد الشعب الأرثوذكسي راعياً عُرف بارادته الطيبة ونشاطه المستمر من أجل الخير. لقد كانت اقامتكم في القاهرة لمدة أربع سنوات..."

لعله يصنع من هذه الرسالة نسخات عدة، ويرسل بعضاً منها الى أثينا، والبعض الآخر الى المطرانية التي ينتمي اليها حالياً. ولكن لا، اذا تصرف على هذا النحو فسوف يُعرف موقف صفرونيوس وسيثير ذلك فضيحة. لا وألف لا. فهو يحب صفرونيوس حتى ولو تألم بسببه، ولو اضطر لتحمّل الاضطهاد، حتى ولو مات من الجوع. وعندها تذكر النشيد المشهور الذي نظمه ألكسيوس غرابتوس للقديس ديمتريوس المفيض الطيب في عهد محاربة الأيقونات، وتمتم:
- "ارحمنا ايها القديس المجيد، سكّن الاضطراب، وضع حداً لهذا الغضب الموجّه ضدنا".

الفصل السابع

+ (لو ٤ :٢٢) "وكان جميعهم يشهدون له ويعجبون من كلام النعمة البارز من فيه ".

+ (أم ١١ :١٠) "بخير الصدّيقين تتهلل المدينة ".

أمضى نكتاريوس أيام الانتظار والألم المبرّح السبعة في الصوم والصلاة، مضيفاً هذه الجواهر الى حسابه السماوي. الا أن الفضيحة التي حاول تفاديها حلّت من دون أن يضطر الى نشر رسالة الوداع.

فقد وصل من مصر الى أثينا وجهاء من كبار تجّار القطن. وهم أشخاص واسعو الثراء او الشهرة، فقلبوا بمجيئهم المطرانية والوزارة رأساً على عقب: وراحوا يصيحون بغضب: " لعن الله المكيدين، وليخزَ صفرونيوس. ليخزَ لأنه سمح بانتشار الأكاذيب والوشايات الوقحة! ماذا فعلتم بمبشرنا القديس؟ وأين هو الآن هذا الرجل المعذب النفس؟ " وبحثوا عنه بالحاح في كل مكان ليحظوا بمقابلته وتقبيل يديه.

لم يكن القادم شخصاً واحداً ولا شخصين: لقد جاء منهم الكثيرون، ما يكفي لكي يتغلبوا على يونانيي البلد، ويعيدوهم الى صوابهم، فيدركوا الحقيقة. ولقد اضطروهم للكتابة في الحال الى متروبوليت ايبوس، لاطلاعه على حقيقة الوضع.

واذا كانت الاشاعة الكاذبة تنتقل بسرعة على الأفواه، فتكبر وتتضخم، فيبدو ان الأمر نفسه يحصل لكلمة الحق التي ترتفع لتشهد للفضيلة في أوج ظروف الاضطهاد:

-"ماذا تقول يا عزيزي؟ ان نكتاريوس بريء؟ هذا لا يصدّق!
-"لا عيب فيه، طاهر كالثلج! لكنه ضحية المكيدين.
-"والمفترين...
-"ان العالم قد أصبح سيئاً لهذه الدرجة!
-"ويقال انهم كهنة البطريركية... انه الحقد الرهباني!"

هكذا تناقل أهل شالكيس التعليقات بسرعة كبيرة خلال أيـــام الانتظـــار السبعة تلك... بسرعة كبيرة... حتى بلغت ابن الله الحيّ، سيده الحبيـــب الـــذي تنازل من عرشه المقدس ليعلمه بقراره ويكشف ارادته للراعي المتواضـــع: لا لم يكن يريده أن ينزوي في قلاية، ولا يرغب في ابتعاده عن الناس ليذهب الـــى جبل آثوس. كان يهيئه ليكون هو أيضاً صياداً للنفوس. لأنه هو [السيد] كان أول من يشفق على البلد وعلى شعبه المتعب الذي يسير منكسر الخاطر في وســـط الذئاب ودون أي توجيه روحيّ...

وفي الأحد الثالث، ذلك الأحد المصيري، أحد الامتحان، حـــدث أمـــر غريب، أمر لا يخطر في بال أحد: كانت الكاتدرائية ممتلئـــة بالنـــاس وكأنـــها ستنفجر. وكانت النساء يتزاحمن في الرواق المخصص لهن. لقد أتـــى الحشـــد مـــن كل مكان، من الشمال والجنوب، وحتى مـــن قـــرى كيمـــي وأليفـــيري وكاريستي. واذ صعد الى المنبر ساد الكنيسة السكون التام. ولو أن ذبابة طارت في الجو لسُمع حفيف أجنحتها!

وراح كل هؤلاء الغرباء يحدقون في عينيه بالحاح، وكأنـــهم يطلبـــون منـــه المغفرة. فبدأ حديثه عن الكبرياء قائلاً:" من أراد أن يكون فيكم عظيمـــاً، فليكن للجميع خادماً. ومن أراد أن يكون أولاً فليكن لكم عبداً".

فلم تُسمع أية تمتمة ولا ابتسامة، بل كان الصمت يسود المكـــان كلـــه. والانتباه، والتأثر، والرهبة الوقورة. فبدأ عظته قائلاً:

-"يا اخوتي، يا أبنائي في المسيح، كتب القديس يوحنا الذهبي الفم، هـــذا البطريرك العظيم في تاريخنا الأرثوذكسي، في مكان ما عن الكبرياء: "اذا كـــان رأس الحكمة مخافة الله، فان رأس الجنون تجـــاهل الله". ليـــس هنـــاك غـــير المجنون، أو الأعمى بالروح لا يرى ولا يتأثر لمعاينة روائـــع الله وحضـــوره الكلي القداسة. فكل ما نراه يُظهر ألوهيته ان في السماء أو على الأرض، فـــي الطبيعة الفسيحة. خذوا مثل حبة القمح البسيطة التي يمكن أن نسحقها بســـهولة. ولكن من منا يستطيع أن يصنع حبة قمح؟ العلـــم؟ أم التقنيـــة ؟ أم الفلســـفة؟ أم الاختراع؟ لا أحد. وحده الله الكليّ القدرة هو من يستطيع خلـــق هـــذه الحبـــة. وبفضل هذه الحبة وزراعتها يشبع الكون بأسره. يقول يشوع بن سيراخ * فـــي العهد القديم: "أول كبرياء الانسان ارتداده عـــن الـــرب اذ يرجـــع قلبـــه عـــن صانعـــه". ويقول القديس يوحنا السلمي: "كما يمقت الســـارق نـــور الشـــمس، يزدري المتكبّر الودعاء. ان الكبرياء تدخل الى القلب من باب الجحود والجهل".

---

* (١٠: ١٤-١٥).

ووجد أن باستطاعته متابعة الكلام، فقد كان الجميع يصيخون اليه السمع. وأحس بخفقات قلبه تتسارع: هل ستتاح له فرصة انهاء الموعظة؟ فالموضوع لا حدود له، تغذيه الخبرة والتاريخ: "سأدمّر الأثمة وتجديفاتهم، وأذلّ المتكبرين وتجديفاتهم، وأحول كل الأرض المأهولة الى صحراء."

-"يا اخوتي، يا أولادي في المسيح. ان السعادة والفرح الداخلي ينبعان من التواضع..."

كان الوقت يمرّ وليس من يتحرك. ولا تبدو على أحد امارات الملل. فتابع حديثه مستشهداً بأمثال من الحياة اليومية، متأثراً عند كلامه على أشد الأعداء خطراً، ذاك الذي يكره الخير، ابليس المغرور: "سأجعل عرشي فوق نجوم السماء، وأصبح مشابهاً للعلي"**.

أخيراً وعندما اكتشف أنه تجاوز الساعة، بدأ يمهّد لنهاية حديثه راجياً أن يحافظ الجميع كباراً وصغاراً على التواضع بضمير نقي. فسُمعت في القاعة ضجة مشابهة لحفيف أوراق الشجر. وفجأة انفجر الجمع صارخاً ومصفقاً، وصرخ الرجال والنساء:

-"مستحق! مستحق!
-"أطال الله بعمرك!
-"تعال لزيارتنا في قرية كيمي.
-"وفي اديبسو أيضاً".

وراح ينزل الدرجات الواحدة بعد الأخرى، خافض النظر، وهو يشعر بنفسه خفيفاً. وسار في وسط الذين يصفقون له وهو يبكي. وصاروا يبتعدون متزاحمين ليفسحوا له في الطريق. وتقدّم داخلاً الى الهيكل، وسمع الكهنة من حوله يقولون له:

-"انه نصر يا صاحب السيادة! تقبّل تهنئاتنا.
-"لقد جاء بعضهم من أثينا خصيصاً لاعلان الحقيقة. لقد كنتَ ضحية المتآمرين".

وسار الى خلف المائدة، واقترب من المصلوب، ورسم اشارة الصليب على وجهه، ووقف يتأمل نقاط دم المسيح. وسمعه الكهنة من حوله يقول:

** (أش ١٤: ١٣-١٤).

-"ها هو خادمك أمامك يا سيدي. سدّد خطواته الى حيـــث تشـــاء، لا حســب مشيئتي، بل حسب مشيئتك أنت. اقبّل قدميك الكليتي الطهر..."

الفصل الثامن

+ (مت ٩ :٣٧) " حينئذٍ قال لتلاميذه ان الحصاد كثير وأما الفعلة فقليلون".

+ (أم ١١ :١٤) " لعدم التدبير يسقط الشعب والخلاص بكثرة المشيرين".

تتميز جزيرة ايبوس بجمال طبيعتها الأخاذة، الا أن السواد الأعظم من سكانها يكدّون في زراعة الأرض ليأكلوا خبزهم بعرق جبينهم. وكثيراً ما يواجههم الطقس السيء، أو البرد، أو الأمراض الزراعية ليضيع تعبهم المضني هباءً ويقضي على آمالهم. الا أن سماتهم المنفتحة، العفوية والبريئة، كانت تعكس تماماً وجه تلك الأرض. واضافة الى ذلك، فقد كان هناك شيء سريّ لا يثمّن: انه نفس هذا الشعب الخالدة. وأحس نكتاريوس أن واجبه ومسؤوليته يحتمان عليه استمالة هذه النفس والارتفاع بها بوداعة فوق الدنيويات، وتضميد جراحها وشفاءها، لتقديمها هبة للمحسن اليها، للسيد المخلِّص.

لقد عانت نفس هذا الشعب الخالدة خلال أربع مئة سنة من العبودية السوداء، والنار، والمشنقة في ظل أكثر الحكام اجراماً! وبحسب المنطق البشري والعلم أو خبرة التاريخ، فقد كان من المستحيل أن يعيش هذا الشعب ليشهد اشراق شمس الحرية الذهبية عليه من جديد. واذ ينتفخ كبار هذا العالم وحكماؤه ويرتكزون على المنطق، ينسون الله الكلّي القدرة الذي يحكم الكون. فيتابعون حياتهم غير مقيمين اعتباراً لتجسّد الاله وتضحيته على الصليب وقيامته. واذا بهم يخطئون في توقعاتهم، فتفاجئهم المعجزات! وكانت احدى المزايا الخاصة بهذا الشعب خلال تلك الأعوام السوداء احتماءه تحت أجنحة الكنيسة الأرثوذكسية، تلك الأم الغنية بالنعمة والحق. وهكذا مرّت أعوام العذاب وقرون الجلجلة الرهيبة.

وكانت نفس هذا الشعب تضعف اليوم روحيا، وخصوصاً في الأماكن التي تلمع فوقها شمس الحرية. فقد غاب عنها المرشد الروحي، وأسلمت الى السياسيين الذين يكبلونها بشدة، وأصبحت عاجزة عن السير في طريق الواجب والمسؤولية.

كانت نفس هذا الشعب غارقة في هموم الحياة اليومية، وقد بهرها سحر المال والأمجاد. فأصبحت سكرى وانقادت وراء مثال قادة الغرب، ذلك الغرب الذي نسي ذكرى الصليب ونور جبل ثابور، وتركها تذبل.

لهذا لم يكن وضع نكتاريوس في ابيوس ليؤمن له الهدوء في حال من الأحوال. كانت هذه وصية الله: أن يعمل بكل قواه لتثمير المواهب التي ائتمنه عليها الرب لاكتساب نفس هذا الشعب الخالدة وتحقيق خلاصه بعد معاناته الجزيلة.

لقد أوكلت اليه مدن شالكيس وأليفري وكاريستوس وكيمي واديبسوس وليمني... أي واجب! وأية مسؤوليات!

"وأنت اذن، احتمل المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح. ليس أحد يتجند فيرتبك بهموم الحياة وذلك ليرضي الذي جنّده".*

هكذا اختار مدينة كيمي لاقامته. ووضع برنامجاً للعمل: مواعظ، وخدم ليتورجية، وزيارات تفقدية للمعوزين والمرضى المنعزلين. دون أن ينسى في الوقت نفسه الأشرار والذين يعيشون في الفساد. "بسبب العود طُرد آدم من الفردوس، وبسبب العود أصبح اللص ساكناً في الفردوس". وكان في الوقت نفسه يتابع العمل في مؤلفاته اللاهوتية، وخصوصاً كتاب "الحياة في المسيح"، غارفاً من معين الكتاب المقدس وكتب الآباء. وأخيراً كان يستمع الى الاعترافات عندما تسنح له الفرصة.

واذ نذر ذاته بالكامل لكل هذا العمل، ولم يعد يهتم بنفسه الا قليلاً جداً، انتهى به الأمر الى أن اختصر من ساعات نومه مخصّصاً الليل أيضاً للعمل المتواصل. ومرّت الساعات والأيام دون رجعة، كما تمرّ العصافير. وكان مجروحاً بحب جزع وطاهر لنفس هذا الشعب.

ولكن عندما ينسى الكاهن نفسه، ويرمي جانباً مبهجات الحياة، معتنقاً التضحية ومكرّساً ذاته لارشاد النفوس وخلاصها، فانه يحصل بالمقابل على القوة والنعمة ويتحول الى سيف قاطع ونور مضيء. وعندها فان هذا الكاهن يهتم بالجميع بعدل، فلا ينحني أمام التهديد ولا يقيم فرقاً بين السيد والخادم. ويستقبل الأقوياء والضعفاء بالطريقة نفسها، وكذلك المنبوذين والمتسولين لأنه يعرف أن هؤلاء الصغار، المضطهدين والمتسولين، سوف يصبحون يوماً أمراء

---

* ٢ تيم ٢ : ٣-٤).

في ملكوت الله. ويعرف أن هؤلاء الأمراء سوف يحظون بالاعجاب، وأن الآلام والتجارب التي تعرّضوا لها، وكذلك الاهانات والعذابات، هـي بمثابـة ألقـاب شرف لهم. وأن الملائكة ستستقبلهم وتجلـّهم وتكللهم بأزهار الفردوس الخالدة.

وبفضل المجموعة التي كتبها نكتاريوس في شبابه، وتسنى له نشـرها بعنوان: "كنز الحكماء والقديسين"، كان يمتلك مواضيع لا تنضب لموعظاته: "في العفة والحكمة بحسب الله"، "في الظلم والظالمين"، "في رفض الحقيقة الرسولية"، "في الحياة الخالدة"، "في التعاضد"، في الرغبة الحمقاء"،... الخ. وهكـذا كـانت تمرّ الأيام والأسابيع والأشهر والفصول. فحل عيد الميلاد، وبعده الصوم الكبير، ثم عيد البشارة، وبعده الفصح...

وكان كهنة الجوار يعتبرونه كواحد منهم، وكمجرد واعظ. ولم يعـودوا يقيمون اعتباراً خاصاً لرتبته الأسقفية، بسبب ابتسامته المتواضعة ولطفه. ولـم يكن هذا يضايقه، بل على العكس، فقد كان يتفادى التكريم والمعاملة المميـزة. في قداديس الآحاد، كان يأخذ مكاناً في زاوية صغيرة على يمين الهيكل. وكـان يصل باكراً لينعم بالصلاة السحرية. لم يكـن يـهتم بالمـال ولا يفتـش عـن "العلاوات" التي يمكن أن يحصل عليها من خِدم الأعياد.

فبدأ يحب تلك الجزيرة الواسعة، بغاباتها الظليلـة وتلالـها ووديانـها وشطآنها المتعرّجة؛ فكانت نفسه تنشرح لها وتمتلئ فرحاً. وسوف يذكر فيما بعد كيمي بصورة خاصة، وجزيرة سكيروس الصغيرة المقابلة لـها. ومـن بيـن الحوادث الكثيرة التي حصلت معه خلال السنة الأولى التي قضاها في الجزيرة، وفي وقت ما بُعيد الفصح، نذكر الحادثة التالية: فقد جاءه شـاب يبلـغ حوالـي الخامسة عشرة من العمر ودخل غرفته وكان الوقت مساءً. وفي تلك الفترة كان يحضّر مؤلّفه "استعلان الرب فـي العـالم" وينشـره. اذ قـد نجـح بارسـال مخطوطاتـه الى احدى دور النشر في أثينا، بعد أن فرض على نفسه تضحيات جمّة، وامساكاً، وجهاداً صبوراً. فكانت تصله مسوّدات الطبع الأولية بالبريد كل أربعة أيام تقريباً. وغالباً ما كان يقضي الليل بطوله في تصحيحها. ولم يكن يردّ أحداً من زائريه على الاطلاق. ولا حتى الحيوانات وقطط الحيّ الجائعة، التـي كانت تأتي وتسرق من خزانة طعامه.

كان ذلك الشاب يلبس الثياب الرثّة، وينتعل حذاءً رخيص الثمن، وقـد حلق شعره قصيراً جداً. وكان يميل الى طول القامة، وقد اشتد اصفرار وجهـه. وكانت عيناه تعكسان ألماً عميقاً. واذ رأى نكتاريوس منحنياً فوق أوراقه وفـي يده الريشة، بادره قائلاً:

-"كنتُ في الكنيسة نهار الأحد يا أبتِ، وقد سمعت موعظتك التي تكلمت فيها عن العار. أنا... لا أعرف أبي."

فقال نكتاريوس:
-"ادخل يا ولدي، اجلس. سوف أقدّم لك قطعة من الحلوى.
-"أشكرك، فقد تأخر الوقت ولا داعي لذلك."

وتعب نكتاريوس في اقناع هذا الزائر المفاجئ بالدخول. وما أن استطاع أن يجلسه بقربه على الكرسي المجاور للطاولة حتى انفجر الشاب بالبكاء وهو يقول:
-"سوف أضع حداً لحياتي يا أبتِ. لم أعد أستطيع الاحتمال. سأرمي بنفسي في البحر. أمي تبكي من وقت لآخر، لكنها في الواقع لا تهتم كثيراً بهذا الموضوع. حيثما ذهبت ينعتونني باللقيط. لقد اضطررت لسترك المدرسة ووجدت لي عملاً، لكن عندها أصبح الأمر أسوأ من قبل.
-"أين هي أمك؟
-"اياك أن تكلمها، والا فسأنهي حياتي بسرعة أكبر. اني أشفق عليها، فمن يعرف سبب خطيئتها؟ كانت تقول لي ان زوجها كان يعمل في السفن، وانه رحل في أحد الأيام وتركها وحيدة. وكانت ما تزال شابة صغيرة. هذا ما ترددّه عليّ باستمرار، والله وحده يعلم الحقيقة يا أبتِ. فماذا أفعل؟ انها أمي، وأنا أشعر بالشفقة عليها. لو استطاعت لكانت أجهضت. لكنها لم تجهض. ويا ليتها فعلت ذلك، فأنا لم أعد أستطيع تحمّل سمّ الاهانات. لقد جئتك لأطلب منك أن تصلي لربنا يسوع أن يترأف على أمي لأني لم أعد أستطيع الانتظار، وأريد أن انهي حياتي".

وسكت الصبي والحزن يملأ عينيه الحمراوين. فنهض نكتاريوس من مكانه واقترب منه وصرخ:
-"يا ولدي، يا ولدي . ألا تعلم أن كل الذين هم مثلك، لا أب لهم، فان سيدنا المصلوب كما قلتَ تماماً هو الذي ينحني نحوهم ويتبنّاهم؟ ان الفرّيسيين قد نعتوا أيضاً سيدنا "باللقيط"، وهكذا أيضاً يسمّيه اليهود. وأنا الكاهن الحقير يا ولدي، اني ممثّل المسيح، وسوف أهتم بك. فاذا نعتك أحدهم "باللقيط" ابتداءً من اليوم، فما عليك الا أن تأتي وتخبرني. ومن ناحية أخرى فاني لن أدعك في هذه الحالة. هل تحب ان تسافر؟"

كان الشاب قد بدأ يشعر بالارتياح، فنظر اليه بعينين حزينتين وببعض الفضول ثم تمتم:
-"اني لا أملك المال.

-"أنا سأزودك بالمال... أنا والدك، سأتدبر الأمر".

ولم يكن يملك في تلك الفترة المال الكافي لشراء الصحيفة اليومية، رغم بعض الهبات الصغيرة التي كانت تصله، ورغم نشر كتابه.

-"آه كم أرغب بذلك ! انك سوف تنقذني.
-"اعتبرني والدك ابتداءً من اليوم. اصبر قليلاً حتى أكتب الرسالة اللازمة وأتلقى الجواب عليها. سوف أرسلك الى مصر، وبالتحديد الى مدينة القاهرة الكبيرة عند بعض الأصدقاء، حيث يمكنك أن تعمل وتدرس في الوقت نفسه. سوف تتلقى العلم لتستطيع فيما بعد أن تمجّد يسوع المحسن اليك. لا تبكِ بعد الآن يا ولدي ولا تلفظ كلمة "الانتحار" المسمومة مرة أخرى.تشجّع وعد اليّ بعد غد السبت لأتلو عليك صلاة الحل لأن صغر سنك يخفف وزر خطيئتك".

فوقع الصبي عند قدميه باكياً وقال:
-"لم أكن أنتظر منك هذا الموقف يا أبتِ. فأنت تنتشلني من الموت وتقيمني من القبر... المسيح يا أبتِ، ان المسيح..."

وكالعادة، فقد أخذ نكتاريوس الأمر على محمل الجد الكامل، وذهب للقاء والدة الصبي وقال لها كل ما عنده. وفي وقت قصير تدبّرت كل الأمور بالنسبة الى الصبي الذي يدعى استفانوس. وبعد شهرين استقلّ المركب من مرفأ البيريه مبحراً الى الاسكندرية حيث لن يدمى قلبه من جديد عند سماعه لقبه.

وكان نكتاريوس قد استدان المال من أجل طبع كتابه. وما أن وصلته أول النسخ حتى بدأ بتوزيعها على المقربين. فقد كان في أشد السعادة لرؤية الكلمة المحيية مطبوعة. وكتبت الصحيفة المحلية L EURIPE في صفحتها الأولى:" لقد نُشر كتاب جديد بعنوان "استعلان الرب في العالم"، بقلم متروبوليت المدن الخمس نكتاريوس كيفالاس. والكتاب من ثلاثة أقسام. في القسم الأول يعالج الكاتب موضوع المعجزات، ويبرهن أنها ليست مستحيلة منطقياً، وأن المنطق الحقيقي لا يمكن أن ينكرها. ويعمّق موضوعه في القسم الثاني من الكتاب ليستنتج بأن الله يعلن عن نفسه في العالم بأسره. أما في القسم الثالث، فيبرهن على استعلان الله في العالم على مرّ التاريخ. ونجد أن هذا الكتاب على قدر كبير من الافادة التعليمية، الى جانب فائدته في تثبيت الايمان. لذلك ندعو الجميع بحرارة الى قراءته، خصوصاً وأنه مهدى الى سكان شالكيس وكيمي، وأنه يوزّع للناس مجاناً. وهذا ما يشرّف كثيراً كاتبه الذي طبعه على نفقته الخاصة من أجل تنشئة المسيحيين".

وبعد شهرين حصل أمر مشابه للأول، لكنه لم يكن يتعلق بشاب، بل بفتاة في الخامسة عشرة من عمرها تقريباً. وقد وصلت بعد صلاة السحر. كانت قصيرة القامة، سمينة بعض الشيء. فنزعت منديلها وانتشر شعرها الأسود على كتفيها. وارتمت عند قدمي نكتاريوس وراحت تبكي دون توقف. وقالت:

-"لقد تملـّك والدي الغضب فقتل عمي، شقيقه، لأمور تتعلق باقتسام قطعة من الأرض. فماذا سيحل بنا، نحن بناته الثلاث؟ لقد أتى الجند وأوقفوه، واقتادوه الى نوبليا، حيث يتم اعدام المجرمين. ولا بد أن يعدموه قريباً يا أبتِ..."

ووقف نكتاريوس مدهوشاً يراقب باهتمام هذه الفتاة التعيسة، هذه المخلوقة البشرية، مخلوقة العليّ، سليلة حواء، ومن جنس سيدتنا والدة الاله، وكان يلهث. فما هي هذه الأرض؟ انها بالحقيقة وادي الدموع.

كل ما في هذه الفتاة كان مأساوياً: عيناها، وحركاتها، وحتى شعرها. فاستطاع أن يسألها بعد لحظات:

-"ما اسمك؟

-"رودوبا.

-"اسمعي يا رودوبا، توقفي عن البكاء.

-"لم يبق لي الا أن أضع حداً لحياتي.

-"انت ما زلت شابة وصغيرة السن، فلمَ العجلة؟ سوف أقوم باللازم ليذهب كاهن الى نوبليا فيجد والدك ويخفف عنه وينقذه.

-"وكيف السبيل الى انقاذه؟

-"يجب انقاذه من الخطيئة، خطيئة القتل المميتة.

-"لا تتعب نفسك لأنهم سيعدمونه.

-"سوف يعدمه الناس لأن لهم قوانينهم. لكن أرجو ألا يتخلى الله عنه يا ابنتي. فان تخلى الله عنه، فسيتولى ابليس اعدامه من جديد. وعندها يمكنك أن تستلمي للدموع، وستكونين على حق اذا تألمتِ. ولكن لا، لن يسمح الرب بذلك... سوف أهتم بالأمر. أما بالنسبة اليكن أيتها الفتيات، فهل والدتكن على قيد الحياة؟

- نعم.

- حسناً، سأكون معكن ومع والدتكن على الدوام. وسأحاول منذ اليوم أن أجد لكن عملاً.

- كيف، كيف يا أبتِ، ماذا ستفعل والجميع هنا ينبذوننا لأننا بنات قاتل؟

- سأرسلكن الى مصر... سأهتم بهذا الأمر وبدءاً من اليوم سأقوم مقام والدكن، فالرب المحسن للجميع لا يترك أحداً يغرق في اليأس".

وهذه المرة أيضاً أخذ نكتاريوس كل الأمور على عاتقه. فكتب رسائل عدة، وتدبر أمر سفر الأم وبناتها. وأسكنهن عند عائلات مصرية عريقة، بواسطة السيدة النبيلة جينا ديموستين خوريميس، ابنة أخ المحسن الذي طالما ساعده في الماضي.

الا أنه في هذه الأثناء حدث اضطراب كبير في رعية نكتاريوس الصغيرة وشعب ايبوس.

فقد وصل من وزارة الأديان قرار يقضي بنقله الى اسبارطة للعمل فيها كواعظ. فأحسّ للحظة بالتعاسة لاضطراره لترك هذه الغابات الظليلة والشطآن والأنهار دون عودة. لكن أهذه ارادة الله؟ فانه يجب أن تمرّ فوق كل شيء وقبل كل شيء؛ لا مانع اذاً من أن يُرسَل الى أي مكان : الى الجبال أو الريف، الى منطقة خصبة أو فقيرة سيحضّر حقائبه دون أي فكرة مسبقة. لا يهمّه سوى أن تكون تلك المنطقة مأهولة من قبل مسيحيين أرثوذكسيين.

كان ذلك في نهاية شهر شباط من العام ١٨٩٢، وكان قد أمضى حوالي السنة في ايبوس. وفي الاحد التالي، ومن على منبر الكاتدرائية، قام بتوديع الشعب. وقد اضطرب الجميع، وتأثروا جداً.

الا أن القرار ألغي بعد خمسة عشر يوماً، حين كان يتحضّر ويرتّب مخطوطاته وكتبه: اذ كان الشعب كله قد احتج. فنزلت الوزارة عند طلب الجماهير، وأصدرت قراراً جديداً بالغاء أمر النقل.

وصار نكتاريوس في نزهاته على أرض ايبوس، وعندما يتسلق جبالها وصولاً الى المغاور، أو ينزل الى الساحل، صار يعاين على وجوه الذين يلتقيهم نظرات ملؤها الامتنان والوفاء. وكان الرعاة والصيادون وعمّال المرفأ والمسنون المحدّبون... كانوا يرفعون قبعاتهم عندما يرونه ويقفون باحترام كبير. فيتمتم لهم:

-"يا اخوتي، يا أبنائي... يا أبنائي المباركين من الرب..."

الفصل التاسع

- (مر ٥ :١٧) " فجعلوا يسألونه أن ينصرف عن تخومهم".

+ (أم ١١ :١١) " ببركة المستقيمين تتشيّد المدينة وبأفواه المنافقين تنهدم".

في بداية السنة الثانية تقريباً وفي منتصف الشتاء، توفي خريستوفوروس ستاماتياديس، أسقف شالكيس. وكان ذلك في الرابع من شهر كانون الثاني. وبما أن مكاريوس أسقف كاريستي كان غائباً، فقد طُلب من نكتاريوس أن يرأس خدمة الدفن ويقوم برثاء المتوفي.

وقد أدى نكتاريوس هذه المهمة بانسحاق قلب عميق، وبمحبة وبخوف الله. وألقى موعظة خارجة عن المألوف من حيث الشكل، فبقيت محفورة في القلوب. وخرج الجميع من الكاتدرائية، كباراً وصغاراً وحتى الشيوخ، بنفس متحولة، وهم غارقون في أفكار عميقة ويتمتمون: "يا لنكتاريوس هذا، يا لنكتاريوس..." وفكر الكثيرون بأنه قد يصبح أسقف شالكيس الجديد. وسقطت هذه الفكرة في أرض خصبة وأزهرت: فتناقلها الناس بسرعة كبيرة، وصار الجميع يتحدثون عنها بحماس. ووصلت الى الصحف.

الا أن حماس الشعب ومحبته العفوية لهذا الأسقف ورغبته في اختياره ليكون له المرشد والراعي، قد أدت الى نتائج سيئة: فحلّ الحزن والمرارة بعد وقت قصير. في البداية حصل حادث مكدّر مع مجلس شؤون المطرانية الشاغرة، بعد عودة نكتاريوس من كزيلوخوري في الصيف التالي. وقد أحزنه هذا الحادث لدرجة أنه قدّم استقالته. الا أنه وجد نفسه مضطراً للمواجهة مع الأرشمندريت خريسانتوس أنطونياديس الذي كان يصبو الى الكرسي الأسقفي، مما دفعه الى بذل كل الجهود الممكنة والتواطؤ، وحياكة المؤامرات ليل نهار للوصول الى هذا الهدف.

كان هذا الأرشمندريت مديراً للمدرسة الاكليريكية في شالكيس. وقد استعر غضبه واضطرب، وتأجج حقده عندما رأى اندفاع الشعب العارم ومحبته لنكتاريوس. فبدأ يكتب في صحيفة L'EURIPE مقالات ودراسات حامية موجهة ضد الواعظ. في البداية كان يذيّل مقالاته بنجوم ثلاث. وفيما بعد، ونزولاً عند طلب الشعب، صار يوقع اسمه. واذ فتش في القانون الكنسي الأرثوذكسي

الشرقي، اكتشف ما يلي: "أولاً، منعت كنيستنا المقدسة عن طريق مجامعها المقدسة، حق انتخاب الأسقف من قبل الشعب، لأنها أرادت تجنّب الاضطرابات التي قد تنشأ عن مثل هذه الانتخابات من ناحية، ولأنها قد تؤدي من ناحية أخرى الى وصول أشخاص أمبين الى أعلى منصب في الكنيسة. هؤلاء الذين قال عنهم القديس يوحنا الذهبي الفم انهم لا يصلحون سوى لرعاية الحيوانات. كما أنه من غير المسموح أن يترك أحد الأساقفة الكنيسة التي أوكلها الله اليه، ليهتم بكنيسة أخرى. الخ..."

وقد حضر الى نكتاريوس اثنان أو ثلاثة من الأصدقاء من شالكيس، وجاؤوه بالصحيفة الى غرفته. فقرأ المقالة المذكورة أعلاه التي كتبها الأرشمندريت الحكيم، بحججها العلمية، وابتسم. لكنه كان قد تلقى ضربة خنجر جديدة في صدره. وبقي متفكراً لبعض الوقت ثم تمتم:

-"أنا لم أترك كنيستي.
-"نحن نعرف ذلك يا صاحب السيادة. هو الآخر يدينك ظلماً ويفتري عليك. حضّر ردّك عليه وأنّبه. ونحن بانتظار أن تكتب الجواب حالاً لنأخذه معنا، ونجعل الصحيفة تنشره في عددها التالي".

فرفع نكتاريوس نظراته المعبّرة وقال:
-"ليجعله الله الرؤوف مستحقاً للدرجة الأسقفية، فهو يبدو نشيطاً ومتعلماً.
-"ماذا تقول يا صاحب السيادة؟ وهل أنت جديّ في قولك؟ اذا لم تؤنّبه، فماذا يقول الذين يعتمدون عليك، والذين يتعبون ويعملون كثيراً من أجل...
-"قد تؤدي رسالتي الجوابية الى تكدير بطريرك الاسكندرية، وهذا ما لا أريده. أما الرب فيعرف كل شيء. انه يعرف أخطاء الجميع.
-"طبعاً طبعاً، ولكن في ظل الظروف الحالية...
-"لا أهمية لهذا الأمر، فالناس يعبرون، الا ان كلمة الرب تبقى على مرّ الأجيال. لا تحزنوا يا أصدقائي، فلا بأس علي. لا، لن أشتكي من كتابات خريسانثوس".

ولكن الله الكلي القدرة" يفحص الكلى والقلوب"، فان خريسانثوس كان يبذل قصارى جهده للفوز بكرسي شالكيس، حتى انه لم يوفر النميمة الكاذبة ضد هذا الواعظ المسالم. ان خريسانثوس هذا لم يصبح أسقفاً رغم أنه كان مرشح المجمع المقدس، كما أنه لم يصبح أسقفاً في أي مكان آخر. وقد سيم مكانه أوجينس ديباستا في أوائل شهر آب.

ولم يتسنَ لنكتاريوس التعرّف الى رئيسه الجديد للترحيب به والتحدث اليه: ففي ١٦ آب ١٨٩٣، أي بعد سنتين ونصف بالضبط من قدومه الى ايبوس، وصلته رسالة جديدة تحمل توقيعات وأختاماً كثيرة، تعلمه بقرار نقله الى منطقتي فتيوتيس وفوكيس. وقد كان بانتظار هذا الحدث: فقد عرف أنه لن يستطيع التجذر في هذه الأرض! وكان بعض الأصدقاء يحاولون أن يجدوا له مركزاً أفضل في أثينا، في مدرسة اللاهوت المدعوة "ريزاريو".

وفي الأيام الأخيرة الباقية له في الجزيرة، راح يزور الأحياء الفقيرة وعمّال المرفأ والفلاحين. والتقى المزارعين المنعزلين، والصيادين، والجنود السابقين، والكثير من المرضى.

وكان يبدو على وجوه كل الناس حزن صامت كأنه قلقٌ، وكانوا يقولون له:

-"هكذا أنت ترحل يا أبانا، ونحن...

-"أنتم ستصلـّون وتطلبون من الرب...

-"يؤلمنا أن نكون قد عرفناك، وكان الأفضل لو أننا لم نلتق بك".

وكان نكتاريوس يجهد في كبت تأثره، فيقول بصعوبة:

-"سأذهب باتجاه الشمال، نحو مدينة لميا؛ الا أن أفكاري وقلبي ستبقى بقربكم على الدوام".

ويوم رحيله، تجمّع حوله حشد كبير من كل الأعمار. وكان الناس يدسّون في يديه الزهور والحبق، وكان يصرخ اليه البعض:

-"لم نستطع أن نحتفظ بك!

-"ماذا سيحلّ بنا الآن؟

-"لا تنسنا أبداً، لا تنسنا..."

وكان نكتاريوس يجيب:

-"سأذهب باتجاه الشمال".

وفي وسط هذا الحشد ظهرت وجوه بعض المسنين التي حفرتها السنوات، وكانوا يحملون أوراق الريحان. وكان معظمهم يرتدون الفوستانيلا* ويسيرون مجتمعين بخطى بطيئة. وراح الجميع يتباعدون أمامهم ليفسحوا لهم

* التنورة القصيرة والمجعّدة التي يلبسها الرجال في اليونان (المترجم).

في الطريق حتى وصلوا الى نكتاريوس. فأحاطوا به وهم يحنــــون رؤوســـهم، ودون أن تصدر عنهم كلمة أو ابتسامة، سجدوا له الواحد بعد الآخر وقبّلوا يده.

وكانوا يمثلون شيئاً فائق الوصف، زياحاً لعابرين منهكين، لجـــة مـــن التاريخ والزمن. فقالوا له:

-"سوف نلتقي هناك، في الوطن السماوي".

وبقيت عيونهم الغائرة مغشّاة ومن دون تعبير، عاجزة عـــن الافصـــاح عن مدى التأثر وحتى عن البكاء.

الفصل العاشر

(لو ٧ : ٣١ – ٣٥) "وقال الرب بماذا أشبه رجال هذا الجيل ومن يشبهون. يشبهون صبياناً جلوساً في السوق يصيحون بعضهم ببعض قائلين زمّرنا لكم فلم ترقصوا، نحنا لكم فلم تبكوا. جاء يوحنا المعمدان لا يأكل ولا يشرب خمراً، فقلتم ان به شيطاناً. وجاء ابن البشر يأكل ويشرب فقلتم هوذا انسان أكول شرّيب للخمر، محب للعشارين والخطأة. وتبرّأت الحكمة من جميع بنيها".

وفي اليوم الذي كان متوقعاً أن يغادر فيه المركب ممر الأوريبوس متجهاً نحو ستيليس، مرفأ فتيوتيس، كان ساعي البريد السيد خارلمبوس، يبحث عن نكتاريوس في كل مكان. واذ وجده قال له:

–"احمل رسالة اليك يا صاحب السيادة.

–"من أين هي؟

–"من خاريستوس".

فابتسم نكتاريوس، وتناول الرسالة بتأثر صامت. وفضّها ليقرأ ما ورد فيها:

–"ان شبان وشابات خاريستوس يعبّرون لسيادتكم عن عرفانهم بالجميل لنصائحكم الأبوية وسهركم على حياتهم الروحية..."

وكان في أسفل الصفحة مئة توقيع.

وبعد خمسة عشر يوماً، تلقى نكتاريوس في لميا الرسالة التالية من كيمي:

"اسمح لي يا صاحب السيادة أن أنقل اليك بتكليف من مدينتي والمنطقة كلها، الحزن الذي يسببه لنا رحيل قداستكم عن ايبوس بعد مكوثكم فيها سنتين ونصفاً، ممارسين الوعظ. كما تعبّر لكم المنطقة كلها عن محبتها الكبيرة لقداستكم. وان الاحترام الكامل من قبل الجميع كباراً وصغاراً هو خير تعبير عن مشاعر الجميع الصادقة في بلد استطعتم أن تأسروه بفضل مواعظكم وحياتكم المسيحية. ان كيمي وكامل منطقة أوخاريستي سوف تتذكران على الدوام وبفرح كبير اقامتكم بيننا. كما أن مؤلفاتكم الروحية التي جهدتم في كتابتها

ونشرتموها، سوف تـُبقي تذكاركم في الأذهان الى الأبد. ولقد كان من دواعـي حظنا لو حققت لنا وزارة الأديان أمنياتنا، ولو أننا حظينا بسعادة الاحتفاظ بكـم لسنوات أخرى عديدة بيننا. ولكن وبما أن القيمين على الكنيسة الحريصة علـى أولادها قد كان لهم رأي آخر، فاننا نحترم قرارهم ونرجو لقداستكم بكل صـدق سفراً موفقاً وأعواماً عديدة. كما نضرع لقداستكم بألا تنسونا في صلواتكم علـى الدوام. واذ لنا ملء الثقة بصلواتكم وبركاتكم، نقبّل يدكم اليمنى مـع عرفاننـا بالجميل الى الأبد."

كيمي في ١٠ أيلول١٨٩٣ .
مختار المدينة: ك. سارافينوس.

الفصل الحادي عشر

- يو ١٩ : ٢٥) "وكانت واقفة عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم التي لكليوبا ومريم المجدلية".

عند وصول نكتاريوس الى مدينة لميا حاملاً أمتعته، كان هناك بعض الأشخاص الذين ينتظرونه بداعي الفضول. وهم أشخاص طيبون من مدينة ... دياكوس، أحد أبطال المقاومة ضد الأتراك.

وبما أن أسقف المدينة كان غائباً للمعالجة بالمياه المعدنية الحارّة، فقد حضر ممثله مع مختار المدينة وبعض الكهنة لاستقبال نكتاريوس. فاصطحبوه الى المطرانية وقدموا له القهوة والحلويات، وتمّ التعارف. وقد شعر نكتاريوس بالسعادة والاطمئنان منذ أن وقع نظره على هذه المدينة. ثم سأل بعد برهة:
- "أين يمكنني أن أسكن يا حضرة المختار؟"

فأجابه المختار بلطف:
- "لا تقلق يا صاحب السيادة، فعندنا بعض الغرف، وبعض البيوت الشاغرة لإقامتكم. وسوف يتكفل امين سر المجلس البلدي بترتيب هذا الأمر".

وبعد ساعة اصطحبه أمين السر في عربة خيل ليزور بعض البيوت. وأخيراً اختار نكتاريوس بيتاً بعيداً عن وسط المدينة وساحة السوق . وكان صاحب البيت يدعى خارلمبوس ساكوبولوس، وهو رجل في الخامسة والأربعين من العمر، موظف في المحاسبة. وكان يُعرف بأنه رب عائلة صالح. وعند وصول نكتاريوس أمام البيت ابتسم، ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات، وقرر أن ينقل أمتعته وكتبه الى هذا المكان.

وسار كل شيء على ما يرام. أعطته العائلة الغرفة الكبرى والأكثر ... بفضل نافذتها الشرقية.

وقد أثبت صاحب البيت صحة سمعته: كان مسيحياً ومؤمناً بسيطاً، ... يعمل جاهداً لاعالة امرأته وأولاده. وكان يعمل من الصباح حتى ... متأخرة من الليل لدى تجار بالجملة ومربّي حيوانات. ومع ذلك فقد كان

يبدو سعيداً على الدوام وهو يؤلف مع زوجته وأولاده مثال الحياة العائلية. كانوا ذوي نفوس طيبة لا غش فيها.

في غرفة الأولاد عُلـّـقت مجموعة أيقونات في أعلاها أيقونة كبيرة جداً تمثل الثالوث القدوس. وتحتها أيقونات أصغر حجماً، احداها للقديس أشيلـّوس وأخرى للقديس ميناس الصانع العجائب، ولرئيسي الملائكة: ميخائيل رئيس القوات السماوية حاملاً رمحه، وجبرائيل المتقدم، ملاك المهمات السرية والثقة المطلقة. وكان السراج يبقى مضاءً ليل نهار . ورغم ضيق معيشة هذه العائلة واحتياجاتها التي لا تـُعد، فانها لم تقصّر يوماً في ابتياع زيت السراج. ولم يكن نكتاريوس قد عاش ضمن عائلة كهذه منذ رحيله عن ليتي.

وقد سأله رب هذه العائلة، صاحب الابتسامة المباركة، هذا المضيف المتواضع والمَتعَب الذي تحدّب ظهره لكثرة الكتابة والانحناء فوق الأرقام طوال النهار:

-"أين ستلقي موعظتك يوم الأحد القادم يا صاحب السيادة؟"

وكان هذا النوع من الأسئلة يشبه قطرة الندى التي تنعش وحدة نكتاريوس ونسكه، وتعطيه الشجاعة والثقة وتفرحه. فأجاب:

-"لقد طلبوا مني في المطرانية أن اذهب الى غالاكسيدي. فما رأيك يا سيد خارلمبوس؟"

فأجاب رب العائلة بسرور طفولي:

-"آه، ان غالاكسيدي مدينة مجيدة ببحّاريها. وقد شهد مرفأها رحيل مراكب كثيرة من جميع الأنواع. لا بد أنك ستتحدّث الى النساء بصورة خاصة لأن الرجال مسافرون. المخازن قليلة جداً وتكاد المقاهي تعدّ على الأصابع. انها مدينة عمالقة البحر الذين يكسبون عيشهم من الصراع الملتحم معه. لا تنسَ يا صاحب السيادة أن تصلـّي من أجلهم بوجه خاص. فهم اليوم قد فقدوا مجدهم السابق بسبب التقدّم الصناعي للمراكب والسفن البخارية.فنسيهم الناس وصاروا يجهدون لكسب خبزهم اليومي."

والواقع ان نكتاريوس لم ينسَ في حياته الموعظة التي ألقاها في تلك القرية البعيدة: كانت الكنيسة تغص بالنساء والأولاد. وكان الجميع يديرون صوبه وجوهاً جدّية، مستغرقة في التفكير، وعليها مسحة خفية من الحزن. انها وجوه أشخاص اعتادوا أن يختاروا بصمت درب الصعود الصعب، دون أن يفتشوا عن دروب أخرى قد تكون أكثر سهولة. وكانت النساء اللواتي يلبسن السواد كثيرات العدد: انهن أرامل دون شك، وأمهات حزينات خطف البحر

الهائج أجساد أزواجهن وآباء أطفالهن ليقدّمها طعاماً للحيتان. وكان هناك أيضاً بالطبع بعض الشابات اللواتي لم يختبرن بعد شيئاً من مرارة الحياة المشتركة، وما زلن يبنين الأحلام. كن يبتسمن ويلمع في عيونهن الانتظار السعيد. وكانت جميع النساء ينظرن بأعين متوسلة الى أيقونة سيدتنا والدة الاله. وكن يفهمن بالتأكيد، بغريزة الشعب التي لا تخطئ، العذابات التي عانت منها العذراء، ودموع الألم التي ذرفتها واستحقت بفضلها السماء والملائكة والجلوس بقرب العرش المقدس. هذه المختارة من مختاري الأرض، المباركة وحدها، هذه الزهرة التي لا تذبل والتي صارت أماً لجميع المسيحيين، فاتحة ذراعيها على الدوام لمؤاساة الحزانى.

وعندما خرج نكتاريوس من الهيكل ليلقي موعظته، فكر في نفسه مرة جديدة:"آه، للأرثوذكسية، أرثوذكسيتنا الوديعة والصبورة! كم تتعاطف مع ولادها المجاهدين! كم تنتظر بقلق لكي يتغلبوا على المحن ويخرجوا ظافرين مادّين أيديهم لاقتبال اكليل المجد!" كان قلبه يخفق بقوة، وخرج كلامه كسيل من نار. وقد تكلم عن الصبر مستلهماً المقالة الثامنة والسبعين لأنطيوخوس، راهب من غلاطية. فبدأ كلامه بالقول:

-"يا اخوتي وابناء الرب. اني أرى نفوسكم تتـّجه بتضرّع صامت نحو الكلية القداسة والدة الاله. ان كنيستنا الأرثوذكسية تصوّرها دائماً في مكان ما في توسط بين السماء والأرض، بين الرب الكليّ القدرة وكنيسته المجاهدة. انها هي محاميتنا الفضلى: فهي تتلقى تضرّعات الجميع وتعرف أحزاننا وآمالنا كلها، فترفعها الى الرب بدالة الأم نحو ابنها الرب المصلوب والغالب الموت والقادر على كل شيء في السماء وعلى الأرض وفي الجحيم أيضاً.

"لا أريد أن اتوسّع أكثر في الحديث عن دورها السامي والمحسن الينا. فان القلب المسيحي الصادق يفتش ويتعلـّم. أريد فقط أن أتكلم عن فضيلة عظيمة كانت تتحلى بها خلال حياتها على الأرض: أعني فضيلة الصبر.

"تصوّرن يا بناتي مقدار ما احتملته والدة الاله على هذه الأرض، وادي الدموع. تصوّرن كل ما احتملته منذ طفولتها اليانعة. وعندما نطقت لأول مرة وهي بعد شابة صغيرة بهذه الكلمات الخلاصية: "هوذا أنا أمة للرب، ليكن لي حسب قولك"، كما قالت لرئيس الملائكة العظيم الذي بشـّرها بالتدبير المعدّ لخلاص العالم.

"وللكلام على كل لحظة من حياة أمنا القديسة الكلية النقاوة على الأرض، يلزمنا مجلدات كاملة لوصف معاناتها من الارتياب، والتعب، والفقر، والتمزق، والوحدة. لقد كانت وبقيت وستبقى دائما من أهم عمالقة الصبر،

فأدهشت الملائكة وسحرت القديسين بصبرها هذا. يا بناتي لا تُكلَّـــــل التوبــة مــن دون الصبر. ونحن نعجز عن اقتناء أية فضيلة كانت من دونه، ولا واحدة على الاطلاق. "يجب تقبل جميع الصعاب والأحزان بصبر وأعمــــال صالحــة للفوز بأرض الميعاد". ألم يقل ربنا الكلي الوداعة، وهو فرحنا وسعادتنا، ربنـــا يسوع المسيح:" من يصبر حتى المنتهى يخلص"؟ وعندما رجاه أعظـم رسـله، القديس بولس، أن يشفيه من الشوكة التي كانت تعذبه، أجابه بـــالقول:" تكفيـك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل..."

وفي نهاية الموعظة سُمع تنفس الصعداء في جميع أرجاء الكنيسة. وبعد انتهاء الخدمة الليتورجية تحلق حوله الناس من كل الجهات، ورجوه ألا يرحــل عنهم. فمكث ثلاثة أيام في غالاكسيدي من أجل تعزية بعض الأشخاص الخائري النفس. وعند عودته الى البيت أصيب بالبرد، فاضطر لملازمة الفـــراش لمــدة عشرين يوماً.

لحسن الحظ أنه كان في رعاية أيدٍ أمينــــة: فقــد قــدّم لـــه مضيفـــاه وأولادهـــما كل ما كان يحتاجه للشفاء، وأحاطوه بكل الاهتمام اللازم.

وخلال هذه المرحلة التي قضاها مريضاً، تسنى لنكتاريوس أن يشـــــهد رؤيا في نومه: فقد رأى نفسه وحيداً في سهل أخضر، وقــت المســاء، وهــو يرتـــل على مهل نشيد:" أيها النور البهي". وفجأة أصبح كل شيء مضيئاً بنــور يعمي الأبصار. وظهرت أمامه على بعد خمسة أو ستة أمتـــار سـيدة ترتـدي ملابس بسيطة. وكانت على وجهها امارات الوقار والحزن، ويلتمع على كتفيـها نجمان. وكان يرافقها رجلان يشبهان الرهبان. وتهيّأ لنكتاريوس أنهما القديسـان باسيليوس الكبير وغريغوريوس بالاماس. فنادته السيدة بصـــوت نـديّ كميـاه الينبوع:
-"نكتاريوس!"

فنظر اليها وقد جمد من الخوف، وتمتم:
-"سيدتنا، والدة الاله! لقد تنازلتِ..."

فتابعت:
-"لا تضطرب. كنا سندعوك للالتحاق بنا. فالبارحـــة مســاءً كـــان الملائكــة يتحضرون لاستقبالك...
-"آه، لم أفطن لذلك. لم أفطن اطلاقاً لشيء من هذا النوع".
-"...ولكن الرب ارتضى أن تبقى. وسوف تتابع سلوك الطريـــق المحزنـــة، لا أعرف كم من السنوات بعد."

فتمتم نكتاريوس:
-"سيدتنا والدة الاله لا ترحلي، لا تتركيني، انا خائف!
-"اهدأ وتابع جهادك، فالرب سيعينك".

* * * * * *

وفي اليوم التالي فتح نكتاريوس عينيه فرأى في غرفته، بقرب الخزانة، صبياً صغيراً. انه قسطنطين أحد ولدي مضيفه. فقال له بصوت خافت:

-"سامحني يا صاحب السيادة، فقد أتيت اليك خفية عن أمي.
-"هذا أنت يا كوستي؟ ماذا تريد يا بني؟
-"آه، لا أعرف...أنا أحبك، فأنت توحي اليّ بالكثير وتجتذبني. لا أعرف".

فردّ نكتاريوس:
-"وأنا أيضاً أحبك يا كوستي الصغير، أنا أيضاً أحبك. ليقوّم الله الـهنا وسيدنا سبلك نحو الخير".

فقال الولد:
-"أريد أن أتعلم قراءة الكتاب المقدس لأستطيع أنا أيضاً أن أنطق بكلمات الهية، وأرتل الطروباريات".

فابتسم نكتاريوس بمحبة وقال له:
-"هذا متوقف عليك".
فدهش الصبي وسأل:
-"ماذا تعني؟
-"في أي صف أنت الآن؟
-"في الصف الثاني الابتدائي.
-"عظيم، عليك أن تدرس دروسك باجتهاد واتقان، أن تطيع والديك وتحب خوتك وأن تصلي. عليك أن تصلي يا كوستي لأن يسوع يهتم بكم أنتم الصغار بشكل خاص. وهو يحبكم كثيراً.
-أجل يا صاحب السيادة. أشكرك كثيراً. وسأفعل كل ما تقولـه، وسأصلي يضاً لأجلك.
-شكراً يا ولدي. أجل، صلّ لأجلي أنا أيضاً."

ومنذ ذلك الحين صارت نفساهما وكأنهما متحدتان، وأصبحا صديقين. لم يكن قسطنطين يفوّت فرصة واحدة لملاقاة نكتاريوس وطرح الأسئلة عليه والتعلّم منه. كان يبدو أن هذا الصبي يملك مزايا خلقية كبيرة.

ثم حلّ عيد الميلاد. ولأن نكتاريوس يعرف جيداً رغبة الصبي، فقد طلب من والده أن يسمح له باصطحابه في جولته التبشيرية في أمفيسا ودوموكو وأطلانتا. فتسنى لهما أن يتكلما مطوّلاً، وتعلّم الصبي الكثير فيما يختص بكنوز الكنيسة...

الا أن صحة نكتاريوس كانت تتراجع منذ ذلك الحادث الذي أصيب فيه بالبرد وأجبر على ملازمة الفراش لعشرين يوماً . فصار يتعب كثيراً خلال تنقلاته. وغالباً ما كان يُصاب بالدوار وبارتفاع الحرارة. وفي ذلك الوقت كان أصدقاؤه في مصر يتابعون المساعي لارساله الى أثينا. كما كانت تصله رسائل عديدة من الاسكندرية موقعة بأسماء أشخاص لا يعرفهم، أو نسيهم. وكانوا يكتبون اليه عن الأمور نفسها تقريباً: أن صفرونيوس صار كهلاً، وانه لا يقود الكنيسة شخصياً، وان الجميع مستاء منه. وأنهم يفعلون كل ما يلزم لكي يعتلي نكتاريوس عرش الاسكندرية.

وينبغي أن نذكر أنه استلم مرة رسالة من هناك، وكانت على درجة كبيرة من الجديّة. وكان كاتبها من أبرز الأعيان، وقد عُرف في الوقت نفسه بانه محسن كبير لليونان. واذ قرأ الرسالة ابتسم، وراح قلبه يخفق بشدة وتذكر الأيام الماضية وتأمّل في شؤون الكنيسة كافة، والحالة السياسية وما يجب عمله...

وكان الصبي قسطنطين الى جانبه في ذلك الوقت، فسأله:

-"ما رأيك يا كوستي اذا طُلب مني السفر الى مصر، فهل تأتي معي؟"

فدهش الصبي وسأله:

-"وهل المكان بعيد جداً؟

-"أجل، انه ليس بقريب من هنا. فيه أناس آخرون ولهم عادات مختلفة عنا".

فسكت الصبي وبقي شارد الذهن لبعض الوقت، ثم بدا كمن يلقي نفسه في الماء، فرفع ذراعيه قائلاً:

-"بلى أذهب معك! ولكن عليك أن تخبر والديّ بالأمر هذا المساء. هل سنجد أولاداً هناك؟"

وتبع ذلك صمت طويل ثم قال نكتاريوس أخيراً:

-"اهدأ يا كوستي. في الحقيقة أعتقد أنهم لن يدعونـي، اذ ان هناك أشخاصاً آخرين يهمهم الأمر".

وعندها خجل الصبي، فهل خابت المغامرة؟ ثم صرخ:
-"سأذهب معك أينما ذهبت يا صاحب السيادة! أنت تعرف بأني أحب الكهنة وأحترمهم. وأحب كل الذين عرّفتني بهم هنا وفي أطلاننا"

فأجاب نكتاريوس:
-"أجل يا ولدي، لقد لاحظت ذلك. وأرجو أن تحافظ على هذا الشعور طوال حياتك".

* * * * * * *

في بداية شهر آذار ومع نهاية الشتاء، تحوّل الأمل الضعيف والمرتعش الذي كان يراود نكتاريوس الى حقيقة: فقد جاءه خبر تعيينه مديراً للمدرسة اللاهوتية في أثينا المعروفة ب :"ريزاريو".

من جديد أحسّ بفرح داخلي كبير، وفاض في نفسه شعور بالامتنان: ان الرب، آدم الثاني، المخلص الممتلئ بالحنان قد أعطى موافقته... وهكذا فقد آن الأوان لوضع حد للأسفار المستمرة في مناطق الريف، وللمتاعب الجسيمة والأسهار؛ للتركيز قليلاً على الدراسة والكتابة ونشر بعض الكتب التي تهدف بشكل رئيسي الى التبشير بهذا اللاهوت الحيّ الذي ينساه الناس. فكانت المسألة اذن أن يجاهد لانشاء نواة من شبان قد يصبحون منارات ومرشدين، وبمثابة نخبة في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية.

وقبل أيام من صدور القرار الرسمي بتعيينه، كتب اليه أحد أصدقائه الحميمين، ويدعى زوسيماس فلاندليس رسالة. وكان مسيحياً مؤمناً، يدرّس اللغات الأجنبية لأولاد العائلات الثرية. ولم يتسنّ لنكتاريوس أن يلتقيه لأنه أصيب فجأة بالمرض، واضطر لملازمة الفراش قبل أيام من عيد البشارة. كان هذا الرجل يتابع بالسر كل ما يختص بتعيين نكتاريوس. وكثيراً ما كان يكتب له عن هذا الموضوع بصورة مفصلة:" بحسب المواد المرعية الاجراء الواردة تحت الأرقام ١٩و٢٠و٢١ من نظام المدرسة، وبناء على اقتراح وزير الشؤون الاكليريكية والتعليم الرسمي، السيد د. كاليفورنا، فقد تقرر تعيينكم. الا أن مصاعب كثيرة جداً قد برزت، وخصوصاً بسبب ورود معلومات من مصر لغير صالحكم".

وقد تأثر نكتاريوس كثيراً عند قراءته هذه الكلمات الأخيرة، فتساءل:
-"لماذا يتابعون اضطهادي؟" وراح يتفكر طويلا.

وفي اليوم التالي قـبَل دعوة عائلة السيد خارلمبوس، صاحب المنزل، للغداء. وقبل ذلك بوقت قصير، كان قد تكلم في موضوع رحيله مع صديقه الصغير قسطنطين. فبدا الصبي حزيناً، وتراجع الى زاوية بقرب المكتبة. وراح يراقب نكتاريوس من مكانه بصمت وبنظرات متوسلة. وبعد وقت قصير فاضت عيناه بالدموع. وفكّر نكتاريوس في نفسه ان هذا الأمر حقاً غريب، كيف أن التجاذب بينهما متبادل، وأن هذا الصبي يرغب فعلاً في التكريس. فقال له محاولاً تهدئته:
-"لا تقلق يا ولدي كوستي، فالله عظيم، ومن يدري ماذا سيحدث؟"

وكان هذا الغداء الوداعي مفعماً بالحب والتأثر. وكان أفراد العائلة يجهدون لاخفاء ألمهم. فتكلم نكتاريوس، واستدار نحو السيد خارلمبوس الطيّب وزوجته، وقال:
-"هل تريدان أن تسديا لي خدمة؟
-"بالطبع يا صاحب السيادة، اطلب ما تريد وقدر ما تريد من الخدمات.
-"أريد أن توافقا على أن اصطحب معي قسطنطين ليتابع دروسه في مدرسة "ريزاريو". فهي مدرسة عادية ومدرسة كهنوتية في الوقت نفسه".

وفوجئ الجميع وصمتوا، اذ لم يكونوا يتوقعون شيئاً من هذا. فتابع نكتاريوس:
-" شرط أن يكون ولداً طيباً وأن يستحق ذلك. أعدكم بمراقبته على الدوام وبشكل صارم؛ وسأكون مسؤولاً عن مستقبله".

فسأل الوالد الصبي بلطف:
-"كوستي، هل تريد الذهاب مع صاحب السيادة؟"

فسكت الصبي قليلا وهو يفكر ملياً ليخرج نفسه من المأزق. ثم غمز بعينه وتمتم:
-"سآتي لزيارتكم في الصيف".

فسألته شقيقته ديسبينا التي تبلغ من العمر أربع سنوات:
-"وهل ستصبح كاهناً؟"

فأجاب نكتاريوس:

-"ان هذا يتعلق بأمور كثيرة... وأولها واجباته العائلية. وبما أنه يرغب بمساعدة أهله واخوته وأخواته... فقد لا يصبح كاهناً".

وعندها التقت نظرات الكاهن والصبي، ورأى الولد في عيني الأسقف البرّاقتين ما يشبه مرور الظل. ثم قال الوالد وهو ينظر الى زوجته وابتسامة تضيء وجهه:
-"نشكرك يا صاحب السيادة، فهذا شرف عظيم لنا ونحن ممتنون لك من كل قلبنا.
-"لا داعي لشكري. أرجو أن يعطينا الرب الحنون بركته فتسير الأمور بالشكل الأفضل. وله وحده يعود كل الشرف وكل الامتنان".

وبعد أيام اجتمع كل سكان لميا تقريباً وسكان المدن المجاورة، لمرافقة كاهنهم المحبوب، قديس المدن الخمس الموقر، حتى مرفأ ستيليس وصعوده الى المركب الذي سوف ينقله الى البيريه.

وقد أُصعد نكتاريوس بأبهة كبيرة الى عربة يجرّها حصان، وطُلب من السائق أن يقودها ببطء شديد حتى يستطيع الجميع أن يسيروا وراءه.

كانت الفتيات يحملن باقات من الزهور، والأولاد يلوّحون بأعلام صغيرة. وكان الرجال يحملون رايات كبيرة صنعوها بأنفسهم. وكان ذلك الاحتفال عفوياً ومؤثراً جداً، كما حدث في ايبوس لكنه كان أكثر أبهة وتأثيراً.

كانت أرض الوطن اليوناني الحرة بأكملها، بريفها وجبالها وسهولها تشيّع هذا الكاهن المتواضع، بحرارة وبحب مؤثّر. وكان الجميع يرافقون هذا الكاهن المتواضع الذي أرسله الله اليهم ليزرع البزرة، ولارشادهم بالكلمة والمثال نحو ضياء جبل ثابور ونور الملكوت.

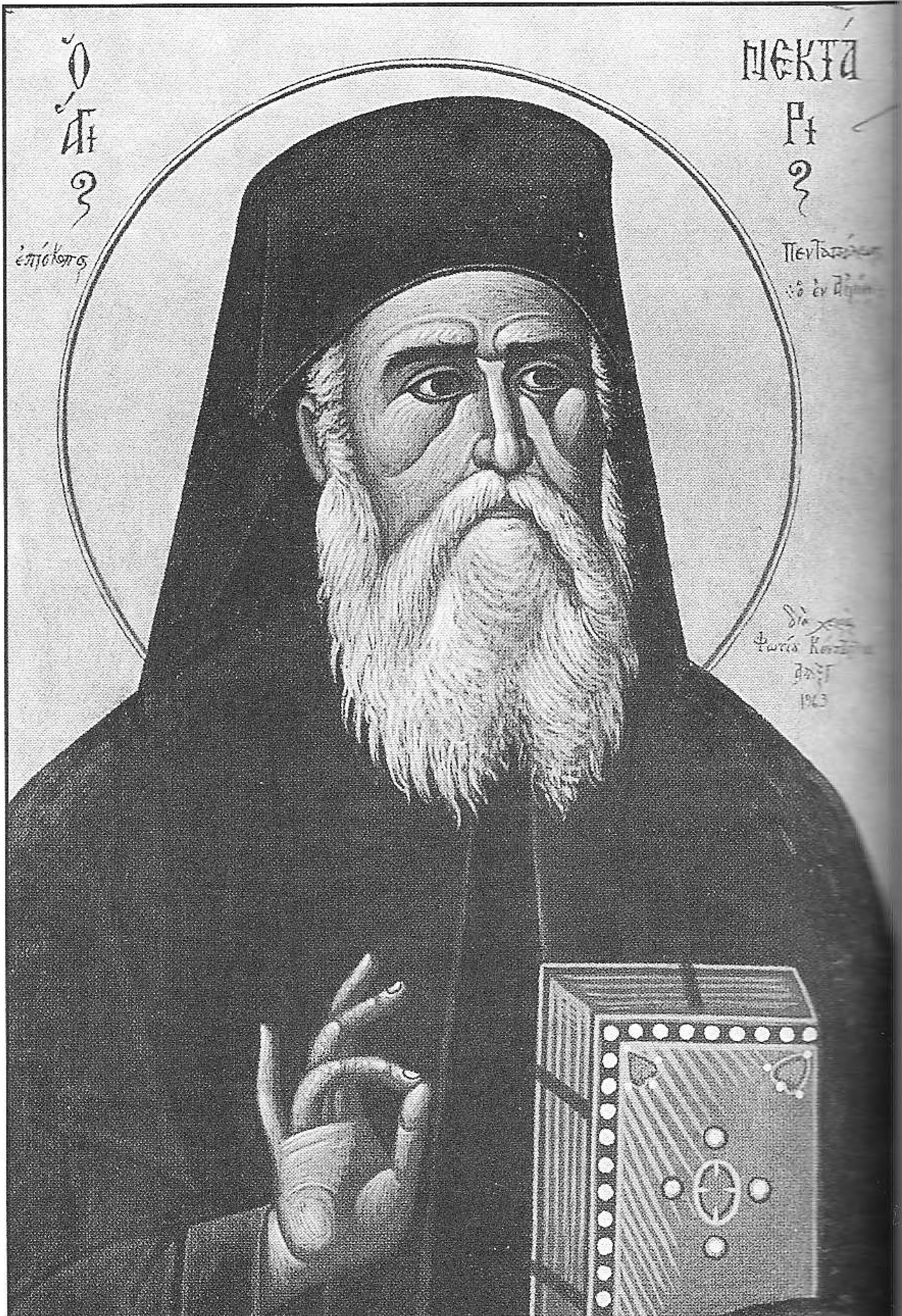
ΝΕΚΤΑ
ΡΙΟΣ
ἐπίσκοπος
Πενταπόλεως

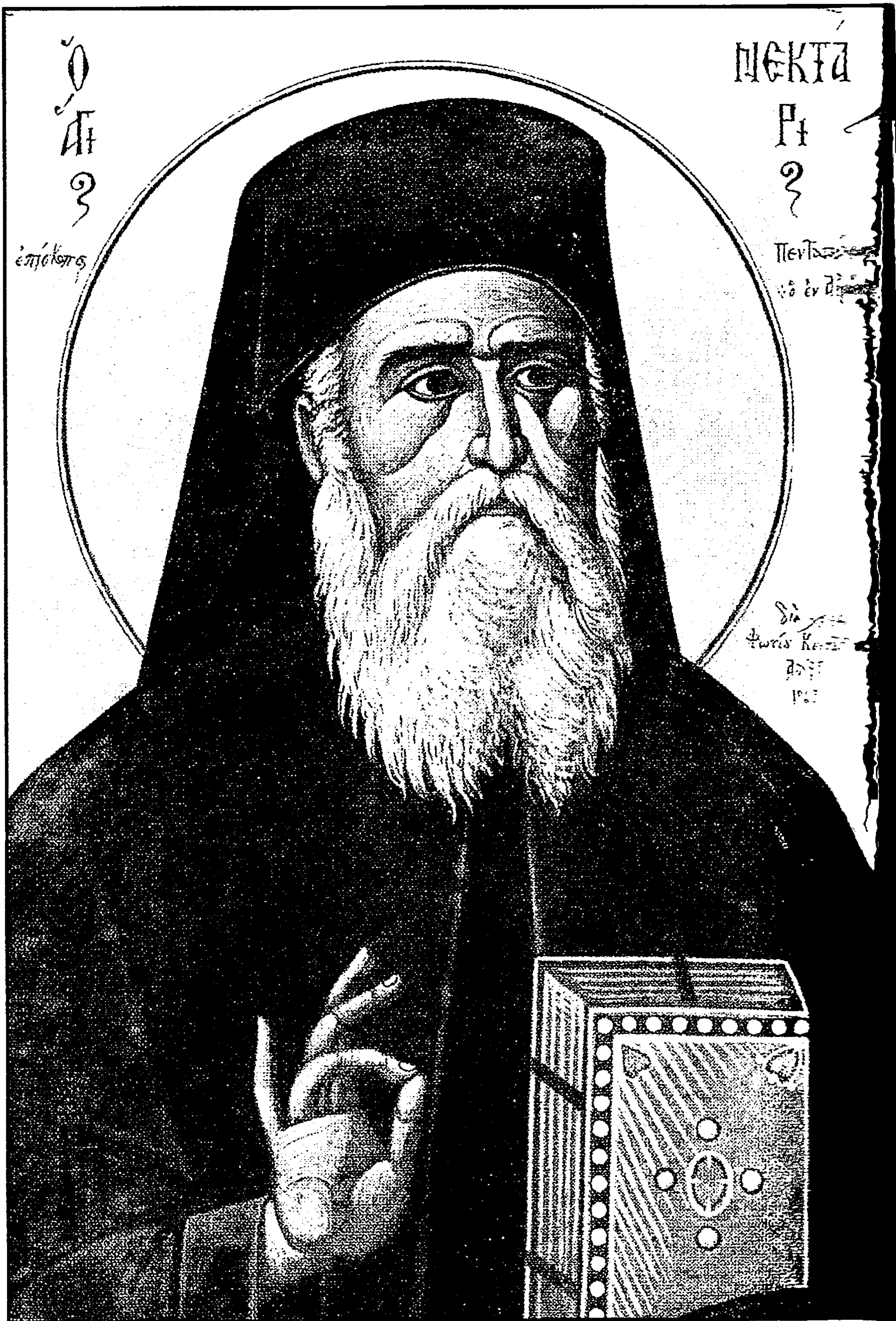
ΝΕΚΤΑΡΙΟΣ
ἐπίσκοπος

الجزء الثالث

الفصل الأول

+ (لو ١٧ :٢٦- ٢٧) "وكما كان في أيام نوح، كذلك يكون في أيام ابن البشر، فانهم كانوا يأكلون ويشربون ويزوّجون ويتزوجون الى اليوم الذي فيه دخل نوح الفُلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع".

+ (٢ كور ٥ :١٦) "فنحن اذن من الآن لا نعرف أحداً بحسب الجسد بل ان كنا قدعرفنا المسيح بحسب الجسد فالآن لا نعرفه كذلك".

الزمان: ١٨٩٤.

ان مدينة أثينا، العاصمة الريفية للمملكة الصغيرة التي تحررت من نير الاحتلال التركي في ذلك الربيع من العام ١٨٩٤، تزهو بكل أزهارها وبقرميد بيوتها، وتعبق برائحة الياسمين. والشمس تلمع فوق بيوت القرميد والحدائق والساحات وزواريب حيّ الأكروبوليس، وترسل أشعتّها الحارقة التي تعمي الأبصار فوق الوحل الذي ما زال ندياً.

واشعاعات نارية تذهّب وتضيء كل شيء: فتبدو أرض الأتيك، أرض الحكماء والسياسيين العظام والفنانين البارعين، وكأنها مرشوشة بالألوان ان لون السماء الأزرق صافٍ وزاهٍ، وغيمة واحدة بيضاء صغيرة تجتذب الأنظار على قمة الليكابيت، وكأنها رمز للنقاوة. بينما يلمع الأخضر في الحدائق المحيطة فوق تلال الستريغي وعلى جبال توركوفانياس، كشعاع أمل وسط حلم رائع. أما اللون الزهري، لون فرح الربيع الخالد، فيتراءى على أغصان الأشجار في أكاليل براعم الأزهار المضيئة التي تفتّحت لتوّها.

في الساحات وفي زوايا الشوارع، كانت المقاهي تغصّ بالزبائن، وتلعب دورها كمركز للاستراحة وللنقاشات السياسية. وكانت تشتهر براحة الحلقوم، وفناجين القهوة خاصّتها، ونراجيلها المتعددة الألوان. وكان يرتادها الناس من جميع الأنواع: من ريفيين، وأثينائيين، ومثقفين تميّزهم عصاهم وقبعاتهم العالية وزهرة الغاردينيا على صدورهم. كانوا يتناقشون في أمور اللغة، ويصرخون عالياً في بعض الأحيان، ويتخذون في أحيان أخرى وضعيّات متكلفة لانشاد قصائد كانت تتحدث عن أحجار رخامية قديمة

ومحطـــمة، أو عن حسناوات "أبولونية". في حين كان رجال العامة بلهجاتــهم المختلفة وبتنورتهم المعروفة "بالفوستانيللا" يضربون الطـــاولات بقبضاتـــهم، مستعدين للتعارك بخصوص الاجتماع الأخير لمجلس الشيوخ، ويتخـــاصمون حول الأمور السياسية بلا نهاية. وفي مكان أبعد كان يجلس "الشيوخ"، تميزهم شواربهم الطويلة ولحاهم البيضاء وهم يلعبون "السكابيلي"، ولا يــهتزون، ولا يبدو على وجوههم غير تقطيب بسيط من وقت لآخر.

وكانت العاصمة بأسرها تقريباً غارقة في نوم ربيعي تقطعه من وقت لآخر الأحلام والمناظرات الخطابية. وكان الناس ينتظـــرون حصـــول كـــل الأحداث الواحد بعد الآخر: الولادات والوفيات والألـــم والمـــرض والحـــب والزواج... دون دهشة أو اضطراب، ودون قلق. ولم تكن هذه كلــــها غـــير مراحل في دورة وحيدة ومتواصلة لا تنقطع أبداً. وفي أسفل المدينة، وقـــرب القصر الملكي، كان هناك مبنى "ريزاريو" المحاط بسور مهيب، فـــي شـــارع أمبيلوكيبي المشهور، الذي صار اسمه اليوم جادّة كفيسَا. وكان بعض الجيران يسمّونه: "مدرسة الكهنة والرهبان".

كان الأخوان مانتوس وجورج ريزاريس قد سافرا الى روسيا وجمعا ثروة كبيرة، وبعد عودتهما شيّدا هذا المبنى المشهور. كانت ممرّاته واســـعة وكانت تحيط به حديقة فسيحة مزروعة بالأشجار. وقـــد كُـــرِّست الكنيســـة الصغيرة والمتواضعة للقديس جاورجيوس اللابس الظفر، احياءً لذكر جـــورج ريزاريس الذي ضحّى كثيراً وشيّد بثروته وثروة شقيقه المتوفـــى مـــانتوس، مدرسة مهيّأة لتنشئة رجال الاكليروس وتحسين مستواهم، وللعمـــل بصـــورة عامة على رفع شأن الكرازة. ولكن هذا الرجل لم يعش كفاية حتى يرى نتيجة عمله.

وبحسب وصية المؤسسَين ورغبتهما، فقد كان يشـــرف علـــى ادارة المؤسسة مجلس تنفيذي من عشـــرة أعضـــاء دُعـــوا "منفذيـــن لوصيـــة آل ريزاريس"، تحت اشراف وزارة الشؤون الاكليريكية والتعليم الرسمي. وكـــان يتم اختيار المستشارين من بين الشخصيات العالية المستوى. وبحسب الوصية كان ينبغي تعيين أربعة أعضاء من زاغوراخوريا في أبيبريا، وعضـــو مـــن جانينا، وعضوين من سميرنا. أما الأعضاء الثلاثـــة البـــاقون فمـــن تيســـاليا وكريت وخيوس. ويقوم المجلس بانتخاب ثلاثة من أعضائـــــه لمـــدة ثـــلاث سنوات، ويتمتع هذا المكتب بنفوذ واسع في العمل والتخطيط.

بعد ظهر ذلك اليوم الربيعي، كان عضوان موقران من هذا المكتب الواسع النفوذ يرتشفان القهوة وهما يتناقشان في احدى غرف المدرسة. وقد تناقشا مطولاً وبجلبة حول فشل محاولة خجولة لاعطاء المدرسة طابعاً علمياً. ولاخراجها قليلاً من اطار التعليم التقليدي. ثم قال أحدهما مبدّلاً الحديث:

-"ان العالم المثقف والجامعي يا عزيزي، أي الطبقة الحاكمة، تدين بالشكر لزمن أرجيريادس وكريسبيس، ولروح الحرية الذي انتشر في جميع أنحاء العالم المتمدن. لقد صار كاهن الرعية – وهي خلية عاملة من خلايا الكنيسة – ميّالاً لممارسة دوره كمواطن حرّ، وكرجل يتمتع بالحقوق في جميع الميادين.

-"حقوق؟ أية حقوق؟

-"حقوق التمتع بملذات الحياة يا عزيزي. ألا تفهم ذلك؟

-"حسناً، عليه اذن أن يخلع الجبّة، فهو لا يعود بحاجة اليها.

-"ليس بهذه السرعة، فهل الثوب هو الذي يصنع الكاهن؟

-"دعك من الحجج المموّهة، فالثوب لا يصنع الكاهن بالطبع، انما للثوب تقليده وتاريخه: انه يذكر بالجلجلة. فالثوب يرمز الى دم الشهداء يا صديقي. انه رغم كل شيء رمز التضحية والتفاني.

-"التضحية!... انظر الى أين تقودنا هذه الفكرة عن التضحية: انها تقودنا الى استبعاد اللذات البسيطة التي نحصل عليها في حياتنا الوقتية، والى التصرف بخبث. وهذا ما كنا نتكلم عنه بالأمس في الحديقة.

-"من تقصد؟

-"أقصد الأب مِتروفانس، كاهن احدى الرعايا في وسط المدينة. وهو مكلّف بمسؤوليات جمّة، ويعاني من مشكلات عديدة: عنده أولاد كثر وزوجة غيورة ومشاكسة، وهو يتعرّض لاغراءات لا تعد. فلماذا نتسرّع في ادانة هذا الرجل اذا رغب يوماً بخلع ثوب الكهنوت؟ وماذا كنت فعلت لو أنك في مكانه؟"

في هذه اللحظة سمع صرير الباب، ودخل أمين السر العام الوقور بصحبة اثنين من أهم الأساتذة. فسأل أحد المستشارَين:

-"في أية ساعة يحضر على وجه التقريب يا حضرة أمين السر؟

-"من؟

-"المدير الجديد الذي ننتظره، أسقف المدن الخمس السابق."

فأجاب:

-"لقد وصل المركب من البيريه، وسوف يكون الأسقف هنا بين لحظة وأخرى".

ثم حلّ الصمت... بعد ذلك مال أحد المستشارَين الى أذن رفيقه وهمس له:
-"هل تعرف أن الآراء متضاربة حول هذا الأسقف؟ اذ لم يثبت بعد..."

فقاطعه الآخر قائلا:
-"بلى فقد توضحت الحقيقة، لا تعد الى هذا الموضوع ثانية: لقد كان ضحية نميمة البلاط البطريركي. فعندما يقرر أحدهم أن يعيش في المسيح يسوع...
-"ولكني أؤكد لك أن بحوزة أمين السر العام في الوزارة وثيقة حصل عليها من المكتب السياسي المصري، وفيها أنه قد تمّ ترحيله عن مصر لأسباب تتعلق بالأخلاق.
-" اذا كان ما تقوله صحيحا، فلمَ جرى تعيينه هنا؟
-"لقد كفله رئيس الأساقفة جرمانوس. ولا أعرف لمَ يستلطفه هذا المتآمر جرمانوس.
-"لا تهتم بكل ما تسمع. فسوف نعرفه على حقيقته في وقت قريب: فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، كما يقولون. الا أن هناك أمراً آخر يشغلني.
-"وما هو؟
- يقولون انه وديع ورجل تقشف وصلاة، فكيف سيتدبر أمره مع الطلاب؟
- أنت على حق تماماً فان شباب اليوم قد استيقظوا، ولم يعودوا يتقبلون كل ما يقال لهم.
- أجل، أعتقد أنه سيواجه هنا صعوبات، فشباب اليوم سيئو النية وماكرون. نجد يلجأون الى جميع الأساليب الممكنة لخداع أساتذتهم ومخالفة النظام. وقد سمعت البارحة أيضاً أن..." ولم يتسنّ للمستشار أن ينهي جملته، فقد عاد أمين السر بسرعة هاتفاً:" لقد وصل، هلم بنا لنستقبله".

واذا بسيارة يجرّها حصان قد توقفت أمام البوابة الحديدية، وترجّل منها كاهن يبدو عليه التعب الشديد من رحلة السفر. فخرج المستشاران وأمين السر والأستاذان، وأحاطوا به قائلين:
-"أهلاً وسهلاً بك يا صاحب السيادة! أهلاً وسهلاً بك".

فأجاب نكتاريوس:
-"ليكن الرب معكم".

وكانت هذه أولى الكلمات التي سمعوها منه.

وراحوا يراقبونه بشغف. ويحدقون فيه محاولين تكوين فكرة عنـــه، وقراءة أعماقه، واكتشافه من خلال تصرفاته ونظراته وكل ما يبدو عليه.

كان ذا قامة متوسطة ووجه متناسق مليء بالرفق. وكـــانت عينـاه الزرقاوان تلمعان بطريقة فريدة، كنور ذلك النهار الربيعي.

وبدا كامل وجهه مشعّاً تقريباً وقد بــدأت لحيتــه تبيــضّ. فــهمس المستشار الأول في أذن أمين السر:
-"كأن هذا الوجه خارج من الكتاب المقدس!"

فردّ عليه الآخر:
-"سوف نرى لاحقاً، لا تتسرّع في حكمك".

واذ حصل التعارف الأوّلي المعتاد، اقــترح أميــن الســر أن يقــود نكتاريوس الى الصالة المخصصة للضيوف المهمّين. فقال نكتاريوس بصوته العذب:
-"بل الى الكنيسة أرجوك!"

ودون أن ينتظر من يقوده، تقدّم ودخل كنيسة القديس جــاورجيوس. واتجه نحو باب الأيقونسطاس الشمالي الصغير الذي كان مفتوحاً ودخل الـــى الهيكل. فانحنى وقبّل الانجيل المقدس. ثم ركع أمـــام المصلــوب وأحاطــه بذراعيه. وبدت عيناه مبللتين وهو يتكلم ويصلي بصوت خافت. مــاذا كــان يقول؟

واذا بالشاب كيمون بركوفوس الذي كان طالباً في السنة الثانيـــة قــد تسلل نحو الهيكل دون أن يراه أحد. وسمعه يقول:
-"يا يسوع الكليّ الرحمة، أيها المخلص، الكلمة الكليّ الاقتدار، ابن العـذراء، الحمل المذبوح، والقائد الكليّ الحكمة، أشفق على عبدك. وأهّلــه لأن يضــع ارادتك نصب عينيه على الدوام، وأن يحققها. اني أرفع لك الشكر، أرفع لــك الشكر من أعماق قلبي".

وكان المستشاران والأمين العام والأساتذة ينتظرونه ويحدّقون فيه مذهولين. وتمتم أحدهم:
-"انه يبكي! يبكي ويتأوّه.
-"انه يبلّل الصليب الثمين بدموعه".

بعد قليل عبر نكتاريوس الباب الملوكي الذي فتحه في تلك الأثناء، وخرج من الهيكل وهو يسير ببطء. وقبّل أيقونة السيدة العذراء ووقف أمامها لبعض الوقت وقد بدت على وجهه امارات سعادة عظيمة. وسمعه الحاضرون يكلّمها باحترام كبير. ثم أنشد لها تسبيحة بسرعة. وأخيراً استدار نحو الذين كانوا بانتظاره، وابتسم لهم وقد علا وجهه الاحمرار كولد صغير يطلب السماح لتأخره. وقال لهم:
-"سامحوني أرجوكم، أنا الآن بتصرفكم".

فأحاطوا به من جديد وهم ينظرون اليه ساكتين. كان كل واحد منهم يرغب في قول شيء له، لكنهم ارتبكوا ولم يعرفوا كيف يعبّرون عن فكرتهم، ولا كيف يتفوهون بجمل جميلة. ثم صرخ أمين السر:
-"هلم بنا الى صالة الاستقبال. نحو اليمين يا صاحب السيادة!"

وتقدّموا جميعاً في ذلك الاتجاه بخطى بطيئة.

الفصل الثاني

+ (٢كور٦: ١٦) "وأي وفاق لهيكل الله مع الأوثان. فانكم هيكل الله الحيّ كما قال الله انى سأسكن فيهم وأسير فيما بينهم وأكون لهم الهاً ويكونون لي شعباً".

وفي صباح اليوم التالي دعي الطلاب الى الصالة الكبرى التي كانت تستعمل للحفلات، وكان أمين السر العام يبتغي تقديمهم الى المدير الجديد. وكان بعضهم من أثينا والبعض الآخر من الجزر أو من تساليا، أو من سميرنا أو حتى من كريت، الا أن غالبيتهم كانوا من زاغوراخوريا ومن جانينا، أي من مسقط رأس المؤسسَين مانتوس وجورج ريزاريس.

-"لقد وصل الأسقف ــ الراهب! انتبهوا يجب أن نقضي عليه!"

وأجاب آخرون:
-"انه يبدو صارماً، لكن هذا لن يطول!"

وبعد قليل دخل أمين السر مصحوباً بأستاذين وبالمدير العام الجديد الى الصالة التي كانت ممتلئة بالجبّات وبالصراخ. ووقف الطلاب، فتحرّكت الجبّات محدثة حفيفاً.

وبعد الصلاة المعتادة تكلم أمين السر قائلاً:
-"يا طلاب مدرسة الطيّبَيْ الذكر مانتوس وجورج، أنا اليوم سعيد جداً لأن مدرستنا تستقبل مديرها العام الجديد الذي وصل الينا البارحة. ومنذ الآن سوف يتسلّم سيادته نكتاريوس، متروبوليت المدن الخمس السابق، مهماته العليا.وهو كاهن جدير، تقي ومثقف، وصاحب مؤلفات لاهوتية عدة. وقد كلّفني مكتب المجلس الطلب اليكم أن تكونوا أهلاً لروحانية مثل هذا المعلم، وأن تؤدّوا لسيادته الاحترام الكبير والطاعة والمحبة. الا أن سيادته يرغب منذ الآن بالتحدث اليكم والتعرّف بكم".

عندها ركّز نكتاريوس نظره الوديع على حوالي مئة وأربعين شاباً يرتدون الجبّات السوداء. وكانت أيديهم تتحرك في الخفية، وهم يدفعون بعضهم بعضاً بالمرافق. ويدوسون على أقدام بعضهم البعض محدثين جلبة عامة.

وبدأ نكتاريوس كلامه ببطء قائلاً: "يا أولادي، يا أولادي، انها لسعادة كبيرة لي أن أكون بينكم. فأباشر عملي بخوف الله في مجال تربيتكم المقدسة. وأعدكم بأن أفعل كل ما في وسعي من أجل تقدّمكم الروحي وتحقيق آمال ذويكم والمؤسسَين الطيبيَّ الذكر اللذين ولدا في السماء، وكذلك آمال أمتنا النبيلة بأسرها". وعلى أثر هذه الكلمات سُمعت ضحكة مكتومة وعلت الضجة. فاحمرّ وجه أمين السر وتجهّم، وبدرت منه حركة وكأنه ينوي اقتحام الصالة.

لكن المدير الجديد تابع بهدوء ومن دون أن يخرج عن طوره:
–"يا أولادي، ان اكليروس الغد سيكون مكوّناً من كل واحد منكم، أي أنكم ستؤلفون العنصر الأهم في تاريخ بلادنا المعذبة وحياتها. افتخروا يا أولادي بالثوب الذي تلبسونه، وصلّوا من أعماق القلب الى ربنا ومخلّصنا حتى يجعلكم أهلاً لأن تصبحوا في المستقبل القيّمين على كنيسته، وأهلاً لتعيروا يدكم للرب العليّ أمام مذبحه المقدس من أجل اتمام الذبيحة المرهوبة والغير الدموية، ولاتمام سر الجلجلة الالهي والاحتفال به.

"ان كل أعمال الناس واهتماماتهم المهنية تبدأ وتنتهي على هذه الأرض، وادي الدموع، فوق أرضنا العجوز المخضّبة بالدم والمرتجفة من الألم. أما عملكم أنتم فليس هو مهنة، وهو ليس مؤقتاً: انه مهمة تبدأ هنا على الأرض وتتواصل في السماء، في وسط الطغمات الملائكية. فأرجوكم أن تعيروا كلماتي البسيطة الانتباه وأن تدعوا نفوسكم الفتية تحلّق نحو حقائق الأبدية، نحو الحقيقة الوحيدة والمجيدة، حقيقة انجيلنا المقدس".

في هذه اللحظة بالذات توقف الضجيج واختفت الابتسامات، فتابع:
–"يا أولادي، علينا أيضاً أن نفخر بكوننا أعضاء مسيحية الشرق القديمة الأرثوذكسية التي لا تُقهر. ان الأرثوذكسية هي كنزنا، ولؤلؤتنا الثمينة، والنور الذي لا يغرب. واذا فقدنا هذا الكنز فاننا سنتبدد كغمامة من غبار في أرجاء الأفق، فتختفي أمتنا وسلالتنا. وسوف أعمل في الدروس القادمة التي أُعطيكم اياها بمعونة الله، على التوسّع في الأوجه المخفيّة لهذا الكنز الذي

لا يثمّن، فتفهمون أهميته الغير المتناهية وقيمته كلها. أما اليوم فسأكتفي بالكلام بسرعة عن بعض الأمور الصغيرة خلال لقائنا الأول الذي نتعرّف فيه على بعضنا. ان حياة الانسان يا أولادي هي كلوحة تطريز بيضاء تحدّها بداية ونهاية وجودنا. وأما ما سوف تمثله هذه اللوحة في نهاية المطاف، فيتوقف علينا. ومن خلاله يمكننا أن نتعرّف الى الانسان الذي استطاع أن يملأ اللوحة بالأعمال الجيدة التي يرضى الله عنها، ذلك الانسان الذي سوف يُظهر للأجيال القادمة أعمالاً نزيهة وخالدة بفضل قوته وارادته وخصوصاً صبره. في كل يوم ترسم يدانا وتحيك النسيج عقدة بعد عقدة. فاذا أحسنّا شكّ الابرة، وكان الخيط مناسباً واللون جميلاً، فان العمل كله يسير باتجاه ارادة الله..."

وساد صمت قصير كان الجميع خلاله يُبدون انتباهاً شديداً لتعابير نكتاريوس الهادئة ووجهه النبيل، وصدق أقواله، فتابع يقول:

-"أرجو أن نعيش بدءاً من اليوم يا أولادي وكأننا عائلة في المسيح يسوع.وأن نعترف بأخطائنا لبعضنا البعض ونتبادل طرح مشكلاتنا ونؤلف أخوّة مباركة. وأعدكم بأن أكون الى جانبكم كما يجدر بالأب، وخصوصاً الأب الروحي. وأسمح لنفسي بأن أوجّه لكم ملاحظة منذ اليوم الأول: اني أرى أنكم جميعاً تقريباً لم تعودوا تطيلون لحاكم. فلمَ لا تبقون أمناء لتقليد الجمال الطبيعي؟ لا تنقادوا للأوروبيين، فلنا نحن المسيحيين الأرثوذكسيين حضارتنا الخاصة، وأسلافنا الرسل الالهيون والآباء القديسون، كواكب الكنيسة المنيرة. فأرجوكم أن تتبعوا مثال هؤلاء الرجال وأن تصبحوا أنتم أيضاً نماذج في هذا الجهاد..."

وفجأة عادت الهمسات بين الطلاب، ومن جديد ظهرت على وجوههم الابتسامات. وبدت الدهشة على البعض... وصرخ أحدهم:

-"أسقف راهب!"

وعندما أنهى نكتاريوس حديثه، حدّق جيداً في وجوه سامعيه الشبّان، في حين سمع في القاعة بعض التصفيق.

وفي الساعات التالية وُضع نكتاريوس في جوّ المدرسة من قبل المسؤولين، وتعرّف الى الشؤون العادية اليومية، وبحث أمر النظام الخ...

وعندما دخل أخيراً الى مكتبه، وقع نظره على وثيقة صادرة عن وزارة الشؤون الاكليريكية والتعليم العام، وفيها قرار بتعيينه مفتشاً للتنشئة الفلسفية والتربية في التعليم الثانوي.

فتمتم مبتسماً:

-"ما العمل؟... سأقوم بهذه المهمة أيضاً، على قدر استطاعتي".

الفصل الثالث

+ (أم ٢٥ :٨) "لا تبرز عاجلا الى الخصام. والا فماذا تصنع في الأخر حين يخزيك قريبك؟"

لم تكن كلها برّاقة تلك الأيام والأسابيع التي تلت تعيينه... كان يعرف بالطبع، وكجميع اليونانيين، قصة هذه المدرسة: فقد قرأ كثيراً عن الأخوين ريزاريس خلال تلقيه علومه، وكذلك عندما كان في الاسكندرية: مانثوس الذي توفي في روسيا وقلبه يفيض رغبة في اهداء وطنه الصغير كهنة وسامريين صالحين؛ وجورج الذي عمل جاهداً من أجل تشييد المدرسة من المال الموهوب، ومات أخيراً دون أن يتسنى له رؤية المدرسة وقد بدأت نشاطها.

وجاءت هذه المدرسة عملا مدروساً ومتقناً وبدت كأنها عطية سخية، وتحقيق عملي قابل للاستمرار والتطوّر لوقت طويل. كان مجلس العشرة يجتمع دائماً بحضور خمسة أعضاء من ابيبريا، وعضوين من سميرنا، وعضو من تسّاليا، وواحد من كريت، وآخر من خيوس، تماماً كما أراد المؤسسّان منذ البداية. وكانت المراكز التي تشغر على أثر وفاة الأعضاء تملأ من جديد بتعيينات ترفع في النهاية الى الوزارة للموافقة عليها. الا أن السلطة التنفيذية بقيت منوطة في جميع المجالات بالمكتب التنفيذي المنبثق عن المجلس نفسه الذي كان يتغيّر كل ثلاث سنوات. الا أن معظم أعضاء المجلس التنفيذي كانوا من ابيبريا بدءاً بأمين السرّ ووصولاً الى الموظفين العاديين الذين أنيطت بهم بعض المسؤوليات. وكانوا غير قابلين للعزل. ولذلك فقد كانوا عبارة عن طغاة اداريين عالمين بسلطتهم الواسعة. وكانوا يعتبرون المدير والأساتذة مجرد منفذين، وممثل الوزارة وكأنه نكرة.

وعند ظهر أحد الأيام واجه رئيس المكتب التنفيذي نكتاريوس بالقول:
-"يا أبتِ نحن لسنا موافقين تماماً على أساليب سيادتكم!" وكان هذا الرجل تاجراً هاماً جداً في أثينا، وكان طويل القامة، نحيف الجسم وأنيقاً.

فسأل نكتاريوس:

- مـذا تقصد بقولك هذا؟
- نحن بحاجة الى مزيد من الاندفاع ومزيد من السلطة".

فتمتم نكتاريوس:
- سأحاول...
- نحن بحاجة لرجل شديد العزم، يفرض السلطة. ومن جهة أخرى فقد قيل لي انك تتمّي عند التلاميذ الزهد كما كان معروفاً في الماضي. ولكنك تعرف أن ليس جميع طلابنا الداخليين وأولادنا الأحباء يُعدّون أنفسهم للكهنوت".

فأجاب نكتاريوس:
- نعم للأسف أعرف ذلك، ولكن...
- لماذا تقول للأسف؟ هذا غير مقبول! ان أهم ما في الأمر يا أبتِ هو التعليم الموضوعي والكلاسيكي، والثقافة الأدبية، ومعرفة اللغة اليونانية القديمة.
- لا يا سيدي الرئيس، بل الأهم هو التعليم بحسب يسوع المسيح.
- أجل أجل، هذا هو الأمر الذي تشدّدون عليه أنتم الكهنة الرهبان. ولقد أخبرت من جهة أخرى...
- اسمح لي أن أسألك، من الذي أخبرك: الزملاء، أم الأساتذة، أم الطلاب؟
- انه سر، وهو لا يعنيك".

فقال نكتاريوس:
- حسناً...
- لقد قيل لي انك تهتم كثيراً بلحى الطلاب. وهذا أيضاً غير مقبول! اذ لم ينص عليه النظام".

فأجاب نكتاريوس:
- لكن النظام يدعو للمحافظة على المظاهر الجدية والرجولية.
- دعنا من المبالغة يا صاحب السيادة. ان أساليبكم لا تحظى برضانا الكامل: لقد تغيّرت الأزمنة، ولم نعد على عهد كابوديستریاس".

فرفع نكتاريوس عينيه ثم أخفضهما من جديد... وتنفس بعمق ثم زفر وتنفس من جديد... وفجأة وجد نفسه وحيداً: لقد خرج محدّثه وصفق الباب وراءه.

وتساءل نكتاريوس هل كان يجب أن يعانده؟ أن يبرر أعماله؟ أن يناقش؟ لا، فقد قال له مرة عجوز تعرّف اليه في دير سيناء انك اذا أعطيت قليلا من السلطة لرجل يوناني فانه يظن نفسه الاسكندر الكبير ويطلب أن ينحني له الجميع. ونهض نكتاريوس ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات. وحدّق في أيقونة المسيح الذي يركع ويجرّ نفسه حاملاً صليبه، وقال:

-"سأصبر يا سيدي، سأصبر".

الفصل الرابع

-(غلا ٥ : ٢٢) "أما ثمر الروح فهو المحبة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف والصلاح".

في الصيف التالي تسنى لنكتاريوس أن ينعم ببعض الارتيـــاح بعـد خيبات الأمل التي واجهها في البداية. واستطاع أن يفيد من الهدوء والدراسـة والصلاة. أي راحة يحصل عليها الانسان بالصلاة! انها محادثة من أعمـاق القلب مع يسوع الكليّ الوداعة، الكلمة القدير والمخلـّص. كم تخفف أعبـاء القلب! وتقوّي الاستعداد الداخلي للجهاد، وتعطي أجنحة للشجاعة!

سوف تبقى ذكرى صلوات الغروب والسَحر، خلال ذلـك الصيـف الأول في المدرسة، محفورة في ذاكرة نكتاريوس الى الأبد، الى جانب الخدم المقدّمة لوالدة الاله. لقد كانت هذه المحادثات مع الوالـدة العظيمـة، والسدة عمانوئيل، تـُذهب الحزن وتقطـر في النفس بلسم السلام.

وقد جاء الصيف بسرعة، وكان شديد الحرارة. وتهيّأ للناس أن أثينـا سوف تحترق. وكان نكتاريوس ينهض كل يوم عند الفجر. وقد اعتاد أن يهتم بزراعة الحديقة بعد الصلاة السَحرية. كان هذا العمل يذكّره بتعب الانسـان القديم: تحضير الأرض حتى تكشف عن ألوان أسرارها المخبأة وحياتها. وقد بدأ بزراعة بعض النباتات والأزهار. وكان يسقيها ويصنع غرسات جديـدة، ويراقب نموّها الصامت. وفي الوقت نفسه كان يتحضّر للعام الدراسي القادم. كان يتدارس ويخطط في سبيل النجاح. أجل كان عليه أن ينجح فـي تفـهّم نفسية هؤلاء الطلاب الشباب والمزارعين الأشدّاء. كان عليه أن يغرس فـي قلوبهم الطريّة قوة الايمان المقدس المحيية وخوف الله. وأن يوقظ في الوقـت نفسه اهتمامهم بكنوز آباء الشرق. والويل له اذا تهاون في تأدية هذه المـهام، واذا تنصّل من مسؤولياته أو أهمل ولو جزءاً صغيراً في واجبـه المقدس! أجل لأنه اذا نسي وتسبّب بحصول مثل هذه الكارثة، فيكون الأفضل له لـو مات وهو ما زال طفلاً.

كل صباح تقريباً وخلال الصلاة السحَرية، كان يتهيّأ له أنـه يـرى السيد أمامه بلحمه ودمه، الذي لامسته أيدي الناس وقام من بيـن الأمـوات.

وكأنه كان يسمعه يقول له: ها اني أصلي للآب من أجلك، وأما أنت فثبّت الشبان،ثبّت اخوتي."

وفي بداية شهر تشرين الأول، وصل من لميا شاب جديد، صديق محبوب، وكأنه عصفور من السماء، حرّ وفرح، غير عابئ بكل ما هو مأساوي وجدّي. وكان يحمل حقائبه القليلة وبركة والديه.

واذ وصل أمام نكتاريوس، جثا على ركبتيه في انحناءة بحسب الأصول وقبّل يده. ثم راح يبحث ببساطة الطفل في السلة الصغيرة التي أحضرها معه، وأخرج منها علبة تحتوي على جبنة ووعاء من مربى العنب، وقال له:
-"لقد طلبت مني والدتي أن أعطيك هذا.
-"شكراً يا كوستي، الرب يباركك. كيف حال والدك والعائلة؟
-"لقد أصاب والدي المرض منذ رحيلك: أصيب بالبرد واضطر لملازمة الفراش لمدة خمسة وعشرين يوماً. وشقيقتي ديسبينا أيضاً. دعنا ننسى الأمر يا سيدي، لقد واجهتنا صعوبات كثيرة، واضطررنا لاستدانة المال. تقول والدتي انك طيلة الوقت الذي كنت فيه معنا..."

فقاطعه نكتاريوس:
-"دعنا من المبالغة. ولا تنجرفوا وراء هذا النوع من الأفكار: فالرب يهتم بنا جميعاً. اسمع يا كوستي:
-"اطلب ما تريد.
-"انتبه جيداً يا بني: سأبذل ما بوسعي لمساعدتك. لكن عليك أنت أن تكون يقظاً ومجتهداً، وأن تصبح من بين الأوائل. وطالما أنت طالب هنا، أريدك الا تكلمني كثيراً أمام الباقين. والتزم التحفظ تجاهي لكي لا ندع مجالاً للأقاويل.
-"نعم سأنفذ ما تقوله.
-"واذا استطعت أن تصبح من بين الأوائل فسوف يعينونك ناظراً في المدرسة.
-"هذا رائع، فسأتمكن عندها من أن أساعد والدي بعض الشيء".

وتبع هذا الكلام الصمت الذي تبادلا فيه النظرات، كما في السابق عندما كانا في لميا. والتقت عينا الشيخ الزرقاوين بعيني الولد الزرقاوين. ولمعت عينا الشيخ وتمتم:

- أرجو لك النجاح هنا. وهكذا أكون أنا أيضاً قد حصلت على رفيـــق، ولـــو صغير السن".

فأجاب كوستي:
- سأنجح يا صاحب السيادة. لقد قال لي أستاذي هناك ان العلامـــات الجيـــدة ستهطل عليّ عما قريب. وبمعونة الله سوف أبقى الى جانبك حتى الموت".

ولم يستطع نكتاريوس أن يكتم ضحكته، فقال:
- باركك يا كوستي. ولترافقك نعمة والدة الاله وتحفظ طريقك".

فانحنى كوستي وقبّل يد الأسقف من جديد وحصل على بركته.

الفصل الخامس

+ (أف ١: ١٨-١٩) " مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين. وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته".

وتابع نكتاريوس طريقه بحسب مفهومه لواجبه تجاه المعلم الكبير والأوحد، المخلّص يسوع المسيح، رغم كل ملاحظات المكتب التنفيذي ومضايقاته له.

وفي السنة التالية، وبمناسبة بدء الدروس في ١٨ أيلول، ألقى نكتاريوس كلمته في القاعة الكبيرة أمام المدرسة كلها: الأساتذة وأعضاء المجلس التنفيذي وجميع الطلاب تقريباً. هذه المرة بقيت جبّات الطلاب هادئة ولم تبدر عنهم أية محاولة لاحداث الجلبة. ومن جديد اختار نكتاريوس الانجيل، وتكلم عن مثل الزارع. فشرح خلال عشر دقائق دور الفلاح وحبة الحنطة والأرض الجيدة. لقد كان هذا في الحقيقة موضوعه المفضّل. قال:
-"الزراعة الروحية هي كالزراعة الطبيعية فالزارع والحقل مختلفان، وكذلك في الزراعة الروحية: فان فكر التلاميذ وقلبهم هما الأرض التي تُزرع، والأساتذة هم الفلاحون، أو الزارعون. وكل ما يحدث في عمل الأرض يحصل أيضاً في التعليم.فاذا سقطت الحبة في أرض جيدة فانها تعطي الثمر، بعضها مئة والبعض ستين، والبعض الآخر ثلاثين. وقد تسقط في الشارع أو في الأرض المحجرة أو بين الأشواك. فالتي تسقط في الشارع تأكلها العصافير، والتي تسقط في الأرض المحجرة تجفّ لقلة المياه، والتي تسقط بين الأشواك تنمو الأشواك وتخنقها".

وأخيراً تحدّث عن أحاسيسه تجاه دعوة المدرسة ودعوته، فان الطلاب مهيّأون لسلك الكهنوت، وليصبحوا كهنة رعايا:
-"انه لأمر عظيم أن يكون المرء كاهناً أميناً وفاضلاً، فباستطاعته أن يوجّه ساقية هذه الحياة الدنيا نحو نهر الأمل، وأن ينشئ ملايين الناس، فيتدارك الأحقاد والأهواء والمصائب، ويزرع الحب والعدالة والتعاون والعمل المفرح. يمكنه أن يصبح الطريق والنور، نور المسيح.

-"لقد شيّد الأخوان ريزاريس هذه المدرسة لتصبح مكاناً لتنشئة ممثلين فاضلين للرب العليّ. ولهذا الهدف عينه يجهد السادة المستشارون وجميع الأساتذة. ولهذا الهدف أيضاً أتيتم أنتم الى هذه المدرسة. وسوف يساعدكم التعليم الذي تتلقونه هنا لأن تصبحوا ممثلين جديرين للكنيسة، وأن تحققوا آمال ذويكم الذين يتعبون من أجلكم. ويوم تصبحون كهنة ستكون مسؤولياتكم عظيمة وكثيرة بالقدر نفسه: فستدخلون الى الهيكل المقدس لتقديم الذبيحة لله من أجل الشعب، لأن الشعب ينال غنى الرحمة بواسطتكم. فاذا لم تكونوا أهلاً لهذه المهمة العظيمة، فان عدم أهليتكم سيغلق باب النعمة الالهية. وكونكم كهنة يحتم عليكم أن تكونوا كالرعاة: تشددون الضعفاء وترفعون الذين سقطوا..."

فقوبل خطابه بالتصفيق والتهنئات الشكلية، ولكنه عرف لاحقاً أن بعض المستشارين من ذوي الأفكار المعاصرة قد أبدوا بعض الانتقادات اللاذعة: فقالوا ان خطابه لم يرق لهم، بل أزعجهم لأن أثينا كانت على الدوام مكان تجمّع الدسّاسين السياسيين والديماغوجيين. وكانت تصل من الغرب أفكار متحمسة تغالي في مدح العصر المقبل الذي سوف يؤلّه الانسان عن طريق تفوّق الرياضيات والاكتشافات. وهذا ما كان المثقفون يعتبرونه قمة لا تضاهى، ويتكلمون عنه في مقالات كثيرة تثير حمية الناس.

كما ابتسم بعض الأساتذة من أطراف شفاههم وقالوا عن الخطاب: "ان هذه ثرثرة كاهن مألوفة". ومع ذلك فقد بدأ نشاط المدرسة يتغير شيئاً فشيئاً، ويبتعد عن الهوّات والمزالق الصعبة. وكان هذا عمل النعمة الالهية والروح القدس الغير المدرك الذي يهب حيث يشاء.

وكما يحصل في العادة عندما يتلقى الشعب المجهول النعمة الالهية بصمت، هكذا حصل للطلاب.

وبدأ ذلك عن طريق تدخل الشيطان الذي يدمّر ويلقي سمومه لزرع بذور الشقاق. ولكن حيث أراد الله فانه يستطيع أن يحول الثمر المرّ الى ثمر ناضج وحلو. وقد بدأ كل شيء بخلاف وقع بين أربعة طلاب في السنة الأخيرة حول أمر تافه، انتهى بمواجهة عامة وقتال حقيقي مصحوب بالشتائم وضرب بالأيدي. فاقتاد النظّار المسؤولين الى مكتب نكتاريوس حيث اتُهموا بمخالفات خطيرة للنظام. وكان يبدو الأربعة: صفرونيوس وباباخريستو وليليداكيس وبيريتزوغلو، فزعين، حمر الوجوه. وكانوا مستعدين لتحمل نتائج

تمرّدهم. كان نكتاريوس في ذلك الوقت منهمكاً بكتابة رسالة تشجيع الى صديق له، وهو كاهن راهب. وقد ذهل لسماع الضجة. فوقع القلم من يده وسقطت منه نقطة حبر على الورقة. وسأل:

-"ما هذه الضجة؟ وماذا يحدث؟

فأجاب أحدهم:

-"سيدي المدير، صاحب السيادة... أسألك العفو، الا أن باباخريستو هذا قد اتهمني بالسرقة!"

وردّ نكتاريوس بهدوء:

-"هل هذا معقول؟ هل هذا صحيح؟

-"هذه أكاذيب... لقد شتم بلادي، وقال اننا نحن أهل متسوفو أتراك، وأننا لا نأكل ولا نشرب غير اللبن.

-"هل أنت جاد؟"

فقال الثالث:

-"أنا سأقول لك الحقيقة، لقد رفض أن يعطيه الصحيفة.

-"أية صحيفة؟

-"انها ليست صحيفة، بل كتاب.

-"وأي كتاب؟

-"يوميات سكوكوس.

-"وكيف تتواجد يوميات سكوكوس في المدرسة؟

-"قسم منها فقط، لقد أعطانا اياه بيريتزوغلو في السر.

-"وأنت بمَ يتهمونك؟"

فأجاب الناظر:

-"انه يا سيدي المسؤول الحقيقي عن هذه الفوضى. فقد حرّضهم ودفعهم للشجار، فقط من أجل المتعة".

ثم ساد الصمت... وكان نكتاريوس شاحباً وحزيناً. واستدار ليتأملهم جيداً الواحد بعد الآخر. ثم قال ببطء:

-"كل ما فعلتم يؤلمني في العمق. وأجد نفسي مضطراً لأن أعاقب نفسي".

فذهل الناظر وسأل:

-"تعاقب نفسك يا سيدي المدير؟
-"أجل سأعاقب نفسي بالانقطاع عن الأكل. وأنت يا حضرة الناظر أخبر الطبّاخ بألا يرسل لي الطعام لمدة ثلاثة أيام. هل هذا مفهوم؟ وفي خلال أوقات الطعام سأصلّي حتى تنتهي هذه المشكلات.
-"أجل.
-"هذا يحزنني كثيراً جداً... أنتم الذين ستصبحون في الغد كهنة العليّ! انصرفوا أرجوكم، ليرحمكم الرب وينر عقولكم... ويغفر لكم.

* * * * *

وراحوا ينظرون اليه منذهلين... كانوا يقرأون في نظراته المليئة بالحزن والأسى أشياء أخرى غامضة ومؤثرة. فقال من جديد:
-"اذهبوا وتصالحوا مع بعضكم البعض قبل حلول الظهر، والا فسأطيل مدة عقابي".

فذهبوا يجرّون خطواتهم الواحد بعد الآخر، وخرجوا من المكتب منحني الظهور، شاحبين، وقد ملأهم الخوف والاحترام.

وعند الظهر لم يحضر أحد منهم للغداء. بل لازموا غرفهم باكين، ولم يكن هذا قد حصل لهم قبلاً.

وانتقل الخبر من صف الى صف، وأثار الدهشة والتعليقات وحرّك الفضول والاحترام تجاه هذا "الأسقف الراهب" الذي عكس المسؤوليات، وعاقب نفسه.

أما نكتاريوس المعتاد على الزهد والأصوام، فقد حافظ على هدوئه ونظرته الوادعة وأتم صومه لمدة ثلاثة أيام كاملة مصلـّياً من الأعماق من أجل تقدّم المدرسة.

ونسي الطلاب الواحد بعد الآخر ما تبادلوه من الكلمات الجارحة ورقت قلوبهم وبدأوا يتحوّلون شيئاً فشيئاً: لقد تغيّروا وأصبحوا أكثر ليونة. وأصبحوا متيقظين، قابلين للتأثر بالنعمة الالهية. بدأوا يفهمون ما معنى أن يكون المرء كاهناً، كاهناً للمسيح المصلوب.

وكما يحصل في أية مؤسسة أو مدرسة عندما يحدث أمـر ممـاثل، يتكوّن لدى التلاميذ رأي معين حول أحد الأساتذة أو المدراء. ويتجـه هـذا الوضع نحو الرسوخ لأن جميـع التلاميـذ القـادمين والراحليـن يتنـاقلون المعلومات بسرعة، فتتكوّن لديهم قناعة تتأكد فيما بعد عن طريق الملاحظـة والعمل، وهكذا دواليك.

وقد لاحظ نكتاريوس نفسه هذه النتيجة، فـأحس بالارتيـاح رغـم استعداده الداخلي للحزن، وشعر بمحبة أكبر لهذه النفوس الطرية التي أوكلـها الله اليه.

وبما أن عدداً كبيراً من الطلاب الداخليين كانوا من أصل جبلـي أو ريفي من زاغوراخوريا أو من تساليا الشديدة الفقر، فقد لاحظ نكتاريوس أنهم موفورو النشاط وقادرون على مساعدته في الاهتمام بالحديقة. وفكـر بانـه سيكون من المفيد جداً استدعاء مهندس زراعي لاعطائهم دروساً تطبيقية فـي الزراعة الى جانب الدروس النظرية التي يتلقونها.

وهكذا فقد بدأ التحضير لهذا المشـروع، وتقـدّم بـالطلب الـلازم للمجلس، الا أن تعبه ذهب هباءً لأنه لم يحظ بأي جواب. ومع ذلك فقد بـدا أحد أعضاء المجلس التنفيذي موافقاً، ووعده بأن يفعل المستحيل لتحقيق هـذا المشروع. وقد قال نكتاريوس:

-"لا يمكنك أن تتصوّر يا سيدي المستشار مدى أهمية معرفة كاهن الريـف بأمور الزراعة! فما هو الانسان؟ أليس مزيجاً من الجسد والروح؟ فيجب أولاً تغذية الروح ومن ثم العناية بالجسد".

فأجاب المستشار:

-"طبعاً طبعاً، وأنا سأدعم هذا الطلب، وسوف أطلب التصويت على اعتمـاد مالي لهذا المشروع."

وبعدما انعقد المجلس، علم نكتاريوس أن هذا المستشار قد انضم الـى الآخرين في رفض المشروع، وحتى أنه لم يحاول الاعتراض!

وفكر نكتاريوس:

- غريب! كيف يمكن لأشخاص ذوي سمعة طيبة، محترمين من جميع النواحي ونافذين، كيف يمكن أن يكذبوا بهذا الشكل؟ وكيف ينكثون بعهودهم؟"

وأصابه الحزن على التلاميذ، هؤلاء الأولاد الفقراء الذين أتوا من الجبال والوديان، تاركين وراءهم عائلات تنزوي في أكواخ حقيرة، وحاملين معهم الآمال الكبيرة.

وفي جميع الأحوال فهو لم يعد يتمتع الا بأوقات قصيرة جداً من الراحة. اذ انه مضطر من جهة للحلول محل أساتذة اللاهوت الذين كانوا يتغيبون متذرّعين بالمرض، ومن جهة أخرى فقد بدأ المشاركة في الصحيفة الجديدة التي تصدرها جمعية الاكليروس. وكان رئيس هذه الجمعية في أثينا، المتروبوليت جرمانوس كاليغاس، يعامل نكتاريوس بلطافة كبيرة في هذه الأيام. وكان نكتاريوس يعتبر هذا الأمر كنعمة الهية جديدة: فقد كان جرمانوس يدعوه لترؤس بعض الخدم الليتورجية، ويعهد اليه بقداديس تذكرانيات لبعض الموتى بطلب من شخصيات في القصر الملكي، أو شخصيات أخرى عالية المستوى. كما كان يسأله رأيه في كل المسائل الصعبة التي تعترض الكنيسة اليونانية. فكيف كان نكتاريوس ليرفض طلبه المشاركة في الصحيفة التي أسّسها جرمانوس وحده تقريباً؟ لقد كتب اليه:

"أهنئك يا صاحب السيادة على هذا المشروع، وأقدّر بحق هذه المحاولة النبيلة والمفيدة... واذ أقبل شرف هذه المشاركة، اسمح لي أن اعبّر لكم ولمدير الصحيفة السيد جان ميستولورا عن شكري الصادق. وأؤكد لقداستكم ولجمعية الاكليروس بأني سأردّ على هذا الشرف الذي منحتموني اياه بطلبكم النبيل، على قدر ما تسمح به قواي ووقتي."

وعندما كان نكتاريوس يلتزم القيام بعمل ما، فقد كان من المستحيل ألا يبذل جهده ليقوم به على أفضل وجه. ولم يكن هذا لأن الأمر متعلق بجرمانوس، فلو أعطى وعده بالمشاركة لأصغر راهب، لكان اعتبر نفسه ملزماً بالعمل حتى ساعات الليل الأخيرة للوفاء بوعده.

وهكذا لم يعد يتبقى له غير أوقات قصيرة من الفراغ. كان عمله لا ينتهي، وكذلك مسؤولياته، والحوادث الصغيرة التي تنشأ باستمرار بين النظار والطلاب. كل ليلة كان يذهب الى الفراش في وقت متأخر جداً وهو

منهك القوى. وكان يتأوه ويشعر بالذنب لأنه لا يملك القوة الجسدية الكافيــــة ليقضي الليل كله مصليًا أمام أيقونة السيد وأمه الكلية النقاوة والقداسة، "ســيدة المعونات" التي تأتيه دائماً تقريباً بالعون والحماية.

الفصل السادس

- (يع ٣ : ٧-١٢) "ان كل طبيعة للوحوش والطيور والدبابات وذوات البحر تـُقمع، وقد قـُمعت للطبيعة البشرية. وأما اللسان فلا يستطيع أحد من الناس أن يقمعه. هو شر لا ينضبط. مملوء سماً مميتاً. به نبارك الله الآب وبه نلعن الناس الذين صُنعوا على مثال الله. من الفم تخرج البركة واللعنة. فلا ينبغي يا اخوتي أن يكون الأمر هكذا. ألعلّ ينبوعاً من مخرج واحد يفيض بالعذب والأجاج؟ أم هل يمكن يا اخوتي أن تثمر شجرة تين زيتوناً أو جفنة تيناً؟ كذلك الملح لا يأتي بماء عذب".

بعد مرور شهر على عيد الميلاد حصل حادث بسيط مع أستاذ الفقه اللغوي العجوز، ثيودوسيوس فنيزيلوس. وعلى الأثر عاد الناس يتناقلون أخبار السوء عن نكتاريوس. وبدأوا بالكلام على مسألة رحيله عن بطريركية الاسكندرية، وراحوا يسعون في تفسير أسباب منعه من المكوث في تلك المنطقة.

وكان ثيودوسيوس فنيزيلوس قد تابع دروسه في ألمانيا بنتائج باهرة، وقام ببعض الدراسات الجامعية، ومع ذلك فلم يستطع أن يحظى في شيخوخته بمنصب في الجامعة، وهذا ما كان يجده غير منصف. فقد كان يعتبر نفسه أرفع مستوى من مدرسته.

ولم يعر نكتاريوس بصفته مديراً عاماً للمدرسة أهمية كبيرة للحادث البسيط الذي حصل بين ثيودوسيوس وزميله أستاذ الرياضيات والفيزياء. وكعادته فقد بذل الجهد اللازم لمصالحتهما حتى لا تصل هذه القضية الى المكتب التنفيذي. لكن يبدو أن هذا الحل السلمي لم يعجبهما، فتابعا المشاحنات المتبادلة والصامتة. وانتهى الأمر بانقسام المدرسة كلها الى مجموعتين. وكما تقول أغنية شعبية قديمة: "ان الخصومات تولد الخصومات... " في البداية كانوا يهمسون، ثم راحوا يتكلمون بصوت عالٍ وينتقدون. ثم بدأوا بالادانة. وفي النهاية علم نكتاريوس من القندلفت أن تعيينه في المدرسة ليس نهائياً، وأن هناك افادة في طريقها الى الوزارة، وفيها أنه قد استبعد عن القاهرة لأسباب تتعلق بالأخلاق.

هذا الجرح القديم الذي لم يلتئم بعد، عاد لينفتح من جديد. يا الله كم هو مؤلم! في النهاية حاول نكتاريوس أن يستجلي الأمر. فحصل من أمانة سرّ *الوزارة* على نسخة عن الافادات التي تخصه، والصادرة عن المعتمد السياسي اليوناني الذي يشغل منصب سفير في القاهرة. وقد أحسّ نكتاريوس بالصدمة عند قراءته هذه النسخة، وكانت عبارة عن رسالة سرية وجّهها المعتمد ج. جريباريس الى الوزير د. كاليفورنا منذ سنة، بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٨٩٤، وورد فيها:

"سيدي الوزير

يشرّفني أن أنقل لمعاليكم بأمر من معالي وزير الشؤون الخارجية، المعلومات التي تخصّ قداسة أسقف المدن الخمس السابق، السيد نكتاريوس كيفالاس، وخصوصاً الأسباب التي كانت وراء رحيله عن مصر. لقد التقى السيد جان خوريميس هذا الأسقف عندما كان لا يزال راهباً في أحد أديار خيوس، وتولاه تحت رعايته. وأوصى به بشدة الى قداسة بطريرك الاسكندرية. وتشارك الاثنان في دفع مصاريف سفره الى أثينا لمتابعة تخصصه في اللاهوت. ولقد تابع جميع الدروس وحصل على الشهادة الجامعية ثم عاد الى هنا حيث سيم أرشمندريتاً وواعظاً، وعيّن أميناً للسر في البطريركية. وقد شغل هذه المناصب باندفاع بالغ وصادق، وكان يعيش كناسك حقيقي. وبعد وقت قليل أرسله البطريرك الى القاهرة تحت اشراف ممثل البطريركية في ليبيا. وعلى أثر خلاف وقع بين البطريرك وممثله في ليبيا، سافر الممثل الى سميرنا وحلّ محله الارشمندريت، وقد تابع اضطلاعه بهذه المهام بعد سيامته أسقفاً للمدن الخمس.

وفي البداية كان البطريرك راضياً جداً عن أسقف المدن الخمس لحماسته الكبيرة وعمله الممتاز. لكنه غضب عليه بعد مدة بسبب نزعته الاستقلالية ومبادراته الشخصية، التي فسّرها على أنها خروج عن الطاعة. ووجد البطريرك في النهاية أنه من الأفضل ابعاد الأسقف عن مصر. وتقول بعض المصادر البطريركية ان هذا الترحيل متعلق أيضاً بأسباب أخلاقية.

ومع ذلك أجد من واجبي أن أعلمك أن المتروبوليت نكتاريوس كيفالاس، بحسب مصادر موثوقة أخرى، كان مجرّد ضحية للمؤامرات والنميمة. وفي النهاية يشرّفني أن أعلِم معاليكم أن

أسقف المدن الخمس كان كاهناً ممتازاً، نشيطاً وحرّ الضمير، حتى برأي موظفي البطريركية.

خادمكم المطيع

ج. جريباريس."

وقد دهش نكتاريوس لكون الثرثرات الغير المسؤولة والمسيئة تصل الى الدوائر الرسمية في الوزارة، فتغذي فضول الناس، وتفتح المجال أمام ثرثرات جديدة، وتعطي أجنحة للأشرار وتوقظ الشكوك، حتى في قلب الوزارة.

وأصاب نكتاريوس الأرق لكثرة حزنه، فأمضى الليل كله أمام أيقونة السيد. انه الجرح القديم الذي ينفتح مرة جديدة، ويوشك على التقيّح... وشعر كأن هناك نظرات ثاقبة، مدققة ومتحدّية تحدّق في حزنه.

كانت شفتاه تتحركان بصمت على ضوء الشمعة الخافت، وصار يتذكر الألم الذي سبق أن رآه في بعض العيون التي لا يمكن أن ينسى نظراتها. وراح يصلي طالباً رحمة الرب وطول أناته، لكي يجد طريق السلام من أجل مداواة حزنه... وليساعده الرب على تجاوز ضعفه.

وقد صمّم في أعماق نفسه أن يكتب رسالة لصفرونيوس، لكنه مازال يشعر بالتردد. ولهذا فقد كان يخشى رفع نظره الى أيقونة المخلص. وهكذا راح يلقي نظرات غائمة وراء الدموع باتجاه أيقونة الكلية القداسة والدة الاله من وقت لآخر. هذه الأم المليئة بالحنان التي تغض الطرف عن زلات أولادها الكثيرين في العالم.

وأخيراً قال:

-"سأكتب، فأنا لم أعد أستطيع الاحتمال. سأكتب له يا سيدتي بعض الكلمات... وأرجوك أن تتشفعي من أجلي لدى ابنك ليغفر لي هذا".

هكذا أمضى الليلة كلها تقريباً. وعند طلوع الفجر أخذ ريشة وورقة وكتب الى صفرونيوس:

"...ألهذه الدرجة أصبحت سيئاً في عينيك يا صاحب السيادة؟ لقد مضى على نفيي الظالم من مصر أربع سنوات، كنت خلالها أفتش بائساً عن خبزي اليومي لأتقاسمه مع الفقراء. كنت أصم وأبكم تجاه جميع اتهامات رجال بطريركيتك. فكيف يمكن أن يعطي موظفوك مثل هذه المعلومات عني رداً على طلب رسمي من الحكومة اليونانية؟ ومتى لاحظت يا صاحب السيادة نيتي بعدم الطاعة؟ وماذا بدر عني في هذا الخصوص؟ وما هي الاثباتات حتى أتهم بأني عاق ومتمرّد وخادم الشرير وعدو السلطة الاكليريكية؟ وأي محكمة اكليريكية حكمت عليّ وأدانتني، وبرهنت عن سوء أخلاقي، حتى يعطي موظفو البطريركية هذه المعلومات الوفيرة للمعتمد السياسي للحكومة اليونانية، في جوابهم بأني قد نفيت لعدم طاعتي وسوء أخلاقي، عندما طُلبت منهم المعلومات بطريقة رسمية؟ أين هي الوثائق؟ والمتهمون؟ والشهود؟ ما هي أداة الجريمة؟ وما هو أساس هذا الاتهام الرسمي الذي حكم عليّ بالموت المعنوي؟ما هي الاساءة الكبرى التي ارتكبتها بحقك يا صاحب السيادة أو بحق أحد من البطريركية حتى يُحكم عليّ بالموت؟ وما هو سبب غضبك هذا تجاهي، رغم البعد، في محاولة لتدميري بالكامل؟ وما هي الخطيئة الفظيعة التي ارتكبتها بحقك؟ وأي سوء، وأي خداع؟

"يشهد الله أني ولا مرة حاولت ايذاء أحد وأني لم أبحث طوال حياتي الا عن الخير حتى أصبحت خادمه وعاشقاً له. وقد حصلت قداستك على الاثباتات القاطعة على نواياي الطيبة.

"ولكن ما فائدة كل هذا؟ فقد انتهى كل شيء: لقد استراح غضبك وعوقب الشرير بطريقة مثالية. فلماذا اذن هذا الاتهام بعد سنوات؟ أريد أن أعلم قداستكم أن غضبها تجاهي غير عادل. وليكن الرب شاهدي وقاضيّ.

وتقبلوا فائق الاحترام وجميع التمنيات بالسعادة."

وفيما هو يوقـّع الرسالة عاد يتساءل من جديد ان كان عليه أن يبعثها. ولكنه وضعها أخيراً في مغلف خاص وأعطاها للبواب لكي يرسلها مع

البريد. وعندما حلّ المساء وفي ساعة متأخرة بعد صلاة الغروب، خرج الـــى الحديقة وإذ تنشق عبير البنفسج بدأ يحسّ بالارتياح.

الفصل السابع

+ (٢كور ١١: ٢٧-٢٩) "وفي التعب والكدّ والأسهار الكثيرة والجوع والعطش والأصوام الكثيرة والبرد والعري! وما عدا هذه التي من خارج ما يتفاقم عليّ كل يوم من تدبير الأمور ومن الاهتمام بجميع الكنائس، فمن يضعف ولا أضعف أنا؟ أو من يشكك ولا أحترق أنا؟"

بعد أن استراحت نفسه قليلاً، عاد الى متابعة حياته اليومية والسير في طريق الواجب والمسؤولية. وصار وقت فراغه قصيراً جداً: بالكاد كان يتوصّل قرابة نصف الليل الى الانفراد بنفسه في "الهدوء". وقد تكدّست لديه مجموعة مخطوطات تناول فيها اما العقيدة الأرثوذكسية أو مواضيع لاهوتية متفرقة. وكان بعضها دون تنسيق والبعض الآخر غير منجز.

وفي تلك السنة سمح الرب بأن يأتي ألم الآخرين ليقرع باب نكتاريوس. لقد أحسّ به الناس رغم الأسوار العالية التي كان يعلّم وراءها. وقصدوه طالبين عطفه ومساعدته. وتوافدوا اليه الواحد بعد الآخر بخفر. وصار كل وجه أليفاً بالنسبة اليه، صار كل وجهٍ وجه قريبه. وهكذا أصبح جميع أنواع الناس أقرباءه، مجموعات أو أفراداً، لا فرق... فقد اعتاد اقتبال الألم من حيث يأتي، من قريب أو من بعيد. وكان هذا نسكه، والنظام القاسي الذي اقتبله دون تذمّر، وفاءً لذكرى جدته.

ففي أحد الأيام الغابرة طرق الموت باب جارة له ليحمل أولادها الثلاثة الصغار بوباء التيفوئيد. فأرادت أن تسمّم لنفسها، ثم أمسكت بأيقونة السيد وراحت تسأله: "لمَ فعلت بي هذا؟" وهنا بدأت جدة نكتاريوس ترتجف. وقالت له:
-"انه الألم، الألم يا بني، الألم!"

ثم قبّلت الجارة بحنان وانحنت وهمست في أذنها قائلة:
-"ان حزنك هو حزني. لا يا ابنتي، يجب ألا نسأل الرب أبداً "لماذا"، فنحن لا نرى الأشياء الا بطريقة ضبابية. أما هو فهو "العين" التي تبصر كل شيء".

وتأهب نكتاريوس للعمل، فراح يقرع الأبواب يميناً وشمالاً طالباً المساعدة، وجامعاً المال لهؤلاء المساكين. ورغم التعب الذي كان يشعر به عند حلول المساء، فقد كان يعجز عن الخلود للنوم بهدوء ان لم يكن قد فعل كل ما بوسعه لتلبية هذه الحاجة الطارئة. وكان يفكر في نومه بجميع هؤلاء المشرّدين والأطفال والرضّع...

وما أن انتهى من هذه الكارثة حتى جاءه صديق قديم من مكان عزيز جداً بقي اسمه محفورا في ذاكرته: انها قرية، عالم صغير سار بمحاذاته في بداية حياته: ليتي. هذه القرية الصغيرة التي مارس فيها التعليم، هي اليوم بحاجة اليه. وقد سبق له أن ساعد أهلها بارساله المال اليهم على قدر ما كان يستطيع الادّخار، وخصوصاً عندما كان يشغل منصب ممثّل البطريرك في القاهرة وينعم بتسهيلات كثيرة. ثم تابع ارسال المال حتى عند ذهابه الى ايبوس والى لميا. الا أن مآسٍ كبيرة ومتتالية أصابت هذه القرية في الأيام الأخيرة. وقد اختفى مركبا صيد في احدى العواصف وكان عليهما نخبة شبّان القرية. هؤلاء الشبان الذين كانوا يعيلون أهلهم وأشقاءهم ونساءهم. وكانت هذه الفاجعة كبيرة. وبعد ذلك جاء البرَد الذي أتلف الموسم الزراعي. وانتشرت الأمراض، وعمّ الفقر وسيطر الجوع والحرمان.

وفي عيد رفع الصليب، عيد الأرثوذكسية، استجمع أعضاء المجلس البلدي ولجنة القدامى شجاعتهم وطلبوا من مدرّس القرية في ذلك الحين أن يكتب لنكتاريوس هذه الرسالة:

"لقد توالت علينا المآسي فأصبحنا في عوز شديد لدرجة أن الحياة لم تعد محتملة بالنسبة الينا. لذا نتوجّه الى قداستكم مرة جديدة لكي تسلّـِم هذه الرسالة شخصياً الى السيد أندريه سينغروس، هذا الرجل العظيم بنبل نفسه ومحبته للناس. وسنكون ممتنين لكم مدى حيينا".

وكان نكتاريوس يعرف أندريه سينغروس عن طريق عائلة خوريميس: فهو صاحب مصرف مشهور في اليونان كلها. وقد اتصل به في الماضي لنجدة أهل خيوس الذين كان يساعدهم على الدوام، وهو يظن أن أهله أيضاً يعيشون فيها. وكان "السيد أندريه" مواطناً شديد الحميّة. وقد تألم كثيراً في بداية حياته عندما وضعه أهله طفلاً في القسطنطينية، واختبر بالفعل

وقد وفى سينغروس بوعده، فبعد ستة أشهر، وفي منتصف شهر شباط، استلم نكتاريوس رسالة شكر احتوت على الكثير من عبارات المجاملة، ومما جاء فيها:

"ان العمل الغير المنتظر الذي قام به المواطن المعروف أندريه سينغروس قد ملأ قلوبنا فرحاً وامتناناً. هذا وكلنا ثقة بأن لمحبتكم وتضحيتكم اليد الطولى في ما حدث".

ولم تكن الأحداث المؤلمة الكثيرة هي وحدها التي تشغل أفكاره، فقد كانت تطرأ باستمرار حوادث جديدة. ولو أنه كتب يومياته وذكر كل ما كان يحصل معه لكان ملأ الصفحات الكثيرة. في تلك السنة تجلّت تجربته الكبرى في النعاس! فكان يحس بجفنيه مثقلين على الدوام، والنعاس يلقي بظله على أفكاره المفعمة بالأحزان والجهادات والدموع.

وبعد عيد الفصح مباشرة حدث أمر غير متوقع أفقده الهدوء: لقد كان بين تلاميذه شاب يدعى نيقولاوس من قرية ميتسوفو، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، قوي البنية وموفور الصحة. وبما أنه تلميذ داخلي، فقد كان يدفع نفقة اقامته. وكانت علاماته جيدة جداً، الا أنه ــ وهو أمر غريب ــ لم يحصل على منحة مدرسية. واعتاد الجميع أن يروا نيقولاوس بالملابس نفسها القديمة والرثة. وكان وجهه يحمرّ خجلاً لأدنى ملاحظة. وكان صاحب صوت جميل ، ويعتبر من أفضل المرتلين في المدرسة. ولكنه كان يحاول اخفاء ذلك عن الجميع. وغالباً ما كان المرتلون يومئون اليه ليتقدم ويقف معهم، لكنه كان يدير وجهه وهو يحمرّ خجلاً. كان عندليباً يتمتع بصوت شجي، ويحب الوحدة ويتجنب اللقاءات والمزاح والضحك. وأما خلال النزهات النادرة مع بقية الطلاب، فقد كان يفضل الانزواء والابتعاد عن الباقين ليقرأ انفيلوكاليا.

وقد أعجب نكتاريوس بهذا الشاب منذ بداية معرفته به. وفي احدى الليالي التقاه صدفة في الحديقة الصغيرة، وكان يستمع الى غناء عصفور وهو يرتجف من التأثر. وفكر نكتاريوس انه يجب أن يكون المرء كثير الأسى أو كثير الفرح لكي يرتجف لغناء عصفور.

كانت عينا الشاب محمرّتين ومنتفختين. فسأله نكتاريوس برقة متجنّباً اخافته:

-"ما بالك يا نيقولاوس؟"

فخفض الشاب رأسه وتورّد وجهه ومسح عينيه بمنديلـه، لكنـه لـم يجب. فتكلم نكتاريوس من جديد:
-"من حقك يا بني أن تخفي الأمور التي تضايقك. ولكن يجب أن تعـرف أن الانطواء يضرّ بصحة النفس والجسد: فهو مصـدر الكآبـة وكـره النـاس والحزن. ثم... يجب ألا تكون حزيناً: فأنت رجل، أي قمة الخلق. ومن حظك أيضاً أنك مسيحي! فان مخلـّصنا المحب البشر يحضر لك أنت أيضاً خططاً للمستقبل، كما يفعل لكل نفس مؤمنة".

وفي هذه اللحظة تقدّم الشـاب باتجـاه نكتـاريوس وكـانت عينـاه تلتمعـان، وتمتم:
-"ان خطتي أنا هي الموت والتلاشي..."

فتعجب نكتاريوس وسأله:
-"ماذا؟ كيف يمكنك أن تحكم على الأمر بصورة مسبقة؟ ومن قال لك هذا؟"

فأخرج الشاب من جيبه مغلفاً وأعطاه لنكتاريوس وهو يزفر زفـرة عميقة. فتناول نكتاريوس نظارتيه على عجل وجذب الشاب باتجـاه مبنى المدرسة حيث كان ينبعث الضوء. وأحسّ بانقطاع النفس اذ قـرأ أن كـاتب الرسالة هو عمّ الشاب والوصي عليه، وهو الذي يدفـع نفقـة اقامتـه فـي المدرسة؛ وفيها يعلمه أن والده الكسول والسكير قد أصيـب بـالجنون، وأن زوجة أبيه قد أرسلت شقيقتيه الى قرية جانينا للعمل فيها كخادمتين.
ورفع نكتاريوس نظره الى الشاب وحدّق فيه طويلاً، ثـم لـم يعـد يستطيع أن يضبط نفسه، فانفجر بالبكاء معه فيما تابعت القبرة غناءها الفرح. وتمتم نكتاريوس:
-"يا بني، يا بني..."

وكان العتم يزيد والألوان تختفي... فأخذ نكتاريوس الشاب من يـده وقاده الى الكنيسة ووقفا أمام أيقونة سيدتنا والدة الاله، وراح يصلي باكياً. ولم يعلم أحد كم من الوقت بقيا معاً أمام الأيقونة يبكيان بصمت، وقلباهما يخفقان.

* * * * *

في اليوم التالي بدا نيقولاوس أكثر هدوءاً.وكانت السـنة الدراسـية توشك على الانتهاء، وقد اقتربت الامتحانات.لذلك كان يستحيل عليه التغيّـب لزيارة شقيقتيه. وبعد ذلك بأسبوع مرض واضطر لملازمـة الفـراش، وقـد أصابته الحمى وكان العرق يتصبب منه. وفي البداية لم يبدِ الطبيب قلقاً، بـل حاول ازالة الحمى بالطرق المعروفة في ذلك العصـر، لكـن دون جـدوى. فوصف للمريض جلسات التدليك، وحمامات القدمين، لكن ذلك لم ينفع.

ثم انقضت خمسة أيام، ثم ثمانية أيام، ثم عشرة أيام كـان الوقـت يمرّ والشاب يفقد قواه بسبب الحمى التي بقيت قوية. وصار يـزداد شـحوباً ونحولاً. وفقد صوته الشجيّ رنّته الخاصة، ولم يعد غير همس خافت.

فاجتمع الأطباء ليدرسوا الوضع، لكنهم عجزوا عن وضع التشخيص. فقرروا أن يرسلوه في جميع الأحوال الى المستشفى على وجه السرعة. وكان هذا المستشفى يقع في الطرف الثاني من الشارع، وقد شيّدته الملكـة أولغـا وسينغروس ودير بتراكي وغيرهم أيضاً.

وأصرّ أمين السر العام وأحد أعضاء المكتب التنفيذي على الكتابـة الى الوصي للتنصل من كل مسؤولية.

وقد رجاهم نكتاريوس أن يبقوا المريض، وأكّد لهم بأنه سوف يتحمل كافة مصاريف الشاب الاضافية، هذا الملاك الجريح الذي يحمل صليباً أكـبر منه، ليستطيع البقاء معهم.

وفي الليلة التي سبقت نقله الى المستشفى، فتح عينيـه ونظـر الـى نكتاريوس مضيفاً الى قلبه جرحاً جديداً، وتمتم له:
-"أرأيت يا صاحب السيادة: انه مخطط الله لي، أن أموت..."

فأجابه نكتاريوس بطرف شفتيه:
-"أشك في ذلك..."

ومنذ اليوم التالي بدأ نكتاريوس يصلي كل ليلة أمام أيقونـة الكليـة النقاوة:
-"سيدتنا والدة الاله... أرجوك من أجل نيقولاوس، وأتضرع اليك أن تتشفعي لدى ابنك لكي يعيده الينا بصحة جيدة. وأعدك بأن أقدم لك، بحسب قدراتـي

بسيطة، بعض أبيات الشكر... أنت تعلمين أن حالته خطيرة... آه هذا الشاب صاحب الصوت الشجي، المحب للوحدة! يا سيدتنا!".

وعند الفجر كان يظهر على نكتاريوس التعب والانهاك. وكان يفقد كل نشاط وحماس ورغبة في العمل، خلال الدروس التي كان مضطراً لاعطائها.

وكان صديقه الشاب الآتي من لميا، قسطنطين ساكوبولوس يقول له وهو مرتعب:

-"سوف تصاب بالمرض يا صاحب السيادة. وماذا سيحل بنا عند ذلك؟"

وصار نكتاريوس يهرع مرات كثيرة الى المستشفى لمتابعة أخبار الشاب الغارق في الخدر، وللبقاء الى جانبه كما يفعل الأب والأم.

وعند ظهر أحد الأيام التقاه أمين السر ووجده يترنح من التعب، فقال له:

-"أنا لا أفهمك! فمنذ ثماني سنوات أصابنا وباء الجدري، ودفنا اثني عشر تلميذاً"

فتمتم نكتاريوس بصوت حزين:

-"من يمرض ولا أمرض أنا ؟"

وفي يوم السبت التالي دعا نكتاريوس بالحاح جميع رفاق نيقولاوس في الصف والذين يريدون شفاءه من الموظفين، لاقامة سهرانة من أجله. فامتلأت الكنيسة بهم وكانت الصلاة مؤثرة جداً. لقد كانت الشفقة وما زالت من أعظم مزايا الانسان.

وكانت سيدتنا والدة الاله فائقة الاحسان، وأنقذت نيقولاوس من الموت المحتم. فبعد انتهاء الصلاة وعندما استطاع نكتاريوس أن يخلد للنوم لساعتين أو ثلاث، رأى والدة الاله العذراء في نومه تمرّ أمامه وكأنها ما زالت بعد على الأرض: معظـّمة، رصينة وعطوفة. وسمعها تقول له:

-"اهدأ يا بني، فالرب سيشفي الشاب".

وفي وقت الغداء كان نكتاريوس قد عاد الى طبيعته المألوفة. وقد تكلم بفرح وبلهجة من ينقل الأخبار الحسنة. ونادى قائلاً:

-"يا أولادي، هذه الليلة استمعت والدة الاله الى صلاتكم، صلاة شبابكم الحارة. وقد تأثرت من صدق أحاسيسكم تجاه المريض، وتعهّدت بالتشفع لدى الرب. وبعد وقت قليل سوف يشفى نيقولاوس".

فحدثت ضجة صغيرة اختلط فيها الفرح والدهشة والشك، رغم اعتراض أحدهم لأن الأطباء الذين عاينوا نيقولاوس في الليلة الفائتة أفادوا بأن أمله بالحياة صار ضعيفاً، وأن رحيل روحه المعذبة عن هذه الأرض سيتم خلال ساعات قليلة.

ومع ذلك ففي مساء الأحد نفسه، وفي غرفة المستشفى، انقلب الوضع رأساً على عقب: فلقد فتح المريض عينيه وابتسم، وتحدث الى الممرضة المتطوعة "راهبة الرحمة"، وتناول الطعام، ثم استغرق في النوم.

ومنذ الاثنين صباحاً دخل نيقولاوس في مرحلة النقاهة. وبعد ثلاث سنوات رسمه نكتاريوس شماساً في كنيسة "سيدة المغارة الذهبية". وقد أنشد بصوته الشجيّ: "افرحي يا والدة الاله مريم الممتلئة نعمة..." عند مباركة الخبز المقدس الذي قدّمه أحد أصدقائه الورعين. ثم أصبح فيما بعد أرشمندريتاً.

وقد ألف نكتاريوس "للسيدة الظافرة" الأبيات التي وعد بها:

"أمدحك وأعظمك يا كلية الطهارة
أنت التي عظمت جنسنا
وأتضرع اليك مرتعداً يا كلية المجد،
أنت التي لا تتوقفين عن التضرع لابنك..."

وفكر أنه يوم يؤلف أبياتاً كافية لتملأ كتاباً، فسوف يكتب هذا الاهداء:

"... لكي نمدح ونرتل للكلية القداسة والدة الاله. الى التي تستجيب بسرعة وتردّ حالا وتحمي وتنجد الذين يدعونها. اعترافاً مني بجميلها الذي لا حدّ له لجميع الاحسانات التي تلقيتها منها."

الفصل الثامن

- (مت ١٣ : ٤٤) "يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفياً في حقل وجده رجل فخبّأه ومن فرحه مضى وباع كل شيء له واشترى ذلك الحقل".

- (١مل١٩:١١-١٢) " فقال: قف على الجبل أمامي. ثم عبر الرب، وهبت ريح عظيمة وشديدة شقّت الجبال وكسّرت الصخور، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار. وبعد النار نسيم لطيف.."

بعد حوالي سنة ونصف على حادثة شفاء الشاب من متسوفو (كانت البلاد قد عرفت خلالها اضطرابات ثورة كريت والحرب اليونانية-التركية المؤلمة سنة ١٨٩٧، هذه الحرب التي ملأت أثينا والجزر بالخوف واليأس) كتب قسطنطين ساكوبولوس صديق نكتاريوس الشاب والمقرّب اليه، الرسالة التالية الى أحد زملاء دراسته القدامى في لميا:

"عزيزي أغاممنون لقد أصيبت جميع القلوب بالاضطراب على أثر الأحداث المرعبة التي عاشتها بلادنا الحبيبة في المدة الأخيرة. ولحسن الحظ فقد قررت عائلتي أخيراً الانتقال للسكن في العاصمة. واستطاع والدي بمساعدة مديرنا الجليل أن يجد عملاً في احدى مؤسسات سينغروس. لكن المعيشة غالية جداً هنا، ونحن بحاجة لشراء كل شيء حتى الخضار، والحياة مؤلمة بالنسبة الينا. لقد كتبت لي أنك غالباً ما تمر أمام بيتنا وتنظر الى مصاريع النوافذ البنّية وتشعر بالحزن لرؤية المستأجرين الغرباء مكان ابتسامة أمي ولطافة شقيقي الذي يتابع اليوم تخصصه في فقه اللغة. وأتمنى أن تأتي مع عائلتك للسكن هنا. فلماذا تترددون؟ اذ لم يعد من خوف على سلامتكم. لقد كان تدخل القيصر نيقولاوس الثاني حاسماً، اذ منع البربر من النزول حتى موريا، فأرغب كثيراً بأن تأتي الى هنا.

أما عن كلامك على "جميع هؤلاء الكهنة" ولابسي الجبّات، فأنت على خطأ يا عزيزي أغاممنون. فكم أرغب أنا أيضاً بالتوصل للاضطلاع بهذه المهام النبيلة والعظيمة التي تتجلى بالكهنوت! ولكني للأسف أشعر بأني لا أستحق أن أتحمّل هذه المسؤولية الرهيبة. ومع ذلك فلست ألومك، لأنك كنت دائماً منجذباً الى السياسة والقانون، وابتعدت عن الطريق الصحيح بسبب بعض الكهنة الجهّال والرجعيين الموجودين بأعداد كبيرة في الشمال. ولكن

يجب أن تعرف يا عزيزي أن أمتنا عندما كانت تحت نير الاحتلال الـتركي، قد حافظت بعناية كبيرة على كنز فريد في العـالم: أي الايمـان المسـيحي الحقيقي، الذي لولاه يا أخي " الكل أوهى من الظلّ، الكل أخدع من الأحـلام". وهل بقي لبلادنا أثمن منه لتريه للأجانب؟ اذ ماذا بقـي: الفقـر، أو الجبـال الجرداء أو الانحطاط؟ أم هؤلاء الذين يتعاطون الدسائس السياسية ويـأكلون بعضهم البعض وقد أفاقوا للتو من سباتهم على أثر الهزيمة؟

ان الكاهن الحكيم يستطيع أن يعلو بمئات النفوس ويمنعها من السقوط في الهاوية، فيقودها نحو الفضيلة ويخلـّصها. ويستطيع أن يزرع في القلوب اليائسة زهرة المحبة النادرة التي بسببها صعـد المسـيح علـى الصليـب. ولحسـن الحظ فان عندنا اليوم نفساً عظيمة، هي نفس مديرنا الذي يكافح ليل نهار من أجل بناء أعمدة الكنيسة القادرة على رفع مثل هذا الحمل...

كما نسمع هنا في العاصمة كلاماً حول نشـاط بعـض الشـخصيات الأخرى وخصوصاً أبوستولوس ماكراكيس المشهور. ويحتوي تعليمه علـى بعض الجديد، ولكنه لا ينفك يناهض بقوة الذين يستمرون في الخطـأ. الا أن مديرنا يشبه المطر الصامت المنتظـَر بشوق، والذي ينـهمر علـى الأرض الجافة والجرداء فيحييها ويملأها بالسعادة ويعطيها الخصب، ويحولها الـى أم طيبة وخصبة.

وقد تأسست بروحه وبفضل طيبة قلبه أعداد كافية من هذه الأعمـدة الممتازة التي تتهيّأ لخدمة كنيستنا. وهذا أهم بكثير من كل المال والممتلكـات التي بحوزة الأغنياء وأصحاب السلطة. ورغم كل ما يمكن أن أخبرك عـن هذا الانسان الجليل، فاني أوشك على نسيان الكثـير مـن مواهبـه الخفيـة الأخرى. أما فيما يختص بي فاني أجد نفسي منجذباً الى وجهـه كمـا الـى مغناطيس، ويستحيل عليّ أن أنفصل عنه. وهذا حال عدد كبير من رفـاقي: فما هو السر الغريب والمشعّ الذي يخفيه هذا الرجل وراء مظـهره البسـيط والكثير التواضع؟ فأنت تراه يعيش مثل سائر الناس ويتصرّف مثـل سـائر الناس، ويتكلم مثل سائر الناس، ولكنك تشعر مع ذلك بأنه ليـس مـن هـذا العالم. فهو لا يملك قاسماً مشتركاً واحداً، وليس ما يربطه بكل ما يفتش عنـه الناس العاديون، وينتظرونه ويحلمون به. انه يصلـّي في السر ليـل نـهار مـن أجل خلاص العالم، وينتظر بخشية ملكوت الله الـذي يعـرف وحـده ممرّاته السرية. ليس فيه شر، ويحب كل الناس، وينتصر علـى المخـادعين بنظراته البريئة، كطفل الأسطورة الذي انتصر بنظراته الطاهرة على قسـاوة

ـــب. انه يعاشر جميع أنواع الناس، فيعطيهم السلام ويقودهم بعذوبة ونبـل ـب على درب المخلص المتجسّد.

والحقيقة يا أخي أن المثال يعطي دائماً التعليم المناسب والفعّــال. ان هذا الرجل بحد ذاته صورة عن الرهبنة البيزنطية المزدهرة، رهبنة الملائكة النقية. انه رجل يعيش كالملائكة. وكل ما يمكن أن أقوله عن هــذا الانســان يوشك أن يكون ناقصاً لأني أكاد أغفل الكثير الكثير من مواهبه الخفية. فأنــا أعيش في وسط مئات من الشبان ذوي الطـبـاع المختلفة، ولكنــهم جميعـاً منجذبون بالطبع الى العالم، وغير مبالين، ومع ذلك فهم يرتجفون خوفاً فــي كل مرة يحدثون شيئاً من الضجيج، ليس لأنهم يخشون غضب هــذا المديـر القديس ــ فهذا لا يهمهم ــ بل لأنهم قد يسببون له الحزن! وقـــد يجعلونــه يبكي، ويجبرونه على أن يعاقب نفسه حتى الانقطاع عن الطعام.

عزيزي أغاممنون، يا صديق الطفولة، قد أكون سببت لــك الملــل. ولكن ريشتي ركضت على الورقة من نفسها. وأرجوك أن تصدق بأني لـــم أكتب الا القليل القليل عن حياتي هنا. لا تعتقد بأني قد تغــيّرت، وأصبحـت سماوياً بعض الشيء"! للأسف فأنا ما زلت كمــا كنـت: بشــرياً، ثقيــلاً، معرّضــاً للوقوع في فخاخ الشرير الذي يقتل الانسان...

وفي النهاية أرجو أن تنقل تحياتي الى والديك واخوتك، وخصوصــاً الى أستاذنا المحبوب الذي ما زلت أذكره. ولك مني أحرّ القبلات.

كوستي ساكوبولوس."

الفصل التاسع

\+ (لو ١٨ : ٨) "أقول لكم انه ينتقم لهم سريعا. ولكن اذا جاء ابن البشر فهل يجد الايمان على الأرض؟"

\+ (أر ٢٣ : ١٦) "هكذا قال رب الجنود: لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم ويخدعونكم. يتكلمون برؤيا قلوبهم لا عن فم الرب."

كان الربيع يقترب من جديد بابتسامته المضيئة والمزهرة، لتهدئة القلوب بعض الشيء، ولاعادة النكهة الى الحياة والقليل من الأمل.

الا أن العاصمة عادت الى الاضطراب بسبب بعض الثورات والمواجهات السياسية. وخصوصاً بسبب محاولة اغتيال الملك جورج الأول بعد ظهر يوم ١٤ شباط ١٨٩٨، عندما كان يقوم بنزهة في الشارع القديم الذي يدعى "أثينا ــ الفراشة القديمة". فقد تضاءلت شعبية السلالة الحاكمة بعد سلسلة الهزائم الشنيعة في دوموكو وفارزال والميرو وألاميا، وبسبب الفوضى العامة في البحث عن المسؤولين عن هذه الهزائم.

ولحسن الحظ أن الرصاصة قد أخطأت هدفها، ولم يقتل أحد. الا أن هذه الحادثة أشعلت النفوس. وفي السر كان الجميع يشعرون بالخوف. ولم يبدِ المثقفون ولا ذوو المراكز حراكاً، وكأنهم مصابون بالخدر.

وبعد خمسة أيام من محاولة الاغتيال دارت مناقشة حامية في مكتب أمانة السر في مدرسة ريزاريو بين عضوين من المجلس وأمين السر العام حول الأحداث السياسية الأخيرة، وحدود البلاد الجديدة. وخصوصاً حول المبلغ التعويضي الذي فرض على اليونان أن تدفعه الى السلطان بسبب هذه الحرب المأساوية. وقد اضطرت البلاد لتسول المال من أوروبا، وهو عبارة عن أربعة ملايين ليرة ذهبية. كما عادت فقُيدت دون أي أمل بأن يُضبط اقتصادها الوطني.

وفجأة وفي ذروة الجدال استدار أحد عضوي المجلس المسمّى كاريستوس ــ وهو من ايبيريا، ومن كبار التجار ــ نحو أمين السر، وقال له:

-"أما بالنسبة الى نكتاريوس، فهو لا يتدخل بشيء. ولا شيء من هذا يهمه على الاطلاق".

وفي هذه اللحظة اختفى الحماس والانفعال، وخلا الحوار من تخوف المضطرب، وأخذ الحديث منحى آخر. وقال أمين السر:
-"انه يتحضّر للذهاب الى جبل آثوس في هذا الصيف. وقد طلب الاذن الرسمي من البطريرك. كما انه بحاجة للمال...
-لماذا؟
-"لأنه صرف كل ما معه في الصدقات. وبما أن كتابه قد نشر مؤخراً فقد أعوزه المال ليدفع للناشرين.
-"وما هو هذا الكتاب؟
-"ألم تسمع به؟ لقد أدهش جميع الطلاب الجامعيين. وقد ذهب البعض الى القول بانه مؤلف فريد في الأدب المسيحي الأرثوذكسي.
-وكيف تريدني أن أعرفه؟ فأنا لا أهتم الآن بنكتاريوس في هذا الوقت الذي يغلي فيه كل شيء هنا، ونحن نوشك على العودة الى العبودية.
-"عنوان الكتاب: "الخُلق المسيحي".
-"ماذا تقصد، ألا يعيش هذا الانسان المسيحي بيننا؟ ألا يخاف شيئاً مما يحدث؟ ألا تتألم روحه مثلنا كلنا؟"

فأجاب أمين السر بصوت خافت:
-"دعني أشرح لك الوضع: انه لا يهتم بالسياسة.
-"ألا يتابع الأحداث؟ ألا يقرأ الصحف؟
-"أحياناً. الا أن هدف حياته الأول، كما ثبت لنا حتى الآن، هو تنشئة كهنة لبلاده".

فأضاف عضو المجلس الآخر، وهو من سميرنا وأستاذ في التعليم العالي:
-"وباندفاع لا حدّ له.
-"أرجوكما أن تتوقفا عند هذا الحد، فما تقولانه لا معنى له. ما معنى "رجل مندفع"، ماذا يفعل غير واجبه وعمله؟ ثم ألا يتقاضى راتباً لذلك؟"

فسعل أمين السر وأجاب:
-"لكن الأمور كانت سيئة منذ وقت قريب. هل نسيت الخصومات والقصص الماضية؟

-"بلى ولكن في ذلك الحين كانت هنـــاك أســباب أخــرى. لا تكــن كثــير التأكيد.أعذرني فقد نسيت: ما هو عنوان الكتاب؟
-"الخلق المسيحي في كنيسة الشرق الأرثوذكسية". وقد كتبه لطلاب مدرســة ريزاريو. كنت أراه في الشتاء الماضي يسهر كل ليلة حتى ساعة متـــأخرة. وقد أنجز الكتاب قبل تراجع الجيش اليوناني بوقت قصير. ثم بدأ يبحث عـــن ناشر وعن بعض المشتركين.
-"ولكنك قلت ان الأوساط المطـلعة قد رحّبت بهذا الكتاب، وقد كثر الكــلام حوله! هذا يعني أنه سيباع بكثرة وسيعود عليه بالمال.
-"ان الأمر مختلف بعض الشيء... فهو يوزع معظم نسخ الكتاب. انه يهبــها للطلاب المتفوقين، لمن يحملون "النار المقدسة" كما يقول، وعلى من يــودون اكتساب المعرفة. وأنت تعرف بأن هؤلاء هم دائماً من الفقراء المعوزين.
-"وما هو موضوع الكتاب؟
-"آه... لم أقرأه. اذ لم يكن لدي الوقت لذلك... لقد قلـّبت صفحاته فقط. انــه يبحث في... القيامة الخلقية للانسان وواجباته.
-"وهل دفعت ثمنه على الأقل؟
-"ماذا تقول؟ وهل نحن نملك المال لشراء الكتب في هذه الأيام؟ لقــد قدمــه اليّ، وحتى أنه كتب لي اهداءً عليه. وفي جميع الأحوال انه يهديه لكل الذين يطلبونه. وما عليك الا أن تزوره في مكتبه...
-"رغم ديونه التي تكلمنا عليها؟
-"أجل".

فقال آخر:
-"كل ما أعرفه أنه استطاع أن يفرض نفسه على الطــلاب بفضــل طيبتــه وجدارته فقط. لقد تمكن من خلق ما يمكن أن يسمّيه جواً نفسياً مــن التفــاهم المتبادل والعمل المشترك... الأمر المتواجد في أوروبا، لكن بشكل مختلف.
-"بأي شكل؟
-"لأن تعاليمه تـنحدر الى مستوى التلاميذ ووضعهم.

وأضاف أمين السر:
-"ومع ذلك فان نكتاريوس شديد الصرامة، ولا يبتعد قيد أنملة عن القـــانين الا انه..."

وساد الصمت. فقال أحدهم:
-"تابــع... لمَ توقفت عن الكلام؟ ماذا كنت تريد أن تقول؟

-"الا أنه في خلاف دائم مع المجلس".

فقال التاجر كاريستوس ساخراً، وهو يمسح صدرته بمعصمه:
-"هذا ما سمعته أنا أيضاً. ماذا تريدون؟ انه راهب من الرأس حتى أخمص القدمين. وهو عاجز عن تخطي القرون الوسطى في حين أن العالم اليوم هو في ذروة النهضة. هذا ما يؤكده ابني، وهو طالب جامعي كما تعلمون. وقد تخرّج من جامعة ميونيخ!
-"ذروة النهضة... ولكن أي نوع من النهضة؟
-"لا أعرف بالضبط. يمكن أن يشرح لك ابني هذا الموضوع، فهو متخصص فيه. غير أنه للأسف لا يملك الوقت لذلك! وقد وعد زملاءه بكتابة مقال في الصحف عما قريب.
-"في أي خصوص؟"

فصرخ الأستاذ:
-"بخصوص انتصار العلم ! هذا أمر أعرفه".

فسأل أمين السر من جديد:
-"وماذا يعني هذا؟
-"كلنا يعلم أن روح القرن التاسع عشر في حالة الاحتضار. في حين أن القرن العشرين الذي يحمل تفوق العلوم والرياضيات والاختراعات سوف يكون برأي جميع المفكرين، عصر انتصار الانسان. فيخضع كل شيء فيه لسلطته المطلقة. ويتم تخفيض نسبة الوفيات الى الحدّ الأدنى. ويرتفع مستوى الحياة وتصبح رهناً بارادة الانسان ومشاركته في ركب الحضارة. ويصبح كل ما يتعلق بالخرافات والدين مجرد ذكرى".

وفي هذه اللحظة قال التاجر موافقاً:
-"تماماً!... وهنا ما رأي صاحب السيادة المدير العام؟"

فأجاب أمين السر:
-"هل تطرح السؤال عليّ؟
-"طبعاً، فأنت تراه كل يوم.
-"حسناً... كيف أجيبك؟... انه لا يقبل شيئاً من هذا.
-"أترى أنه مجرد راهب. بينما ابني الجامعي قد لفت نظري الى أن المدرسة بحاجة الى التقدم والتأقلم مع قيم الشعوب المتحضرة.

-"لكن نكتاريوس يردد طوال الوقت أن الابتعاد عن المسيح سوف يؤدي الى الاضطرابات والظلمات والحروب والكوارث. ولهذا السبب فقد وضع كتابه الذي كنا نتكلم عنه منذ قليل... ان هدفه هو توجيه ثقة الشبان للاعتماد على حجر الزاوية: ابن العذراء!"

فصرخ التاجر:

-"انه يتأخر عن العصر... انه لا يقيم وزناً للعلم! أريدك أن تشتري له كل صباح الصحف والمجلات العلمية على حسابي، هل فهمت؟

-"نعم.

-"وعندما ينشر ابني المقالات العلمية سوف ألفت انتباه نكتاريوس اليها بنفسي".

الفصل العاشر

+ (لو ٢٢ : ٤٣ - ٤٤) "وظهر له ملاك من السماء يقوّيه. واذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض"

+ (يشوع بن سيراخ ١٨:٧-٩) "ما الانسان وما منفعته. ما خيره وما شرّه. عدد أيام الانسان على الأكثر مئة سنة. كنقطة ماء من البحر وكذرة من الرمل.هكذا سنون قليلة في يوم الأبدية. فلذلك طالت أناة الرب وأفاض عليهم رحمته..."

كان الجبل المقدس آثوس وسيبقى دائماً عاصمة الأرثوذكسية، كما قال مؤخراً أحد الكتّاب المعاصرين. فكل ما يمكن أن يكتب المرء عن هذه البقعة وعن لؤلؤة الرهبنة البيزنطية، لن يكون غير نقطة في بحر الحقيقة. فانه حتى الخيال الورع يبقى بعيداً عن هذا اللون السماوي السري، وعن ارتقاء فكر الناسك أو المتوحد، رجل الصلاة الذي يتشفع ويتوسّل من أجل سلام العالم وخلاصه.

لقد كان هذا الجبل ولا يزال مدينة رهبانية كلياً، يعيش فيها رجال من جميع الأنواع. فكل الذين يقررون مغادرة العالم وانهاء حياتهم فيه يقبلون جهاداً وحمل صليب ثقيل. لأنه لا يسعهم تجنّب الصراع الخفي ضد العدو، المدمّر، الشيطان قاتل الانسان. فينتصرون عليه بفضل صبرهم وايمانهم وثباتهم، ويرتقون الى الطبقات العلوية التي يجهلها سكان العالم؛ أو ينهزمون فيقعون بجبّاتهم في الخطيئة، ويتحوّلون الى أقذار والى حيوانات مفترسة مليئة بالأوساخ والأهواء.

والمؤسف أنه من بين مليارات الناس الذين وهبهم الله الادراك، وتنازلَ الكلمة الاله ليأخذ صورة عبد ساقط ويحتمل المهانة والصلب من أجلهم، من بين جميع هؤلاء البشر الذين يولدون ويموتون، فالقلة القليلة فقط تعي عظمة امتيازها ودعوتها، والندرة هي التي تفوز بالملكوت السماوي.

والأمر هو نفسه بالنسبة الى شبه الجزيرة هذه، آثوس، تلك الأرض المباركة والمروّاة بالدم: فان الملايين يدخلونها ويخرجون، ويرتدون الزي

الرهباني، الا أنهم نادراً ما يتوصلون للارتقاء الـــى مســتوى أناستاســيوس الآثوسي، أو غريغوريوس بالاماس، أو نيقوديموس الآثوسي.

ويحتوي النسك الرهباني على نذر الفقر والعفة الـــى جــانب نــذور أخرى. ويرتكز على طريقين: الأول طريق الأصوام، وهو كثير الصعوبـــة، ويعتــنقه النساك. والثاني طريق الطاعة، وهــو الأكــثر ســهولة، وينهجــه الرهبان. ومع ذلك فان القليل من الرهبان يستمرون في هذا الطريق الثـــاني. والا فلو كان الجميع ينتصرون، أو حتى يبقون في أماكنـــهم، لكــان الجبــل المقدس صغيراً جداً.

ويصلــّي الناسك من أجل العالم ومن أجل الضعفاء والخاطئين، ست ساعات في الليل والنهار بطوله. انه يتفقه لدى القديس اســحق، والفيلوكاليــا، والمزامير، والقديس نيلوس الناسك، والقديــس ســمعان اللاهوتــي الجديــد، والقديس يوحنا السلــّمي، والأب دوروثاوس، والأب مرقس والقديس أفــراد والكثير غيرهم.

لا يهتم الناسك لما يأكل: فهو يعيش مـــن ثمــار أشــجار الغابـــات المجاورة، ومما يأتيه من وقت لأخر زائروه المعجبون بـــالمواهب الســرية التـــي ينعم بها عليه يسوع والكلية القداسة. فاذا أكل الكعك العفن خلال الشتاء القارس، بدا له ذلك حلوى لذيذة.

في هذه الجبال الوعرة كل حفرة وواد هي مخبأ للشياطين، كما تؤكــد الأسطورة القديمة. والويل للناسك الذي لا يتمكن من السيطرة عليها بفضـــل الصليب الذي يحمله في قلبه وفي يديه. فالصراع رهيب ودون رحمة. وقـــد يضعف الناسك في أية لحظة ويسقط بين يدي العدو، ويفقد كل ما ربحه بـــالدم والدموع والمشقات التي لا توصف!

وعندما حل صيف ١٨٩٨، وفي نهاية السنة الدراسية، وصل مديـــر مدرسة ريزاريو الجليل الى كارييس (آثوس) برفقة صديقين له، راهبين مـــن خيوس. وكان قد قام بالمســـاعي اللازمـــة وحصـــل علـــى اذن البطريـــرك المسكوني قسطنطين الخامس. وقد نزل الثلاثة في ساحة بروتـــاتو الفســيحة المحاطة بالفنادق والمخازن. فاستقبلهم أربعة رؤساء أديار يحمل كل منهم أحد الأختام الأربعة، وبعض قدامى مجلس رؤساء الأديار.

لن نتابع بالتفصيل تنقلات نكتاريوس خلال اقامته التي استمرت زهاء ثلاثة أشهر: فقد أمضى ليالٍ كاملة يعمل في المكتبات. كما زار الأديار، ومارس الكثير من الأسهار والجهادات القاسية التي سُمح له باتباعها...

ومع ذلك فما أن عُرف بوجوده وبالتوصيات الصادرة عن البطريرك وعن اتحاد الأديار المقدس، حتى بدأت مختلف الشائعات تنتشر حوله في أوساط الرهبان والأجراء العاملين في الأديار وبعض الزوار. وقد رأى فيه البعض صورة عظيمة عن الكنيسة بينما اعتبره البعض الآخر أسقفاً ساقطاً، كسولاً، لا سلطة له، ولا يعيش الا بفضل تسامح مجمع أثينا المقدس. وكان بعض المخادعين والمراوغين الذين يتسترون وراء مظاهر الورع، يعيدون في الأذهان اتهامات بطريركية الاسكندرية ويؤكدونها. ويقولون عن نكتاريوس انه يشبه الجرح الخفي، واللباس المبقّع من الداخل.

وفيما يلي بعض ما كتب البطريرك قسطنطين الخامس عنه:

"يسرّنا أن نوصي لقداستكم بقداسة هذا الصديق، ولا يساورنا الشك في أن الجماعة المقدسة وجميع رؤساء الأديار القديسين، الذين يرأسون أبوياً الأديار المغبوطة، سوف يستقبلون قداسته بالاحترام والتقدير اللذين يليقان بدرجته وبالمسؤوليات العالية التي يضطلع بها، وفي أنهم سوف يبادرون جاهدين الى تحقيق جميع رغباته."

أما الممثلون والمسؤولون عن الأديار العشرين "المقدسة والمغبوطة" الذين يقيمون في كارييس،فقد ذكروا هم أيضاً في رسالة التعريف عنه:

"... انه معروف بكتاباته اللاهوتية الكثيرة والمتنوّعة، وخصوصاً باندفاعه الحار والخالص لتنشئة المؤمنين وهو يعمل في هذا الحقل منذ سنوات كثيرة دون توقف. ولهذا فقد أوكل اليه الرؤساء الاكليريكيون في اليونان ادارة احدى أفضل مدارس الكهنة عندنا. وبما أن قداسته يزور أرضنا المقدّسة للمرة الأولى، فاننا نرجوكم بحرارة أن تستقبلوه بالاحترام والتقدير اللذين يليقان بدرجته وبالمسؤوليات العالية التي يضطلع بها، وأن تفعلوا كل ما هو مستطاع لتحقيق جميع رغباته. وفي الوقت نفسه، فاننا نلفت نظركم الى رسالة قداسة البطريرك المسكوني التي يسمح له فيها بالطبع بتأدية جميع الخدم المقدسة. واقبلوا منا..."

كان نكتاريوس بالنسبة اليهم مجرد زائر رسمي آخر، وكاتب لاهوتي رفيع المقام في الكنيسة. لذلك كان يجب أن تفتح أمامه جميع الأبواب، وأن يعرض عليه الجميع خدماتهم كباراً وصغاراً، وأن يكونوا لطفاء معه. وكانوا معتادين على استقبال الأساقفة، ويعرفون جيداً كيف يتصرفون معهم: اذ يرتدون مظاهر التقوى ويحيطونهم برعايتهم، ويخدمونهم، ويلبّون جميع طلباتهم الشخصية ورغباتهم.

لكنهم فوجئوا جداً بوصول كاهن متواضع، خافض العينين، بسيط اللباس، ومن دون شارات كهنوتية. ناحل الوجه، يتكلم ببطء وبصوت مرتجف أحياناً، ولكنه خفيض ومنفعل.

لقد زار دير فاتوبيدي، ثم تنقل بين أديار متعددة ووصل مع صديقه والدليل الى دير اللافرا الكبير. فوصلوا من الشرق على ظهر دابة، ومرّوا أمام دير كاراكالوس في آخر شبه الجزيرة. وزاروا أجياسما، النبع العجائبي المتدفق من الصخرة الكبيرة التي ضربها القديس أثناسيوس الآثوسي بعصاه، بحسب ارشادات الكلية القداسة. وما زال الصليب الذي ظهر بعد المعجزة محفوراً في الصخرة، وبالامكان رؤيته من خلال الماء المقدس.

ولهذا الدير تاريخ مجيد، وما زال يحتفظ بكثير من الذخائر الثمينة. وقد عاش فيه الحياة الرهبانية أكثر من ثلاثين بطريركاً، وحوالي مئة وثلاثين أسقفاً. وتزيّنه كنيسة رائعة الجمال رُسم فوق هيكلها الساطع النور آباء قديسون وقد حمل كل منهم مُدرجاً عليه آية من الكتاب المقدس.

فاستُقبل الزوّار بحفاوة بالغة. وعُرض على نكتاريوس أن يضع التاج المصنوع من الألماس الذي كان يخص الأمبراطور نيسيفوروس فوكاس الذي قضى بطريقة مأساوية، وكان صديقاً لأناستاسيوس الآثوسي. ولكن نكتاريوس رفض. فقد كان كعادته يفضّل أفلونيته المتواضعة ويفتش عن الوحدة والدراسة والسجدات والأسهار والصلاة. وكان يتكلم قليلاً، ويزن كلامه جيداً، فتعطي كلماته دائماً الصدى المطلوب. وكان يراقب كل شيء بصمت، وكان حاجبه الأيسر مائلاً قليلاً وأكثر كثافة من الآخر. الا أن نظره كان يقرأ داخل النفوس ويجبر الآخرين على خفض رؤوسهم بشيء من الاضطراب.

وقد دهش الجميع في البداية وتساءلوا: هل يحاول بهذه التصرفات أن يؤثر فيهم؟ ولكن لا، فانهم يعرفون جيداً الذين يتظاهرون بالقداسة، وهـو لا يشبههم في شيء. كان نكتاريوس من نوع آخـر، مـن هـؤلاء الأشـخاص المختلفين الذين يحبّون الوحدة، وقد كُلف بالصدفة أو خطأ بـادارة المدرسـة فـي وسط الضجيج والمدينة...

وقد زار كافسوكاليفيا و"كاتوناكيا"، وهو بيت صلاة الاخوة دانيـال، رسّامي الأيقونات، ويقال انهم يصلـّون كالملائكة. وكانت هذه الرحلة متعبـة جداً بالنسبة الى نكتاريوس لكنه لم يستطع مقاومة حبه للـتراتيل البيزنطيـة وأناشيد التوبة المخصصة لوالدة الاله. وفي كاتوناكيا كـان الاخـوة دانيـال المشهورون برسم الأيقونات قد حافظوا على كنوز التراتيل القديمة وتناقلوهـا أخاً بعد أخ. وكانوا ينشدونها ملوّنين اياها كالملائكة، وبطريقة فائقة الوصـف تنعش القلب كالندى الالهي المغبوط.

واشتهر بيت الصلاة هذا بضيافته التي تذكر بأبينا ابراهيـم. وكـان يعيش فيه اثنا عشر أخاً في الطاعة الكاملة والمحبة وبساطة العيش. وكـانوا يقيمون الخدمة الالهية بكثير من الورع لدرجة أن الزوار كانوا ينسـون كـل مـا حولهم ويرتفعون فوق الأرض وبعيداً عن العالم المنظور، ويتمنون البقاء هناك الى ما لا نهاية.

وتحت دير الاخوة دانيال وعلى بعد عشـر دقـائق، كـانت هنـاك الصخرة المخيفة المدعوة كارولي، وهي صخرة تعلو عن سطح البحر حوالي مئة متر. وكانت الأمواج العاتية تبللها.

ولم يُعلـَم الاخوة دانيال بزيارة نكتاريوس، ولم يكونوا يعرفونه. وقد حضر اليهم بقلنسوة الراهب العادية، وبجبّته القديمة التي كان يضعها عندمـا يعمل في حديقة المدرسة، وبجزمة الراهب. فكان يشبه أي راهب آخـر فـي أثينا. فاستقبلوه كعادتهم بلطافة ابراهيم وطيبته. وقدموا لـه التيـن الطـازج والبندق والعسل البرّي. وفرحوا اذ علموا بأنه سيبقى معهم ليشارك في الخدمة الالهية.

لكنهم لاحظوا أن كلماته كانت غنية، مشعّة بالنور الالهي. فاسـتقبلوه وأجلسوه. وبعد ذلك خرج نكتاريوس برفقة أحد الاخوة دانيال ــ وهو الخامس بين اخوته ــ باتجاه صخرة كارولي الرهيبة. فالتقيا بناسك مجـهول، أسـمر

البشرة، يرتدي جبّة مصفرّة اللون ممزقة، عليها رقع كثــيرة. وكــان شــي النحول، وكانت عيناه الكبيرتان تسمّران الناس في أماكنهم.
-"بارك"، قال نكتاريوس الذي تملــّكه الذهول لمرآه.

فأجاب الناسك:
-"ليباركك الرب". ثم قال للأخ دانيال:
-"كيف تجرؤ أيها الأخ أن تسير أمام أسقف المدن الخمس الذي صُنــّف مــ زمن طويل من بين الأساقفة القديسين؟"

فلبث الاثنان مشدوهين أمامه، وفغر الأخ دانيال فــاه بينمــا حــدّق نكتاريوس بالناسك صامتاً، خافق القلب: لقد وجد أمامه نفساً مجهولة اعتــادت الجهاد وتقدّست، فمنحها الله موهبة النبوة. ودون أن يشــعر أحــس بعينيــه تفيضان بالدموع. وتمتم:
-"ليتمجّد اسم الرب يا أخي. لا تضف شيئاً عن عبده الحقير أرجوك، ودعنــي أقبّل يدك".

ثم اقترب من الناسك وانحنى ليقبّل يده المجرّدة من اللحم، فــسترجع الناسك برهبة ثم انحنى بدوره ليقبّل يد الزائر، فوجدا نفسيهما وجــهاً لوجــه وتعانقا بمحبة. وتمتم الناسك:
-"البارحة كان الشياطين يرتعدون. وقد تحوّلوا الى مجموعــة كبــيرة مــن البرغش الكبير وضربوني. وحاولوا أن يصرعوني ويوقعوني أرضاً. لكنــهم لم يحتملوا رؤية الصليب المكرّم وما ان قلت: "ليقم الله ويتبدد جميع أعدائــه" حتى اختفوا.
-"لماذا؟
-"لأني سأحظى بفرصة التعرّف الى أحد مضطهديهم الأشداء. أخــبرني مــا حال العالم؟
-"أحوال العالم؟ حروب. وقد وصلت الكبرياء الى أوجها، والعجيــن يختمــر و..."

فقاطعه الناسك:
-"فهمت. غرور، كبرياء ومرض السلطة".

ثم أعقب ذلك صمت، فيما كان الأخ دانيال يراقب باندهال شديد هذا الزائر المفاجئ الذي اتضح أنه أسقف. ويفكر في كيفية الاعتذار منه لعدم بداء الاحترام اللازم الذي يليق برتبته. ثم قال الناسك:
-"اني أفهمك يا صاحب السيادة، فأنت تحن الى الوحدة. ولكن بما أنك عتبرت من واجبك أن تخدم الناس شخصياً، وبما أنك تحب الناس من لأعماق، فان الوحدة ستأتي فيما بعد..."

وتابع نكتاريوس النظر اليه، ثم بكى من جديد. وسأله بصوت خافت:
-"ما رأيك بالقرن العشرين الآتي؟"

فلم يرد الناسك في بادئ الأمر، بل رفع عينيه الى السماء وتنفس بعمق ثم قال:
-"نهاية الملكيات، حروب... قلق، مجازر، كوارث... والخوف الذي سوف يخيّم".

فردّد الأخ دانيال:
-"الخوف..."

ثم توقف الثلاثة عن الكلام وساروا ببطء باتجاه الصخرة الرهيبة.

الفصل الحادي عشر

+ (متى ٢٣ : ٨) "أما أنتم فلا تـُدعوا معلمين، فان معلمكم واحد وأنتم جميعاً اخوة".

+ (يشوع بن سيراخ ١٧ : ١٤) "حذرهم من عمل الشر، وأوصى كل واحد بقريبه".

خلال رحلتنا القصيرة في الحياة يلعب الزمن دور القبطان. وهذه الرحلة عبارة عن مسيرة اختبار يتساقط عليها من وقت لآخر بعض الندى الالهي الذي يجف بسرعة. ولا تلبث الغيمة المضيئة أن تبتعد فيعود الانسان من جديد الى عالم الأنين والرتابة. عندما أضاء نور ثابور بالقدرة الخالقة وبالجمال والعظمة، أراد بطرس أن يبقى هناك الى الأبد... ولكن مسيرة الاختبار لم تكن قد انتهت بعد.

كان نكتاريوس وصديقاه صامتين على متن الباخرة التي تعبر بحر ايجه. وكان الطقس متجهّماً في البداية، ثم أصبح صافياً. فقال الأب جدعون للأسقف يوشافاط:
-"لقد كان الصيف قصيراً! وصارت هذه الأشهر الثلاثة الحارة من الماضي."

فرد يوشافاط:
-"هذا الجبل المقدس هو بلد بكامله بسمائه وأرضه.
-"فقط؟
-"طبعاً، فأنا عندما أتكلم عن السماء...
-"انه جزء من عظمة الامبراطورية وقد نبتت في أرضه الزهرة الالهية: أعني الحياة الرهبانية.
-"تماماً.
-"أريد أن أنسى كل الأمور المزعجة. فأنا لم أشعر في حياتي بسعادة كهذه عند لقائي السماء".

فتمتم يوشافاط:
-"لقد تعثرت في دير خيروبوتاموس، حيث رأيت أربعة رهبان سمينين يسيرون في الغابة حاملين أكياساً ملأى بالقمح. وقد تقاتلوا بسبب الطعام وكانوا على وشك أن يدفعوا ببعضهم البعض من أعلى الهاوية.

-"لمَ لا تفكر عوض ذلك يا أخي برهبان سكيت* القديسة حنة؟
-"آه أجل هؤلاء...
-"لقد رفعتهم صلاتهم المتواصلة والتأملية الى قمم عالية حيث يتلقون باستمرار رسائل من العلى حول الحقائق الحالية والمستقبلية".

في هذه اللحظة توقف جدعون عن الكلام وانقطع الحوار. وكان الأسقف نكتاريوس ــ دليلهما ــ واقفاً أمامهما بقلنسوته وجبّته القديمة، وهو يتأمل الغيوم البيضاء في السماء ويبتسم.

_"وأنت يا صاحب السيادة، ما رأيك؟ هل قمت بزيارة الآباء النسّاك في سكيت القديسة حنة؟
-"لماذا تطرح علي هذا السؤال؟
-"لأننا افترقنا في ذلك المكان".

فأجاب نكتاريوس:
-"أجل لقد رأيتهم.
-"وما رأيك بهم؟
-"انهم متحدون بالله. ولا يسعك أن تعرف أكثر من ذلك. انهم يجاهدون. ولذلك فان الروح القدس الذي يسكن فيهم بالكلمة الحيّ هو يملأهم بالمواهب ويرفعهم نحو العلويات".

ثم ساد صمت قطعه يوشافاط قائلاً:
-"ان الانسان المؤمن انسان سعيد. فهو يشعر جداً بجمال غناء العصفور وأبيات الشعراء. انه ينسى ضربات عدوه، واذا أصر فيذهب اليه ويقرع بابه، ويقرع حتى يطلب منه المغفرة.
-"انها أفكار جميلة... وأنا أفكر بالكتابة عن القديسين. فهناك أناس يعبدونهم بدل أن يُجلّوهم ويحترموهم. لقد أكّد الرب لتلاميذه الذين دهشوا لعجائبه، أنهم فيما بعد وعلى درب الخلاص، سوف يقومون بأعمال أعظم من أعماله. كل عمل صالح نؤديه، نحن الترابيين، يجب أن نعزوه للمخلص ابن الله الكليّ الوداعة له المجد مدى الدهور".

---

* سكيت: دير صغير في جبل آثوس (المترجم).

الفصل الثاني عشر

+ (١كور٩: ١٤-١٨) "هكذا رتب الرب أيضاً أن الذين يبشرون بالانجيل يعيشون من الانجيل. الا أني لم أستعمل من ذلك شيئاً ولا كتبت هذا لكي يجرى لي مثل ذلك. لأنه خير لي أن أموت من أن يعطل أحد فخري. لأني اذا بشّرت فليس لي فخر، لأن ذلك ضرورة موضوعة عليّ، والويل لي ان لم أبشّر. فاني ان كنت أفعل هذا طوعاً فلي ثواب ولكن ان كرهاً فانما أنا مؤتمن على وكالة. فما هو ثوابي اذن. هو أني اذا بشرت أجعل البشارة بغير نفقة حتى لا أستوفي سلطاني في الانجيل".

تتوالى اللحظات فتحبك نسيج الزمن. وكل لحظة، مضيئة كانت أم مظلمة، تدفع سفينة حياتنا التي تبحر من مضيق الى مضيق ومن جزيرة الى جزيرة حتى النهاية، حتى الوصول الى محيط الأبدية.

وتوالت السنوات مثقلة أيضاً بالمحن. لم يكن يمضي يوم تقريباً من دون حزن أو مرارة أو هموم أو فخاخ أو دسائس صغيرة.

وما كاد نكتاريوس ينهي ترتيب الأوراق التي كتبها في الجبل المقدس بكثير من العناية والاندفاع، حتى وصلته رسالة عاجلة من البطريرك قسطنطين الخامس، وفيها يطلب منه بعض المعلومات. ويعلمه بأن أحد الشمامسة ويدعى فيلاريتوس، قد تورط في عملية غير شريفة. وكان هذا الشماس يعيش في دير الأيبيريين: وكان ابناً روحياً لنكتاريوس، وقد رسمه بنفسه. الا ان هذا الشماس الشاب قد اتفق مع بعض المزوّرين على تقليد ختم الجبل المقدس، لسبب بقي مجهولاً.

وجاء في رسالة البطريرك أنه يعتقد أن هذا الشماس يقطن مع نكتاريوس وأنه تحت حمايته، لذلك فهو يطلب من نكتاريوس معلومات رسمية عنه.

والحقيقة أن هذا الشماس كان قد جاء مرة الى مدرسة ريزاريو ــ كما جاء غيره أيضاً ــ وأضيف فيها لمدة يومين. وقد أبدى الكثير من مظاهر التقوى والطاعة، ثم رحل دون أن يترك عنوانه.

وقد ملأت هذه القضية نفس نكتاريوس بالمرارة. فطلب البحث عن الشماس في كل أنحاء المدينة دون جدوى، اذ كان مختبئاً في مكان ما. ولم يكن نكتاريوس يعرف كيف يرد على البطريرك. فأمضى خمسة أيام وخمس ليال في الصلاة لكي يجد الحل. وكانت النتيجة أن قسطنطين توقف عن الكتابة.

لقد كانت هذه وخزة جديدة من المجرّب، من بين الكثير غيرها. آه هذا المجرّب، لم يكن هناك شيء قادر على اضعافه، ولا على التخلص منه أو حتى ابعاده!

مع كل صباح كانت تبدأ انشغالات نكتاريوس المعتادة وهموم المدرسة، ومشكلات الطلاب التي لا تعد ولا تحصى. والتعب الذي يلاقيه في الاهتمام بآلاف التفاصيل الصغيرة. وبالاضافة الى كل ذلك صار عليه الآن أن يأخذ على عاتقه أمر الشعب كله الذي بدأ يحيك حوله سمعة جديدة رغماً عنه. هذا الشعب الذي كان يقوده كأب روحي وواعظ وكاهن.

واذا كان الشرّ يلقي بشباكه ويطلق سهامه المسمومة ليجتذب الجماهير الى الطريق الواسع، الا أن الفضيلة المجاهدة تطلق هي أيضاً اشعاعات مضيئة لا تتوقف، وتجتذب بطريقتها الخاصة جميع النفوس العطشى لشيء آخر غير المادية الكلية القوة.

وقد تناقلت هذه الجماهير من الناس من كل الأعمار والمهن والطبقات الاجتماعية، بأن الحياة والنمط المتّبع في مدرسة ريزاريو قد تغيّرا. وتحدث الناس عن الخدم الليتورجية التي تقام بكثير من الورع في الكنيسة البسيطة، والموعظات المؤثرة التي يلقيها هذا الكاهن الراهب، مدير المدرسة، الذي يذوب كالشمعة أمام المصلوب.

"تعال وانظر"، قال أحد أوائل الرسل في حديثه عن المسيح. وصاروا يقبلون الواحد بعد الآخر وينظرون... وبحسب استعدادهم الداخلي كانوا يتلقون ناراً في قلوبهم ويأخذونها معهم، قليلة أو كثيرة. ولكنها شعلة لا تقدر الرياح الشمالية ولا الجنوبية أن تطفئها بسهولة. وكانت تلازمهم على الدوام وتحول بينهم وبين النسيان والضياع. كان هذا نقلاً لتلك النار المقدسة التي تشتعل في حلبة الجهاد النبيل وتعطي الحنين الى الأبدية.

نفوس كثيرة أتت من ضواحي المدرسة، ومن مكان أبعد أيضاً، من شوارع ليكابيت وديكساميني الصغيرة... وكانت تتجمّع صباح كل أحد محاولة اختراق البوابة للمشاركة في هذه الخدم الليتورجية المليئة بالورع، وللتعرّف الى هذا الأسقف الفريد من نوعه الذي كان الوصول اليه أسهل من مقاربة أصغر الشمامسة، أو حتى القندلفت. كان يكفي أن يقال له بكل بساطة: "صباح الخير"، وأن يُطلب منه الاعتراف أو تلقي النصح، أو طلب تسكين الأحزان الكثيرة والمآسي التي لا تنتهي والتي يحملها معه كلُ يوم.

* * * * *

ولم يعد نكتاريوس يعرف كيفية الاضطلاع بكل هذه المسؤوليات. فقد كان كل شارع وكل قرية صغيرة وكل رعية... بحاجة على الأقل الى اثنين أو ثلاثة من المؤمنين المتفرغين والمستعدين للعمل كأجراء للرب مكرِّسين أنفسهم للتضحية. ولكن أين يجدهم في هذا العصر المليء بالغرور، المبهور بالمادية؟ "أيتها الأرض... يا وادي الدموع".

لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة الى مجلس المدرسة. فمن جهة، كان أعضاؤه يؤيدون فكرة اتساع شهرة المدرسة وهيبتها حتى في أثينا، حيث صار يقام لها الاعتبار. لكنهم من ناحية أخرى كانوا يبدون الحذر: فمن هو القائد، ومن هو السيد؟ الادارة أو أمين السر العام؟ أم كاهن مجرّد من حقوقه، استُقبل في المدرسة بداعي الشفقة؟ هل يصبح هو القائد؟ فقط لأنه شديد التعلق بالتقليد، ولمجرد أنه يحسن القاء الموعظات، ويبكي من التأثر من وقت لآخر؟

وشيئاً فشيئاً عاد الكلام على تعيينه بأنه "مخالف لأنظمة الكنيسة". وعادت التلميحات والايحاءات. ثم بدأ الهجوم عليه جهاراً: "غريب، ممنوع من ممارسة الحقوق الكنسية، مجرّد من صلاحياته..."

وكان صديقه الآتي من لميا، الشاب ساكوبولوس، لا ينفك يسأله:
-"لمَ لا تقول شيئاً يا صاحب السيادة؟ لمَ تقبل الاهانات؟ ألا ترى هذا الشعب الذي يحيطك بتفانٍ ان لم نقل انه يعبدك؟"

لقد كان ساكوبولوس كثير السعادة، فقد حصل على شهادته بدرجة امتياز، وعيِّن ناظراً في المدرسة ومساعداً لنكتاريوس. فصار بامكانه أن يرافقه خطوة خطوة في حياته وجهاداته. ودون أن يشعر، كان يتنشق عطر

الزهد الروحي ويزداد توغلاً في غلائله الذهبية، ويذوب اعجاباً بنكتاريوس وخوفاً عليه. وكان الله وحده يعلم أنه لن يتركه أبداً. واعتاد نكتاريوس أن يجيبه بعذوبته المعتادة:

-"ليس من الضروري أن أتكلم يا عزيزي كوستي.

-"لكن أنتل، هذا التاجر القديم الذي أحسّ بأهميته منذ أن عيِّن عضواً في المجلس، انظر كيف يحتقرك. انه يجعلك في مستوى أدنى من التراب ويدوس قداستك.

-"دعه، فسيعود الى رشده يوماً ما".

وكان كوستي يخرج حزيناً، خافض الرأس، وهو يسير بمحاذاة جدران المدرسة. وما أن يتجاوز البوابة حتى يركض باتجاه تيابوليس ويصل الى شارع ديرفيني حيث يسكن أهله. فيدخل الى البيت ويجد والدته تعقد مريولها لتحضير العشاء. فيتكئ على كتفها ويجهش بالبكاء طويلاً...

وقد صار من الضروري وضع نظام من البطاقات لدخول الكنيسة والمشاركة في قداس الأحد. ومنذ بعد ظهر الجمعة كانت تتوافد جماعات كبيرة وتتدافع أمام باب المدرسة محدثة ضجة عارمة وتصايحاً ومشادّات مع الناظر من أجل الحصول على البطاقات.

في هذه الأثناء توفي سينغروس، وترك في وصيته ثروة صغيرة لأهالي خيوس، يعود معظمها الى قرية ليتي. وقد حزن نكتاريوس لموت هذا الرجل الغني والمليء بالطيبة، الذي أحب بلاده ولم تسكره سلطة المادة، كما لم ينسَ في حياته طعم الألم والفقر.

ولكن الرجل ترك وراءه أيضاً هموماً كثيرة بانتظار أن تُنجز المعاملات،وأن يتسلـَّم أعيان القرية المال. والحقيقة أن سينغروس كان على اطلاع بقصة نكتاريوس وخصوصاً بأنه كان مدرِّساً في قرية ليتي، فجعله منفذاً لوصيته. وعندها لم يعد لنكتاريوس الوقت اللازم للدرس ولا للقراءة، هذا العمل الذي كان يحبه ويفرِّحه ويعلق عليه الأهمية الكبرى. وقد كان حضّر الخطوط العريضة لعدد كبير من الدراسات التي تصلح كمقدمة لروحانية الآباء، ووضع لها تعليقات دقيقة. كما حضّر دراسات دفاعية عن العقيدة للهدف نفسه.

وبعد مضي وقت قصير استطاع أن يتحرر من جميع هذه الانشغالات وغيرها. ولكن التجربة عادت اليه بوجه جديد.

فكأنه يمسك مرآة وعدسة مكبّرة يرى فيها عرش الاسكندرية والناس يُرونه اياه برّاقاً وفارغاً. وكأنه ينتظره، هو نكتاريوس، كالمرشد الذي لا غنى عنه. وكأن أصدقاءه الحميمين يُدفعون لاحاطته من كل جهة ليرددوا عليه الكلمات نفسها.

كان صفرونيوس يحتضر، يترك الأرض ليمثل أمام هيكل الرب الرهيب. وكان الجميع في مصر يهمسون باسم نكتاريوس. كانوا كلهم يتمنّون لو يعتلي عرش القديس مرقس التاريخي، حاملاً الصليب والمكنسة بيده للتنظيف والتطهير، واعادة الأمور الى نصابها، والاهتمام ليل نهار بخلاص النفوس، والسير بها الى الملكوت الذي لا تغرب شمسه.

وكان كوستي وجميع أفراد عائلته يرجونه قائلين:
-"يا صاحب السيادة لا ترفض ما يمليه عليك الرب. فالعرش فارغ والشعب يصلّي منتظراً النور. انه ينتظرك ويحلم بالأمجاد الماضية، بأثناسيوس وكيرلّوس ويوحنا الرحيم..."

وقد قال له متروبوليت باتراس، وعضو المجمع المقدس مرتين خلال القداس الالهي:
-"يا أخي يبدو أن الساعة قد حضرت لكي يلمع نجمك. لا تنسَ أني أعنتك عندما كنت في ضيق، ووقفت الى جانبك".

وكان أمين السر يشكو وهو يرفع عنقه فوق ياقته القاسية ويقول:
-"الآن سوف تتركنا وكل شيء سيتغير. وستعود كل الأمور صعبة كما في السابق".

وعندما وصل البريد، وفيه مجموعة كبيرة من الرسائل والصحف. كانت بينها مجلة دينية مشهورة ومعروفة بتشددها ونهجها المعارض وقلة اسباغها المديح. وقد كتبت في صفحتها الأولى:

"ان لترشيحه الحظ الأكبر بالنجاح لأنه أحد الأساقفة الأكثر تميزاً والأوسع ثقافة والأكثر اندفاعاً واستقامة في كنيسة الشرق الأرثوذكسية. انه

كاتب غزير وعامل للروح لا يكلّ. طعامه وسروره خدمة "الكلمة" والحقيقة. مشغوف بالفقر حتى الافراط، وطيب حتى الهوس، هادئ ولكنه قوي، وديع ولكنه صارم... واذا انتخب افضل منه لكرسي الاسكندرية الأسقفي، فسيكون أول المهلّلين. واما اذا انتخب هو نفسه، فلن يبقى عند هذا الرجل الممتاز الذي لا يعرف الغرور غير هدف واحد: أن يكون على مستوى المسؤولية الموكلة اليه، وبكل تواضع."

ومن جديد دخل نكتاريوس في نزاع مع نفسه، ولم يعد يعرف ما العمل. فأمامه الهاوية ووراءه السيل. وقد قويت الضجة في الكواليس الاكليريكية وبدأ الناس يتناقلونها تدريجياً، حتى أن التلاميذ اقتنعوا بها. فقد قال له بعض طلاب السنة الأخيرة خلال احدى فرص الاستراحة:
-"انه لمن دواعي سرورنا العظيم يا حضرة المدير، أن نتبلّغ خبر انتخابك بطريركاً."

ولم يكن صديقه الأمين كوستي يتركه يغيب عن نظره، وكان يردد عليه في كل مناسبة:
-"لا ترفض . فاذا استمررت بمتابعة الأحداث دون أن تفعل شيئاً أو تقول شيئاً، فانك تتهرّب من تأدية واجبك، وكأنك تفرّ من جيش السماء".

وقد أمضى مرة ليلة كاملة تقريباً في الصلاة، وعند منتصف الليل، قال متوجهاً الى والدة الاله:
-"يا سيدتنا، أنت تعرفين قدراتي الضعيفة. فاذا كان ابنك يرغب فعلاً بأن أصبح بطريركاً هناك، فأنا خادمه المطيع. ولكني أخشى المخادعين وأتحاشى المتملقين، وأفضّل الناس البسطاء الذين يحيطون بي هنا في هذا المكان المعذب كثيراً في بلادي الحرة. اني أفتش عن رفقة الصغار، أصحاب الايمان البسيط، وغالباً ما أشعر بالسعادة مع هذا القطيع الصغير. ان التجربة تنهكني ليل نهار، فأرجوك أن تهتمّي بهذا الأمر أيتها الأم الكلية القداسة، وأن تتعهديني، أنا أحقر الجميع".

ومرّ الوقت وتقدم الصيف، وكانت الرسائل تتوارد من مصر الواحدة بعد الأخرى، وتتساقط في قلبه البارد مثل كرات الثلج. والحقيقة أن الشعب هناك كان يتمنّاه ويصلّي من كل قلبه ليجده قد اعتلى عرش القديس مرقس.

وفي أحد الأيام رسم اشارة الصليب وقرر السفر مرة جديدة لاجتياز البحر الكريتي والليبي والعودة الى بلاد العرب، الى بلاد شفيعه القديس ميناس الشهيد العظيم والصانع العجائب، والى الكنيسة التي فيها سيم شماساً، لتسليم ذاته لارادة الرب.

فاقترب من أيقونة صغيرة للقديس ميناس ووقف أمامه. وكأن حواراً دار بينهما. وخيّل اليه أنه يرى القديس حياً أمامه، يلبس درعه الروحي ويبتسم له ودياً وهو يقول:
-"قم بهذه الرحلة الصغيرة، لا بأس..."

وقرر نكتاريوس ألا يقوم بأي عمل خصوصي، وبعدم قرع أبواب أعضاء المجمع المقدس: فقد كان حاضراً لخدمة الكنيسة، حقل الدماء، ودون أي شيء آخر.

وفي هذا الوقت تناقل الناس في بعض أوساط أثينا أن الملكة مهتمة بهذه الانتخابات. وبالطبع لم يكن نكتاريوس، المتوحّد داخل العالم، على علاقة أو اتصال بالقصر الملكي لا من قريب ولا من بعيد.

والحقيقة أن الملكة أولغا، الروسية الأصل، كانت غالباً ما تتدخل بشؤون الكنيسة. وكانت تساند المرشح فوتيوس من جزيرة تينوس، بحماس شديد.

وعندما جاء كاهن من القصر ، منتفخاً بأهميته الى نكتاريوس ليهمس له هذا الخبر، بقي شارد الذهن. وبكل برودة أعصاب ضبّ ثيابه المذهّبة في حقيبة أرسلها في عربة المدرسة الى شارع ديرفيني، حيث منزل أصدقائه آل ساكوبولوس. وقال لهم:
-"اذا انتخبتُ بطريركاً، خلافاً لما أتوقع، فسأبرق لكم حتى ترسلوا لي هذه الحقيبة في أول باخرة".

-"لن أرتدي هذه الملابس يا قسطنطين. ألا تعرف المثل: الكاهن هنا وجـ... هناك"؟

فدهش ساكوبولوس لكل ذلك وتساءل: كيف يجد نكتاريوس الـ... للمزاح والابتهاج في مثل هذا الظرف؟

ومرت السنوات الواحدة بعد الأخرى حاملة معها موكب الجـ... والأحزان. لم يكن يمر يوم دون صعوبات ودون مرارة ومفاجآت وفضـ... صغيرة.

وفي مساء من أواخر الشتاء تشاجر الكنّاس مع مساعده الـذي كـ... مكلفاً بأعمال صعبة أخرى. ووصل بهما الأمر الى القتـال بـالأيدي تحـ... شجرة السرو في الحديقة. وكان ذلك بسبب تنظيف المراحيض، فقـ... وسخة منذ الليلة السابقة على الأرجح. وقد لاحظ الناظر ذلـك وهـ... الخبر الى مجلس المدرسة، مع احتمال الطرد. وكان نكتاريوس يمر في ... المكان بالصدفة حاملاً مسبحته وهو يصلي من أجل مشكلات كثيرة، و... بصمت، غير عابئ بالبرد. وكان يفكر أيضاً باستشهاد القديسين، وخصـ... قديسه المحبوب ميناس الصانع العجائب الذي كان والداه وثنيين. واذ ... الى الأشجار العارية من الأوراق، تساءل:
-"لماذا يرفضون استدعاء مدرّس للزراعة؟"

وفوجئ لصراخ الكنّاسَين وشتائمهما فسأل بصوت عذب:
-"ماذا يحدث هنا؟"

ولم يكن الرجلان يتوقعان حضوره في مثل هذه الساعة وفـي ... البرد. فارتبكا وابتعدا عن بعضهما بصمت ودون كلمة. وأخيراً تمتم ... الأصغر سناً، الذي بالكاد يظهر شارباه الدقيقان، بعـض الكلمـات. و... نكتاريوس فحوى المشكلة: كثيراً ما كان ينهض باكراً جداً فيجد المر... وسخة، واذ يحجم عن التسبب بمشكلة يمكن أن تؤدي الى طرد العا... والقائهما في الشارع، كان يشمّر عن ساعديه وينظف المراحيـض ... ودون كلمة، خصوصاً وأنه كان ينسى أمر الأعمال الكريهة مـا أن ... منها.

فقال نكتاريوس:

الفصل الرابع عشر

+ (١ بط ٥ : ٧-٨) "وألقوا عليه همكم كله، فانه يعتني بكم. اصحوا واسهروا فـ
ابليس خصمكم كالأسد الزائر يجول ملتمساً من يبتلعه".

تنشر الصحف والمجلات جميع أخطاء البشر وحماقاتهم. وقليلاً مـ تنشر ما يخدم ارادة الله وينفع الانسان.

فقد بدأ العديد من الكتّاب خارج اليونان بتبنّي الرواية المزعومـة "نفسية" بكثير من الادّعاء. وكان هؤلاء الكتّاب بعملهم هذا يذوّبون سـ الفجور اللذيذ الطعم عبر تحليل العلاقات بين الرجال والنساء بطريقة معقدة ومفسدة للأخلاق. وهذا ما كان يؤدي الى وقوع الكتّاب والقرّاء معاً في دوار الدعارة.

أما نكتاريوس فقد خفّض ساعات نومه بدرجة كبيرة من أجل العمل في تأليف سلسلة من الكتب المفيدة للحياة الروحية. وكان قد بدأ بكتابتها منـ بعض الوقت. ومنها كتاب: الخريستولوجيا الذي يقع في ثلاثة أجزاء، ويتكلـ في الجزء الأول عن ألوهية المسيح وعمله الخلاصي. وفي الجزء الثاني عن ظهور الله في العالم الخاطئ والبائس. ويتكلم في الجزء الثالث عن تحقيق نبوءات العهد القديم بصورة كاملة في شخص يسوع المخلّص. وقد أنـهى هذا المؤلّف وأعطى المخطوطة للناشر.

بدأ نكتاريوس بتحضير طبعة ثانية لكتابه "حول خلود الروح"، وباتمـ عمل آخر بعنوان: "حول التربية الحسنة والسيئة". وأيضاً كتاب: "الرعيـة". وخصوصاً "نشيد الثالوث القدوس".

وكان نكتاريوس يجهل كل شيء عن وضعه المالي. ولم يكن يحمـل في محفظته غير القليل من المال، وما كان ضرورياً جداً لتنقلاته. كان يأكل القليل ويعيش في الفقر الكامل، ويصرف أقل ما يمكن من أجل ملابسه. وكل ما كان يكسبه كان يعود الى مساعده كوستي ساكوبولوس: أي بدل أتعابـه.

وأجرة بعض الساعات الاضافية، وبعض المدخول الغير المتوقع من الخدم الليتورجية ومن مساعدات يقدمها له أصدقاؤه ومعارفه من شارع أمبيلوكيبي.

وكان كوستي يشتكي على الدوام من هاتين المشكلتين اللتين لا يجد لهما حلاً: الصدقات ومصاريف النشر، ويطلق عليهما لقب "الجرحين المفتوحين". فكلما استلما المال، كانا يدفعانه، ويبقيان مثقلين بالديون على الدوام. وقد بقي هذان الجرحان غير ملتئمين حتى موت كل منهما، وفيما بعد أيضاً...

الا أن نكتاريوس كان ينزعج من هذه المقارنة "بالجرحين المفتوحين"، فيقول:
-"لا تتكلم بهذا الشكل يا كوستي. كيف تسمّي هذه الصفحات الجميلة جرحاً وهي التي تنقل كلمات الرب، وتحمل كنوز الكنيسة؟
-"أنا موافق تماماً على ما تقول؟... لكن فكّر قليلاً بكل ما نلقاه من الادارة، ومن أعضاء المجلس ونزواتهم... وان خطر لهم يوماً أن يطردونا؟ وان رموا بنا في الشارع؟ ماذا تريد أن نفعل بكل هذه الديون المتراكمة علينا؟ ستكون هذه كارثة.
-"لا تكن قليل الايمان، اذ لا تسقط شعرة من رؤوسنا الا بمعرفة أبينا الذي في السماوات. لا تخف... اطمئن بالاً. وفي جميع الأحوال ليس ناشرنا نيزنيس بالدائن القاسي... انه يعرف مصلحته،ولذلك فهو يتحلى بالصبر".

ويجيب كوستي:
-"حسناً أنا موافق على هذا أيضاً. ولكن الصدقات؟ هذه الاعانات التي تقدمها بتبرّع، ودون أن تتأكد من حالة الذين يأتون ليشتكوا الينا.
- لا تعد الى هذا الموضوع يا كوستي. أولاً لأننا لا نملك شيئاً على الاطلاق، وثانيا لأن الذي يعطي ويساعد قريبه يشعر بفرح روحي لا يوصف.
- اذن كان على حق هذا الكاهن الذي رسمته مؤخراً، الأب تريفن.
- وكيف ذلك؟
-كان يقول انه لا ينتبه اليك أحد، لكنك ثمين كالساقية الصامتة التي تنزل بهدوء لتسقي في العمق حقول الناس، والشعب اليوناني..."

فقاطعه نكتاريوس:
-"اسكت يا بني، فهذا يكفي. عندما يمدحك أحدهم ارفع نظرك الى الأعالي وصلِّ الى الرب لكي يمحو كل ذلك من ذاكرتك. نحن لا شيء لنا، ولم

نضف شيئاً الى الخليقة. وعندما كان الرب يعمل دون انقطاع قبل الدهـــور، أين كنا نحن؟"

الفصل الخامس عشر

+ (تك ٣ : ١٩) "بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود الى الأرض التي اخذت منها، لأنك تراب والى التراب تعود".

سنة بعد سنة وحادثة بعد حادثة ــ وكانت في معظمها حوادث مؤلمة ــ بدأ نكتاريوس يشعر بالتعب أكثر فأكثر.

كان يهتم بالدروس وبمشكلات المدرسة. الى جانب الأشخاص الذين يأتونه للاعتراف، مع تأليف الكتب، والخدم الليتورجية الغير المتوقعة. وشيئاً فشيئاً ودون أن يشعر، نشأت مراسلة بينه وبين مجموعة من الشخصيات الأجنبية، ومنها بعض الكهنة الكاثوليك والبروتستانت وعلماء اللاهوت من جميع الأنواع ممن كانوا يتكلمون بسلطان عن "الايمان الحقيقي". وكان يرسل اليهم مؤلفاته ويتسلم بدوره مؤلفاتهم ويدرسها. وكان مراسله الأكثر مواظبة الشيخ أرسانيوس رئيس دير غروتا فيرّاتا الايطالي.

فهل كان يستطيع أن يبقى متجاهلاً لجميع الانتقادات التي توجَّه الى الكنيسة الأرثوذكسية الوديعة والتي لا تقهر؟

وكان اتقانه للغة الفرنسية خير مساعد دائم له. ولكن مع الوقت بدأ نكتاريوس يحسّ أكثر فأكثر بثقل الهمّة والمرض. وقد تعرّض للبرد فكاد يصاب بذات الرئة، وعانى من السعال وارتفاع الحرارة لمدة شهر. وما أن سمح له الطبيب بمغادرة الفراش حتى خرج الى الحديقة من باب المدرسة الشمالي الصغير. وسار ببطء شديد الى الركن المزروع بالبنفسج. وراح يتأمل النور الذهبي الساطع في السماء الزرقاء، وتنهّد. وكان النور المتسرّب من بين الأشجار يملأ المنظر سلاماً، فابتهجت روحه وتمتم:
– أشكرك يا ربي يسوع العذب، أشكرك. اني أرغب الآن بالانعزال وترك التعلم. ان كانت هذه مشيئتك، أيها الكليّ الرحمة... والا، فليكن ما تريد".

وفي اليوم التالي وبعدما تلا صلاة خاصة خلال خدمة الغروب، استجمع شجاعته، وكتب فوراً رسالة الى دير خيوس يطلب فيها اعفاءه

وشطب اسمه من لائحة الدير الذي ينتمي اليه، ليصبح حراً في اختيار مكان نسكه الجديد. وقد حزن رهبان دير خيوس كثيراً عند تسلـّمهم هذه الرسالة. وتحسّروا على نكتاريوس متكلمين عن جمال روحه. وحزّ في قلبهم شطب مثل هذا الاسم الذي حُفر في قلوب جميع سكان الجزيرة، ليس لأنه مدّ لهم يد المعونة مادياً عن طريق سينغروس فحسب، بل لأنه لم ينسهم أبداً: فقد كانت مؤلفاته تصلهم مجاناً الواحد بعد الآخر الى الكنائس والمدارس.

وفكر رئيس الدير عندها بأن يقدّم لنكتاريوس رسمياً ملكية أرض في باروس، هذه الجزيرة الخضراء والزرقاء، كما كان يقال. وهناك، ورغم بعده عنهم، سيصبح بامكانه أن يقوم بزراعته الروحية، ودون أن يُشطب اسمه من الدير الذي لبس فيه الجبّة للمرة الأولى. ورحّب مجلس الرهبان بهذا الاقتراح بفرح كبير. ولكن "العبد في التفكير والرب في التقدير"، فقد استشاط متروبوليت باروس غضباً وأحسّ بالاهانة، اذ لم يُطلب رأيه في الموضوع. فهل القرار يعود الى الرهبان؟ وهل يجوز لهؤلاء أن يتعدّوا صلاحياتهم ويأخذوا دور الأسقف! لقد كانت جرثومة الحسد تتآكله في السر، فكلما هرب هذا المنفي من الاسكندرية من المجد الأرضي، كلما أقبل اليه فاتحاً له كل الأبواب.

وهكذا رفض متروبوليت باروس اعطاء موافقته. وبعد انقضاء الوقت اللازم لاتمام المعاملات، أرسل دير خيوس رسالة الاعفاء الى نكتاريوس بكل أسف.

وكان ذلك حوالي ٢٤ تشرين الثاني من العام ١٩٠٠. وهكذا صار بامكانه أن يتوجه الى أي دير يمكن أن يستقبله. صار بامكانه أخيرا التنحّي والتكرّس للصلاة العقلية والحياة الرهبانية.

الفصل السادس عشر

- (أم ٩ : ١٣ : ١٥) "المرأة الجاهلة صخـابة غرّة، لا تدري شيئاً. فتجلس عند باب بيتها عند كرسيَ في مشارف المدينة لتدعو عابري الطريق المستقيمين في سبلهم".

- (٢ كور ١ : ٩) "بل شعرنا في ضميرنا بقضاء موت لئلا نتكل على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات".

لكن يبدو أن ساعته لم تكن قد أتت بعد.

كان القرن العشرون في مطلعه، يفتخر بامكانية اسعاده للانسان، واصلاً على عربة كبيرة مذهبة، كما يحصل عادة في الكرنفال... وفي الوقت نفسه كانت مأساةٌ تبدأ.

كانت الحضارة الغربية في وسط أوروبا مزهوّة بانتصار الرياضيات والكيمياء والاكتشافات الجديدة. وقد أدّى هذا الافتخار بالعلم الى تخريج مجموعات من الجامعيين الوقحين الذين يحملون شهاداتهم ويعلنون في كل مكان بأن الأديان قد انقضى عهدها وأن الكنيسة ماتت. وبالطبع فقد وصلت جميع هذه الشعارات الى اليونان في الوقت الذي خرجت هذه البلاد من حرب ١٨٩٧ المشؤومة، وهي فقيرة، مهشمة وفريسة للديماغوجيين.

وكان المتخرجون اليونانيون يعودون من الجامعات الأوروبية حاملين في حقائبهم أفكاراً جديدة ورغبة بمحو الحضارة البيزنطية القديمة بأسرع ما يمكن. وكانوا يريدون الظهور أمام المجتمع العلمي الدولي وكأنهم خلفاء الأقدمين الذين نحتوا حجارة تاريخ عمره ثلاثة آلاف سنة.

كان المتروبوليت جرمانوس كاليغاس قد توفي منذ بعض الوقت وحلَ محله بروكوبيوس الثاني (ايقونوميدس). ولم تكن هذه الشعارات قد بدأت تنتشر بين صفوف الشعب حتى انفجرت "قضية الأناجيل". كانت الملكة أولغا قد قررت أن تـُدخل الى مناهج التعليم المدرسي الأناجيل وأسفار العهد القديم

التي تُرجمت من قبل بعض الأشخاص الذين تثق بهم. وكان بروكوبيوس الثاني يعاونها في ذلك ضمنياً.

كانت هذه صدمة جديدة يتلقاها الايمان الأرثوذكسي المحارَب من كل جهة. وبدأ كاتب شعبي يعيش في الغرب ضمن أوساط بروتستانتية، بنشر احدى هذه الترجمات في صحيفة يومية، رغم احتجاج المجمع المقدس وثلاث بطريركيات.

فرداً على هذا الوضع قام جميع التلاميذ كرجل واحد، ونظّموا تظاهرة ضخمة في ٨ تشرين الثاني ١٩٠١ سقط خلالها ثمانية قتلى وخمسة وتسعون جريحاً. وكانت الملكة والمتروبوليت متورطَين في هذه القضية. فسقطت الحكومة التي كانت تحاول جاهدة في ترميم الأنقاض واعادة بناء هذا البلد الصغير منذ العام ١٨٩٩. كما عُزل المتروبوليت. وفي خضم كل هذه الاضطرابات، ما كان سيحدث لهذا الشعب الفقير الذي ما زال يعمل من أجل كسب عيشه؟

لقد عمّ الفقر جميع أنحاء البلاد. وعندما يصيب الفقر الطبقات المتوسطة أو عمالاً غير متعلمين ولكنهم يقتنون الايمان والصبر، فان الأمر لا يثير ضجة ولا يتكلم عنه أحد. ولكنه يظهر من خلال الثياب الرثة والمرض والموت. كان الفقر وداء السل يحصدان الجياع في المدن. وصار الناس يتدافعون باعداد متزايدة على مشارف المدرسة، يطلبون الأمل المفقود الذي لا يجدونه الا عند الأم الروحية، الكنيسة الأرثوذكسية التي قدمت لهم العون طوال أربع مئة سنة خلال أيام مجازر المحتل. وها هم يغطونها كل يوم بالتراب والأقذار ويرمونها بالحجارة.

وكانوا يتزايدون مدفوعين بمآسيهم ويأسهم، ويبحثون ولو عن رجل واحد حفظ الايمان المقدس في قلبه دون زيغ.

فكان يبدو أن الوقت لم يحن بعد لكي يترك نكتاريوس المدرسة والعالم، رغم أنه صار يبلغ السادسة والخمسين من العمر، وقد ابيضّ شعره ولحيته من النسك. كان يمضي أيامه في الأصوام والصلاة العقلية، وكان يعرف ما يجهله الكثيرون: أو ما لا يقربونه الا بتردد وفتور: الله، ووصاياه على الأرض، والضعة والعدالة والمحبة والنور...

كان مرة في كنيسة عذراء المغارة الذهبية في شارع أيولو. فـــرأى خـــلال قداس الأحد الالهي كاهناً يلبس ثوباً ممزقاً. فخلع جبته في الحال دون تفكـــير وأعطاه اياها. ودهش الكاهن الذي يقيم القداس معه، وخرس عن الكلام. أمـــا نكتاريوس فقد عاد الى المدرسة بجبة الكاهن الآخر، الصفـــراء الباليـــة. واذ سأله:

-"ماذا ستفعل دون جبتك؟"

أجاب نكتاريوس:

-"لا بأس، فسأجد غيرها".

وما أن رآه أمين السر يدخل على عجل الى حجرته حتى ناداه:

-"ماذا حصل لك هذه المرة أيضاً يا سيدي المدير؟ هل تعرّضت للسرقة على يد الأشرار؟ ولكنك لا تتصرف بمنطق ، ألا تقدّر أهمية الموقف؟"

فوقف نكتاريوس في مكانه وقد أحسّ ببعض الانزعاج، وأجاب:

-"ان الحياة على الأرض يا صديقي العزيز عبارة عن فـــترة زمنيـــة مـــن التطهر. ولا معنى لها اطلاقاً من دون سيدنا يسوع المسيح. فاذا سلـــمت بهذا الواقع فلا يمكنك أن تضع لنفسك حدوداً وتقول: سألتزم هـــذه الحـــدود ولـــن تخطاها. وكيفما عاينت الحياة فستجد أن لها صفات شـــتى، ولكنـــها ليســـت معقولة!"

ولحسن الحظ أن نكتاريوس كان يملك جبّة أخرى متوسطة الحـــال، فارتداها وطوى الحادثة النسيان.

كانت الأيام والشهور والسنوات تمرّ. وهذه الكأس، الكأس المحبيـــة والمملوءة بالمرارة، لم تبتعد بعد.

فمن ناحية تغيّرت عقلية الطلاب عملياً. ولم يعـــودوا كمـــا كـــانوا. واعتادوا كلهم تقريباً السير على درب الرب... ومن ناحية أخرى لم تتوقـــف ادارة المدرسة ولا مجمع أثينا المقدس عن اقلاق راحة هذا الأسقف المنفـــي، وعن تشويه سمعته بالأقاويل المختلقة ولا لحظة واحدة.

أما هو فكان مستعداً دائماً لأن يودع روحه عند الله، ويمـــوت فـــي سبيل الايمان المقدس. وكان يسلـــّم أمره بالكلية الى العناية الالهية. ولو أنـــه

كان مثلنا، مثل ذوي النفوس الصغيرة، نحن الذين نفتش عن خبزنا اليومي في الهدوء والأمان، لكان استسلم حتماً وتعرّض للانهيار العصبي، أو حتى للجنون.

وفي مساء أحد الأيام قال له ثيوكليطس مينوبولوس، متروبوليت أثينا الجديد الذي خلف بروكوبيوس، وقد التقاه أمام مكاتب المجمع المقدس:

-"يجب أن تضع حداً نهائياً لهذه المشكلات التي مازالت عالقة. فاني أراك هادئاً ولا تحرك ساكناً. وحتى لو أردنا انتخابك متروبوليتاً لوجدنا ذلك كثير الصعوبة بسبب المشكلة التي تواجهها مع بطريركيتك".

وفي تشرين الأول من العام ١٩٠٢ تصاعدت وتيرة الاشاعات حول نكتاريوس، وكان وراءها بعض الكهنة الذين أزعجهم التقدم الذي حققته المدرسة.

ولم تكن أوراق نكتاريوس القانونية كاملة لا فيما يخص الجنسية، ولا لأسباب أخرى غيرها. فوجد نفسه مجبراً على الكتابة الى فوتيوس بطريرك الاسكندرية الجديد. وكان عليه أن يشرح له في هذه الرسالة قصته كلها منذ البداية، وبكل تفاصيلها. كما وجد نفسه مضطراً للكلام على بدل أتعابه التي حُرم منها ظلماً. ومما جاء في الرسالة:

"... أرسل الى قداستكم ربطاً القرارات الثلاثة التي صدرت عن أبينا وبطريركنا صفرونيوس، ويحمل الأول تاريخ القاهرة في ٣ أيار ١٨٩٠، والثاني والثالث الاسكندرية في ١١ تموز ١٨٩٠. وفي هذه القرارات وضع البطريرك حداً لمهامي، ونزع عني المسؤوليات التي كنت مكلفاً بها، وحذفني من الاكليروس التابع له. كما طردني من مصر دون محاكمة ودون أن يعطيني حق الدفاع عن نفسي، ودون سبب، كما يبدو لك من هذه القرارات المرفقة بالرسالة. لقد كان قراره هذا يا صاحب السيادة مخالفاً للعرف الكنسي، ومنافياً للقوانين الاكليريكية، كما كان ظالماً وتعسفياً. فبمجرد قرار مخالف للنظام ولا يحتوي على أية ايضاحات، يتم طرد أسقف مسجل في السجل الرسمي، بعد أن عمل طويلاً وبكل قواه. فهل هناك ما هو أكثر ظلماً وتعسفاً؟ وقد كتب صفرونيوس في القرار الصادر بتاريخ ١١ تموز ١٨٩٠ :" ... وبما أن جميع الحسابات والأتعاب العائدة الى قداستكم بفضل المنصب الذي شغلته قد سوّيت، فان الكرسي البطريركي لا يدين لكم بشيء بعد الآن". ولم يحدد

ـطريرك بصورة واضحة التاريخ الذي كان يجب أن أبدأ فيه بتقاضي بـــدل تعبي. كما لم يحدد بالضبط تاريخ نهاية حقي في تقاضي هذه الأتعاب. وقـــد ـــ قداستكم بأن هذا التاريخ هو نفسه الذي أقلت فيه من منصبي. للأسف لا، ـحـب البطريرك الذي لا يرتكز على أي أساس، لقد انتهت حقوقي بتقـــاضي ـ الأتعاب يوم سيامتي أسقفاً. ولهذا السبب فقد رفض أن يسدد لي ستة عشر ـ شهرياً بدءاً من تاريخ سيامتي وحتى تنحيتـــي مـــن منصبـــي، بحجـــة ـصعوبات المادية. وفي جميع الأحوال فانك تجد التاريخ الذي توقفت فيه عن ـض بدل أتعابي مدوناً في دفتر البطريرك. وقـــد امتثلــت لارادتـــه بسـبب ـترامي الكامل لشخصه المقدس،ولأننـــي أردت المحافظـــة علـــى الســـلام ـروحي. وبعد أن اشتكيت من هذا الظلم دون أن ألقى جواباً، تركت مصـــر ـلى أمل أن يُحكم لي بالعدل في اليوم الذي يقرره الرب! وأعتقد بـــأن هـــذا ـيوم قد حلّ بوصول قداستكم . لذلك أرجو مـــن قداســـتكم أن تحكمـــوا لـــي ـعدل، وتعترفوا بي أسقفاً في الكرسي البطريركي التابع لكم، وأن تعلمونـــي ـقراركم العادل.

"وأملي وطيد بأن قداستكم سوف تتنازلون وتحكمـــون لـــي بـــالعدل ـتـوون أوضاعي. وأرجو أن تقبلوا سلفاً عرفاني بجميلكم، ولكم مني وافـــر الاحترام..."

ثم أنهى رسالته بعبارة المجاملة والطاعة المعهودة، وعندمـــا ذيّلـــها ـتوقيعه أحسّ براحة نفسية عميقة.

كان فوتيوس بالطبع من أتباع الملكة أولغا، ومنافسه في الانتخابـــات الأخيرة. الا أنه لم يحتفظ بأي ذكرى سيئة عنه، ولم يحمل له أي حقـــد، بـــل كان يحبه. أجل كان يحبه من كل قلبه، ويذكره في صلواته لأجل بلاد النيل.

كان فوتيوس من جزر سيكلاديس. وقد عُرف سكان هـــذه الجـــزر باستقامتهم الشديدة. وكان نكتاريوس على يقين بأن فوتيوس سيحل له مشـكلته وأن حياته ستتغيّر. ومن يدري ما هي الجهادات الجديدة والجهود التي تنتظره على الأرض الأفريقية!

وهكذا فقد كان حدسه ينبئه بأن رغبته في التوحّد لن تتحقق في وقـــت قريب. وكان يحضّر صديقه الأمين كوستي بلطف للانتقال من ذلك المكان في

وقت غير معروف. وكان ذلك قبل وفاة والدة كوستي بوقـــت قصـــير. وقـ
سألـــه مرة:
-"هل تحب أن تقيم في مصر يا كوستي؟
-"كثيراً يا صاحب السيادة! يقولون ان السماء هناك لا تمطر على الاطـــلاق
وان لا وجود للثلج ولا للغيوم ولا للرياح الشمالية. فهل تتصوّر نفســـك دون
مدفأة، ودون منقل؟
-"لكن للمناخ سيئات أخرى.
-"ما هي يا صاحب السيادة؟
-"الحرارة التي لا تحتمل، ورطوبة الجو خلال الليـــل، والذبـــاب المنتشـــر
خصوصاً في الأحياء الشعبية، والقذارة، وكل ما يتبع ذلك
-"الى هذه الدرجة؟
-"لقد قام الانكليز بكثير من أعمال الانماء في الآونة الأخيرة.
-"الحرارة والرطوبة! هذا ليس بالأمر الخطير. ولن يكون مزعجـــاً. ليتنـــا
نذهب الى هناك! سنأكل الموز والبلح طوال السنة".

* * * * *

فابتسم نكتاريوس لسماعه كلمات كوستي الأخيرة. وكان سعيداً فـــي أعماقه، سعيداً لتفكيره بالمسيح والقيامة. ولكنه لا ينسى أبداً أن هذا "الفنـــدق المضياف"ـــ كما كان يسمّي كوكب الأرض ـــ هو مكان للتطهّر.

فيما حوله كان العالم مليئاً باخوته الغير المبالين بيوم الدينونة الآتـــي. والمشككين بخلود الروح. وكانت واجبات الكاهن ومسؤولياته تخزه كالأشواك الحادة عندما يفكر في هذا العالم المليء بالاحتيال والأهواء والآلام الرهيبـــة التي لا نهاية لها. وكان شعوره بالواجب يملأه بالفرح والتعاسة والقلق في آن. وكان يزداد اقتناعاً كل يوم بأن فوتيوس سوف ينصفه، وأنه سيرحل من جديد باتجاه البلدان الجنوبية، وأرض المنفى التي عاش عليها المسيح وأمه القديســـة وأبوه بالتبني. وكان يعلق كل الأهمية على تلك الرســـالة التـــي بعثـــها الـــى فوتيوس.

ولكن انتظاره كان دون جدوى.

فقد كان يأمل أن يصله الرد على رسالته في غضون أربعين يومـــاً. ولكن أعياد الخريف مرّت وجاء عيد الميلاد، ومرفع اللحم، ثم الصوم الكبير.

ولم يصله شيء. لماذا؟ لماذا لا يرى الناس جمال الفضيلة؟ لمَ يسقطون الى هذه الدركات الدنيا؟ ولمَ لا يلاحظون غير الأمور الفاسدة، التافهة، والتي تمر بسرعة؟ لمَ يقرأون الانجيل بطريقة أدبية وسطحية؟

كانت كل هذه المسائل غائبة عن الطرح: بل كان القرن العشرون يرمي الأوراق الذهبية من أعلى مركبته ويوزع الوعود بسخاء، فيفقد الناس معنى التجربة ومعنى السر. كان يصرخ مصفقاً لانتصارات العلم ويطنب في اطراء المادية القديرة.

كان نكتاريوس قد أرسل رسالة مضمونة ، لكنه علم من مصادر موثوقة بأن البطريرك الجديد قد تسلّم الرسالة ووضعها في أحد أدراجه.

وحل الصيف بحرارته وبعوضه ثم رحل، ولم يصل الرد بعد. وانقضت سنة وحل خريف العام ١٩٠٣ ونكتاريوس لا يزال يحتمل عبء الأقاويل الثقيل وسخرية الذين يزدرون بكل ما هو جيد. فقرر أن يلعب ورقته الأخيرة دون أمل كبير بالنجاح. وكتب الى القسطنطينية، الى البطريرك المسكوني يواكيم الثالث الذي كان يعتلي الكرسي المسكوني بعد فترة من الزمن قضاها في النفي. وكان يونانياً حقيقياً، لكنه كان كالطائر المقصوص الجناحين. وقد عُرف عنه أنه كاهن شديد الذكاء، دمث الأخلاق ونبيل النفس. وكان أول من فهم وتنبأ بأن الحركة الديمقراطية للشبان الأتراك ستجلب الكارثة على اليونانيين الشرقيين.

فكتب له نكتاريوس رسالة موجعة ومأساوية نوردها كاملة:

"الى قداسة رئيس أساقفة القسطنطينية في روما الجديدة، والبطريرك المسكوني، المطران يواكيم الثالث.

"بكامل الاحترام أرسل الى قداستكم نسخة عن الرسالة التي بعثتها الى غبطة بطريرك الاسكندرية السيد فوتيوس، فضلاً عن نسخ القرارات الثلاثة التي أصدرها البطريرك صفرونيوس، وفيها يعلمني بانه أقالني من مهامي في بطريركية الاسكندرية، وأنه يحلّني من مسؤولياتي ويصرفني كأبسط كاهن رعية. ويطردني دون محاكمة أو دفاع، كما هو ظاهر في محتوى القرارات.

"وقد كتبت رسالة الى غبطة بطريرك الاسكندرية فوتيوس أطلب فيها منه أن يرفع عني هذا الظلم معيداً اليّ حقوقي. الا أن غبطتـــه الـــذي اسـتلم رسالتي منذ أحد عشر شهراً بالضبط يعتبر بأني لا استحق الرد عليـــها. واذ أتعجب من هذا التصرف، أجد من واجبي الالتجاء الـــى قداسـتكم الموقـرة لأطلب رأيها الحكيم ونصيحتها في ما يجب عمله. وقد كان الهدف الأساســي لرسالتي الى قداسة بطريرك الاسكندرية فوتيوس، أن يتـم تسـوية وضعـي كأسقف في كنيسة الشرق الأرثوذكسية. وأن تـُبلــَّغ هـذه التسـوية الـى السلطات الاكليريكية التي أنتمي اليها. لأني الآن وبعد عزلي، لا أنتمي الـى أية كنيسة مستقلة. وبعد أربعة عشر عاماً من تأدية مـــهامي الرسـمية فـي اليونان، ما زال المجمع المقدس يعتبرني أسقفاً عابراً. وهو أمر تجهله الملفات الاكليريكية حتى اليوم: أي وجود أسقف معزول لا ينتمي الى أية كنيسة. وفي اقتناعي أنه يستحيل على قداستكم وعلى أي خبـــير فـي القـانون الكنسـي الاعتراف بصحة هذا الوضع والموافقة عليه. وأجد أيضاً من واجبي التوجّـــه الى قداستكم، كوني أتبع ولايتكم كما يظهر في وثيقة سيامتي شماســـاً التـي تجدونها مرفقة ربطاً. وأنا على يقين بأن قداستكم ترغب بتسديد النصح الـيّ، والعمل على تسوية وضعي كأسقف في كنيسة الشرق الأرثوذكسية.

"وفي النهاية أقبـل يدكم اليمنى المقدسة باحترام طالباً بركتكم.

نكتاريوس، أسقف المدن الخمس.

وقد وجد يواكيم نفسه في موقف حرج جداً، وفي خطر محـدق مـن جميع الجوانب: كان البطريرك الثالث الذي يعرض عليه نكتاريوس قضيتـــه المأساوية، وكان هو الأعلى في التراتبية بين الثلاثة. فشعر بنفسه تضعـــف. ولم يتمكن من ايجاد الحل ولم يتنازل الى حدّ أن تتلوّث يداه. والحقيقة أنه لكي يحل هذه المشكلة، كان مضطراً لمواجهة فوتيوس وجماعته كلها التي تـدور حول كرسي الاسكندرية كالافعوان المتعدد الرؤوس.

فوجد يواكيم نفسه عاجزاً. وفكر بأن الوقت غير مناســب للجـدل والشجار، فمن وراء فوتيوس كانت هناك أولغا، ومن وراء أولغـــا القيصـر الذي يتمتع بكامل السلطة. وفي النهاية أرسل رجلاً موثوقاً ليحمل الى "هــذا الأخ العزيز في الأسقفية" كامل "تحياته البطريركية الحارة"، ونصيحة بالبقـاء في منصب ادارة المدرسة. اذ ليس ما يمنع أن يشغل منصب موظف حكومي. وأن يتحلى بالصبر لبعض الوقت أيضاً.

وفيما بعد، وعندما حدثت قضية "قدامى كاثوليك لندن"، توسّط نكتاريوس من أجل اعادتهم الى الأرثوذكسية. فكتب اليه يواكيم رسائل فيها الكثير من المحبة، ودعاه "الأخ العزيز ورفيق التواضع".

وأخيراً أحسّ نكتاريوس بالارتياح: لقد قام بكل ما كان يجب عمله. وفيما تبقّى له من سنوات العمر، فانه لن يهتم بطريقه، بل المسيح هو الذي سيهتم به كما كان الأمر منذ البداية، وفي كل لحظة.

ولا شك في أن وضعه كان سيئاً جداً: انه رجل دين أرثوذكسي وأسقف ذو ماضٍ لا غبار عليه، لكنه لا يتمتع بأي منصب رسمي في أي مكان من الكنيسة...

ومن المؤكد أن الرب العليّ يرى كل ذلك من سمائه... لذلك فالأمر غير مهم. ان ما يراه الرب قد عاشه بنفسه أولاً يوم قدّم ذاته تضحية من أجل خلاص العالم الساقط: "الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله" (يو ١ : ١١). وبحسب حكمته وضع خطة لكل انسان آتٍ الى هذا العالم، والويل لمن يحاول التهرّب منها لاتباع طرق أخرى.

أخيراً أحسّ نكتاريوس بالارتياح الكلي: لم يكن معدّاً للمناصب الأسقفية ولا للمسؤوليات الكبرى. فمنذ الآن وحتى نسمته الأخيرة، سوف يعتبر نفسه مبتدئاً، في اطار روح الطاعة المسيحية. وأية نعمة كنا نجد في روح الابتداء! فما هو السبب الذي أدى الى سقوط نصف السماوات فوق هذه الأرض، وطرد ملائكة نور ورؤساء ملائكة وملائكة؟

لندع جانباً الارادة الشخصية والأنانية، فالأفضل أن يكون المرء عاملاً بسيطاً في خدمة الكلمة الالهية.

كانت المؤلفات التي ينشرها تشق طريقها. وقد أعطت جامعة أوكسفورد جائزتها الأولى لكتابه "تعليم الدين الالهي"، وهو مؤلَّف سهل وبعيد عن التكلّف. وقد زاد عدد أصدقائه ومعارفه في العاصمة اليونانية الآخذة في النمو. وكان بعضهم يشترون كتبه، ويطلبون منه المزيد من النسخ ليبيعوها. ولم يعد الناشر باراسكيفا ليونيس يطالب بديونه، ولم يكن ينفك عن ارسال المتدرّجين لاحضار المخطوطات الجديدة في كل مرة.

وفقد صديقه المخلص كوستي والدته، فأصبح حزيناً وقليل الكلام. يقضي الوقت بالتنهد. ولكنه برهن في الأشهر التالية عن نشاط عظيم وقوة ذكاء، فأدهش الجميع: كان يجتاز المدينة راكضاً من أقصاها الى أقصاها للعثور على قرّاء مخلصين. وكان يحضر قطع الدراخما بالمئات، حاملاً في ذراعه الأيمن ــ الذي يضع عليه الساعدة السوداء ــ كيس الدراهم المبارك الذي كان يمتلئ ويفرغ دون توقف، وقد صار أداة صليبية روحية.

وأعاد نكتاريوس كتابة مؤلـّفيه "حول خلود الروح" و"خدم من أجل الراقدين"، وضاعف حجمهما أربع مرات. وأعاد طبعهما في العام ١٩٠١ مع الاهداء التالي: "الى أرواح والديّ المحترمَين ديموس وبالو وأشقائي وشقيقاتي الأحباء ديمتري وغريغوار وسماراغد وسيبستياني وماربيت، بمثابة خدمة روحية عن نفوسهم. نكتاريوس، أسقف المدن الخمس، الابن والشقيق".

كما أنهى الكتب التالية: "والدة الاله الكلية القداسة" و"والدة الاله الدائمة البتولية" و"حول قديسي المسيح" و"حول سر الافخارستيا الالهية" و"حول التوبة والاعتراف" وغيرها أيضاً. وأعطاها الى الناشر السيد باراسكيفا. وفي الوقت نفسه اهتم بنشر "مجموعة الكتابات المقدسة المستوحاة من الله" لأنطيوخوس راهب غلاطية، من لافرا القديس سابا، من أجل منفعة المسيحيين الأخلاقية. وكان كتاباً فريداً من نوعه، يحتوي على أكثر من مئة وثلاثين مقالة من بينها: "عدم وضع الثقة بالانسان" و"عدم وضع الثقة في القدرة الشخصية"، و"في الحلم والغضب" و"في احتقار العالم" و"في الصبر" و"في الأحلام" و"الانقطاع عن المعاشرة الباطلة".

الفصل السابع عشر

- لو ١٨ : ٢٦-٢٧) "فقال الذين سمعوا فمن يستطيع أن يخلص؟ فقال غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله".

- ٣ ملو ١٩ : ١٨) "وقد أبقيت في اسرائيل سبعة آلاف ، كل ركبة لم تجثُ للبعل..."

بقيت الجموع تتزاحم بعد ظهر أيام الجمعة للحصول على بطاقات دخول للمشاركة في قداس الأحد الالهي. وازدادت من جهة أخرى أعداد المشاركين في الخدم الليتورجية الأخرى والاستماع الى المواعظ التي كان يلقيها نكتاريوس في كنائس أثينا والبيريه، بموافقة المتروبوليت طبعاً.

ولم يكن كهنة المجمع المقدس ليستطيعوا تلبية جميع الاحتياجات الليتورجية من قداديس لأجل الراقدين وأعراس ومآتم... لذلك كان يُستدعى نكتاريوس ، هذا "الكاهن الاحتياطي" الموجود في المدرسة.

وكل مرة كانت تدعو الحاجة لمثل هذه الخدم خارج المدرسة، كان كوستي يمتلئ فرحاً لكونه سينقل الخبر الى الناس. فما أن يخرج من المدرسة حاملاً كيسه للقضايا اليومية الصغيرة ولقبض المال، حتى كان جميع أنواع الناس ينادونه لسؤاله عن أخبار جيدة حتى يتناقلوها. ولذا فعندما كان نكتاريوس يقيم الخدم خارج المدرسة، كان الناس يتوافدون منذ بداية الصلاة السحرية.

وكانت عائلة مانطوبولوس تقطن في شارع كزينوفون بقرب القصر الملكي وحديقته، في بيت واسع يحتوي على أكثر من عشرين غرفة. وكانت السيدة مانطوبولوس قد آوت الى بيتها شابة ضريرة منذ سنة ونصف. وكان سيد البيت ملاكاً كبيراً، وشقيقاً للراهب أفسابيوس الذي أسس فيما بعد حركة "زوي".

وكانت هذه الشابة الضريرة من البيريه، واسمها كريزَنتيا. وقد فقدت والدها منذ بعض الوقت تاركاً عائلة كثيرة الأولاد وأمهم التي اضطرت

للعمل كخادمة في البيوت من أجل اعالتهم. وقد تسلّل الفقر رويداً روي الى هذه العائلة اليتيمة، فولّد فيها اضطرابات كثيرة. ولكن الصبية بقيت وحدها، كزنبقة نضرة بين الأشواك. وما ان وصلت الى عمر التفكير حتى تاقت نفسها الى نبع الحقيقة الندي، والمياه الخالدة التي لا يعطش من يشرب منها أبداً. كانت مثل أيّل المزمور الذي يشتاق الى ينابيع المياه. كانت هذه الضريرة تسمع العالم دون أن تراه ولم تكن تستطيع التنقل دون رفيق منذ صغر سنها. فقد أصيبت بمرض التيفوس منذ طفولتها الأولى، وقال طبيب الحيّ – بحسب معارف ذلك العصر – انها لن تشفى الا اذا أجريت لها حقنة سوف تصيبها حتماً بالعمى. وكان على والديها الاختيار بين العمى والموت، فاختارا لها العمى. فعاشت الفتاة على هذا الشكل وكبرت بين اخوتها وأخواتها. ومنذ طفولتها بدت رقيقة الروح، حنونة، مرهفة الحس، ممتلئة بالطيبة والحب. وفي بحثها المتواصل عن نبع الخلود التقت بالمصلوب الذي يشفي العميان.

تعمل النعمة الالهية بطريقة غريبة وسرّية يصعب علينا وصفها، فتقوّي نفس العاجز المحروم من تأمل الخليقة الذي هو مصدرٌ للحكمة.

فقد تعرفت الصبية كريزَنتيا الى المصلوب، ومنذ ذلك الحين بدأ كل شيء فيها يلمع بالنور. فصارت تنهض عند الفجر لتذهب الى الكنيسة وتستمع الى الصلاة السَحرية. وكذلك صلاة الغروب وجميع الصلوات الليلية.

وقد حفظت النصوص المقدسة شيئاً فشيئاً، الانجيل وأقوال الآباء. كما استطاعت أن تتغلب على خوفها عندما زارها الشيطان ليزرع فيها بزرة العصيان والخيانة والفضول والشك.

وتطهّر كل شيء فيها، فاستنار فكرها وصار جسدها الأرضي اناء لروح الحياة. وصار وجهها عذباً ومبتسماً على الدوام، يعكس تلك البراءة الهادئة والخاصة بالأطفال. ولم تكن تبقى دون عمل: فبعد أن كانت تنهي أعمال البيت، اعتادت أن تطرّز.

كانت السيدة مانطوبولوس تستضيفها في منزلها الواسع منذ سنة ونصف دون أن تخسر شيئاً: كانت ربّة عائلة كثيرة العدد، وقد ساعدها وجود العمياء في حلّ الكثير من المشكلات المادية والنفسية. ولم تكن تسمح لها بلقاء صديقاتها اللواتي يطلبن رؤيتها لاشتياقهن اليها. وقد حافظت السيدة

مانطوبولوس وزوجها ومحيطهما على عادات الكنيسة الأصيلة، بسبب قرابتهم للراهب أفسابيوس من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنهم توارثوا هذه العادات عن الأسلاف. لذلك لم يطل بهم الأمر حتى تعرفوا الى شيخ مدرسة ريزاريو العجيب. فارتبطوا معه بعلاقة صداقة، وكثيراً ما دعوه الى منزلهم الواسع. واستفادوا كثيراً بالمقابل من نصائحه الثمينة، ومن الاعتراف اليه، ومعرفة كيفية توزيع احساناتهم المادية. كما كانوا يحظون بأماكن لهم في قداس الأحد الالهي في المدرسة.

وكانت السيدة مانطوبولوس تصطحب رفيقتها الدائمة كريزنتيا الى قداديس الأحد. وقد سمحت لها الفرصة مرتين أو ثلاثاً لتحدث الشيخ عن المواهب الفريدة التي تتمتع بها هذه الشابة العاجزة:
-"انها ملاك يا صاحب السيادة. انها ملاك حقيقي كما يندر أن نجد بيننا. وأعجز تماماً أن أصف لك يا صاحب السيادة ملكوتها الداخلي المبارك".

وكان نكتاريوس يبتسم وهو يستمع اليها، وكان يعتقد بأن كلامها مبالغ به: انه أسلوب امرأة من العالم لم تختبر الأوقات العصيبة...

* * * * *

وفي ظهر يوم أحد كان هناك عيد عظيم في المنزل الواسع، وقد استُبقي "الشيخ" لمباركة الغداء. فطُلب من كريزنتيا أن تقدم القهوة، لكنها جهشت بالبكاء وجثت عند قدمي سيدتها تتوسل اليها قائلة:
- "هذا مستحيل! فأنا غير مستحقة ، أنا نكرة، خاطئة، ولا أستطيع الاقتراب من هذا الوجه القديس. أرجوك ألا تلحّي عليّ أكثر".

وهنا استعملت السيدة مانطوبولوس الحيلة: فأرسلت احدى خادماتها لتقدم القهوة. ثم أمسكت بيد كريزنتيا وادّعت بأن المطران ما زال في غرفة الطعام، واقتادتها الى المكتب حيث كان نكتاريوس يستفيد من بعض لحظات الوحدة ليقلّب صفحات أحد أجزاء الفيلوكاليا. ثم اعتذرت بحجة أنها نسيت احضار شيء ما، فتركتهما وحدهما ليتعارفا.

وقد تسنّى لهما أن يتحادثا لأكثر من ساعة. وعندما جُهزت العربة التي ستعيد نكتاريوس الى المدرسة، ذهبت سيدة البيت لتعلمه بالأمر فوجدت على وجهه نوراً غريباً. ونظرت اليه بفضول وهو يقول لها:

-"أنتِ لم تبالغي يا سيدة مانطوبولوس هذه المرة، وليس هذا فقط بل انك بقيت دون الحقيقة. ان كريزَنتيا بالحقيقة كائن فذ، وهي شبيهة بالملاك. أهنئكِ".

الفصل الثامن عشر

+ (حك ٤ : ١٦) "لكن الصديق الذي قد مات يحكم على المنافقين الباقين بعده، والشبيبة السريعة الكمال تحكم على شيخوخة الأثيم الكثير السنين".

+ (لو ١٨ : ١٧) "الحق الحق أقول لكم ان من لا يقبل ملكوت الله مثل صبي لا يدخله".

منذ ذلك اليوم بدأت كريزَنتيا تسبح في بحر السعادة. وكان لها بعض الصديقات الحميمات اللواتي يشاركنها أفكارها. وكنّ مثلها ممتلئات من التقوى والايمان. وما أن تعرّفت كريزَنتيا الى أستاذ ريزاريو الجليل ، حتى رغبت في أن تجعل صديقاتها يستفدن هن أيضاً من معرفته. فاجتمعن كلهن معاً بقيادتها ليشكلن صفاً علمانياً مقدساً.

وفرحت السيدة مانطوبولوس بالأمر، وخوفاً من أن تغادرها كريزَنتيا، أعطتها غرفة في الطابق الأرضي حيث يمكنها أن تجتمع مع صديقاتها. وكانت احداهن تدعى كاترينا، وتصغر كريزَنتيا بأربع سنوات، وكانت الثانية تدعى هيلانة وتكبرها بعشر سنوات. وبعد مدة قصيرة حضرت الفتاة الرابعة، أنجيليك، التي كنّ ينادينها "الملاك الصغير" لأنها كانت لا تزال في الثامنة عشرة من العمر. وكانت كل واحدة منهن تقوم بعمل ما: اما الأعمال المنزلية أو الخياطة أو التطريز... وفي اجتماعاتهن كنّ ينشدن المزامير ويقرأن الكتاب المقدس ويصلّين، ويتباحثن في امكانية تقديم العون للمحتاجين، وتمتلئ قلوبهن فرحاً.

وفي احدى ليالي الصيف،وبعد هطول مطر منعش عطّر الجو وروّى الأرض، كانت الفتيات في غرفة الاجتماعات في المنزل المضياف. وفي النهاية وصلت الأم ليني (وهو لقب تحبّب كانت الفتيات يطلقنه على هيلانة، وهي أكبرهن سناً)، وكانت ممرضة. وعند وصولها راحت الفتيات يصلّين بحرارة الى أم الاله لكي تتشفع بمرضى المستشفى الكبير حيث تعمل هيلانة، وبالفقراء الذين لا مأوى لهم، ويلتجئون الى المدن. ثم سألت الأم ليني:

–"كيف وجدتن يا صديقاتي موعظة أبينا الروحي نهار الأربعاء الماضي في البيريه؟"

فتمتمت كاترينا:

-"يا لهذا الرجل!"

فأضافت الأم ليني:

-"يا لها من نعمة كبيرة أسبغها الله علينا، أننا تعرفنا به، ونستطيع أن نفضي اليه بأحزان روحنا الخفية. ونحن ندين بهذا لكريزَنتيا..."

فقالت أنجيليك:

-"لعائلة مانطوبولوس!"

فاعترضت الضريرة قائلة:

-"بل ندين بكل ذلك للرب".

فقلن جميعاً في آن واحد:

-"نعم أنت على حق: للرب... أحسنتِ!"

وقالت الأم ليني:

-"انه بسيط، محسن، يحضن الفقراء...

فأضافت كاترينا:

-"انه كاهن بكل معنى الكلمة. وقد سمعت انه يتكلم الفرنسية بطلاقة".

وتابعت الضريرة:

-"جميع هذه الصفات ثانوية. لقد نسيتن الأهم والأفضل".

فصرخن كلهن معا:

-"ماذا؟ قولي لنا!

-"ألم تلاحظن ذلك؟ أنا الضريرة قد رأيته منذ وقت طويل".

وسألت كاترينا بصوت خافت:

-"رؤوف؟ كريم؟"

فصرخت الأم ليني:

-"انه متواضع مثل لعازر المغطى بالقروح؟"

فقالت العمياء:
- تصوّرن المسؤوليات الملقاة على عاتقه: ادارة المدرسة، ومؤلفاته ... وكأنها مرسلة مباشرة من السماء، والخدم الليتورجية، والموعظات في يوم الأربعاء الماضي. وكل الذين يأتون اليه ولا يرفض أحداً منـــهم! وحده يعلم كم يسهر الليالي ليقوم بكل ذلك! أشعر بالخوف... أجل أخاف ... صحته. ولا تـنسين أنه ليس من السهل الاستماع الى اعترافاتنـــا، ... التافهات.
- ... يا كريزنتيا، لقد أوصت بك السيدة مانطوبولوس. وهـــو يحبـــك ... خاصة".

وأضافت كاترينا:
- ونحن قد تمسكنا بك.
- ... هذا الكلام يا صديقاتي. فهو لا يفضل شخصاً علـــى آخـــر علـــى ... وقد أكد لي أمين سرّه منذ فترة أن الأب نكتاريوس يستقبل بانتظـــام ... مجهولاً ويستمع الى اعترافاتـــه، وهـــو رجـــل أرمنـــي يعمـــل فـــي ...تيراكي".

فأكدت كاترينا:
- ... على حق، انه لا يميز بين الناس".

وتابعت كريزنتيا:
- كيف أشرح لكنّ ما يحدث لي؟... منذ أن بـــدأت أعـــترف لـــه وأتنـــاول ... من يده، صرت أشعر بسعادة جديدة لا يمكن أن يعكرها شـــيء ولا حتى فكـــرة الموت".

وقالت الأم ليني:
- ... كم أنتِ على حق يا أختي الصغيرة، فأنا أشعر بالأمر نفسه، أنا الشقية".

والتقت نظرات الأم ليني وكاترينا للحظة:
- ما رأيك يا كريزنتيا لو أصبحنا راهبات؟ هل ترغبين بأن نشـــكل جماعـــة نحن الأربع مع الملاك الصغير؟"

وفجأة قفزت الضريرة من مكانها وأجهشت بالبكاء وهي تقول:
- يا ربي... يا ربي..."

وعندها بدأت الفتيات كلهن بالبكاء، وقد لزمهن وقت طويـــل حتـــى يتمالكن أنفسهن. ثم قالت كاترينا وهي تبكي:

-"ليت هذه الساعة المباركة تأتي قبل أن أموت".

وكانت أنجيليكا تبكي أيضاً، فقالت لها الأم ليني:

-"لا تتسرّعي. فأنا أكبرك بأربعة عشر عاماً، وأتمتع بخـــبرة أوســـع مـــن خبرتك. وأعرف أن الحياة الرهبانية شديدة القسوة.

-"أنت تتساءلين كيف سوف نعيش... حسناً أنت على حـــق، لأنني مثـــل كريزَنتيا لا أملك المال".

فصرخت أنجيليك بلهجة الانتصار:

-"أنا عندي من المال ما يكفينا كلنا: عندي آلة عظيمة، آلة رتق الجوارب!"

فضحكت الفتيات. ثم تابعت الأم ليني:

-"وليس هذا فقط، بل أنا أيضاً كممرضة سوف أتقاضى راتباً تقاعدياً حتـــى موتي، اضافة الى ما جمعته من المدخرات الصغيرة.

-"اذن؟"

فتمتمت الضريرة:

-"وفي جميع الأحوال سوف نعمل هناك أيضاً. فكل ما نحاول أن نفعله هنـــا في العالم، سوف نقوم به وبشكل أفضل في الوحدة".

فقاطعتها الأم ليني قائلة:

-"لكنني أتكلم عن أمر آخر.

-"تتساءلين الى أين سنذهب؟

-"بالضبط. هل سندخل أحد أديار الراهبات المعروفة، أم أننا سننهي حياتنـــا في الغابات كالنساك... ؟"

فسألت كاترينا:

-"أتعلمين... ولمَ لا نفاتح بالأمر...؟

-"من؟

-"أبانا الروحي".

فقالت الأم ليني بلهجة جدية:

-"فكرة ممتازة. الا اني أخجل من طلب موعد جديد منه. لقد أزعجته كثيراً باعترافاتي ولم يمض عليّ وقت طويل منذ اللقاء الأخير معه..."

فقالت كريزنتيا بخجل:
-"أنا سأفاتحه بالأمر".

ثم تبادلت الفتيات القبل باكيات. وامتلأت الضريرة بالحماس فرسمت اشارة الصليب على صدرها ثلاث مرات وراحت تنشد بصوت خفيض أحد هذه الأشعار التي كانت تؤلفها في السر ولا يعلم بها أحد:

"ان نفسي الشقية
تحزن وتذرف الدموع
وتصرخ بكل قواها
باسم الرب يسوع".

الفصل التاسع عشر

+(نش ٢ : ١٣ ــ ١٤) "التينة أخرجت تينها والكروم أزهرت وأفاحت عرفها، فقومي يا خليلتي وهلمي يا حمامتي التي في نخاريب الصخر وفي خفايا المعاقل أريني محيّاك، أسمعيني صوتك فان صوتك لطيف ومحيّاك جميل".

وكان الحظ بانتظارهن في تلك الليلة أمام بوابة المدرسة. ولو لم يكن يمر ساكوبولوس صدفة في تلك اللحظة لما استطعن الدخول. فقد كنّ يتوسلن الى الناطور وهنّ على استعداد للركوع عند قدميه، ولكن دون جدوى. وكن سيعدن أدراجهن ومن يدري ان كنّ سيرجعن ثانية بالتصميم نفسه، وبالجرأة نفسها، ليعلنّ عن السر الذي يخفق داخل قلوبهن؟

وقد أخطر ساكوبولوس قداسته بالأمر في الحال. فأرسل نكتاريوس الشاب الذي يعمل في مكتبه ليقودهنّ اليه. وكن خمس فتيات، فقد انضمت اليهن منذ فترة قصيرة فتاة جديدة تدعى ماريا، وهي تصغر أنجيليك بسنة. وكانت يتيمة تقطن عند احدى قريباتها. فاستقبلهن نكتاريوس بوجهه الباش والمبارَك قائلا:

-"أهلاً بفتياتي التقيّات".

وقد عرفهن جميعاً، وطلب أن تـُحضر لهن بعض الحلويات، اذ لاحظ على وجوههن الألم والتوتر والقلق. ثم جلسن حوله ورحن يحدقن فيه بصمت، وقد حبسن أنفاسهن. فسألهن بعذوبة:

-"بمَ أستطيع أن أخدمكن؟"

فنهضت الضريرة وتقدمت خطوة صغيرة نحو الأمام وصمتت. ثم أجهشت بالبكاء. فتمتم نكتاريوس:

-"ما بكِ يا ابنتي، هل الأمر خطير؟"

فأجابت:

-"ليس لنا أحد سواك في العالم يا صاحب السيادة".

فحدّق نكتاريوس بالفتيات الواحدة بعد الأخرى وقد تملـّكه الانفعال، ثم سأل من جديد:
-"ماذا تبتغين؟
-"لقد كرّسنا أنفسنا للمسيح، ونذرنا بأن نصبح راهبات".

ولم يكن نكتاريوس ينتظر شيئاً من هذا القبيل. فارتجف وقفز من مكانه، فسقط القلم من يده. وسأل بدهشة:
-"جميعكن؟
-"نعم جميعنا.
-"وأنتِ يا أنجيليك؟
-"نعم.
-"وأنتِ يا ماريا؟
-"نعم."

فصمت متفكراً ثم قال:
-"يجب أن تفكرن أكثر يا بناتي، وأن تدرسن الموضوع من جميع الجوانب. فلا يمكن أن تبدأن اليوم وتغيّرن رأيكن في الغد. اذ لا أحد يتعجّلكن، وخصوصاً المسيح".

وحلّ الصمت بين الفتيات وقد أصبن بالذهول. فتابع:
- هذا ما أريد أن أقوله: هل تستطعن احتمال المشقة والأصوام والحرمان ونظام العيش القاسي بصبر وطاعة؟"

فتمتمت كريزَنتيا:
- هذا قليل جداً"

وأضافت كاترينا:
- نحن فقيرات، وقد اعتدنا على التعب. ونعرف العذاب جيداً، ولا تخيفنا المشقات.
-"ان الأمر لا يقتصر على العذاب والمشقات"

فعمّ الصمت، ثم تابع نكتاريوس:
-"ان التجارب كثيرة لا عد لها ولا حصر. وعندما يكرّس الانسان ذاته للرب راضياً ودون اكراه، بالاعتراف والنذور، فأية مصيبة تحلّ به بعد ذلك اذا

تراجع وبدّل رأيه لسبب أو لآخر! فاذا ابتعد الراهب ولو قليلاً جداً عن الخوف المقدس، فانه ينزلق من هوّة الى هوّة ويتحوّل الى مسخ عقلي".

فقالت الأم ليني:
-"لقد تباحثنا في هذا الموضوع مرات عدة قبل أن نتخذ قرارنا هذا. وقد قبلنا الموت بكل اقتناع. اننا نفكر في هذا الأمر منذ مدة طويلة".

ومن جديد عمّ الصمت، فتمتم نكتاريوس وهو يداعب لحيته:
-"أطلب الى الرب أن يقبلكن ويحيطكن بحمايته حتى نسمتكن الأخيرة".

فنهضن وهن ما زلن مذهولات بعض الشيء. فسأل نكتاريوس:
-"هل عندكن طلب آخر؟"

فقالت كريزَنتيا:
-"لقد مضى علينا وقت طويل ونحن نستمع الى موعظاتك ونشارك في الخدم الالهية التي تقيمها يا صاحب السيادة. فنتلقى منها القدرة الالهية والنور المقدس. ونعتبرك أباً لنا وحامياً، وحتى دون علمك. ونحن نعرف جيداً كم تُتعب نفسك وتهمل صحتك. ولذلك فاننا على استعداد للقيام بكل ما تطلب منا لكي نساعدك في مجهودك المبارَك، على حسب قدراتنا. كما نرغب بالاستماع الى نصائحك... وكيف يمكنني أن أعبّر لك... فأننا غير متعلّمة... نحن نرغب بأن نصبح تلميذاتك!"

فابتسم نكتاريوس وزفر، فرأت الفتيات الأربع ابتسامته، أما الضريرة فقد سمعت الزفرة. ثم سأل:
-"هل وجدتن الدير الذي ستذهبن اليه؟"

فأسرّت كاترينا:
-"لقد سافرنا الى جزيرة تينوس، الى دير كيشروفوني، فلم نجد أن الأمر عملي بالنسبة الينا جميعاً.
-"ألم تذهبن الى مكان آخر؟
-"بلى، لقد ذهبنا الى مكان أقرب: الى لافيرون.
-"وما رأيكن بذلك الدير.
-"انه لا يناسبنا. وفي جميع الأحوال انه لا يستطيع أن يستقبلنا جميعنا".

ومن جديد عمّ الصمت ثم قال نكتاريوس:

-"حسناً، أريد أن تعود كاترينا بعد غد، وفي الساعة نفسها تماماً.وسأعيّن لكنّ الأيام والساعات التي تحضرن فيها اليّ. وسأحاول أن أسرق بعض الوقت وأرجو أن يقودنا الله كلنا نحو الخير... كما أرجو أن تتحقق رغبتكن المباركة! اذهبن بسلام يا فتياتي العزيزات".

فصرخت الفتيات من الفرح وجثون أمامه باكيات. وراحت كريزَنتيا تتحسس الأرض بحثاً عن قدميه لتقبّلهما. فرجاهن نكتاريوس أن يهدأن. وكان هو نفسه شديد التأثر. فطلب منهن النهوض وباركهن الواحدة بعد الأخرى وهو يستعيد كلمات بولس العظيم: "أرسل لك الأخ أوتيخيكس على وجه السرعة".

ورافق نكتاريوس الفتيات حتى باب الحديقة وهو يغدق عليهن وعوده الأبوية، ويكرر النصح بأن يفحصن ذواتهن جيداً.

الفصل العشرون

+ (مت ٩ : ٣٦) "ولما رأى الجموع تحنن عليهم لأنهم كانوا معذبين منطرحين مثل الخراف التي لا راعي لها".

+ (عب ٤ : ١٦) "فلنتقبل اذن بثقة الى عرش النعمة لننال رحمة ونجد نعمة للاغاثة في أوانها".

عندما كان نكتاريوس يأوي الى فراشه في ليالي الشتاء الباردة بعد صلاته الحارة ، كثيراً ما كان يفكر بفتيات الشعب الفقيرات المحرومات من الحماية. وكان يتمتم:
-"يا الهي الحنون، تولاّهن بحمايتك".

وكان يقرأ من وقت لآخر بعض العناوين الكبيرة في الصحف، ويطالع الأخبار عن سقطات مأساوية، وعن اخوة يقتتلون من أجل أمور يقولون انها تتعلّق بالشرف، وكان قلبه يدمى. فيتساءل:
-"ربي والهي، كيف تهلك هذه الأرواح دون سبب؟ وكيف يلتقطها عدوّنا الشرير بين مخالبه المدماة؟"

وكان يرغب بكتابة صلاة من أجل هذه النفوس المعذبة، وقصيدة من أعماق القلب من أجل الفتيات الفقيرات اللواتي يعشن دون حماية، وينزلقن في الخطيئة والانحطاط دون أن يدرين. ان كل فتاة هالكة تنتزع بضع صفحات من كتاب شعبها وكتاب الانسانية... وكلهن في هذا الموكب...

ولو تسنى لكل واحدة منهن أن تسلك كما يليق نحو سرّ الزواج، وأن تصبح أماً، لاستطاعت أن تنقل فضائل قلبها العطرة الى جمهور متحدر منها.ويا للويل اذا لم يُدخلوها من "الباب الضيق"، واذا جهلت حياة والدة الاله ولم تطبق وصايا الرب المحسن. أما اذا تقدمت باتجاه الحياة الرهبانية وحملت بعزم الصليب الكريم، فانها تقدّم المثال للكثيرات غيرها من الفتيات، وتضحي شهادةً وتعليماً: شهادة صبر في وسط نيران التجارب. وتنقل الأخبارُ سمعتهن وسيرة صبرهن وسط نيران التجارب، وتفانيهن في سبيل المسيح المخلّص.

ولم يكتب نكتاريوس طوال حياته هذه الصلاة التي كان يحلم بها، بل بقيت مخبأة في قلبه حتى نسمته الأخيرة، الى جانب غيرها من الصلوات لوالدة الاله حامية المؤمنين الحيّة واليومية.

وصار من عادته في الآونة الأخيرة أن يتوجّه على الدوام الى والدة الاله في المرارة كما في الشك والذل. وكانت صلاته اليها كصلاة الطفل لأمه: صلاة وحوار في آن. فكانا يتكلمان معاً بهذه الطريقة كل ليلة تقريباً، فيطيّب الأمل جراحاته.

كان قد تضرع اليها بضع سنوات من أجل تقدم طلابه. والآن كانت هذه الصلاة قد تحققت تقريباً. ودفعة بعد دفعة صارت نخبة من الطلاب تدخل المدرسة، وتتخرّج منها. وكان معظمهم يتحضّرون فعلياً للكهنوت. وكانوا يأتون الى مكتبه ويقرعون بابه بخجل، وقد ظهر الايمان المقدس على وجوههم، ليطلبوا الارشاد على درب الجهاد. وقد تميز بعضهم بوفرة المواهب واستحقوا كل مديح واعجاب. ولا بد أن هؤلاء سوف يعرفون كيف يشقون طريقهم عبر أشواك العالم ليصبحوا ملح الأرض.

كيف يتسنى لهذا الشعب الممتحَن أمرّ المحن أن يستمر ويسير وسط الذئاب الجاحدة والمتكبرة، من دون ملح الأرض هذا، من دون هذه الجبّات المباركة من الرب، وهؤلاء الكهنة الفاضلين والمتواضعين؟

لتتبارك الى الأبد الملكة الكلية القداسة التي استمعت الى صلاته وتناولتها بين يديها لتقدمها الى العرش القدوس بجرأة واصرار. أما هو فكان يقدّم الى أم الاله صلاة جديدة: كان يتوسل من أجل الرهبنة الأرثوذكسية. ان هذه الزهرة العطرة في كنيسة الشرق الأرثوذكسية قد بدأت تذوي وتصفرّ منذ عهد فارماكيدس والبافاريين الذين أتوا مع الملك أوطون. ولم يعد الناس يشهدون رحيل الرهبان الى أقاصي الأرض ليكونوا أمثلة للصبر ومعلّمين للعقيدة الحقيقية، ويتخلّوا عن أنفسهم لكي يحملوا صليباً ثقيلاً...

صحيح أن الأمثلة لم تكن مفقودة. لكن معظم الشعب كان يجهل كنوز الكنيسة بسبب بعض المنشقين والجاحدين والمزوّرين. ولم يعد الناس في ايمانهم وصلواتهم يطلبون غير معاينة العجائب لكي يؤمنوا. وكان الشعب يعبد القديسين الصانعي العجائب الذين يتشفعون من أجله لدى عرش الله

طالبين المعونة والشفاء. لقد عاد الشعب ١٩٠٠ سنة الى الوراء، الى العصر الذي كانت فيه الجموع تنظر الى الرب سائراً بينها بهيئة عبد، شافياً الأمراض.

كانوا بالطبع يجلّون باسيليوس الكبير، ويوحنا الذهبي الفم. الا أنهم كانوا يجهلون عمق تعاليمهما وعظمتها. فان الشفاء والخلاص من براثن الموت هما من الأمور المنظورة الملموسة والمباشرة التي تستدعي اعجاب الشعب الذي كان قد اختبر بنفسه هذه الحقيقة.

لقد بذل نكتاريوس في كتابة مؤلفاته جهداً كبيراً وسهر الليالي الطويلة وعانى الحرمان... ولكن كتبه لم تكن تسترعي الانتباه ولا الدهشة بقدر معجزة واحدة من المعجزات التي أعطي القدرة على القيام بها بنعمة الرب وارادته: كشفاء المرضى عند مسحة الزيت المقدس، وطرد الشياطين.

في جميع الأحوال كانت هذه المعجزات تدهشه هو أيضاً، كان يمتلئ عجباً أمام القوة والنعمة الالهية التي تحملها الكنيسة منذ قرون، وقدرة الروح القدس الفائقة الطبيعة. ولم يكن الشعب للأسقف يميز الفضيلة والباب الضيق الا بهذه الطريقة. وهو لم يكن يريد مطلقاً أن ينسب الى نفسه بهذه السهولة المجد الذي يخص المسيح وحده، رب السماوات والأرض.

وقد عاد من جديد ليتوجّه بصلواته الى والدة الاله من أجل الرهبنة الأرثوذكسية. وكان يفكر في الجبل المقدس، هذا الحصن الروحي للكلية القداسة. لقد كانت تحمي هذا المكان بنفسها منذ قرون، مع كنوزه ومشكلاته ونسّاكه القليلين الأجلاء الذين يحتملون وحدهم مع العذابات الرهيبة ثقل الرحمة الالهية.

ها هو القرن العشرون الذائع الصيت! ها هو يتقدم وسط الدموع والأنين، فخوراً بمقدرات الانسان. لم يكن يخطر بباله أنه من دون التقوى والخضوع لقوانين السماء، ومن دون احترام القيم الروحية والأبدية، سوف تتفتت الحضارة كالبلور وتتساقط كحبيبات الغبار دون أن تترك وراءها غير أرض جرداء حزينة.

وفي احدى الليالي طلب نكتاريوس من التلاميذ الذين يجيدون الترتيل ن يصلّوا أمام أيقونة والدة الاله، وكان هو نفسه يصلّي في قلبه هذه صلاة السرّية. وأمضوا سهرة حافلة بالسعادة والهدوء. وكان كل شيء يتم، حتى الأعشاب. فأشعلوا القناديل والشموع. وقد أعجبه ترتيل التلاميذ وفتنه لدرجة أنه ودّ لو يجثو أمامهم شاكراً. وأحسّ بقلبه يتسع ويصبح كبيراً حدّاً. وامتلأت عيناه بالدموع، وراح يراقب وجوههم بتأثر، فوجدها ممتلئة فرحة كوجوه الشاروبيم، وهم يشعرون بفرح الحياة، فابتهجت روحه لمرآهم، وقال لهم:

– صلّوا اليوم يا أولادي، ليصلِّ كل واحد منكم الى والدة الاله من أجل ن تنمو وتزهر من جديد شجرة الرهبنة الأرثوذكسية ذات الأثمار الرائعة. وإذا تمّ لنا ذلك فان بلادنا ستقوم بأعمال عظيمة".

ثم باركهم الواحد بعد الآخر وطلب منهم المرور على مكتبه في اليوم التالي لكي يقدّم لهم مع الاهداء كتابه الجديد: الخريستولوجيا.

الفصل الواحد والعشرون

+ (مت ١٨ : ١٠ - ١١) "احذروا أن تحتقروا أحد هؤلاء الصغار فاني أقول لكم ان ملائكتهم في السماوات كل حين يعاينون وجه أبي الذي في السماوات. فانما جاء ابن البشر لكي يخلص ما قد هلك".

لقد استعادت المدرسة توازنها في ميادين كثيرة بمعونة الله، على أساس الايمان والصبر، وتخلّصت من الاضطرابات والمشاحنات. وتجنّبت تلك المعارضات اللاذعة التي كانت تترك في القلب أثراً من المرارة. ولا شك في أن المشكلات والهموم والانزعاجات لم تنتهِ. ولا الفضائح الصغيرة منها والكبيرة التي كانت تتسبب بها حدّة طباع بعض التلاميذ، فتصيب نكتاريوس بالحزن العميق.

وبقيت الادارة تؤدي قسطها المعتاد من التعليقات والانتقادات الموجّهة لنكتاريوس، وتتخذ القرارات الأنانية. وقد اعتاد عليها نكتاريوس في النهاية، وصار يتجنب كل أنواع الصراعات وحتى الصغيرة منها، ويفضّل أن يواجه الملاحظات الظالمة والتعديات بالصمت.

وقد حدث أن أدخل أحد المستشارين ـ وهو عضو جديد في المجلس التنفيذي ـ تلميذاً جديداً الى المدرسة، جاعلاً منه مخبراً. ولم يكن هذا التلميذ شريراً، ولا كان يصلح لمهمة جاسوس. ولكنه ظن بأن عضو المجلس واسع النفوذ.وكان يعتبره حاميه والمحسن اليه، ويخضع لمشيئته خضوعاً أعمى لاعتقاده بأن ذلك شرط لنجاحه الشخصي ونجاح عائلته. وقد أوكل اليه المستشار مهمّة سرية جعلته ينتفخ من الغرور. اذ طلب منه أن يراقب في الخفاء كل ما يجري في المدرسة، وكل الأحاديث... وأن ينقلها اليه في السرّ.

انها الأساليب التي يلجأ اليها العدو المخرّب، أمير الظلمات الذي يحاول بشتى الطرق أن يلقي الظلام على العالم، وأن يزرع الفوضى والمرارة.

وكان التلاميذ يشتكون منذ مدة من اهمال المدبّر والطباخ، ويتذمرون فيما بينهم من سوء نوعية الطعام. فوجد المستشار أخيراً السبب الذي كان يبحث عنه! فاستدعى نكتاريوس الى مكتبه، وانفجر في وجهه غاضباً:
-"انه لأمر محزن... انه لمحزن حقاً! فأنت تهتم بالعالم وتهمل هؤلاء الأولاد الذين تركوا عائلاتهم وأتوا الى هذا المكان المبارك طلباً للعلم وللحصول على التنشئة الروحية! لقد حصل لغط كبير في أوساط التلاميذ بخصوص وجبات الطعام. وأنت كعادتك، تبدو وكأنك لا تلاحظ شيئاً من هذا، لأنك كثير الاهتمام بنسائك! على فكرة، ماذا يجري هنا، وكيف تدخل هذه النسوة الى المدرسة ويخرجن بحرية، ويأخذن كل وقتك؟"

فرفع نكتاريوس نظره اليه ولكنه لم يجب بكلمة. وتابع المستشار باصرار:
-"كيف تجيب على هذا؟"

فتمتم نكتاريوس:
-" سأدرس القضية.
-"تدرسها فقط؟"

فأضاف نكتاريوس:
-"سأعالجها".

وخرج نكتاريوس فيما كان المستشار يتابع كلامه، واصفاً الوضع بأسوأ ما يكون. لكن نكتاريوس لم يضف كلمة. وراح يتساءل في نفسه:
-"ما هي هذه القصة عن الطعام؟ وكيف حدث هذا؟"

* * * * * *

قال عنهن : "هذه النسوة.." لقد أتينه يطلبن حمايته... فهل من معقول أن يتخلى عنهن، أو يطردهن؟ كان قد انتقل والده ووالدته وخمسة من اخوته وأخواته الى رحمة الله، ولم يطلبوا منه الكثير في حياتهم، فقط بعض المساعدة من وقت لآخر. وبقي شقيقه خارلمبوس على قيد الحياة. وهو لا ينفك ينجب الأولاد ويجهد لاعالتهم ولكن دون أن يطلب منه أية مساعدة. وحتى الشعب الجاهل والذي لم يتفقه بتعاليم السيد يحسّ بأن من واجبه أن يساعد اخوته وأهله وأصدقاءه المقربين... فكيف يمكنه أن يرفض

مدّ يد العون الى هذه المخلوقات المحرومة، العاجزة عن الدفاع عن نفسها؛ وقد جذبتها تعاليم المسيح فراحت تتشرّب كل كلمة من كلماته، وكل نصيحة من نصائحه المختبَرة؟ أليس لهن روح؟ ألسن أعضاء في عائلة المسيح الصغيرة؟ ألسن ممن سيرثون ملكوت السماوات؟

وأما هو فكاهن، والكاهن يلبس رداء الألم والحب، ولا يملك أن يطرد أحداً، ولا أن يترك أحداً في اليأس. وعلى كل حال فان كريزَنتيا الضريرة كائن مميز، وهي صاحبة روح متواضعة. لقد حُرمت من رؤية الأمور الأرضية، ولكنها حصلت في المقابل على قدرة تأمل سر النعمة الخفي. وكان نكتاريوس يشعر بأنها ستصبح قديسة محاطة بالملائكة. لم تكن متعلمة اذ لم تكن لها عائلة لتعيّن لها مدرِّسة خاصة مثل ايلين كيلر وآني سوليفان. ولم تقرأ في حياتها الرواقيين ولا الأبيقوريين، ولا سمعت بكبار الفنانين الغربيين ولا بالكتّاب الغربيين المشهورين الذين برعوا في الكلام ووضعوا "الروائع الطليعية" في محاولاتهم الباطلة للبحث عن الله مجهول، أو عن أسرار عالم محفوف بالمخاطر. لقد قدّمت ايمانها ببساطة الى الرب الواحد، الكلمة المتجسد، آدم الثاني والمخلّص، وكرّست ذاتها له. وكانت كزهرة الحقول التي تنبت على جانب الطريق.

ألّفت له الأبيات والأناشيد التي لا تجرؤ أن تسمّيها شعراً، الا أن الرب الكليّ القدرة والحكمة يتقبّلها كرائحة البخور، وكانت هذه التقدمة المتواضعة بالنسبة اليه بمثابة كنز لا يثمّن.

هكذا كانت هذه النسوة الطيّبات عنده كشقيقاته، أو كأميرات أرسلتهن اليه السماء. والويل له اذا ازدرى بثقتهن المتواضعة ومطلبهن الصادق. لا، انه لن يتركهن، بل سيزودهن بالشجاعة ويساعدهن بكل قوته. وسوف يعمل على تحقيق حلمه القديم بمساعدتهن في تأسيس دير للعذارى.

وبالطبع فقد كان يضع كل قرار سرّي يتخذه وكل فكرة تراوده حول عمله وحياته، في صلواته المتواصلة وحواره الذي لا ينقطع مع عالمه الداخلي. وقد شغل هذا الموضوع مكاناً أكثر من غيره. ومرّت ليالٍ كثيرة وكانت جميع الدلائل تبشر بالخير في مجال تحقيق هذا الحلم القديم...

* * * * *

فقد وصلت كريزَنتيا وكاترينا في أحد الأيام وبشـّرتاه بأنهما اختارتا جزيرة ايينا. وأخبرتاه بفرح انهما وجدتا أخيراً المكان المناسب لتحقيق هدفهما بعيداً عن ضجيج العالم، لتستطيعا عبادة المحبوب في الصمت والوحدة. وكان هذا المكان في جزيرة ايينا، وعلى بعد ستة كيلومترات ونصف من المدينة. وهو دير قديم ومهجور يدعى "النبع المحيي". وقد أشارت به عليهن سيدة من جزيرة ايينا ترغب هي الأخرى باعتناق الحياة الرهبانية.

وفيما بعد أخبرت الفتاتان نكتاريوس بأنهما وصلتا الى هذا الدير القديم المهدّم بعد السير في دروب وعرة وصخرية لا يقطعها الا الماعز. وعند الوصول تنفست كاترينا بعمق وقالت:

-"هذا المكان ينتمي الى السماء".

كثيراً ما لاحظ نكتاريوس بأن كاترينا تتمتع بموهبة البصيرة، فهي تنطق أحياناً بعبارات ملهَمة وعميقة المعاني. ولكنه لم يكن يعلق على الأمر في البدء ولم يكن ينتبه اليه. وعندما سمع هذه الجملة لم يحرّك ساكناً، وكأنه لم يسمع شيئاً. فقد كان يهتم كثيراً بتأمين سلامة الفتيات حتى يسمح لهن بالسكن في مكان صخري ومقفر يمكن أن يتعرضن فيه لهجمات اللصوص أو الأشرار من كل نوع. فطلب منهن العودة الى ذلك المكان لجمع المزيد من المعلومات حوله والتعرّف الى المنطقة بشكل كامل. فذهبن بالباخرة التي تؤمن رحلات منتظمة، وعدن اليه وقد ازددن حماساً على حماس.

بعد ذلك فان مختار الجزيرة، المدعو دكتور بيباس، دعا نكتاريوس للزيارة. وأبدى له رغبته العارمة في اعادة ترميم الدير القديم. وكان هو أيضاً يبتغي تقديم مساعدته لهم على طريقته: فقد عرض أن يقدّم الأرض والأنقاض مجاناً.

وعندها وجد نكتاريوس نفسه مضطراً للتصرف، وللقيام بهذه الرحلة للتعرّف الى الجزيرة التي كانت خاضعة للاحتلال التركي ثم تحررت، وتألفت فيها حكومة الشهيد كابوديستريا، رئيس وزرائها.

* * * * * *

ولم يكن يكفي أن يصمم على الذهاب!

ففي ذلك الوقت كان أيضاً مريضاً، وقد عانى من الصداع والـــدوار لمدة خمسة عشر يوماً... وكان يشعر بالتعب والانهاك، ويمضي جارّاً قدميه لاعطاء الدروس. وقد أتعبه كثيراً العمل الذي كان يقوم به مكان الكنـــّاس، رغم أن روحه كانت تبتهج لأنه اعتبره فرضاً واجباً عليه.

فقد أصيب الكنـّاس في أحد الأيام بمرض في كليتيه. وقـــد أحسّ بألـــم حاد بينما كان يؤدي عمله في المدرسة. فنقل في الحال الى المستشـفى المقابل حيث خضع لعملية خطيرة ومؤلمة. واضطر للانقطاع عن العمل لمدة شهرين ونصف. وكان نكتاريوس يعرف أن بعضاً مـــن عمّـال المدرسـة يحسدونه على وظيفته، فلم يطلب منهم المساعدة.

وكان الكنـّاس يقطن في باغراتي الواقعة على بعد نصـــف سـاعة مـــن المسير. وأصاب نكتاريوس الحزن العميق لأجلـه، وفكـــر أن الفقـير يتحمّل الكثير من مشقة العيش.

وماذا كان عليه أن يفعل؟ لقد قرر أن ينهض كل يوم عنـــد الفجــر ليكنس المدرسة بنفسه، الى جانب ما كان يقوم به من تنظيف المراحيض التي ينساها العمّال. وكان يجد أنها طريقـــة نسـكية رهبانيـــة، واحـدى المـهام الضرورية جداً عند الراهب. فبالنسبة الى الراهب الأرثوذكسي ليس هنـــاك من عمل مهين أو محتقر من بين كل الأعمال اليومية التي يقوم بها الكهنـــة العاديون لكسب عيشهم. وقد أفضى الى أمين الســـر بأنـــه أعطـــى وظيفـة الكنـّاس لعامل مؤقت يثق به، بينما كان الكنـّاس لوسيان قلقاً جـــداً علـــى وظيفته، ومغتماً لخوفه من الطرد لأنه قد توظف منذ مدة قصيرة. فقد كـــان يصعب أن يجد المرء عملاً في تلك الأيام. ولم يكـن العـــامل يسـتفيد مــن الضمان الاجتماعي، ولا ينتمي الى نقابة. وكان الانسان العاطل عن العمـــل يعاني من الجوع ويتعرّض أحياناً للموت.

ومرّ لوسيان أمام المدرسة بعد ظهر يوم سبت، وكان شاحب الوجه، هزيل الجسم، ضامراً. فنظر الى الداخل ثم ذهب دون كلمة، ودون أن يتمكن نكتاريوس من أن يسأله عن أحواله، الأمر الذي أحزنه. ثم عاد لوسيان فـــي فجر أحد الأيام ودخل من البوابة الكبيرة وهو يود أن يرى الشخص الذي حلّ محله. فقد كان يتألم كثيراً لاضطراره لملازمة البيت. واذ التقى نكتـــاريوس في جناح المدرسة الأيمن، تسمّر في مكانه من الدهشة وارتجفت يداه لرؤيـــة

هذا الشيخ الذي رفع جبّته وانحنى يفرك الأرض بالفرشاة. فقال له نكتاريوس:

-"اقترب يا ابني لوسيان، واسمعني جيداً: لا تخف لأني لن أسلبك وظيفتك. كيف ستعيش من دون عمل؟ وهل أتركك تموت من الجوع لأنك أصبت بالمرض؟ انها لعنة عظيمة أن يكون قلبنا بارداً الى هذا الحد. ولكنني أريد منك أن تعدني بعدم البوح بكلمة واحدة مما رأيته اليوم طالما أنا على قيد الحياة. والا فاني سأواجه المتاعب وأنت ستتعرض لفقدان وظيفتك. أنت تعاني من العوز الشديد وأنا أساعدك، فأنت أخي، اذن ليس هذا بالأمر المستغرب. وقد تضطر يوماً الى تقديم المساعدة اليّ أو الى شخص آخر".

وهنا أجهش لوسيان بالبكاء، ثم انحنى وجثا أمامه وقبّل جبّته.

ليس للتعب أهمية عندما ينبغي القيام بالواجب. وكم وكم من الناس – وخصوصاً من عامة الشعب – يرقـّون ويصبحون طيبين عندما نقدم لهم مثلاً بسيطاً جداً في طيبة النفس، وهي كحبة الرمل اذا قيست بجبل الذبيحة الالهية العظيمة.

كان عليه أن يسافر الى ايينا، والكلام سهل. لكنه كان من جديد فريسة المرض منذ خمسة عشر يوماً.

الفصل الثاني والعشرون

+ (حج ١:٩-١١) "لقد انتظرتم كثيراً فاذا بقليل واستغللتم الى البيت فنفختُ عليه. لماذا يقول رب الجنود لأجل بيتي الذي هو خرب وأنتم مسارعون كل انسان الى بناء بيته. لذلك امتنعت السماءُ فوقكم من الندى ومنعت الأرضُ اتاءها. ودعوتُ بالقحولة على الأرض وعلى الجبال وعلى القمح والسُلاف والزيت وعلى ما تنبت الأرض وعلى البشر والبهائم وعلى كل تعب اليدين".

+ (لو ٤ : ٤١) "وكانت الشياطين أيضاً تخرج من كثيرين وهي تصرخ وتقول: أنت المسيح ابن الله. فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه أنه المسيح".

المكان: جزيرة ايينا.

الزمان: نهاية صيف عام ١٩٠٤.

خليج تسالونيكي يبلل بجذل شواطئ ايغالو ويسيتالا وحتى جزيرة للصيادين ترتفع فيها أنقاض معبد قديم.

وعلى السواحل الغربية كانت المدينة الجديدة التي أصبحت الآن معروفة تمتد بألوانها الباهرة عند سفح سلسلة من التلال والوديان الصغيرة والوهاد والسيول. في ذلك اليوم كانت زرقة السماء صافية وعميقة، لا تتخللها أية بقعة. بالكاد ارتسمت غيمة صغيرة على قمة التلال، بيضاء ونقية، وكأنها تقول للجبل المواجه ولقرية أغيستري الصغيرة: "أنا وحدي في هذا الامتداد الواسع، فلا تخشيا المطر". ولم يكن هناك أي احتمال لهطول المطر. والحقيقة أن السماء لم تكن قد أمطرت منذ ثلاث سنوات ونصف تقريباً، عدا بعض الزخات من وقت لآخر. وكانت التربة عطشى: فكل ما في هذه الأرض يبدو جافاً على امتداد النظر، في الوديان كما على المرتفعات. وبدت الحقول والمزروعات والمراعي كلها صفراء يابسة، والأشجار شاحبة وهي تحتضر في الحدائق المقفلة: كان المشهد صحراوياً. وكانت حجارة السيول تبرق كشرائط بيضاء تتساقط على سجيتها حتى المدينة، أو باتجاه القرية المجاورة، سوفالا، وكأنها خطوط ضيقة لامعة وجافة.

كان الناس في السوق في رواح ومجيء، بانتظار وصول الصيادين بمراكبهم الصغيرة. لم يبقَ غير البحر مصدراً للعيش في هذه المنطقة. كان الشعب كله يعاني من العوز، عدا قلة من الملاكين الأغنياء الذين يعدّون على الأصابع. جميع أشجار الزيتون يبست. وفي كل الأنحاء على التلال ظهرت أثلام الحقول المفلوحة كالجراح الحمراء العميقة، وكأنها حُرثت منذ وقت قصير.

كان معظم الشبان يذهبون الى البيريه بحثاً عن العمل، اما على متن البواخر ذات الرحلات الطويلة، أو عند التجار. وكان الكثيرون منهم يهاجرون الى القسطنطينية وبليستي وأوديسا. والعديد يبحرون مع صيادي الاسفنج.

كان الناس في السوق يروحون ويجيئون: فقراء مساكين كانوا يرثون في جيوبهم بعض النقود التي تحمل رسم الملك جورج الأول، والتي لا تكاد تكفي لشراء علبة صغيرة من البطاطا المقلية. وكان بينهم مراهق يدعى اسبيرو الساحر: وهو شاب كان من عادته أن ينبطح أرضاً ويتنبأ مغمض العينين بكل ما سوف يحدث من أمور مستغربة. فسقط اسبيرو هذا فجأة أمام باب الصيدلية، شاحب الوجه، منهكاً، وهو يصرخ:
-"لقد وصل... وصل الأسقف. اركضوا لملاقاته. لقد وصل القديس الذي سوف ينقذ الجزيرة".

فحاول روكو، أحد عمالقة جزيرة بوروس، ومن قدامى صيادي الاسفنج، أن يبعده ويسكته، ولكن دون جدوى. فقد بقي اسبيرو منبطحاً على بطنه، مغمض العينين وهو يتابع الصراخ:
-"اركضوا... لقد وصل الأسقف".

فأحاطت به جمهرة من الفضوليين: بحارين عاطلين عن العمل، وصيادين، وصبيان المحلات، وحتى بعض نساء حي التلة. ثم تزايد عدد الفضوليين شيئاً فشيئاً، يستمع بعضهم بصمت وآخرون يهزأون.

وكان كاهن البلدة، الأب ميخائيل، يمر آنذاك في الزقاق المؤدي الى كنيسة الكلية القداسة، واذ رآه البعض ركضوا اليه وأخبروه بما يحدث:
-"يا أبتِ ان اسبيرو يتنبأ هذه المرة بخصوص أسقف. ويقول ان هناك أسقفاً سوف ينقذ الجزيرة".

فقطّب الكاهن جبينه، ورفع جبّته وهرع نحو حشد الفضوليين الذين ابتعدوا ليدعوه يمرّ. وكان اسبيرو لا يزال منبطحاً على بطنه أمام باب الصيدلية وهو يتابع صراخه:
-"وصل الأسقف... لقد أتى من مدرسة الأخوين ريزاريو. أشفق الله على أرضنا. وصل أسقف المدن الخمس".

فراح الأب ميخائيل يراقب بدقة وجه الشاب الشاحب وقد بدت الرغوة تخرج من فمه. وبقي واقفاً في وسط جماعة الفضوليين ينظر متلبكاً ولا يعرف ما العمل. وكان هذا النوع من النوبات يستمر أحياناً لحوالي ساعتين.

كان والدا اسبيرو مزارعين فقيرين جداً، ثم توظفا كعاملين في البلدية. وكانا يتعبان كثيراً في عملهما بينما تفرّق اخوته كل في جهة.

هزّ الأب ميخائيل رأسه ثم شقّ طريقه مخترقاً الحشد باتجاه المرفأ. وفي تلك اللحظة بالذات كانت السفينة تدخل بجلال الى المرفأ آتية من البيريه.ونظر الأب ميخائيل الى صاري السفينة ورأى الراية التي كان القبطان يرفعها عندما ينقل شخصاً رفيع المستوى. فاقترب وراح ينظر الى الركاب الذين ينزلون. وبعد قليل وجد نفسه في حضرة الأسقف "المنفي" المشهور، الذي كان يلقي الموعظات في البيريه، ومدير مدرسة ريزاريو. فانحنى أمامه باحترام وقبّل يده. وبادره:
-"أهلاً وسهلاً بك يا صاحب السيادة في ايينا. هل أنت تشرّفنا للمرة الأولى؟

فنظر اليه نكتاريوس وهو يبتسم ابتسامته اللطيفة والبسيطة، وأجاب:
-"انها المرة الأولى.
-"تفضل الى بيتي، وسوف أعلن عن حضورك.
-"لا داعي لذلك... سوف أنزل في الفندق. كما يجب أن أذهب الى زانطة، الى المدينة القديمة.
-"حسناً سأتكفل بهذا الأمر يا صاحب السيادة. الا أن...
-"هل تريد أن تطلب مني شيئاً، أم انك تحاول أن تعلمني بأمر ما؟
-"أطلب المعذرة. أجل... كلا... حسناً، لقد حصل حادث بالقرب من هنا وقد شوّشنا.
-"وما هو؟

-"هناك شاب، مراهق من عائلة شديدة الفقر، كثيراً ما يقع أرضاً في وسط السوق ويغمض عينيه ويتنبأ. وهو الآن على هذه الحال. وقد سمعته يصرخ منذ قليل بأنك ستصل وتنقذ بلدنا. انه يقول عنك انك رجل الله... وقديس.
-"وأين هو بالضبط هذا الشاب؟
-"تفضل من هنا يا صاحب السيادة ".

وتقدما بعض مئات الخطوات وانحرفا نحو اليمين ثم نحو الشمال، فوصلا الى حشد الفضوليين الذين تباعدوا أمامهما. وكان اسبيرو ما زال أمام باب الصيدلية وهو يتابع تنبؤاته.
-"لقد وصل الأسقف... لقد أتى لينقذ البلد. سوف يشيد كنيسة. سوف يؤسس ديراً كبيراً جداً".

ولم تبدر عن نكتاريوس غير حركة بسيطة، ثم جمد في مكانه. ورفع وجهه الى السماء وتمتمت شفتاه بعض الكلمات، فيما توقفت من حوله التعليقات والمناقشات، وحل الصمت. فتناول نكتاريوس عصاه – وكانت العلامة الوحيدة التي تشير الى رتبته – ووضعها أمام فم الشاب، وقال:
-"أيها الروح الثعبان، أيها الروح الشرير والدنس، آمرك باسم المسيح المصلوب أن تخرج من هذا الشاب!"

وللوقت زفر اسبيرو ونهض وفتح عينيه. ثم انحنى آلياً وقبل اليد التي كانت تمسك العصا. فسأله نكتاريوس:
-"ما اسمك؟
-"اسبيرو.
-"كم تبلغ من العمر؟
-"خمس عشرة سنة على ما أعتقد!
-"وهل تذهب الى المدرسة؟
-"كنت أذهب الى المدرسة، الا اني اضطررت الى الانقطاع عنها بسبب هذه الاغماءات.
-"حسناً، لن تزعجك هذه الاغماءات بعد اليوم يا ولدي. ثابر على الدرس لأن هذا سيعود عليك بالفائدة في المستقبل.
-"أجل."

ورفع نكتاريوس يده وباركه وصرفه قائلا:
-"اذهب بسلام".

الفصل الثالث والعشرون

+ (لو ٥:١٥-١٦) "فازداد خبره شيوعاً واجتمع اليه كثير من الجموع ليستمعوا ويشفوا من أمراضهم. وأما هو فكان يعتزل في القفر ويصلّي".

أشاعت كل هذه الأحداث الاضطراب في المدينة. وراح الجميع يتناقلون القصة المدهشة، قصة الأسقف "المنفي" الذي أتى من أثينا وأسكت اسبيرو نهائياً بصلاته. وكان اسبيرو قد تنبأ منذ عام مضى، وفي الفترة نفسها من السنة، بأن الجفاف سوف يستمر لمدة طويلة، حتى تموت الأشجار وتيبس الحقول وتجف الآبار الى الأبد.

ولم يقبل نكتاريوس بقضاء الليل عند الأب ميخائيل، اذ لم يرد أن يكون عبئاً على أحد. بل ارتاح في الفندق ونهض في الصباح الباكر. واستطاع بمعونة الأب ميخائيل أن يجد مطية للذهاب الى زانطا في المدينة القديمة، وهو المكان الذي اختارته تلميذاته الورعات ليكون مقراً لحياتهن الرهبانية.

ولم يستطع الكاهن أن يرافقهما لاضطراره لاقامة احدى الخدم الليتورجية. وسار نكتاريوس برفقة صاحب الحمار مجتازاً شوارع المدينة، فلاحظ اضطراباً غريباً بين الناس.

كان شعب ايينا ميالاً الى الحسد والنميمة والاعتقاد بالخرافات. ولقد اعتقدوا في الواقع أن أرضهم القديمة ملعونة، وأنها لن تعود أبداً الى الازدهار ، بل ستتحول الى صحراء. لكن العكس قد تبيّن لهم الآن بشكل واضح وأكيد لا شك فيه ولا تردد.

ولدى مرور نكتاريوس، كانت الشوارع تكتظ بالناس الذين يقولون لمرآه:

-"ها هو. انه بنفسه. انظروا، هذا أمر عجيب، اذ لا تبدو عليه اطلاقاً هيئة الأسقف.

-"انه يبدو كالرهبان.

-"انظروا الى العصا. انها العصا التي شفت اسبيرو كاتسيليس".

وكانت هناك امرأة تدعى رينا، وكانت مصابة بنزف الدم منذ حوالي ست سنوات. وقد هزلت كثيراً حتى أصبحت كالهيكل العظمي، دون أن يستطيع الأطباء شفاءها. وما ان رأت الحمار يقترب ويمر أمام بيتها، حتى ركضت وارتمت أمام نكتاريوس، والتقطت جبّته وقبلتها صارخة:
-"يا أسقفي! أيها الشيخ القديس".

فنظر اليها نكتاريوس بحنان وباركها.

وللحال أحست بالقوة تدب في جسدها فجمدت في مكانها لوهلة وشعرت بأن نزف دمها قد توقف. فراحت تصرخ:
-تبارك الرب! تبارك الرب! أيتها العذراء القديسة".

وتلا الحادث استغراب عام وبعض الارتباك.

ولكن الحمار كان يتابع تقدمه في الدروب المحدودة بالأشواك والوهاد. وكان صاحب الحمار يمشي وراءه، وهما يقتربان من زانطا.

الفصل الرابع والعشرون

+ (٢ مك ٢ : ٧) "فلما أعلم بذلك ارميا لامهم وقال ان هذا الموضع سيبقى مجهولاً الى أن يجمع الله شمل الشعب ويرحمهم".

أحبّ نكتاريوس المكان حباً عظيماً. وسجد باحترام عند وصوله. وصلّى وتكلم مع أسقف ابينا القديم، القديس ديونيسيوس، كمن يحاور صديقاً. ذلك القديس الذي حمى وقتاً ما قاتل شقيقه، وخلّصه من الموت.

والحقيقة أن الشخصيات العظيمة الشأن في الكنيسة الأرثوذكسية عديدة جداً. والذي يريد أن يفتح عينيه يرى من خلال اشعاعها عظمة عمل الخالق.

وفي مكان ما، في مواجهة التلة، وجد نكتاريوس أنقاض الدير القديم الذي اختارته تلميذاته. في الماضي كان يعيش فيه بعض الرهبان. وهو مكان متناغم، مليء بالسكينة والشاعرية.

فاستقبلته امرأة عجوز تدعى مادلين، وهي بالأصل من جزيرة هيدرا، أرملة غرق زوجها البحّار منذ مدة طويلة بالقرب من مضيق جبل طارق، في بيبيسكي. وقد أتت لتعيش في بيت صغير بالقرب من المكان حياةً تكاد تكون رهبانية. وقد دعته الى بيتها وقدّمت له القهوة اذ وجدته شديد التعب من جراء السفر. وقد سألها نكتاريوس مباشرة بعد أن وجد فيها الكثير من البساطة واللطف:

-"من يملك هذه الأرض؟

-"انها ملك البلدية... هل أعجبتك؟

-"انها ليست ببعيدة عن المدينة، ولا بد أنها مشمولة بحماية رجال الشرطة.

-"طبعاً. ولكن لم يعد هنا لصوص ولا مجرمون. فأنا أسكن في هذا المكان منذ أكثر من ست سنوات، ولا أرى الا بعض الثعالب من وقت لآخر".

فسأل نكتاريوس بصوت خافت:

-"وهل تقبل البلدية بتقديم هذه الأرض لتشييد دير عليها؟

-"لا تقلق لهذا الأمر يا صاحب السيادة. فان المختار، السيد بيبيـــاس، وهـــو أيضاً طبيب ممتاز، يرغب في رؤية دير جيد في هذا المكان. انه رجل تقـــيّ وسوف تتأكد بنفسك من هذا عندما نذهب معاً لرؤيته".

وقد استقبله المختار في اليوم التالي، وهو الذي دعاه في الواقع للغاية نفسها. فرحّب به بكثير من الحفاوة والرقة. ووعده بتقديـــم الأرض رســـمياً. وقال:

-"ان رغبتي يا صاحب السيادة هي في اعادة تشييد هذا الدير بأي ثمن".وعاد نكتاريوس الى رصيف الميناء ينتظر وصول سفينة العـــودة. وكـــان يشـــعر براحة نفسية كبيرة. اجل، ان هذا المكان مدهش حقاً. وسوف يتســـنى لـــهذه النفوس الطيبة، هذه الزهرات الصغيرة في المسيح، أن تجد فيه مأوى للصلاة والسكينة.

وبدأت مشكلة جديدة ترهق كتفيه الهزيلتين، ولم يعرف كيف يجد لـــها حلاً: انها مسألة نقله الى ايينا، فان ارشاد المبتدئات الروحي ليـــس بـــالأمر سهل. ولكنه يتكل على معونة الرب هذه المرة أيضاً: لقد أصبح في الثامنـــة والخمسين من عمره. وكان متأكداً من ذلك بحسب خبرته الطويلـــة. وفيمـــا هـــو يتأمل منظر التلال المواجهة، لاقاه جمع من سكان ايينا، وفي طليعتـــهم مختار الطيّب والورع. وسمع من يقول له:

- صاحب السيادة...
- نعم.
- عذرنا لازعاجك... ان لزملائي في العمل طلباً عند حضرتكم".

فتأملهم نكتاريوس الواحد بعد الآخر بعاطفـــة أبويـــة: كـــانوا كلـــهم متقدمين في العمر، وقد لحقهم بعض الشبان، وكان معظمهم يرتـــدون ثيابـــاً غير لائقة. فتكلم أحدهم، وهو أصلع، قصير القامة وسمين. فقال:

-"قد لاحظنا أن الله وهبك مقدرة ما..."

ففاطعه نكتاريوس:

- عذرني يا سيدي، فأنا أعتقد بأن كـــل مســـيحي اختـــبر احســـان الـــرب المخلّص وابتغى مساعدة قريبه، يتمتع بهذه المقدرة".

فتابع الرجل السمين والقصير القامة:

-"نعم... انك على حق، ونحن لنا شفيع هو القديس ديونيسيوس. ولكننا شعب لفحته الأهوية، فأصبحنا قساة القلوب. ويبدو أن شفيعنا قد لعننا: اذ لم تمطر السماء على جزيرتنا منذ أكثر من ثلاث سنوات ونصف يا صاحب السيادة. والجزيرة في طريقها الى الهلاك. انها يابسة تماماً وكل سنة يسوؤ الوضع أكثر. لذلك جئنا نرجوك يا صاحب السيادة".

فابتسم نكتاريوس بطيبة وقال:
-"ان القديسين يا عزيزي هم في السماء، في الكنيسة الظافرة. وهم يصلّون لأجلنا أمام عرش الرب. انهم يصلّون ولا يلعنون أحداً.
-"حسناً. ولكن صلّ أنت أيضاً، صلّ كما تعلم، لكي يرأف الله بنا. لقد أخبرونا البارحة بالمعجزات التي قمت بها...
-"أنا قمت بمعجزات؟ أنت مخطئ! فأنا لم أقم بأية معجزة. واذا كنت تتكلم عن ذلك الشاب، فيكفي أن تقرأ قليلاً في الكتاب المقدس. فعلى الكاهن يا عزيزي أن يكون الخادم الأمين للرب، وينفذ ارادته بحرفيتها. وفي جميع الأحوال فاني سأعود اليكم في الأحد القادم اذا شاء الله. وسوف نصلّي كلنا معاً في كاتدرائيتكم. وأرجو أن يرسل الله المطر، بما أنه كليّ الصلاح.
-"نشكرك يا صاحب السيادة. نشكرك جزيل الشكر. لتكن سنوك عديدة! تباركت هذه الساعة وهذه اللحظة. نرجو لك سفراً سعيداً."

* * * * *

وقد وفى نكتاريوس بوعده. فوهبه الله الكليّ الصلاح الصحة والرغبة بالسفر من جديد للقيام بجولة في خليج سالونيك. بدأ يستلطف هذه الجزيرة. وصار يفكر فيها أحياناً كثيرة، ويكتشف بساطتها وانزواءها. وأحسَ كأنها موطنه الثاني، يفتح شواطئه وتلاله كالأجنحة لاستقباله.

كم هي سرية في الحقيقة رحلتنا على هذه الأرض! ان القداس الالهي الذي أقيم في كاتدرائية رقاد السيدة لا ينسى. كان الجميع حاضراً تقريباً: الصغار والكبار، الشيوخ والشبّان، وكانوا يشاركون في الصلاة بورع كبير. وبعد انتهاء القداس طلب منهم نكتاريوس أن يركعوا، بينما راح يتلو الطلبات من أجل المطر، وكانوا يردّون عليها بالقول: "يا رب ارحم" بصوت واحد وقلب واحد. لدرجة أن الكاتدرائية بدت وكأنها تهتز بأسرها ومعها الجزيرة بكاملها.

وعندما حلّ الظهر، استأجر نكتاريوس مطية وعاد من جديد الى زانطا، الى المدينة القديمة. ولحسن حظه أن موعد السفينة اضطره الى العودة بسرعة. لأن السماء اكفهرت في حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، وفجأة حلّ الظلام. ثم انفجر الرعد العنيف مصحوباً بالبرق الذي راح يرسم على السماء خطوطاً كأنها سلسلة من الماس. وقد أصابت الصاعقة شجرة من أشجار الغابة فانشقّت الى شطرين، وتلا الرعدَ صمت عميق تبعه حفيف يشبه صوت سكب دلاء من أعلى القرميد الى الشارع. وبدأت السماء تمطر دون توقف. وكان نكتاريوس في مقصورته داخل السفينة، فراح يردد:

-"المجد للرب! المجد للرب!"

كانت الأمطار غزيرة ومفاجئة، لكن البحر ظل هادئاً، فقد انقطع الهواء تماماً. وراح نكتاريوس يتأمل طوفان المياه من نافذته، ويؤلف في الذهن ذوكسولوجيات حارة الى الثالوث القدوس الرب المحيي. ولم يكن قد رأى في حياته مطراً بهذه الغزارة. لقد انفتحت السماوات في الحقيقة!

"عظيم أنت يا رب، وعظيمة أفعالك، وليس من قول يفي بتسبيح عجائبك!"

الفصل الخامس والعشرون

+ (دا ٣ : ٣٨-٣٩) "وليس لنا في هذا الزمان رئيس ولا نبي ولا قائد ولا محرقة ولا ذبيحة ولا تقدمة ولا بخور ولا موضع لتقريب البواكير أمامك ولنيل رحمتك. ولكن لانسحاق نفوسنا وتواضع أرواحنا اقبلنا وكمحرقات الكباش والثيران وربوات الحملان السمان..."

كانت كريزَنتيا الضريرة وصديقتها كاترينا على استعداد تام لالقاء مرساتهما. فجاءتا الى نكتاريوس طلباً لبركته، ثم سافرتا مباشرة الى ايينا. وقد تدبرتا في البداية أمر مكوثهما عند بعض معارفهما من نساء ايينا. بانتظار أن تقطنا فيما بعد في منزل مادلين الأرملة.

وقد ذهب نكتاريوس ثلاث مرات الى شارع فيلوتيي طالباً مقابلة ثيوكليطس، متروبوليت أثينا الذي خلف بروكوبس. وكان مزمعاً أن يطلب الاذن الرسمي من أجل اعادة بناء الدير القديم.

منذ أيام كان قد بدأ الصلاة في كنيسة المدرسة. وكان يصلي من أعماق قلبه، وفي النهاية التجأ كعادته الى الكلية القداسة لكي تتشفع من أجل تحقيق هذا الهدف. وعندما كان يعجز عن النوم، كان يتناول ورقة وقلماً ويكتب بعض الأناشيد:

"يا والدة الاله الكلية الطهر والأم المباركة،
أنت الممجّدة من الأجناد الملائكية،
والكتاب الذي خطّه الله، ومدحة آبائنا،
مجد الرسل وفرح الآباء المتوشحين بالله..."

وفي احدى الأمسيات في بداية تشرين الأول من عام ١٩٠٤، حين كان يؤلف البيت التالي: "يا والدة الاله العذراء، السلام عليك يا مريم الممتلئة نعمة..." فوجئ بطرقات خفرة على باب غرفته، وكان الطارق كوستي ساكوبولوس. فسأله بقلق:

-"ماذا يحدث يا كوستي؟ هل من خطب؟
-"كلا يا صاحب السيادة والحمد لله.
-"اذن ما الأمر؟

-يجب أن أعترف لك بأنني أراقبك منذ مدة، ولا أعرف كيف أعبّر عن حبي، ولكني جزع وقلق.
-لماذا يا ولدي العزيز؟
-لأنك كنت متعباً بالأصل بسبب واجباتك في المدرسة ومشكلات الناس، وكل الشعب الذي يحيطك ويأتيك من المدينتين، الى جانب القداديس الالهية والمواعظ، والخدم التي يوكلها اليك المجمع المقدس والتي تزيد عدداً يوماً بعد يوم... وكأن كل ذلك لا يكفيك، فقد جلبت لنفسك هموم اثينا أيضاً. فماذا سيحصل بك الآن؟ لقد أكد لي طبيب المدرسة بأن صحتك منهكة، وأن الشيخوخة على الأبواب وأن...
-ألهذا السبب لم تستطع النوم حتى هذه الساعة يا كوستي؟ ولهذا السبب جئت اليّ في خلوتي؟
-اني أسألك المغفرة يا سيدي، ولكن...
-اسمع يا ولدي كوستي: لقد تأسست كنيستنا من قبل الثالوث القدوس.وعندما تفتح أبواب السماء، تهبط علينا الحسنات الالهية. ولكن المؤسف أن نكبات كثيرة أصابت كنيستنا: اذ لم يعد من وجود لأمثال القديسين باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وغريغوريوس... ولا ثيودوروس الأسطوديتي ولا خرمينوس... انها اليوم ضعيفة ولا قوة لها لاجتذاب الخطأة اليها. تخيل في نفسك المسؤولية التي ستقع على عاتقي أمام الله المحسن اليّ لو اني أصبحت شريكا؟ لحسن الحظ أن لكل انسان مكانه! اني أبكي وأتحسّر على نقص الأديار الحقيقية وأتألم في العمق بسبب تدهور أديار جبل آثوس. وقد صلّيت اليوم من كل قلبي الى الرب وقلت له: أنت تعرف يا الهي انني لا أملك القوة ولا السلطة لتأسيس الأديار التي هي المراكز الروحية لكنيستنا الأرثوذكسية. ولكن الظروف شاءت أخيراً أن أتعهد بضع فتيات بالارشاد الروحي، وأرغب بأن أهديك ديراً مقدساً للعذارى في اثينا، وهي تقدمة شبيهة ببعض الاخضرار وقليلا من الأزهار البرية. فاذا قبلت تقدمتي هذه، فأرجوك أن تعرّفني قرارك. سوف أعرفه من خلال قرار متروبوليت أثينا. فاذا عارض الأمر عرفت بأنك لم تقبل محاولتي المتواضعة، وأنها لم تحز رضاك. ولكني أتضرع اليك أن تسهر على هذه الفتيات المسكينات البريئات".

فقاطعه كوستي قائلا:
-يا صاحب السيادة، هل عند هذه الفتيات المال لتشييد ديرهن؟
-لا تشغل بالك بهذا يا كوستي، فالرب سيتدبر الأمر. ولقد علمتني الخبرة حتى الآن أن الأعمال الروحية المرتكزة على الوسائل المادية أو القدرات الانسانية لا تتحقق.

-"وماذا سيحل بصحتك؟
-"سوف تتحسن هي أيضاً. فاذا كان يـروق للـرب تأسـيس هـذا الديـر، فسيمنحني الصحة وكل ما هو لازم.
-"وكيف ستتدبر أمرك في التنقـل بين أثينا وايينا؟"

فابتسم نكتاريوس ومدّ يده باتجاه المكتبة في حركة مبهمة، وقال:
-"كم بقي لي من سنوات التعليم؟ سوف أعتزل بالتأكيد. وسأتمكن أخيراً من اعتناق الحياة الرهبانية. لقد كلمتك بالأمر منذ أربع سنوات، ألا تذكر ذلك؟"

واحمرّ وجه كوستي وامتلأت عيناه بالدموع. وقال:
-"وأنا، ماذا سيحل بي يا صاحب السـيادة؟ وكيـف سـأعيش بعيـداً عـن قداستك؟... سأكون كالقصبة بجوار النهر... سوف يطردونني أنا أيضاً مـن ريزاريو. وعندها...
-"ولكنك ما زلت مسؤولاً عن عائلتك، كما كنت تدّعي دائماً باصرار. لمـاذا لا تصبح كاهناً يا كوستي؟"

ولم يرد كوستي، بل ساد صمت طويل... ثم قال:
-"لا أستطيع يا صاحب السيادة. اذ أشعر بأن لا غنى لعائلتي عن وجـودي بقربهم، وبقرب والدي العجوز المتعب. ولا أخفي عليك أنني أتـردد أيضـاً بسبب طريقة سير الأمور في الكنيسة اليوم... وأخاف.
-"أنت مخطئ. وعلى كل حال فقد تكلمنا في الموضوع كثيراً ومطـوّلاً، اذا كنت تذكر، ولن أحاول أن أجعلك تغيّر رأيك الليلة. أشعر بأنك غير مسـتعد لحمل صليب أكثر ثقلاً!... وفي جميع الأحوال لا تخف، فلن أتركك وحـدك. لكن كم مرة أخبرتك وبرهنت لك أن حياة المسيحي الحقيقـي ومصـيره لا يتعلـقان الا بالرب وحده؟"

فأخذ كوستي نفساً عميقاً وتنهّد. ثم تمتم:
-"ما زلت بعد في البداية. أحياناً أشعر بالحزن وأحياناً أخـرى بـالخوف. فالأيام الحاضرة صعبة جداً. وهذا العصر مليء بالبلبلة".

وهنا نظر نكتاريوس الى ساعته وانتفض. ثم انحنى علـى كوسـتي بحنان أبوي وقاده بلطف الى الباب قائلاً له:
-"أدِّ صلاتك واذهب الى النوم دون أن تفكر بشيء. يكفي كل يـوم شـرّه. وسأصلـّي الى الرب ليمنحك الليلة نوماً خفيفاً تتعزّى فيه نفسك".

الفصل السادس والعشرون

+ (في ١ : ٩-١٠) "وهذه صلاتي أن تزداد محبتكم أكثر فأكثر في المعرفة وكل ادراك حتى تختبروا ما الأفضل لكي تكونوا مخلصين وبلا عثرة الى يوم المسيح".

استقبل ثيوكليطس نكتاريوس بكثير من الحفاوة. وقبّله وأجلسه واستمع اليه وهو يخبره بكل ما قام به من أجل اعادة تشييد دير ايينا. وبدا متحمساً للفكرة. وقال نكتاريوس:

-"هناك أيضاً سيدة ورعة تدعى ألكسندرا، وهي ترغب ببناء كنيسة في ذلك المكان. فاذا أذنتم لي وكانت هذه مشيئة الرب، فسوف أعود الى هناك بعد عيد الفصح لوضع حجر الأساس."

فأجاب ثيوكليطس:

-"بكل سرور يا أخي الجليل نكتاريوس. أنا أوافقك بالطبع وأشجعك أيضاً. وسوف أهتم بالحصول على اعتراف المجمع المقدس بهذا الدير، تماماً كما بالنسبة الى دير كالاماتا.

_"أشكرك من كل قلبي.

-"لا تشكرني، فأنا لا أقوم الا بواجبي. وعلى كل حال فأنا أريد أن أعبّر لك عن دهشتي واعجابي بك لأنك ما زلت قادراً على الاهتمام بمثل هذه القضايا. ان كهنة هذا العصر كسالى. وحتى الشمامسة، فانهم لا يبذلون هذا القدر من الجهد، بل انهم قد يعتبرون هذه الأمور تافهة ودون أهمية. متى ستحصل مباشرة البناء؟

- نرجو أن يتسنى لنا ذلك في نهاية العام، أو بعد ذلك بقليل.

-حسناً، سوف أرسل لكم اذن بعض فتيات اسبارطا التقيّات لشغل المراكز الشاغرة."

فأجاب نكتاريوس:

- هذا شرف عظيم لنا يا صاحب السيادة. هل ترضى بمرافقتي في أحد الأيام الى زانطا في الجزيرة، لمعاينة المكان شخصياً؟

- بالطبع وبكل سرور، ولكن بعد بضعة أسابيع، فأنا منشغل كثيراً في هذه المدة. وسوف أعلمك برغبتي لاحقاً..."

وأحسّ نكتاريوس أنه يطير من الفرح. وانحنى ليقبل يد المتروبوليت الا انه أبعدها. ثم رافقه حتى السلّم وقال له بصوت منخفض:
-"عش طويلاً يا نكتاريوس!"

ومضى نكتاريوس بخطى خفيفة وكأن قدميه لا تلامسان الأرض. وخرج من شارع فيلوتيي الموحل لأن المطر هطل منذ وقت قصير. وما أن وصل الى المدرسة ودخل غرفته حتى تناول ورقة وكتب في الحال الرسالة التالية:

"أثينا في ١٩ تشرين الأول ١٩٠٤

بناتي الغاليات في الرب:

افرحن في الرب. اذ أعلن لكنّ بفرح أن الله قد كشف لنا ارادته المقدسة بخصوص تشييد الدير: لقد قبل أن يشيَّد هذا الدير ويشعّ. ولم يبارك ثيوكليطس هذا العمل فحسب، بل انه قد أخذه تحت رعايته أيضاً. وقد قال لي انه سوف يرسل لنا بعض الفتيات من اسبارطا بعد الانتهاء من تشييد الدير. وحتى انه قبل دعوتي لزيارة الدير برفقتي. وقد أعلمته برغبة ألكسندرا في بناء كنيسة، وبقدومي لوضع حجر الأساس بعد عيد الفصح، فوافق على هذا أيضاً. في كل ذلك تظهر لنا رأفة الله علينا واستجابته لصلواتكن.

وتقبلن في النهاية تمنياتي الأبوية وبركاتي وافرحن في الرب".

وما ان ذيّل الرسالة بتوقيعه حتى وصل البوّاب ليعلمه بقدوم وفد من الزوار من ايينا، وهم يطلبون رؤيته. فتحيّر بعض الشيء وهو يقول للبوّاب:
-"دعهم يدخلون".

وعرف الأشخاص الخمسة أو الستة الذين دخلوا مكتبه الواحد بعد الآخر. وتذكر أنه قد رآهم في الجزيرة، ومن بينهم عرف الرجل الأصلع السمين والقصير القامة الذي كان أول من طلب اليه الصلاة من أجل المطر. فتكلم من جديد:
-"لقد جئناك يا صاحب السيادة لنعلمك بأننا نكبنا الآن بافراط من نوع آخر.
-"ماذا تعني؟

-"ان السماء تمطر. انها تمطر دون توقف. وهي تتوقف أحياناً لساعات، ثم تعود بأكثر غزارة. ان الأنهار تطوف، ومياه البحر المحيطة بالجزيرة تبدو موحلة. وقد غمرت المياه بعض الأقبية. ونحن الآن نخشى الغرق!"

فتمتم نكتاريوس:

-"هذا غريب!"

وكان يضحك في السر، فقد وجد القصة مسلية جداً، ولكنه تابع بلطف:

-" لا تخشوا شيئاً.

-"أسرع يا صاحب السيادة. أسرع واتلُ صلاة لكي يتوقف هذا الطوفان. فنحن لم نطلب كل هذا المطر".

ثم ساد الصمت الذي قطعه نكتاريوس قائلا:

-"لا داعي لأن أصلّي، فالله يعرف ما يفعل. بعد ثلاث سنوات ونصف من الجفاف... كيف تريدون أن تمتلئ آباركم، وأن ترتوي حقولكم؟ لا تخشوا شيئاً".

فسأله أحد المزارعين بصوت مرتجف، وهو شاب طويل القامة، ضامر الجسم:

-"هل تعتقد بأن المطر سيتوقف؟ فأنا أجد أن السماء هنا في أثينا تمطر رذاذاً فقط، وأقل بكثير من هناك.

-"سوف يتوقف المطر. وستنعمون بالازدهار والسعادة".

ثم أجلسهم وقدّم لهم القهوة والكعك. وقد استفاد من وجودهم ليعرف منهم المزيد عن الجزيرة.

* * * *

وما ان خرج سكان الجزيرة حتى سمع نكتاريوس طرقاً خجولاً على بابه. واذ فتح وجد أمامه شاباً يلبس الجبة. كان قصير القامة بعض شيء، ناحلاً، أسود الشعر، وقد ترك لحيته.وكانت عيناه الكبيرتان تشعان الايمان والطهارة والطيبة. وقد عرف نكتاريوس الشماس جرفاسيوس

باراسكيفوبولوس*. وكان تلميذاً مجتهداً جداً، ينهي السنة الأخيرة من دراسته بتفوق. وكان نكتاريوس يكنّ له الاعجاب بشكل خاص، فمنحه الاذن بزيارته في مكتبه بحرية. وسأله:

-"ماذا يحدث أيها الشماس؟

-"اسمح لي أيها المدير المحترم أن أزعجك بخصوص هذه اللعبة الجديدة...

_"أية لعبة جديدة؟ أنا لا أذكرها.

-"انها هذه اللعبة التي تستخدم فيها طابة من الكاوتشوك، ويطلق عليها اسم "كرة القدم".

-"وما هي هذه اللعبة بالتحديد؟

-"يبدو أنها تقوم على مجموعتين متنافستين من اللاعبين. ويحبها التلاميذ كثيراً. انهم مشغوفون بها. وأرى أنها تسليهم.

-"آه نعم تذكرت الآن. "كرة القدم"... انها لعبة انكليزية الأصل. واعتقد أن اللاعبين يركضون كثيراً، ويتعرّقون، ويصرخون، ويركلون دون توقف... ويصبح فكرهم محصوراً في أقدامهم. واعتقد أني منعت هذه اللعبة منذ بعض الوقت.

-"لكنهم يستطيعون أن يلعبوا دون صراخ. وأنا لا أجد هذه اللعبة خطيرة. فلماذا لا تسمح لهم يا سيدي بقليل من المتعة وببعض التسلية، طالما أنهم ما زالوا على مقاعد الدراسة؟... أتوسل اليك من كل قلبي أن تسمح لهم بممارسة هذه اللعبة من وقت لآخر، بعد درس الرياضة".

رفع نكتاريوس رأسه وتأمل هذا التلميذ ملياً وابتسم ابتسامته المعهودة، ثم تمتم:

-"أنا موافق يا جرفاسيوس، اذا كنت أنت شخصياً تكفل زملاءك.

-"أجل أنا أكفلهم أيها المدير المحترم."

وبعد صمت قصير سأله نكتاريوس:

-"قل لي، هل تنهي دراستك هذا العام؟

-"باذنه تعالى يا صاحب السيادة.

-"وهل ستتابع علومك؟ هل تريد التخصص في اللاهوت؟

-"هذا ما عقدت العزم عليها... الا اذا...

-"قل لي ما هي وظيفة الراعي الصالح في التنشئة الأرثوذكسية؟

---

* انه بالحقيقة ارشمندريت باتراس الشهير، الذي عُرف بفضيلته وقداسته. ولكنه لاقى معاملة ظالمة من قبل الاكليروس في عصره.

-"أعتقد أنه يجب عليه أن يضحي بحياته من أجل خرافه في حالة الخطـــر، دون أن يتذمر".

فنهض نكتاريوس وقد ظهر في عينيه بريق ساطع، وقـــال بصـــوت عال:
-"أهنئك يا جرفاسيوس. أنت تبهج نفسي في هذه اللحظـــة. أنـــت المرشـــد الروحي لأجيال الغد. تعال لأباركك".

فتراجع الشماس خطوة وقد امتلأت عيناه بالدموع:
-"ماذا تقول أيها المدير المحترم؟
-"اقترب!" قال نكتاريوس بلهجة آمرة، وعندما أصبح بالقرب منه باركه.

الفصل السابع والعشرون

+ (مز ٣٦ : ٢١) " الشرير يقترض ولا يوفي أما الصديق فيترأف ويعطي".

كان نكتاريوس يتمنى أن يستطيع في تلك السنة ارسال كتاب "بحث في خلاص النفس" للراهب أنطيوخوس، الى الناشر السيد باراسكيفا. الا انه كان قلقاً على فقر الشابات، تلميذاته اللواتي أصبحن "بناته العزيزات"، فقد ذهبن الى ايينا البعيدة للعيش في الدير القديم. كما كان يتلقى زيارات الكثير من أهل البلاد، وهم فقراء مثل أيوب، وكانوا يأتونه طلباً للمساعدة. ولذا فقد صار يتردد قبل أن يستدين من جديد.

في جزيرة ايينا، وفي زانطا، مقابل كنيسة "النبع المحيي" الصغيرة. كانت هناك غرفتان صغيرتان، أو ملجآن للحماية من المطر والهواء. وقد انتقلت اليهما الفتيات كريزَنتيا وكاترينا وانجليك وماريا، بالاضافة الى بعض النساء العجائز اللواتي كنّ في هذا المكان منذ سنوات: أفروديت مورجينسو، وأوتيشيا بيبا، وفيليو لوغياتيدس.

وكن ينمن جميعاً على الأرض، فوق بعض الفرش المصنوعة من القش. وكن يسلقن الخضار المجففة مع بعض الخضار الطازجة في قدر. ويعرضن حياتهن للموت بسبب الرطوبة والبرد.

وكن بحاجة مستمرة الى المال. ولم يكن هناك غير نكتاريوس ليهتم بهن. وهو الذي لم يكن يستطيع أن يرفض مساعدة الفقراء الذين يأتونه. وفي أحد الأيام وكان في عسر مالي شديد، جاءه رجل طويل اللحية، يرتدي سترة ممزقة، وبنطلوناً تغطيه مئات الرقع. ودخل الى مكتبه، وكان نحيلاً وشاحب الوجه. فبادره قائلاً:

-"سامحني يا صاحب السيادة، فقد قلت لأمين سرك اني على علاقة قرابة بك. وقد كذبت لأني وصلت الى النهاية!"

فأجاب نكتاريوس:

-"ما كان عليك أن تلجأ الى الكذب، فأنا أستقبل كل الذين يأتون اليّ. لكن أخبرني ما بك؟

-"اني واقع تحت وزر الديون يا أبتِ العزيز. فأنا مدين بخمس وعشرين دراخما. وقد وقّعت على سندات. واذا لم أدفع السند الذي يستحق عليّ غداً في العاشرة صباحاً، فسأرمى في السجن. وأقسم لك بأني لا أملك قلساً واحداً، ولا حتى لشراء الخبز".

فتأمل نكتاريوس الرجل ملياً وهز رأسه. ثم رنّ الجرس وطلب من البوّاب أن يرسل اليه ساكوبولوس الذي حضر مسرعاً وقال له:
-"أنا في خدمتك."

فقال نكتاريوس:
-"أعطني من فضلك يا كوستي خمسة وعشرين دراخما من أجل أخينا الحاضر هنا."

فصعق كوستي ووقف مشدوها. فسأله نكتاريوس:
-"ما بك؟ ماذا تريد أن تقول؟ ولمَ تقف جامداً هكذا؟"

فأجاب كوستي:
-"أنا لا أملك المال يا صاحب السيادة.
-أرجوك، أنظر جيداً، فالحاجة ملحة".

فاقترب منه كوستي وهمس في أذنه:
-"خمس وعشرون دراخما، هذا كل ما تبقى لنا. ونحن ما زلنا في بداية الشهر. أنت تعرف...
-"أعطها يا كوستي، فالرب سيرسل لنا عوضها".

ولمعت عينا ساكوبولوس، فاستدار نحو الزائر ونظر اليه وصرخ بقوة:
-"وأنت، من أين جئت؟"

فقال له نكتاريوس بصوته الهادئ:
-"اهدأ يا كوستي ولا تقلق. فان كل مساعدة نقدمها للقريب نسترجعها، وغالباً ما نحصل على أكثر منها. من الضروري حقاً أن نساعد هذا الأخ الذي لا نعرفه".

فذهب كوستي وهو يتذمّر. ثم عاد بالمال وأعطاه للزائر المجهول.

وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات، راح كوستي يفرك عينيه: لقــد شــ بوضوح كيف تحققت قاعدة عودة المال "بغزارة". فقد تلقى نكتــاريوس مــ المتروبوليت ثيوكليطس طلباً للاحتفال بـــزواج أنــاس أثريــاء جـداً فـي الكاتدرائية. كما طلبوا حضور جوقة المدرسة للترتيل. وقد عوملـــوا بكـر شديد، وهذا ما عاد على الصندوق بمئة وعشرين دراخما كاملة: مئة للأسقف وعشرون للتلامذة. ولم يحتفظ التلامذة بورقة العشرين دراخما، بل أعطوهـ للأسقف شخصياً. وتمتم ساكوبولوس:

-"ان كلام هذا الرجل عجيب! فهو مزيج من الايمان والتضحية. يا الهي كـ تقدم بالسن، كلما حمّل نفسه المزيد من الهموم والمسؤوليات..."

الفصل الثامن والعشرون

- (حك ٢ : ٧-٨) "ترتوي من الخمور الفاخرة، وبالطيوب نتعطر، ولا تفتنا زهرة الأوان. ونتكلل بالورد قبل ذبوله".

- (كو ٣ : ٣) "فانكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله".

في احدى الأمسيات كان نكتاريوس يحرث أرض الحديقة بقرب شجرات الورد، فلاقاه كوستي وقال له:
-"لقد هزلت كثيراً يا صاحب السيادة، وهذا أمر يقلقني".

فأجاب نكتاريوس بهدوء:
-"لا تخف يا كوستي.
-"خارج المدرسة...
-"على فكرة يا كوستي، ما هي أخبار العالم؟
-"عمل وتعب وملذات أيضاً.
-"أي نوع من الملذات؟
-"آه... الراحة، وهذا ما يقال له أيضاً: الرفاهية... الحلويات، الفواكه، الموسيقى، المسرحيات...
-"هذا خطأ يا كوستي، يضلّ الناس عندما يبحثون عن السعادة خارج ذواتهم: تأكد بأن الثراء والمجد والاجتماعات والملذات الحسية، كل هذه المسرّات الدنيوية تنتهي حتماً بالمرارة.
-"أنا لا أقول العكس، ولكن...
-"أنت تناقضني بقولك "ولكن". ان السعادة الحقيقية تنبع من الفرح بحسب الحكمة.
-"لقد قلت لي هذا بالسابق.
-"وراء جميع هؤلاء الناس الذين تراهم وتعاشرهم هناك عالم آخر يا عزيزي كوستي. هناك عالم كامل في داخل هذا الحشد الكبير".

فنظر اليه كوستي متعجباً.
-"لا تعجب يا كوستي، ففي وسط هؤلاء الناس الذين نتكلم عنهم، هناك مجموعة تعيش وتستمر. انهم بعض الأشخاص الذين يبحثون عن السرب

دون توقف. ولهذا فهم يكتسبون سمواً كبيراً وعذوبة تكاد تكون عذوبة الملائكة. وكل يوم في حياتهم مملوء بالرجاء والجهادات المتواصلة. انهم يتقدمون في حياتهم وهم يحملون ما يسمى "بالحداد الجالب الفرح". وللأسف فان هؤلاء الأشخاص يبقون غرباء الى الأبد، مجهولين، وكثيراً ما يغفلهم السواد الأعظم من الناس. فاذا خرجوا من عزلتهم وأفصحوا عن أفكارهم، فسيظهرون غريبي الأطوار ويهزأ الناس بهم، يا صديقي ورفيقي العزيز".

ولم يكن كوستي ينتظر مثل هذا التصريح، فجمد في مكانه متفكراً في ما سمعه وهو على وشك البكاء. ثم تمتم:

-"نحن لا نتكلم عن الأمر نفسه يا صاحب السيادة. مباركة هي الطريق التي تسلكها. وسأقول لك من جديد أمراً لا تحب سماعه: أنت كالساقية الصغيرة الشفافة التي يجهلها الجميع.

-"يكفي صفات وتصنيفات! ولا تتخطَّ حدودك، فأنت شاب وكثيراً ما يتملكك الحماس.

-"أبداً يا سيدي. اليوم في القرن العشرين، الجماهير مخطئة حقاً. أجل انهم يبحثون عن السعادة خارج ذواتهم. ليتهم على الأقل يتفادون الانهاك! أنت نحيل جداً، ويبدو وكأنك على وشك أن تخور قواك.

-"لا تخف يا كوستي. فيما بيننا "العين" التي ترى كل شيء. انه يستطيع أن يقيم عمّالاً من الحجارة، أو حتى من العدم".

الفصل التاسع والعشرون

+ (عب ١١ : ٢٢) "بالايمان يوسف عند موته ذكر خروج بني اسرائيل وأوصى من جهة عظامه".

أمام الدير القديم نبتت شجرة صغيرة على المنحدر الشمالي، وكانت صغيرة جداً ومستديرة، ككرة خضراء.

منذ سنوات، في حوالي العام ١٩٠٠، عاشت هناك امرأة تدعى أفروديت مورجينو، وكانت الأولى بين نساء الدير التي وصلت الى زانطا واعتنقت الحياة الرهبانية تحت اسم أناستازيا. وقد قررت أفروديت في أحد الأيام أن تقتلع هذه الشجرة الصغيرة بعناية بفأسها الصغير، لتعيد زرعها على بعد مترين أو ثلاثة نحو اليمين، بقرب كنيسة النبع المحيي. فنهضت عند الفجر وعملت حوالي ساعة من الزمن في قلع الشجرة مع بعض تربتها. وكانت وحدها، فقد ذهبت الفتاتان الأخريان الى المدينة منذ البارحة مساءً للتبضع. وبعد أن راحت تحفر التربة بمعولها سمعت صوتاً مجلجلاً من خلفها يقول لها:
-"ليس هنا، نحو الأسفل... أتركي بعض الأمتار، ما يتسع لوضع تابوت".

فاستدارت مذعورة، ونظرت خلفها وحواليها... فلم تجد أحداً. فرفعت معولها من جديد وضربت به التربة الطرية بقوة مرة ومرتين، فسمعت الصوت المجلجل يقول ثانية باصرار:
-"أتركي بعض الأمتار لوضع تابوت".

فجمدت في مكانها وأصاخت السمع، لكنها لم تر أحداً، بل كان الصمت من حولها عميقاً. ولم تر غير هرّ سمين يمر بخفة وينظر اليها بتواطؤ. فبصقت في يديها وتناولت المعول من جديد، لكنها أحسّت هذه المرة بقوة تدفعها الى الوراء، وكأنها يد جبارة، فأفلت المعول من يديها وانغرس في التربة على بعد أمتار من المكان، واذا به يحفر حفرة في الأرض بضربة واحدة. فقالت في نفسها:
-"يبدو أنني سأدفن هنا. لا بد أنه ملاكي الحارس. ليكن كذلك!"

وتابعت الحفر قدر ما يجب، ثم رسمت اشارة الصليب ثلاث مرات وزرعت الشجرة الصغيرة في ذلك المكان الذي بقيت فيه حتى اليوم.

واستمرت لست سنوات تشذب الشجرة وتتأملها وتكلمها من وقت لآخر، كما لو أنها تكلم أحداً، فتقول:

-"أكبري واصنعي أوراقاً كثيرة يا شابة. لأنهم سيدفنونني هنا. هذا ما قاله لي ملاكي الحارس. لقد دفعني الى هذا المكان حيث تمدين جذورك وتكبرين".

وكان ينهيأ لها أن الشجرة القوية الخضراء، اللامعة تحت قطرات الندى، تنظر اليها وتبتسم.

وحينئذٍ سمعت وقع خطوات بالقرب منها ورأت أمامها أسقف ريزاريو، الأب الروحي والمرشد للفتيات اللواتي يشيدن الدير الجديد. فسجدت له وسمعته يسألها بعذوبة:

-"ماذا تتمتمين لنفسك يا أمي؟

-"أجل يا أسقفي، كنت أتكلم وحدي، أنا الشقية. كنت أكلـّم هذه الشجرة التي أردت أن أزرعها في مكان أعلى، الا ان ملاكاً دفعني الى هنا، ويبدو أنني سأدفن في هذا المكان".

فنظر اليها نكتاريوس برقة وحنان. وعندما ينظر الى أحدهم، كانت عينه اليسرى تحت الحاجب الأكثر كثافة من الآخر، تبدو وكأنها تخترق الناس بنظراتها، وتقرأ حتى في أعماق نفوسهم. وقد ارتجفت أناستازيا لهذه النظرات، فقال لها:

-"لن يكون تابوتك أنتِ يا أمي!

-"ماذا؟

-"أجل انها شجرة جميلة، وهي تزيّن هذا المكان الوعر".

وبقت أناستازيا حانية الظهر وغارقة في أفكارها. ثم قالت:

-"حسناً... طبعاً، فاذا كان الدير الجديد سيشيّد في هذا المكان، فان المقبرة ستكون في مكان آخر. ولكن كيف تفسّر..."

وهنا بدّل نكتاريوس الحديث وقال:

-"هناك أيضاً سيدة تقيّة تود أن تقدم هبة، وستكون هذه الهبة الأولـــى: انـــها ترغب ببناء حجرتين من أجل تسهيل زياراتي الى هنا، فلا أعود مضطــــراً لطلب الاستضافة لدى الناس.

-"عظيم! ما اسمها؟ هل هي من ايينا؟

-"أجل انها من ايينا. انها الأرملة ماريغو كالافري.

-"آه انها سيدة عظيمة يا أسقفي. تبارك الرب!"

الفصل الثلاثون

+ (يع ١ : ٢٧) "ان الديانة الطاهرة الزكية عند الله الأب هي افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقهم وصيانة الانسان نفسه بغير دنس من العالم".

التقى نكتاريوس المتروبوليت ثيوكليطس صدفة في كنيسة القديسة ايريني، وللمرة الثانية أعطاه موافقته على بناء الدير الجديد، وكلّمه أيضاً عن بعض الفتيات التقيات من اسبارطا.

لكن الفتيات كن يعشن عيشة صعبة جداً في ايينا، فمرضت كريزنّتيا. وكان نكتاريوس يفكر بقبولهن قريباً في درجة المبتدئات على أن يلبسهن بعد خمس سنوات الاسكيم الملائكي. ولكن قساوة الحياة التي يعشنها صارت مصدر حزن يومي لنكتاريوس. وكانت كاترينا التي ترغب بتحقيق المآثر، تذيق نفسها الجهادات النسكية المريرة، مما أدى الى ضعفها الشديد. وكان نكتاريوس يخشى أن تصاب بأحد الأمراض الخطيرة بسبب رطوبة قلايتها. وكان كثير القلق، فأمضى ليلة كاملة راكعاً وهو يصلـّي. ولم يُتعبه هذا التضرع الروحي بل كان يحس في وسط صلاته العقلية وكأنه في اتصال مع العالم الآخر ومع الخالق الذي لا يستطيع العالم أن يسعه. كان يصلـّي من أعماق القلب باكياً من أجل هذه المخلوقات الضعيفة، هذه السنونوات الفرحة التي كرّست حياتها للمسيح المخلـّص. وأحس بأن دموعه تشير الى أن الرب استمع الى صلاته واستجاب لها في الأعالي، أمام عرشه القدوس. فتوقف عند الفجر، ونهض وهو يشعر بنفسه مرتاحاً وواثقاً. فكتب رسالة الى كاترينا تضمنت النصائح الأبوية، ومنها التنبيه الى ضرورة تفادي النسك القاسي والمؤلم الذي يفوق طاقتها على الاحتمال. ومما جاء في الرسالة:

"يجب أن تتناسب أصوامكن مع طاقاتكن الصحية، لئلا تمرضن فتجبرن على ترك الوحدة والذهاب الى المدن للمعالجة. فالله لن يدينكن بحسب طعامكن. وأنا أفضل أن تتناولن كل ما هو ضروري لصحتكن، فتبقين في جو الوحدة والصلاة، بدل أن تعدن الى المدن".

وقد أرسل لهن مالاً مع الرسالة، وكحولاً. وكم كانت نفسه تتعذب لدى معرفته بأنهن يتعبن ويمرضن.

أما بالنسبة الى صغراهن، أنجليك، فقد كانت تملك ثروة بسيطة ولكنها لم تستطع احضارها معها الى الدير بسبب عدم قسمة المال بينها وبين اخوتها. فدخلت الدير دون أن تحضر معها غير آلة رتق الجوارب التي كانت موردها المالي الوحيد، وكانت تجهد لكسب خبزها اليومي بهذه الطريقة.

وكان نكتاريوس يرغب في تقديم كل المساعدة اللازمة للفتيات، وفي تأمين حاجاتهن اليومية لكي ينصرفن الى الصلوات دون قلق. وتذكر بأنه دُعي منذ وقت قصير الى منزل أناس واسعي الثراء، ليمسح مرضاهم بالزيت المقدس. وكانوا يقطنون في فيلا منعزلة في باتيسيا تمتد أمامها حديقة مساحتها أربعون هكتاراً. وكل ما في المكان كان ينطق بالثراء والرفاهية والبذخ وراحة البال: فقد كان يعج بالبلّور والفضيات والأقمشة الحريرية والسجاد والأزهار.

وفكر نكتاريوس بأخواته المتواضعات في ايينا، وامتلأت عيناه بالدموع. وحزن لأجل هؤلاء الأغنياء الذين يجهلون السر الحاضر في كل مكان في هذا العالم، حيث الحياة جهاد. ولم يكن أحد في ذلك البيت يتصور بأن خارج جدران الفيلا وبالقرب منها، يعيش أشخاص في الفقر حياةً متقشفة قاتمة لا طعم لها، حيث كل لقمة خبز تمثل حزناً صغيراً في القلب. وكتب من جديد الى ايينا:

"لقد علمت أنكن تعرضتن الى تجربة، فذعرتن كالصيصان الصغيرة. انها لمصيبة كبرى أن تذعرن بسهولة، وتقعن سريعاً في اليأس. لن تتمكنّ من التوصل الى مستوى الكمال من دون الصبر في التجارب. يجب أن تحافظن على صبركن حتى عندما تتلقين الضربات. فالرب معكن، وأنتن ترتلن كل يوم: "معنا هو الله"، لكن يبدو أنكن لم تفهمن تماماً معنى هذا النص. أريدكن أن تقرأن هذا النص مرة واحدة بإمعان، لكي تفهمنه جيداً، وأؤكد لكن بأنكن ستجدن فيه سلام نفوسكن. اعلمن بأن العدو سيطلق قواته عليكن، ولكن أنتن تابعن الترتيل "معنا هو الله" ، فلا يستطيع العدو أن يخيفنا ولا أن يجعلنا نضطرب، "لأن الله معنا" الخ... تشددن واصمدن لأن الله معكن. فاذا صبرتن حتى النهاية، ستكتب أسماؤكن في سفر الحياة. وأريد أن أعرف منكن قريباً أن النعمة الالهية قد عادت اليكن، وأنكن وجدتن السلام..."

* * * * *

بعد موافقة المتروبوليت ثيوكليطس، ألبس نكتاريوس الفتيات الثوب الرهباني. فاتخذت كريزنتيا اسم كساني، وأصبحت كاترينا حنة، وأنجليك أنوقنطيا. وصارت هيلانة تدعى أليصابات، وماريا سنكليتيكي... وكان هذا كل ما تبقى لنكتاريوس ليقدمه للرب تعبيراً عن شكره: هذا الدير الناشئ بمثابة زهرة متواضعة...

وقدّمت الأرملة ماريغو كالافري الهبة التي وعدت بها. فباعت حقلاً من حقولها ووهبت المال الذي أتاح تشييد حجرتين الى يمين كنيسة النبع المحيي الصغيرة. فصار بمقدور نكتاريوس أن يسكن في البناء الجديد كلما أتى بزيارة، بعد أن قبل كثيراً ضيافة السيدة كريس بافلينيري والسيد جان سيماندونيس الذي يضارع ابراهيم بكرمه، وهو أحد كبار ملاكي الأراضي. وسوف يذكرهما دائماً في صلواته على مذبح الرب.

وكان عدد من كتبه قد نـُشر ، فراح اللاهوتيون يتكلمون عنها، وصارت تتوفـّر في المكتبات الاكليريكية وفي الأديرة، وأيضاً عند أفراد علمانيين. فليتبارك الرب !

وكان نكتاريوس يكتب بلغة علمية، اللغة اليونانية "الأكاديمية" الفصحى. وقد تجنب استعمال اللغة العامية بسبب احتوائها على الكثير من التعابير التي كانت تـُفسَّر بشكل خاطئ في ذلك العصر. في جميع الأحوال كان معتاداً على الكتابة وعلى التكلم بهذه الطريقة؛ فضلاً عن أن كتبه كانت معدّة للاستعمال كمراجع من قبل الكهنة والرهبان المثـقفين. كان يتوجه الى الشعب في موعظاته، وكان باستطاعة أي كاهن على درجة بسيطة من العلم أن يجد في كتبه الهاماً جديداً وتوجهاً جديداً للوعظ.

ولم تبقَ من كتاب "الخلق المسيحي" غير بعض النسخ القليلة جداً، بينما بقيت نسخ أكثر من كتاب "تعليم الدين الالهي" وكتاب "الخريستولوجيا". بخلاف "التاريخ الانجيلي أو تناغم الأناجيل" الذي بقيت منه نسخ عديدة. كما فضلت عنده نسخ قليلة من الدراسات التي وضعها مثل: "حول والدة الاله الكلية القداسة والدائمة البتولية مريم"، و"حول قديسي الرب"، و"في سر الافخارستيا الالهية"، و"في الندم والاعتراف". وكان الكتاب الوحيد الذي نفذ تماماً هو دراسته المعمقة حول "خلود الروح".

وقد تركت له كل هذه الأعمال المنشورة بعض الأرباح القليلة، وبدأ اللاهوتيون والكهنة يبحثون عنها. أما المؤلَّف بعنوان: "ملخص الكتاب المقدس الموحى به من الرب"، للراهب أنطيوخوس الغلاطي من لافرا القديس سابا، فكان على وشك أن يوضع في الأسواق. ونجد بين صفحات هذا الكتاب الخلاصية فصلاً بعنوان "في الصلاة والاعتراف".

وقد كتب على الصفحة الأولى: "تم طبع هذا الكتاب من قبل نكتاريوس كيفالاس، مدير مدرسة ريزاريو الاكليريكية، من أجل تقدم المسيحيين الروحي".

ولم يكن نكتاريوس يعرف ما آلت اليه حساباته مع الناشر باراسكيفا ليونيس. فكل ما يحصل عليه كان يسلّمه الى كوستي ساكوبولوس.وكان على هذا الشاب المسكين أن يتدبر أمره مع الناشر.

تبارك الرب المحسن الذي سمح بأن التعب الذي تكبده لنشر الكلمة الالهية لم يبقَ عقيماً، وأن الكتب التي نشرها لم تبقَ لتتعفن في الأدراج وعلى رفوف المكتبات. واذا أراد الله، فقد يستفيد منها الجيل القادم أيضاً.

وفي وسط كل هذا العمل، كان عدد الناس الذين يأتون لطلب الاحسان يتزايد، بالنسبة نفسها التي يتزايد فيها الشعب المؤمن الذي يشارك في القداديس الالهية. كما كان نكتاريوس يتخلّص بمعونة الرب من السارقين والشحاذين المحترفين، باعطائهم بعض النقود.

وكان كوستي يواجه هذه الصدقات بمرارة، فيسعل، ويبلع ريقه، لكنه لم يعد يجرؤ على الاعتراض منذ حادثة ذلك الرجل الذي وقّع على السندات، والذي تحوّلت الخمس والعشرون دراخما التي أعطاه اياها نكتاريوس الى ثروة صغيرة في اليوم نفسه. وتذكر كوستي ما حدث معه في تلك الليلة المباركة،وما قال له نكتاريوس:

-"نحن فقراء يا كوستي، أما الله فلا يعوزه شيء. هو يقرر ونحن نتلقى. لا تفقد الأمل أبداً."

وفي أحد الأيام جاء مسكين آخر. كان طويل القامة، شاحب الوجه الى درجة الاصفرار، أشيب الشعر. وكان يمسك بيده وصفة طبية ويرتجف. وتمتم:

-"أنا خارج للتو من المستشفى المقابل يا صاحب السيادة...

-"وماذا تبتغي؟
-"اني عامل بناء، وقد طلب مني الأطباء أن أتوقف عن العمل لمدة خمسة عشر يوماً. وأعطوني هذه الورقة التي كتبت عليها مجموعة من الأدوية، ولكن من أين المال؟ فأنا لا أملك فلساً واحداً. واذا لم تساعدني فسأموت حتماً".

وفي الحال أرسل نكتاريوس البوّاب ليستدعي كوستي، ولكنه لم يكن يملك في ذلك اليوم ما يشتري به علبة كبريت: فقد أعطى كل ما وصله في ذلك الأسبوع الى الناشر. وكان كتاب أنطيوخوس قيد النشر، وكانت تطبع منه نسخ اضافية دون توقف. فتبادل نكتاريوس وكوستي النظرات للحظات . ثم تذكر نكتاريوس:
-"آه، اني أملك طرداً يحتوي على ثياب داخلية، وقد وصلني هدية من مصر".

فطلب من كوستي أن يستدعي السيدة العجوز ستاستا التي تهتم بالغسيل. وعندما حضرت بادرها:
-"سيدة أناستازيا، اجلبي لي من فضلك الطرد الذي وصلني من مصر ويحتوي على الثياب الاحتياطية.
-"لماذا يا صاحب السيادة؟
-"يجب أن نعطيه لأخينا الحاضر هنا.
-"لكني أعتقد أنك لا تملك غيرها من الثياب الداخلية الاحتياطية يا صاحب السيادة.
-"لا يهم!"

فخرجت السيدة مطرقة وهي تتذمر. ثم عادت بعد لحظات وقد أحضرت الطرد. فدفعه نكتاريوس للزائر الشاحب وقال له:
-"اسمع يا أخي، في هذا الطرد ثياب داخلية جديدة. اذهب الى سوق البرغوث في موناستيراكي وبعها. واشتر بثمنها الأدوية، وما يضمن عيشك خلال الأسبوعين التاليين. اذهب ببركة الرب".

فتأثر الرجل الشاحب، وخطا خطوتين بصعوبة، ثم انحنى الى الأرض وقبّل طرف جبته. وخرج يحمل الطرد وهو يكرر عرفانه بالجميل دون انقطاع.

الفصل الحادي والثلاثون

+ (أم ٤ : ٢٣) "صن قلبك أكثر من كل محفوظ فان منه مخارج الحياة".

+ (مز ٢٤ : ٩) "الرب يعلـم الوديعين طرقه".

+ (مز ٣٦ : ٣٠) "فم الصديق يلهج بالحكمة ولسانه ينطق بالحق".

كان الطلاب يضاعفون محبتهم واحترامهم لنكتاريوس، وكأنهم يحدسون بقرب رحيله النهائي. وما كان يفتح فمه للكلام على واجبات الكاهن الرعائية، أو عن الليتورجيا، أو تعليم الدين الالهي، حتى يجمدوا في أماكنهم وقد ملأهم الخوف، وهم ينظرون اليه وكأنه ليس من هذا العالم.كانت كلماته تتساقط مثل الندى فوق صحراء قاحلة ومثل عطر الهي في نفوسهم. وكان الأساتذة زيكوس وجورج ديرفوس وأناستاز كرياكوس يتراجعون أمامه ليفسحوا له في الطريق كي يمرّ.

وقد مضى عليه عامان لم يضطر خلالهما لأن يفرض على نفسه الصوم بسبب سوء تصرف التلامذة. وحتى أعضاء المجلس صاروا لطفاء معه، ولم يعودوا يعتبرونه مجرد موظف يأتمر بأوامرهم.

لقد فرض شخصيته على الجميع دون استثناء، بفضل تصرفه البسيط والبريء، وطيبة قلبه وابتسامته الخالية من الخبث، وفكره المتواضع والحر بالكلية، رغم أنه كان يتمتع بثقافة واسعة جداً ونادرة في عصره. وكان الجميع يتكلمون عنه باحترام.

واعتنق الكهنوت عدد كبير من تلاميذه، وقد رسم بعضهم كهنة بنفسه. وكانت هذه السيامات له مصدر فرح كبير وفائق الوصف، وكانت تملأ روحه بحبور سري وتفتح أمامه طرقاً نيّرة نحو ملكوت السماوات.

آه، ان الكاهن الأرثوذكسي، ذلك الرجل البسيط واللابس الجبّة الذي يعبر يده الى الله وقت الذبيحة الغير الدموية، هو بلا شك أكثر حظاً من الملائكة! لأنه يحوّل الخبز والخمر الى جسد ودم المسيح بيده الأرضية

المائتة. ولن يتوقف بعد موته عن الاحتفال بالسر العظيم أمام المذبح السماوي مع نفوس المختارين من جميع الشعوب أمام الحمل المذبوح، ابن الله الحي.

ان الكاهن الأرثوذكسي هو مساهمتنا في ذبيحة الهية عظمى. وذبيحته هي مساهمة ارادية في ذبيحة الله.

ولقد تبين أن أحد الكهنة الذين رسمهم نكتاريوس بنفسه كان في الحقيقة كالزهرة الروحية العطرة. وقد سأله مرة عالم عائد لتوه من أوروبا، مثقف بالعلوم المادية والنظرية في آن: "ماذا أفعل كي أعاين الله وألمسه، فأجد الشجاعة الكافية لأحمل صليبه وأتخلّى عن ملذات هذا العالم؟" فردّ عليه هذا الكاهن، وبكلمات قليلة كشف له السر "الخفي" مستعيناً برسالة يوحنا الأولى الجامعة. قال له:

-"كل من يخطئ لم يبصره ولا عرفه" (١يو ٣ : ٦). تخلَّ عن الأهواء التي تعذبك، وتواضع أمام الآخرين. ودع روحك تعود الى براءة الطفولة، هذه هي الخطوة الأولى، وبعدها سوف تختبر خبرة عميقة، ويغمرك رجاء مضيء لا يقهر".

أجل، وكأن طلابه كانوا يحدسون برحيله النهائي. هؤلاء كانوا الشعب، ونادراً ما يخطئ الشعب.

وأصبح نكتاريوس يعيش في أمل التغيير. فأنهى بعض المشكلات العائلية، وباع منزل والده في سيليفريا لتسديد ديون والدته القديسة. وساعد بعض أولاد أشقائه على قدر طاقته. وأخيراً راح يكرّس كل أفكاره لراهباته المعوزات اللواتي يعشن في زانطا تحت حمايته الأبوية. وفي احدى الليالي صلّى قائلاً:

-"أرجوك يا الهي أن تبادر الى معونتي، فأستطيع على الأقل أن أقدم لك بعض النفوس البريئة الساذجة والصافية كمياه السماء. ربما اني لم أكن أهلاً لدور متروبوليت أو راعي أبرشية. وكجميع الأساتذة، أجهل مصير البذرة التي زرعتها".

* * * * *

في حياته لم يلفظ اسم الثالوث القدوس دون تأثر أو رهبة. وكانت أصابعه ترتجف عندما يقرر أن يضيف الى أبيات العذراء أم الاله نشيداً للرب العلي أو للثالوث القدوس.

لقد قرر أن يعيد بناء الكنيسة القديمة في قفـــر ايبينـــا، وأن يقدمـــها للثالوث الأقدس المثلث الشموس، المرهوب، الكلي الحكمة والحنان والمحبـــة. وقد صلــّى وتأهب للعمل، وكتب رسائل توسل وبعثها الى كل الأقطار.

وهكذا وبعد جهود مضنية تفوق القـــدرة البشـــرية، وبعـــد أن حـــلّ المعضلات الكثيرة، استطاع أن يضع الحجر الأساس للكنيسة الجديدة ويباركه في أول تموز من العام ١٩٠٦. وقد رُفعت جميع الأنقـــاض عـــدا المذبـــح، وبُنيت الكنيسة فوق الأساسات القديمة. واستمر العمل لمدة سنتين، واســـتحوذ على كل أفكار نكتاريوس وروحه.

كانت روحه كالفراشة الذهبية التي تطير دون توقـــف فـــوق خليـــج سالونيك حتى زانطا. و"كرسول الأمم" العظيم الذي لا يضاهى، كـــان يتـــألم ويمرض ويقلق كلما مرضت الفتيات هناك. وكان يساعدهن في كل شـــيء: في الحقائق الروحية والمادية. ويرسل لهن الأدوية والمقويات والكحول حتـــى آخر فلس لديه.

وكان يتابع المراسلة معهن دون انقطاع. وطلب منـــهن أن يطلعنـــه على كل ما يشغلهن، وأن يكتبن له عن اضطراباتـــهن ومشـــكلاتهن علـــى أنواعها. وكان ينهض منذ الفجر ويكتب الردود الطويلة الأبوية. وكانت أبوته لهن كالذهب الخالص، حيث الصرامة التي تستوجبها التربية تخفي وراءهـــا محبة صافية وصامتة، محبة مطابقة لخلود ملكوت السماوات.

ولا بد من أن نورد بعض المقاطع من رسائله فان بينـــها مـــا هـــو جديـــر بأن يعتبر من أسس التعليم الأرثوذكسي. ومنها مثلاً مـــا ورد فـــي رسالته الثالثة بخصوص الضمير الصالح. لقد كتب:

"ان تشييد السعادة خارج القلب هو كالبناء فـــوق تربـــة تزعزعـــها باستمرار الهزّات الأرضية: انه بناء لن يبقى فيه حجر على حجـــر. والـــذي يبني بهذه الطريقة هو انسان سخيف وشقي... ابحثن جيداً لمعرفـــة مـــا اذا كانت قلوبكن تمتلئ بالشرور والأهواء، حتى لا تقودكن الرغبة في الشر الـــى العمل لصالح الشر. درّبن قلوبكن على عدم الابتعاد عن الخير وعلى عـــدم سلوك الدروب الملتوية ولا الدروب الجميلة الكثيرة الصعوبة، حيث ينصـــب محبو الهلاك فخاخهم".

كما كتب في الرسالة السابعة:

"أرجو لكن كل الخير، وأطلب منكن أن تصلـّين الى الرب لأجلي، لكي لا يحيد بوجهه عني بسبب اهمالي الكبير. وليعطيني حدة الذهن وحكمة التفكير، وعفة القلب".

وكتب في رسالته التاسعة:

"أرسل اليكن أربعة أبيات نظمتها في مديح الكلية القداسة والدة الاله، حتى تمتلئ قلوبكن بالفرح وتنشدن "عذراء يا أم الاله" مع أناشيد جديدة. ليملأ فرح نعمة الروح القدس نفوسكن دائماً بالفرح الداخلي ويحييها ويمنحكن السعادة. احتفظن جيداً بهذا الفرح في قلوبكن، ولا تفسحن في المجال لأحد بأن يمزجه بالمرارة. انتبهن لئلا ينقلب فردوسكن الداخلي جحيماً".

وكتب في رسالته الحادية عشرة:

"يلزمكن وقت طويل للوصول الى الكمال، فلا توترن القوس أكثر مما يجب. اذ لا تـُمنح الخيرات الالهية بالقوة: انه يعطي ما يشاء والى من يشاء، وعطاياه دائماً مجانية. لا توترن القوس بافرط حتى لا ينقطع الخيط قبل الأوان".

* * * * *

ومما جاء في رسالته الثانية عشرة:

"أرسل لكن نشيداً أعتقد أنه سيعجبكن. ويتهيأ لي بأنكن لا تملكن الوقت لقراءة أبياتي، لأنكن تجدن فرحكن في قراءات أفضل. لذلك يحدثني قلبي بألا أرسل اليكن المزيد، فقد صار عندكن الكثير منها.

"لقد كتبت النشيد المئة، وعندما يتسنى لي أن أنشرها بمعونة الله، فستقرأنها مجتمعة. سوف نعمل على نحت حجارة الطريق ونبني الحائط، ولكني لم أعد أملك المال. وما ان أحصل على بعض الدراهم حتى أرسلها لكن للقيام بهذه الأعمال".

وقد كتب في الرسالة الثالثة عشرة الى المغبوطة حنة ــ كاترينا سابقاً ــ وتناول فيها الخلاف الذي يدور بينها وبين صديقتها وأختها الروحية الضريرة المغبوطة كساني ــ كريزَنتيا سابقاً :

"ان التجربة التي داهمتك تحزنني، وهي في الحقيقة من الشرير. أسرعي لاطلاعها على الأمر واطلبي منها أن تصلـّي لأجلك حتى تتوقف التجربة. حالما تصلك رسالتي أدخلي الى الكنيسة وصلـّي الى سيدتنا والدة الاله. اتلي للقديسة مريم خدمة المساء. وأنا أيضاً سأتوسل لك الرحمة الالهية بشفاعة الكلية القداسة والدة الاله الدائمة البتولية مريم. انها حاميتنا والأمل الوحيد الذي لم يخيّب توقعاتنا أبداً. وأنا على ثقة بأنك ستتحررين من التجربة. وأرجوك ألا تدعي مشاعر العداء تسيطر عليك. فان الشرير يوحي اليك بالحقد تجاه العزيزة كساني ــ التي هي أختك وأمك في الآن ــ ليدمّر عرفانك بالجميل نحوها ويحوّله الى حقد، لأنها قد عملت من أجل خلاص نفسك.

"واعلمي أن حبك لكساني الطيبة متجذر في أعماق قلبك، ويحاول الشرير أن يقتلعه لأنه يحسدك ويريد الانتقام من كساني. افهمي جيداً أنه اذا كان قلبك حزيناً، فلأنه يحتج ضد هذا الشعور الغريب بالحقد الذي لا يعرفه، ويريد أن يتخلص منه. ولكنه عاجز عن هذا، لذلك فهو حزين. لقد هاجمك الشرير ليسلبك الفرح والحب في آن، وليحول سلامنا الى اضطراب. ومع ذلك أقول لك تشجعي ولا تيأسي، فالرب لن يسمح بأن تنهزمي".

كما كتب في رسالته الخامسة عشرة:

"أنوي تأليف ما أستطيع من الأناشيد والأبيات للاله المثلث الفرادة، الآب والابن والروح القدس. أرجوكن أن تصلـّين الى والدة الاله لكي تتشفع لدى الرب ليرسل اليّ شعاعاً من نوره الالهي، فاذا أصبحت مستنيراً، أستطيع أن أباشر وأتابع كما يجب هذا العمل الهام والعزيز على قلبي. وستكون هذه المؤلفات ثروتنا المشتركة. أطلبن الى الأب أندرونيكوس أن ينحت الصخور وأن يُصلح الطريق، ويبني الجدار حتى الطريق، وأن يضع مزراباً بعيداً عن الطريق. وليكتب لي كلفة كل ذلك فأرسل له المال، لأني أعتقد أنه يجب انهاء هذا الطريق حتى تستطعن الحصول على الماء".

* * * * *

وجاء في رسالته السابعة عشرة:

"لقد انتابني أيضاً شعور مزعج لا أعرف لماذا، وهذا ما جعلني في مزاج سيئ. ويبدو لي أن الأخوات لم يتحررن بعد من نقائص هذا العالم، ومن بعض أهواء النفس.

"وفيما يختص بي يا عزيزتي كساني ويا بناتي في المسيح، فأنا أفكر بكن كما بعذارى صالحات يسرعن على درب الكمال وهن يحافظن على مصابيحهن مضاءة، وعلى مؤونتهن من الزيت...

"ان الاهتمام بنفوسكن لا علاقة له بالمضايقات الصغيرة الناجمة عن الأصوام والصلاة اذا مارستنها بغير دراسة. وهذا العمل لا يؤدي لوحده الى الثمار المرغوبة. فما الأصوام والأسهار والصلوات الا وسائل تساعد في الوصول الى الهدف ، وليست هي الهدف الذي لأجله اخترتن الوحدة والعزلة. لا تنسين هذا أبداً حتى لا تفشلن في دعوتكن وتخطئن الهدف... تواضعن الى الأرض أمام الرب لكي تلتقين به، لأن الرب يكره المستكبرين، لكنه يحب متواضعي القلوب ويزورهم. ولهذا يقول: "على من سوف أسهر؟ على الوديع والمتواضع القلب". ليكن عملكن حفظ القلب حتى لا يتسنى للكبرياء أن تختبئ فيه كثعبان سامّ، لأن الكبرياء شر متعاظم يفسد بسمومه جميع الفضائل ويمحوها... والحق أن التواضع يرفعنا، ولذلك فانه يجذب معه جملة الفضائل. فاذا لم تلحق جميع الفضائل بالتواضع، فلا يكون مصدر ارتفاع لأن مجموعة الفضائل هي التي ترفع الانسان وليس بعضها فقط. وعلى كل حال فان الفضائل لا توجد من دون بعضها البعض: انها كأشعة الشمس، أو كمجموعة الألوان التي تؤلف شعاعاً واحداً منعكساً من خلال نفس صافية. وهكذا فحيث يكون التواضع الحقيقي في المسيح تكون جميع الفضائل. لذا فان التواضع هو مصدر الارتفاع. أريد أن أعلم منكن أنكن ترتفعن كل يوم أكثر، لأن هذا في الحقيقة هو فرحي. فان قلقي عليكن يتزايد، ويشغلني باستمرار أمر تطوّر هذا الدير وتحسينه. ان نفسي ضعيفة: فاذا فوجئت بخبر سيء من قبلكن، فقد تبرد أحاسيسي. ولا أخبركن بهذا الا لاهتمامي الأبوي بكن".

وقد تطرق في رسالته الواحدة والعشرين الى حقيقة أعمق تتعلق بالضعف البشري، فكتب:

"... راقبن نمو شعور الحب بينكن لأن هذا الشعور يصبح في خطر اذا لم يتقوَّ القلب بالصلاة النقية التي تدفئه. فلا يصبحنّ الحب جسدياً ومخالفاً للطبيعة، فيزرع في أفكاركن الاضطراب ويحرق القلب نفسه، وهذا ما لا أرجوه لكن... أحببن بعضكن بعضاً بقداسة، كالشقيقات، وليجمعكن حب الرب المشترك فقط. تفادين المصافحة باليد وتبادل القبلات، لأنكن تحاربن أكثر المخادعين مكراً".

وكتب في الرسالة الثالثة والعشرين:

"ليست الأهواء هي التي تطرد السلام ـ وهو العطية الأسمى ـ وانما الآثار التي تتركها الأهواء في النفس بحسب نتيجة الصراع. فاذا انتصرتَ فقد أصبحت ثورة الأهواء عليك فرصة للشعور بفرح جديد وسلام. واذا خسرتَ، لا سمح الله، فسيأتيك الاضطراب والقلق. أما اذا وقعت بعد معركة طويلة في ضعف ما بشري، وسيطر عليك ناموس الخطيئة لمدة من الزمن، فعد الى الجهاد وثابر فتنتصر ويعود اليك السلام".

وجاء في رسالته الرابعة والعشرين:

"كنت أرغب أن يحلّ الربيع لكي آتي اليكن واؤاسيكن قليلا وأفرّح قلوبكن التي عانت كثيراً من قساوة هذا الشتاء الصعب الذي كان مؤلماً جداً بالنسبة اليكن جميعاً يا أخواتي... والحقيقة أن كل ألم نحتمله بالصبر هو درجة ترفعنا نحو الكمال".

وقد كتب الى الأخت كساني في رسالته السادسة والعشرين:

"أنصحك بعدم الاسترسال في الرومنطيقية الحزينة، وفي الكآبة التي تجرح قلوب الراهبات بشكل خطير. ان الرب سيجزل لك المكافأة اذا كنت لهن مصدر فرح. اني أقدّم لك هذه الوصية لأني قد جعلتها أيضاً قاعدة لحياتي، وأريد أن تتبع تلميذاتي المبدأ نفسه. فاذا أفرحت قلب قريبك، وخصوصاً أختك المحرومة من كل شيء، والتي لا يمكن أن تستمد الفرح الروحي الا منك، فكوني على ثقة أنك بهذا تروقين للرب أكثر بكثير مما اذا أديت الصلوات الطويلة والأصوام الصعبة... أرجو لكن جميعاً الانتصار في حربكن ضد الأنانية، وهي شرسة. فالأنانية تشبه التنين المتعدد الرؤوس. فاذا قطعت له رأساً نبت آخر من نوع جديد وبشكل مختلف. وهكذا وبينما ننجح

في ترك العالم والأمور الدنيوية وفي التخلـّي عن كل ملذات الجسد ومعاملته بقساوة حتى لا نعيش وفق ارادته ، نعاين فجأة ظهور نوع من مـرض فـي النفس: هذا المرض يظهر في أغلـب الأحيـان علـى هيئـة روح الشـك والعصيان، ويتشكل بشكل الصواب والذكاء والحكمة والرضى عن الـذات، وروح النقد. لكن أيّها نذكر أولا؟ فتحت جميع هذه المظاهر تختبـئ قباحـة الأنانية..."

* * * * *

وقد تضمنت رسالته السابعة والعشرين، الى جانب بعض النصـائح الجديدة، خبر نشر كتاب "والدة الاله" (ثيوطوكاريون)، وجاء فيها:

"ان كتاب "والدة الاله" هو الآن تحت الطبع وهذه هي الطبعة الثانيـة (وهو كتاب من ست عشرة صفحة). وأرسل لكن اليـوم مؤلـّفي الأخـير المطبوع "كتاب الكاهن"... وسنرى اذا أعجبكن الأسلوب..."

في تلك الحقبة بالذات شغر المنصب الأسقفي في شالكيس. ولم يكـن سكان المنطقة قد نسوا مرور نكتاريوس فيها بعد مـرور سـنوات كثـيرة. فاجتمع الناس بأعداد كبيرة وقاموا بالمساعي الضرورية، وطلبوا أن يصبـح نكتاريوس أسقفاً عليهم. وقد كتبوا العرائض للمسؤولين، وجمعوا التوقيعـات في لوائح طويلة، ونشروا المقالات بهذا الخصوص في الصحيفة المحلية. وقد استلم نكتاريوس أيضاً عدداً من الرسائل من هناك. وعاد من جديد ليغرق في الانتظار والشك بطريقة لم يكن يتوقعها.

وراح يصلـّي من أعماق القلب ليل نهار، وهو يفكر فـي تلميذاتـه الفقيرات هناك.ماذا سيحل بهن اذا...؟ وان كانت هذه هي ارادة الرب؟

لكنه لم يسأل نفسه مرة عن ارادة الرب المحسن. انه يدبر كل شـيء بعنايته الالهية، ويعمل لأجل خير الجميع. لذلك أخذ نكتاريوس قراره وكتـب الرسالة التالية في ٢٧ آذار من العام ١٩٠٧:

"ان أهل شالكيس يفعلون كل ما بوسعهم بواسطة العرائض والمقالات التي ينشرونها في الصحيفة المحلية، لكي أصبح أسقفهم. وما زلـت أجـهل نتائج هذه المساعي. وأعتقد بأن الرب سيكشف الى احداكن ما يـدل علـى

رغبته في هذا الخصوص، وان كان يرغب حقاً بأن أصبح أسقف شـالكيس. فان كانت هذه مشيئته، اذا فلتكن مشيئته".

وحدثت مواجهة عاصفة بين الشعب والسلطات بقي نكتاريوس في أثنائها هادئاً وديعاً ينتظر دون أن يحرك ساكناً. ان الشـعب بالنسـبة الى رجـال الكنيسة المسيطرين هو كالنهر الذي لا يشكل خطراً: فـهم يدعونـه يجري، وفي النهاية يحوّلون مجراه الى المكان الذي يريدون. الا ان الـرب القدوس يحمي دائماً مختاريه في هذه الحالات، ويفعل ما يريد بطريقة أخرى.

لم يكن ذوو السلطة يريدونه بأي حال من الأحوال لأنه كان رجـلا مستقيماً، نقي القلب. ورفضوا أن يوكلوا اليه منصباً هاماً في قلب الكنيسة.

وبعد ثلاثة أشهر، وفي بداية الصيف، كتب نكتاريوس:

"اني بخير والحمد لله. لقد انتهت الامتحانات، وأقترح عليكن أن آتـي لرؤيتكن بعد أسبوع اذا لم تستبقني قضية شالكيس لبضعة أيام أخرى. ولكني أبشركن بأن المجمع المقدس لا يريدني في هذا المنصب، وأستـنتج من هـذا بأنها ليست مشيئة الرب".

الفصل الثاني والثلاثون

+ (٢ مك ١٥ : ١٥) "ثم ان ارميا مدّ يمينه وناول يهوذا سيفاً من ذهب".

+ (جا ١٠ : ١) "الذباب الميت يُنتن طيب العطـّار وقليل من الحماقة تفسد نفائس الحكمة والمجد".

وقبل متابعة سرد الأحداث، سوف نورد أيضاً رسالتين مميزتين، يروي نكتاريوس في احداهما حلماً رآه في نومه، بينما تمثل الثانية دليلاً فريداً لانحرافات الحب البشري الذي يتوجه مباشرة الى الشخص الآخر دون أن يستند الى حب الله. وقد أرسل الأولى بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩٠٧، وكتب فيها:

"أكتب لكن لحظة نهوضي من السرير لأقص عليكن حلماً كان له فيَّ عظيم التأثير، وهو التالي: كنت واقفاً أمام التابوت الذي يحوي بقايا القديس نيقولاوس، وكنت أنظر الى القديس وأراه وكأنه نائم. ثم تهيأ لي بأنه يتحرك. ثم فتح عينيه ونهض وجلس، ومد لي يده. فانحنيت باحترام لأقبـّله، فأخذني بين ذراعيه وقبّلني في فمي ثلاث مرات، وأنا قبلته كذلك. ثم نظر اليَّ وقال لي: "سوف أرفعك عالياً، عالياً جداً. ولكني أريد أن تصنع لي عرشاً فضياً". هذا كل ما قاله لي، وبعد ذلك استلقى من جديد ونام فيما أنا أصحو. وما أن استيقظت حتى تذكرت بأني شاهدت الحلم نفسه منذ ثلاثة أيام ونسيته بعد ذلك. وتذكرت أيضاً بأن القديس في المرة الأولى قد نهض وقبـّلني فقط دون أن يقول لي شيئاً. وقد أعلمني برغبته هذه وبطلبه في الحلم الثاني.

"هذا هو الحلم الذي ترك في نفسي أثراً عظيماً، أكتبه لكـنَّ لطابعه الكاشف لاعلان القديس وطلبه. وقد حاولت أن أتحرّى حقيقة الحلم. ويبدو لي أنه حقيقي، ولكني حتى الآن لم أبدِ أية ردة فعل. ليحفظنا الرب في الأعمال الجيدة! ان الكنيسة التي زيّنتها وجمّلتها في القاهرة، والتي كانت ترزح تحت الفقر المدقع ثم ارتدت حلـّتها البراقة، هي على اسم القديس نيقولاوس. وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها القديس نيقولاوس بالحلم يقبلني ويكلمني. تبارك اسم الرب..."

* * * * *

وقد كتب الرسالة الثانية في ٥ كانون الأول ١٩٠٧، رداً على رسالة كثيرة الاطراء وصلته من الأخت سنكليتيكي – ماريا خاسيوتو سابقاً:

" لقد فترت نفسي كثيراً من جهة سنكليتيكي لدرجة أني فقدت كل اهتمام بها، والسبب هو حالتها الروحية. فأنا أحبكن يا صديقاتي ليس بسبب حبكن لي، بل بسبب حبكن لسيدنا يسوع المسيح. ان حبنا المشترك للسيد هو الذي يدفئ قلبي تجاهكن. فاذا ابتعدت احداكن في قلبها عن الرب واستسلمت لغرور العالم وأهواء النفس، فان حبي لها يتوقف لأن هذه الأخت قد حطمت رابط الحب بيننا عندما فقدت حب المسيح. ان السلسلة التي تربطنا هي حبنا المشترك للمسيح. وهكذا تصبح برودتي نحوها نتيجة لابتعادها عن المسيح. ان الحب البشري الذي تحمله لي لا يدفئ قلبي لأنه حب غريب عن المسيح، ويستحيل عليّ أن أحمل في قلبي حبين: الأول بحسب الله والثاني بحسب البشر. وعندما ينمو مثل هذا الحب عند أحد الطرفين، فانه يولد كرهاً عند الآخر. أما اذا نما عند الطرفين معاً فانه يولد الهوى، أكانا ذكراً وأنثى، أم من الجنس نفسه. وخصوصاً اذا كان الطرفان ميّالين الى الأهواء. علينا أن نراقب كل يوم بدقة حبنا المتبادل، لنعرف ما اذ كان يأتي بالفعل من الذي هو رباط الحب وملؤه، أي المسيح. والآن لا بد أن تفهمن سبب صرامة هذه الرسالة التي أكتبها لسنكليتيكي، فقد أردت أن أوقظها لأني شعرت بأن قلبها قد برد تجاه المسيح وأن حباً بشرياً بدأ ينمو في قلبها، وهو حب قد يقود الى الهوى اذا أغضبت عنه أو سررت به. لقد بدأ الشرير يضلّها في غفوتها..."

الفصل الثالث والثلاثون

+ (يو ١ : ٤٦) "فقال له نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟ فقال له فيلبس تعال وانظر".

+ (أف ٦ : ٩) "وأنتم أيها السادة افعلوا لهم هذه الأمور تاركين التهديد عالمين أن سيدكم أنتم أيضاً هو في السماوات وليس عنده محاباة".

بعد أسبوع واحد تماماً وصل أمين السر كوستي الى مكتب نكتاريوس في وقت متأخر من بعد الظهر، ووقف أمام الباب جامداً، شاحب الوجه. كان يبكي وقد بدت عيناه محمرّتين. وكان نكتاريوس قد ساعد لتوّه شخصاً جديداً مجهولاً: أرملة تعيش في الفقر والاعواز. فسأله بصوت خافت وبهدوء:

-"أي خطاب حضّرت لي يا قسطنطين؟

-"لقد فقدت السلام يا صاحب السيادة. ولا أفهم ماذا...

-"أعرف ما تريد قوله.

-"هل هذا معقول؟ هل صحيح أنك سوف تتخلّى عن كل أمل منطقي؟ هل ستترك المدرسة وهذه الجماهير من الناس الذين يحبونك ويتلقون منك التعليم، لتنعزل في مكان مقفر مع بعض النساء الجاهلات والعنيدات؟"

فنهض نكتاريوس وهو يبتسم. والتمعت عيناه وبدتا كمياه البحيرات المتلألئة تحت الشمس. وقال:

-"أنت تعرف يا عزيزي كوستي أنه ليس عندي في القلب أي طموح. أنا أرغب فقط بالمساهمة على قدر امكاناتي لمساعدة كنيستنا الأرثوذكسية التي يحيق بها الخطر. فالكنيسة الأرثوذكسية الكثيرة الوداعة هي اليوم مهاجمة من جميع الجهات لأنها الفـُلك الوحيد الذي يضم القدرة الالهية والحقيقة، ولأنها تملك قوة كبيرة للخلاص. لهذا تتلقى الهجمات من قبل الماسونيين وبعض الذين يدّعون الحكمة، والماديين المعاصرين، والسياسيين والحكومات وللأسف أيضاً، وهذا هو الأسوأ، من قبلنا نحن الاكليريكيين. وأنت تعرف أن مذابح الرب تدنسها ذئاب مقنّعة في هيئة حملان... أجل انها مدنّسة من قبل جهلة يمارسون التجارة ولا يستطيعون الرد على هجمات العدو الكثيرة. وقد

بدأت أبحث في أبينا، بقرب المدينة، عن مكـــان مناسـب لاقامــة مدرســة لاهوتيـــة يمكن أن تؤهّل واعظين ورعين يتخرجون من هذه المدرسة وقـــد تخلــّوا تماماً عن أنفسهم للتكرّس لحب الله...

-"ولكنه من المستحيل يا صاحب السيادة أن لا تُدعى الى مصر. لأنه ليـــس هناك من مسيحي واحد جدير بهذا الاسم لا يتمنى مجيئـــك! انــــهم يقومـــون بجميع المساعي الممكنة حتى تعود، وما زالوا ينتظرون الوقــت المناسـب. وهذه اللحظة ليست ببعيدة. سوف تجد أننا سنستلم في صباح أحد الأيام برقية مستعجلة!

-"يا ابني المسكين، هذا هو الحلم الذي يسيّر حياتك! لا تفكر به بعد اليـــوم. أما فيما يختص بي، فقد توقفت منذ زمن بعيد عن أن أحلم.

-"ومع ذلك فان أحاسيسي لم تخطئ يومـــاً. ســترى... ولكــن لنعـد الــى موضوعنا، متى تود تقديم استقالتك؟

-"في بداية كانون الثاني.

-"لقد سمعت أنهم سيحيلونك على التقاعد.

-"أجل، لقد سمعت هذا أيضاً.

-"أتوسل اليك أن تتوقف عن التفكير بابينا. لقد حضّر لك والدي غرفتك فـــي المنزل نفسه. واذا كنت لا ترغب بـــالعيش معنـــا أنـــا وشـــقيقتي ديســـبينا، فسنستأجر لك غرفة بالقرب منا. لقد وضعوا اعلانات للايجار علـــى جميـــع الشرفات. ان أسقفاً في مكانتك، صاحب مؤلفات عديدة، يذهب للاعتزال فوق تلك الصخور التي لا يتسلقها غير الماعز! هل تريد أن تدفن نفسك حياً علــى الفور؟ لا سمح الله! وأنا أيضاً أكنّ الاحترام والاعجاب للمغبوطـــــة كســـاني الضريرة، ولاثنتين أو ثلاث من رفيقاتها، ولكن... كيف أفسر لـــك... لســن سوى مجموعة نساء مسكينات.

-"أنت مخطئ يا كوستي، فالآب السماوي لا يحتقر أية نفس بشـــرية. وكـــل معرفة واقتناء للوديعة الالهية هو دين يفرض علينا ادارته، واعطاء التـــبرير عنه أمام السيد. ولهذا فمن الممكن مثلاً أن تكون نفس ولد مريض قد ســيطر عليها الشيطان وعذبها، أكثر حظوة في عيني الرب مـــن نفـس بطريـــرك ساعـــة وصولها أمام المنبر السماوي. والحقيقة يا كوستي أني لم أعد أملـــك الكثير من القدرات كما أعتقد، والرب يعلم. ولكن اذا استطعت في شيخوختي الآن أن أقدّم للرب ديراً مقدساً للعذارى، ومدرسة اكليريكية، فقـــد يرتضـــي الرب الكلي الرحمة أن يغفر لي خطاياي وضعفاتي.

-"انك تحزنني يا صاحب السيادة. فأنا لا أفهمك، ويســـتحيل علـــيّ أن أجـــد السلام... فأنت أولاً ستتعب هناك لدرجة أنك ستعود سريعاً، سترى. وأنا يــــا

صاحب السيادة، ماذا سيحل بي، فأنا لا أستطيع العيش في أي مكان بعيداً عنك".

واغرورقت عيناه بالدموع وراح يجهش بالبكاء. فاقترب منه نكتاريوس وربت بلطف على ظهره مهدِّئاً وقائلاً:

-"لا تفعل بنفسك هذا يا قسطنطين، سآخذك معي الى هناك حتى ولو كان أمر سكنك في دير للنساء يطرح مشكلة. أرأيت يا بني الحبيب كيف أن العصيان البسيط والبريء يمكن أن يؤدي الى مشكلات لا حد لها؟ فأنت لم تتزوج، ولست كاهناً أيضاً... حسناً لا تحزن. اذهب وحضّر لنا كوبين من القهوة لنشربهما فيما نتحدث".

الفصل الرابع والثلاثون

+ (أم ٢٤ : ٣) "بالحكمة يـُبنى البيت وبالفطنة يثبت".

في ليلة عيد الميلاد من العام ١٩٠٧، كتب نكتاريوس هذه الرسالة الى الدير:

"لقد بدأت أفكر بجدية أن تواجدي في الدير أضحى ضرورياً. لقد أسست ديراً ووضعت فيه راهبات شابات لا يملكن أية خبرة، وهن يخضن تجاربهن الأولى.فهن من ناحية منجذبات نحو الحياة الرهبانية ويحببنها، لكنهن يجهلن من ناحية أخرى مقدار التضحية التي يقتضيها كمال الفضيلة. يجهلن الصراع الذي يجب خوضه ضد النفس، أي ضد الأنانية وأهواء الروح والجسد. ولا يعرفن كيف يحاربن العالم، أي أوهام العالم، ولا الخصم، عدونا القديم. تهاجمهن عواصف الحياة، فيصبن بالغثيان ويسيطر عليهن الخوف ويتمايل مركبهن في جميع الاتجاهات. وليس عندهن بحارة مختبرين، فيفقدن الشجاعة. وليس من محاربين أشداء يشجعهن مثالهم. وكل هذا يقلقني. أريد أن أكون معكن لأشجعكن وأعلمكن. وتحدثني نفسي بأن الأمر لن يطول. وهكذا أستطيع البقاء بقربكن طويلاً، لأقدم لكن جميعاً الدعم والتعليم الضروريين. عندما وضعتكن في الدير في ايينا، كنت أجهل بأنني أحمّل نفسي مسؤولية قد تقودني أنا أيضاً الى ايينا. وفي حين أن أفكاري ورغباتي هي في مكان آخر، في دير القديس يوحنا المعمدان، في جزيرة سكوبيلوس، الا أن صوتاً داخلياً يقول لي: "لقد أخذت على عاتقك مسؤولية، وعليك أن تتحملها بالمكوث في ايينا". صلـّين لأجلي حتى يهديني الرب لأعمل مشيئته".

الفصل الخامس والثلاثون

+ (أم ١٠ : ٧) "ذكر الصدّيق بركة، واسم الشرير يَبلى".

كان تشييد الكنيسة الجديدة في ايينا يتواصل دون انقطاع. وقد تم العثور على صليب رائع من الرخام للقبة. واستمرت مؤلفات نكتاريوس في الطبع. كما نُشر كتاب "والدة الاله" وصار المال يتدفق الى الدير من الأصدقاء وكذلك من أشخاص مجهولين. وكان كل شيء يتدبر بأفضل طريقة بمعونة الله. الا أن صحة نكتاريوس لم تعد كما في السابق. فكثيراً ما صار يصاب بالرشح، ويتعب بسرعة، ويعاني من آلام الرأس والدوار، ويضطر لملازمة الفراش.

وفي أوائل شباط من العام ١٩٠٨ قدّم استقالته لأمين السر العام في مجلس المدرسة بهذه العبارات:

"جانب مجلس مدرسة ريزاريو الاكليريكية الموقر:

يشرفني أن أعلم مجلس المدرسة الموقر بأني كثيراً ما أصاب بالمرض بسبب تعبي الجسدي الكبير، وأشعر بالعجز عن الاضطلاع بادارة المدرسة مع كل المسؤوليات الكبيرة التي تقتضيها. لهذا أجد نفسي مضطراً، وبألم شديد، لتقديم استقالتي.

وأرجو صادقاً أن يبارك الرب عملكم الجيد، وأن يحمي هذه المدرسة التي أحببتها من أعماق القلب. وأن يجعلها تزدهر لتحقق هدف مؤسسيها السامي: ليكن ذكرهما مؤبداً.

وتقبلوا فائق تقديري وحبي اللذين يجعلاني أصلي الى الرب من أجلكم بحرارة".

وبينما كان يكتب هذه الأسطر، ارتجفت يداه، وامتلأت عيناه بالدموع رغم كل ما بذل من الجهد. وقال في نفسه:
-"كل شيء يزول. كل شيء يأتي ويرحل... ما هو الانسان على هذه الأرض؟ نحن كالعصافير المهاجرة. انه وهم لحظةٍ تمر كالبرق، ولا يترك أي أثر..."

لكن الأمر لم يتم كما كان يعتقد: فقد أصيب الجميع بالدهشة في المدرسة عندما علموا باستقالته. وقد بكى الكثير من التلاميذ، وكان البعض الآخر يتنهدون في الأروقة بورع مكتوم. وانتشر الخبر في كل مكان:
-"نكتاريوس سيرحل... لن يكون معنا بعد اليوم".

وتحلّق حوله جمع من أفضل التلامذة الذين شرّفوا فيما بعد الاكليروس اليوناني واحتلوا أفضل المراكز الجامعية. وأحاطوا به كما تحيط الصيصان بالدجاجة الأم، وراحوا يطلبون منه الأحاديث الروحية.

وصار الكثير من الموظفين يحضرون الزهور الى مكتبه كل يوم. وأحسّ الأساتذة بقلق أن فراغاً هائلاً سوف يحلّ في المدرسة.

وبدأ المستشارون ينظرون اليه بعين جديدة: لقد وعوا أنه يعمل منذ أربعة عشر عاماً بتضحية وبصبر أيوب، للنهوض بالمدرسة الى مكانة محترمة.

في النهاية، وبما أن صحته قد أصبحت منهارة، ولم يعد بالامكان اقناعه بالعودة عن قراره، فقد قرروا احالته على التقاعد. ثم أعطت الوزارة موافقتها الرسمية على استقالته في ٢٤ آذار ١٩٠٨، مضيفة الى الورقة الرسمية التهنئات والتعبير عن الرضا الملكي.

قبل ذلك التاريخ بشهر ونصف، كُتب في أرشيف المدرسة أن أعضاء المجلس: " قد أوكلوا الى السيد أثينوجانس أن ينقل الى نكتاريوس المهم الكبير لهذا الحدث، قبل أن يوافقوا على كتاب الاستقالة. وفي الوقت نفسه تكفل المجلس بأن يصرف له راتباً شهرياً قدره ٣٠٠ دراخما، معترفاً بالخدمات التي أدّاها للمدرسة. وقد طلب منه أن يتابع ادارته للمدرسة الى حين الموافقة الرسمية على استقالته".

وفي تلك الحقبة أيضاً كتب نكتاريوس الى ايينا ما يلي:

"...اذا وجدوا مديراً للمدرسة قبل عيد الفصح، فسأحضر وأبقى معكن حتى أيلول. وأقول حتى أيلول لأن المتروبوليت يريدني أن أبقى في البيريه لمحاربة جميع أنواع الهرطقات؛ ولأني أيضاً لم أحلَّ بعد مشكلة كوستي الذي لا يستطيع العيش في أي مكان من دوني. كما أنه لا يستطيع البقاء معي بقربكن.صلـّين الى الله لكي يرشدني فأعرف ما يجب عليَّ أن أفعله بهذا الخصوص.

وكحاشية سريعة، أقول لكن ان كوستي لا يريد أن تُرسل أمتعتي الى ايينا لأنه يعتقد أننا سنُدعى الى مصر قبل أن تصل الحقائب الى ايينا. انه ينام ويصحو على هذا الحلم.

أما من جهتي، فقد توقفت منذ سنوات عديدة عن التفكير بهذا الحلم. لكن كوستي لم ينفك يفكر به ليل نهار. عندما أحضر سوف نفكر سوياً بامكانية اقامتي مع كوستي والبقاء بقربكن في الوقت نفسه..."

الفصل السادس والثلاثون

+ (أش ١:١٥-١٦) "فحين تبسطون أيديكم أستر عينيّ عنكم وان كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا، تنقوا وأزيلوا شر أعمالكم من أمام عينيّ وكفوا عن الاساءة".

+ (يو ١٤ : ٤) "وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق".

لا يمكن لأحد أن ينسى أو يزدري حب انسان امتحنته نار الزمان ولا تفانيه. لقد بذل نكتاريوس كل ما في وسعه لكي يقنع معاونه المخلص كوستي بأنه لم يعد لديه خيار آخر غير الاقامة في ايينا، بسبب مسؤولياته تجاه تلك النفوس المسكينة. وقد تباحثا في امكانية بناء غرفة بقرب الدير ليسكن فيها كوستي، الا أن عائلة الشاب أبدت معارضتها. فكيف يقيم بمفرده في هذا المكان المقفر؟ وكيف سيعتاد على الحياة النسكية، في ذلك المكان المخصص فقط للصلوات والخدم الليتورجية والزهد، وهو ليس براهب؟ واذا حدث أن أصيب بالمرض في احدى ليالي البرد القارس، فمن يهتم به؟ لكن نكتاريوس طمأنه بالقول:

-"وأنا أيضاً سأقيم هناك مؤقتاً يا قسطنطين. سأمكث لبعض الوقت، ما يكفي لألقنهن الحياة النسكية وأؤمن الوفاق بين الجميع والمحبة الكاملة. وعلى كل حال فان ايينا تعتبر كضاحية من ضواحي أثينا. وسوف نتلاقى...

-"لكنهم سيدعوننا الى مصر في وقت قريب جداً، سترى.

-"اذا دعونا...

_"هل سنرفض؟ مستحيل!

-"لا تقلق، فكل شيء سيتم حسب مشيئة الرب".

وابتسم نكتاريوس وباركه.

* * * *

ان جماهير كثيرة من الناس في أثينا والبيريـــه علمـوا باسـتقالته. وصاروا يطلبون رؤيته يوماً بعد يوم، فلم يعد لديه الوقت الكــافي لاســتقبال أصدقائه ومعارفه.

وصارت الجموع من سكان جادّة كيفيسيا الذين اعتادوا أن يسـتمعوا الى موعظاته منذ سنوات يأتونه بوجوه شاردة، حاملين أسئلة كثيرة. كـانوا يتحرّقون رغبة في التعبير عن عواطفهم. وأرادوا أن يسـاعدوه، فصاروا يحضرون له المال من أجل تشييد الدير الجديد هناك في الجزيرة ويقولون:
-"تقبّل فلس الأرملة يا صاحب السيادة".

وقد عمّ الذهول والاضطراب والضياع في منزل عائلة مانطوبولوس. فقدوا الضريرة منذ ثلاث سنوات وكانت كزهرة البيريه الخـالدة، فاختـارت النسك والجهاد وصارت تدعى الأخت كساني. وها ان هـذا الشـيخ الملـهِم المتواضع يرحل الآن. هذا الأسقف الذي وُهب النعمة المقدسة وكان يُشـرِّف مائدتهم في أيام الأعياد ويبارك جميع أعمالهم الحسنة. وكان حضوره يشـيعَ فيما بينهم بالفرح العارم والسلام وبعض الأمل بحياة ملكوت السماوات...

لهذا ملأ الذهول والحزن الصامت والقلق ذلك المنزل الواسع.

وصارت تأتيه كل يوم من المدينتين جموع من الناس من كل نـوع، فقط لتقبيل يده باحترام. وكان بينهم الكثير من العمال والحرفييـن الصغـار. وقدامى البحارة، وأرباب أسر فقيرة، وكانوا يذرفون الدموع وهم يودِّعونـه قائلين:
-"لتحمل لك الحياة كل خير يا صاحب السيادة. ولتكن سنوك عديدة".

في ذلك الوقت لم يكن السفر سهلاً لهؤلاء النـاس، ولـو لمسـافات قصيرة. ولم يكونوا يملكون المال الكافي ليستقلـوا الباخرة الى زانطا.

ورحل نكتاريوس في صباح أحد الأيام، بعد عيد الفصح، كما كـان مقرراً. ورافقه كوستي مع صديقين أو ثلاثة. وأطلقت البـاخرة صفارتـها، وتصاعد الدخان ثم صفرت من جديد واهتزّت، وانطلقت في خليج سـالونيك. وتجاوزت بسيتاليا وحاذت سالامين ثم دخلت في عرض البحر باتجاه شواطئ ابينا المعروفة.

وعند وصوله استقبله سكان ايينا على رصيف الميناء بحماس شديد. وقد شعروا فطرياً بأن شفاء جزيرتهم وازدهارها يأتيانهم مع هذا الشيخ البسيط، هذا الأسقف المشغوف بالوحدة والذي عزلته الاسكندرية.

وفي الدير كان عيد عظيم للراهبات.

ونزل نكتاريوس مؤقتاً في الجناح الذي شُيد بمال الأرملة كالافري، وهو هبتها الأولى. وانتهى تشييد الكنيسة الجديدة بفضل المدخرات الكثيرة والهبات. فأهديت الى الثالوث المسجود له، الكليّ قدسه.

وهذا ما ملأ نكتاريوس بفرح سري جعله يتفاءل. وقد وُضع على المائدة مذخر صغير يحتوي على جزء من العليقة الملتهبة في جبل سيناء، وكان قد أهدي لنكتاريوس. وحُضِّرت للتكريس خدمة بسيطة ولكنها رائعة.

وفي ١٨ أيار تناول نكتاريوس الريشة ليكتب الى ساكوبولوس الذي كان كعصفور خائف ومريض، ينتظر مع عائلته في أثينا البرقية الخلاصية التي ستصل من بلاد النيل:

"ايينا في ١٨ أيار ١٩٠٨.

ابني العزيز بالرب قسطنطين، أهديك سلامي الأبوي. لقد استلمت رسالتك وأتمنى لك الشفاء التام. اهتم بحفل التكريس. راجع كتاب الأفخولوجي في الصفحة ٢٩١ حيث تم ذكر مختلف أنواع البخور وغيرها. نحن نملك منها في أثينا: ١- الشمع البكر، ٢- الصمغ العربي، ٣- الميرون، ٦ - اسفنجة جديدة، ٧- الأواني، ٨- الأنديمنيسي. فأرسل اليّ كل ذلك، وأرسل اليّ سريعاً القماش حتى نخيطه، والاسفنج الجديد الذي كان عندنا. تحياتي. أبوك الروحي".

وقد جرى حفل التكريس في ٢ حزيران بمزيج من الخشوع والتواضع والجو الاحتفالي.

وحضر الحفل معظم كهنة القرية، الى جانب رهبان وراهبات من الأديار المجاورة، وأناس من السهل، وبعض المزارعين والرعاة.

وكان نكتاريوس سعيداً جداً، يشعر بغبطة خفية لا توصف، ويحس بنفسه كالمهندس المتفاني في الأسطورة القديمة، الذي احتقره الملوك، فاعتزل في جبل وأخذ حجارة وطيناً، وبكثير من الصبر بنى قصراً مصغراً.

وكان غالباً ما يتمتم في أوقات اختلائه بنفسه:
-"أيها الآب الغير المدرك، والابن الوحيد، والروح القدوس، تقبّل من خادمك الغير المستحق هذه الهبة المتواضعة من الحجارة. أتوسل اليك ان تقبلها كصدفة على شاطئ البحر."

...يقول اشعيا في مكان ما ان الناس عندما يدوسون وصايا الرب الكلي الرحمة والضياء، ويعصونها بجميع أنواع الأنانية والظلم، فاذا شيدوا كنائس عظيمة من المرمر الثمين، فان الرب العلي يدير وجهه عنها. انه لا يباركها ولا يتقبلها ولا يرسل عليها نعمته المقدسة، بل يتخلّى عنها، فتبقى مجرد حجارة ميتة لا حركة فيها.

لكن يبدو أن الله العلي قد قبل الكنيسة الصغيرة المنعزلة التي تم تكريسها في ٢ حزيران من العام ١٩٠٨، وأجزل بركته عليها.

اذ لا ينقطع سيل نفوس المؤمنين الأرثوذكسيين الذين يتوافدون اليها من جميع أقطار العالم، لرؤيتها والسجود فيها.

وقد وضع نكتاريوس عند المدخل لوحة من الرخام كُتب عليها:
"شيد هذه الكنيسة المطران نكتاريوس أسقف المدن الخمس السابق، تمجيداً دائماً للاله المثلث الشموس. وقد وُضع حجر الأساس في أول تموز من العام ١٩٠٦، وجرى التكريس في ٢ حزيران من العام ١٩٠٨".

الجزء الرابع

الفصل الأول

+ (مز ٩١ : ١٣-١٤) "المغروسون في بيت الرب في ساحات الهنا يزهرون. وفي مشيب ناضر أيضا يثمرون".

+ (يو ٥ : ٧) "فأجابهم يسوع: أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل".

قد يتبادر الى الذهن أن هذا الكتاب سوف يتحدث الآن عن "الارتقاء الروحي" والسلام والتأمل، لأنه سوف يتناول سنوات العزلة في حياة رجل كنيسة. وهو ما يرجوه كل انسان في نهاية حياته العملية، وعندما يواجه مرحلة الشيخوخة.

ولكن يجب ألا ننسى أن الرب يرتضي أحياناً أن يزيد العمالقة الروحيين كمالاً بجهادات ترافقهم حتى نهاية حياتهم. وعندها يسمح للعدو، أمير الجحيم، بأن يتدخل بآلاف الطرق. وهو لا يُخرج العمالقة منتصرين فحسب في هذا الجهادات الأخيرة التي لن ينالوا من دونها اكليل البر، بل انه يسخر أيضاً من أقوياء هذا العالم وضعفائه. ويفضح المحارب الكسول الضعيف الذي لا يتحمّس لتسلّق القمم، ويجعله أضحوكة.

وهذا بالضبط ما حصل لأسقف المدن الخمس السابق!

ان الدير بمبتدئاته الوفيات الصادقات (على ما يبدو) كان مسرحاً يومياً للنسك والتجارب والصراع. وكان الصراع رهيباً وملتحماً مع الشيطان المدمّر والخبيث، سيد الجحيم.

وكان على نكتاريوس الذي تجذرت فيه روح التواضع بالعمق، أن يعيش في هذا المكان التجربة البشرية الكبرى: تجربة الصبر، ومعها تجارب التضحية من أجل القريب، والوداعة، والايمان الصادق اللامحدود: أي أن يستسلم كلياً الى المشيئة الالهية دون قيد أو شرط.

واذا كان الشهيد بعد تعذيبه والتنكيل به ينال اكليلا غير بالٍ عند قطع رأسه وتسليم روحه للرب، فان من يرضي الرب بصبر طويل جداً ويحمل صليبه دون تذمر، ينال المكافأة نفسها، وربما أكثر.

أما نحن، أناس هذا العالم المتجذرين في الأرض، فقد نتساءل: مــاذا يمكن أن يحدث بعد لهذا الأسقف المتقاعد المعتزل في وحدة هــذه الجزيــرة الندية القائمة كحبة زمرد في وسط خليج سالونيك؟ لا شيء على الأرجح، لا شيء خطير!

ومع ذلك فاننا سنرى فيما بعد أنه نادراً ما سيتسنى له تناول خــبزه بسلام، والتمتع بنوم هادئ، حتى آخر حياته.

ان بطريركاً أو مطراناً مقاماً على أبرشية واسعة يواجهان في كــل يوم جميع أنواع الهموم والمشكلات الادارية والانشغالات الجسيمة. وهذا أمر طبيعي جداً. الا أنه عندهما مجموعة من المستشارين والموظفين والمعــاونين من جميع الأنواع يساعدونهما.

أما نكتاريوس فكان وحيداً، وقد أتعبتــه تجــارب الحيــاة وخيبــات الأمــل، والوعظ والتعليم الاكليريكي، وعمله ككاتب، وأخــيراً الشــيخوخة! وحوله أنقاض وأكواخ والفقر والحرمان، وبعض النفوس التي مات لأجلــها المسيح: مبتدئات في التجارب، مشغوفات بالحياة الرهبانية، لكنــهن يجــهلن مقدار التضحية التي يتطلبها كمال الفضيلة، ولا يعرفن كيف يحاربن الأنانيــة والأهواء.

لقد أخذ على عاتقه أمام الله أن يتحمل مسؤولية هذه النفوس، فعليــه اذن أن يشمّر عن ساعديه وأن يواجه القوات السفلية التــي لا يعرفــها هــذا العالم، والتي تفوق أحياناً في عنفها وخطرها كل ما يُرى.

كان عليه أن يحفظ هذه النفوس من صدمات عواصف الحيــاة التــي تصيبها بالغثيان، وأن لا يجعل الخوف يسيطر عليها، ويترجّح مركبــها فــي جميع الاتجاهات.

لقد تجمّعت حول الضريرة كساني الممتلئة بالايمان والطاعة حوالــي خمس عشرة راهبة ومبتدئة خلال الصيــف، وصــارت تقــوم بمهمــة الأم الرئيسة. وفيما بعد سوف يُلبس نكتاريوس بعــض هــذه الفتيــات الاســكيم الكبير، ومن بينهن الراهبات القديمات من الدير المهدّم: أناستازيا ومــادلين، والأصغر ســناً : حنــة وأنوقنطيــا وأليصابــات وأوفيميــا وفبرونيــة وخريستودولا وخريستوفورا وثيودوسيا وبلاجيا وغيرهن.

وكان هم نكتاريوس الأول توجيههن الروحي ووضع نظـام لتحديـد كيفية الصلاة والعمل.

فتذكر أول معلق للشعب اليوناني: قزما الايتولـي: هـذا الرجـل ذا الغيرة الكبيرة والشهيد في سبيل شعبه، الذي كان ينادي فـي عصـره بـهذه الكلمات: المدارس، تعليم، وأيضاً مدارس". والذي كان يقول: "يجب أن يقـرأ اليونانيون المستعبدون الصفحات المستوحاة من الله. يجب أن يتعلمـوا، وأن يفهموا من هو الله، ومن هم أنفسهم".

كثيراً ما كان نكتاريوس يردد: "قزما العظيم".

فكان عليه اذن أن يحضـّر احدى غرف الدير لتكون مدرسة للفتيات الأميات واللواتي لم يحصـّلن غير تعليم بسيط!

هكذا اذن! لقد أعادته الظروف ومسيرة الزمان الى مهنته القديمـة، كما في وقت بدايته عندما وصل في صباه الى جزيرة خيـوس: لقـد عـاد مدرّساً في شيخوخته!

فاختار احدى غرفتيه وأحضر العمّال لكي يبيّضوا جدرانها بـالكلس ويرتبوها. ثم علـّق على الجدران بعض الخرائط الجغرافيـة والأيقونـات. فأصبحت المدرسة جاهزة!

وفي الوقت نفسه بدأ بتشييد مسكن له خارج الدير القديم. لقد كـانت الغرف المشيدة بأولى هبات الأرملة غير صالحة للسكن فـي الشـتاء: فـان ضيق مساحتها وانخفاضها يجعلانها كثيرة الرطوبـة لدرجـة أنـها تشـكل خطـراً على صحته، وكان يخشى أن يبقى العمل ناقصاً.

فاستخدم جميع مدخراته وكل الأموال التي كان يرسلها اليه معارفـه الأثرياء من أثينا والبيريه من أجل هذا البناء. وهو الذي لم يعمل في حياتـه شيئاً لنفسه، لكنه يجد الآن من الضرورة تحضير غرفة أو غرفتين صالحتين للسكن من الوجهة الانسانية على الأقل بالنسبة للذي سوف يخلفه ويتابع عمله من بعده. فخصص الجزء الأكبر من أمواله لهذه الغاية. وانقضت المرحلـة الأولى من اقامته في الدير في حركـة بنـاء محمومـة ممزوجـة بـالفقر والحرمان.

وقد كتب الى معاونه الأمين ومدير أعماله كوستي ساكوبولوس في ٥ تموز (لقد انتهى بهما الأمر بالطبع الى الانفصال، لكنهما بقيا مجتمعين بالفكر):

"عزيزي قسطنطين، أرسل اليّ البن، و٢ كيلو ونصف من الجلد لصنع خفاف نسائية؛ يلزمنا اذن جلد من النوع الرقيق جداً. أنا بخير والحمد لله. اني أبني البيت خارج الدير، وأرجو أن ينتهي العمل فيه خلال شهر".

وتذكر نكتاريوس، الى جانب مشاغله كمدرّس، جميع تفاصيل مهنة الاسكافي التي تعلـّمها عندما كان راهباً في خيوس.

وكانت معظم الراهبات ينتعلن خفافاً مهترئة كلياً فتظهر منها أصابع أقدامهن. فاختار نكتاريوس حجرة صغيرة وحوّلها الى مشغل اسكافي. ثم ابتاع من المدينة الأدوات اللازمة من مخارز ومطارق ومقصات وقوالب؟... وبدأ يرتق الخفاف الممزقة. وفيما بعد سوف يعلـّم الراهبات هذه المهنة حتى يستطعن تأمين حاجاتهن الأولية.

وشملت المرحلة الأولى في تنظيم حياة الدير: النظام الداخلي، والمدرسة والسكافة، وتشييد البيت، والارشاد الروحي الأولي.

وقد أحب عمله كثيراً، وكان احساسه يقول له بأنه يتحول الى مهندس صغير. وغالباً ما كان يمضي الليل ساهراً رغم تعبه، للدراسة والكتابة. كان كالولد المطيع الذي لا يعرف أن يرفض شيئاً، ولا حتى لأشخاص تافهين ودون شأن، ولا هدف لهم في الحياة.

الفصل الثاني

+ (جا ٥ : ١٨) "واذا رزق الله الانسان غنىً وثروة وأتاح له أن ينعم بـــها، ويرضـــى بحظه منها، ويفرح بتعبه فيها، فهذا عطية من الله".

لم يتيسّر بناء البيت قرب الديـــر فـــي خـــلال شـــهر كمـــا كتـــب لساكوبولوس. لقد وثق بالعمال ولكنهم خدعوه. وعند انتـــهاء شـــهر آب لـــم يكـــن الجص قد انتهى بعد. ولحسن الحظ كان العمال قـــد وفـــوا بوعدهـــم وركـــبوا الأبواب والنوافذ.

وفي ابان الصيف، كان يلبس جبّتـــه القديمـــة المهترئـــة وقلنســـوته الرهبانية، ويجبل الاسمنت بيديه جنباً الى جنب مع العمال. وعندهـــا التغـــت بالفعل أوقات فراغه وتغيرت حياته. لم يعد له الوقـــت للراحـــة، ولا للتـــنزه بمفرده على التلال أو الشطآن، ولا للاستماع الى تغريد عصافير الغـــاب... أي كل ما كان يسعده. ان برنامجاً جديداً استأثر بأفكاره وقواه: وصار يعمـــل منذ الفجر حتى منتصف الليل.وكثيراً ما كان يلقـــي نظـــرة ســـريعة علـــى الأشجار ــ وكانت شغفه الكبير ــ ويفرح لرؤية هذه الصنوبـــرة الصغـــيرة المتنامية التي زرعتها مادلين منذ بعض السنوات. وكثيراً ما كان يتمتم:
-"يا للشجرة الجميلة، انها متنامية، خضراء متعافية. ليتمجّد الرب!"

وكثيراً ما كان يرى شيئاً يلتمع كالماس في وسط المرج الأخضر، قد يكون ذرارة عشب صغيرة أو قطعة من الزجاج المكســـور. وكـــان يحـــب البيوت المنثورة في الأسفل، هادئة، وكأنها غير مسكونة. فيملأه هذا المشـــهد بالفرح العارم.

وعندما انتهى تشييد البيت في بداية الخريف، انتقل نكتاريوس للاقامة فيه، وبدت على وجهه ابتسامة نشوة وذهول. فطلب من الراهبـــات اللواتـــي يتمتعن بأصوات جميلة أن يرتلن نشيد شكر لسيدتنا والدة الاله. فأنشدن أبياته بوداعة ومن أعماق القلب. فكان سعيداً لكل ما يحدث لدرجة أنه ترك لســـانه ينطلق ويخضع للحماس، وصار يقول ويردد:
-"ليبارككن الله..." ثم أضاف:

-"أحس اليوم بفرح صافٍ، وبحضور الرب. وأشعر بالطراوة وكأني مولـود جديد".

كما دعا أحد أصدقائه من جبل آثوس، من رسامي الأيقونات، وطلب منه أن يرسم أيقونة كبيرة لوالدة الاله. وقال له:
-"لا أملك الكثير من المال، ولكني أريدها كبيرة جداً".

فسأله الرجل:
-"هل تريدها ذات أسلوب بيزنطي؟
-"أنا أفضلها من الأسلوب البيزنطي طبعاً، ولكني لا أريدها منسـوخة عـن أخرى.
-"اذن يا صاحب السيادة، دعني أتصرف. سوف أرسمها بحسب الهامي: فتاة شابة، وسأشدد على نظراتها: فأجعلها مفعمة بصرامة وسلطة ملائكيتين".

فرد نكتاريوس:
-"حسناً، أرجو لك النجاح".

الفصل الثالث

+ (أيوب ٣٦ : ٣ و ٤) "أحمل معرفتي من بعيد وأنسب براً لصانعي. حقاً لا يكذب كلامي. صحيح المعرفة عندك".

+ (أيوب ٣٨ : ١ و ٢) "فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة؟"

ان سكان المدينتين، تلك الجموع التي لم تعد تراه، بحثوا عنه في كل مكان، وفتشوا واستعلموا، وفي النهاية وجدوه.

وصار الزوار يتوافدون الى الدير شيئاً فشيئاً. وكان معظم الفقراء عاجزين عن المجيء، عدا البعض منهم ، الذين كانوا يأتون حتى في الشتاء.

وكان ساكوبولوس يتجرع المرارة كل يوم، فان الانفصال أصبح أمراً واقعاً. ولم يكن يستطيع التخلي عن حلمه بخصوص مصر، الا أنه بقي وفياً ومخلصاً. لقد كان ذا نفس نادرة الوجود، وكعطية من الرب الى الأسقف المتواضع.

وأخيراً وجد ساكوبولوس عملاً في العاصمة وصار بامكانه أن يلعب دور المراسل لنكتاريوس. أصبح يلبي كل طلباته، وقد تابع الاهتمام بالمنشورات والمحاسبة والاشتراكات، كما في السابق. وكان يبتاع الطعام ويرسله الى نكتاريوس بأسعار جيدة، كما كان يقوم بدور صلة الوصل بين نكتاريوس وأصدقائه المقربين.

وكان شتاء ١٩٠٩ قاسياً جداً، وبارداً، حاملاً معه الأمراض والعوز. فالطبيعة أظلمت وفقدت ألوانها. وتكررت العواصف معيثة الفساد في الحقول.وصار الرعد على هيئة سلالم ممتدة بين الغابة والسماء الواطئة، وانشطرت بعض الأشجار الى جزئين. وبعد انتهاء العواصف كان يخيم على المكان صمت شبيه بصمت القبور.

وصار نكتاريوس يقتصد في كل شيء، حتى في كمية قليلة من حبوب الفاصولياء أو الفول. وكان يتجنب الأكل مساءً. وأحياناً أيضاً كان يدّعي المرض ويذهب الى النوم دون أن يتناول غير كوب من النقاعة.

وبعد ظهر أحد الأيام من شهر نيسان وقبل صلاة الغروب بقليل، كانت الجزيرة تفيض بالعطر، وبعض الغيوم البيضاء تعبر السماء بهدوء مثل أشرعة المركب، تلقى نكتاريوس زيارة أحد اللاهوتيين العلمانيين، وكان أحد تلاميذه في ريزاريو. وقد أحضر له هدية مجموعة من الكتب الفرنسية المهمة. ولكنه وجده غارقاً في حفر بئر، ولم يتعرف اليه بسبب نحوله وشحوب وجهه وتقدمه في السن. فقال في نفسه:
-"كم هو منهك هذا الرجل! لقد أصبح شديد النحول! ماذا حلّ بالعلم والكرامة؟"

واذ بدّل نكتاريوس جبّته وغسل يديه المليئتين بالوحل لاستقبال الزائر، بقي الشاب يحدق فيه، ثم قال:
-"يا صاحب السيادة اني وبعض الأصدقاء، قدامى تلامذة المدرسة، نشعر بالحزن..."

فسأل نكتاريوس:
-"بسبب الفوضى في هذا العالم؟
-"أية فوضى؟... نحن نشعر بالحزن بسببك يا صاحب السيادة.
-"بسببي؟ يا للغرابة. فأنا كما ترى على قيد الحياة، وبصحة جيدة، وما زلت أعمل. لم أترك بعد هذا العالم المليء بالغرور.
-"أنت بالطبع على قيد الحياة... لكن كيف أقول لك؟ مثل هذه العظمة الروحية! ان أسقفاً مثلك يمكن أن يصبح مجداً للكنيسة...
-"عن أية كنيسة تتكلم؟
-"ولكن ليس هناك غير كنيسة واحدة...
-"كلا فالمجد ليس للذين في وسط الجهاد بانتظار الدينونة. ان المجد هو في مكان ما في الأعالي، في الكنيسة الظافرة.
-"بالطبع فأنا لا أعارض هذا الأمر. الا أن الكنيسة المجاهدة بحاجة لأشخاص قادرين وبارزين حتى تتطور وتنمو.
-"ماذا تقصد؟
-"أن تنتهي شخصية بهذه الفرادة في الظلام وفي المنفى بهذه السرعة! أن ينتهي بك الأمر الى رتق الخفاف كما قال لي كوستي! خفاف الراهبات! كم

يتفاقم الشر والظلم في أيامنا هذه. ان العدالة هي في صف الأقوياء والمتملقين والدساسين".

فجمد نكتاريوس في مكانه وهو يحدق فيه. ولم يستطع أن يضبط نفسه عن الارتعاش. كان هذا الرجل أنيق الملبس الى آخر درجة، أشقر، زهري الوجه، سميناً. وكانت عيناه تلمعان بطريقة غريبة ومتحدية. فسأله نكتاريوس:

-"ماذا تعمل؟

-"اني أدرّس بالطبع... في عدد من الجامعات. ولكني لا أبحث عن وظيفة في الدولة. بل أنوي التخصص في القانون الكنسي، والقيام ببعض الدراسات المتعلقة ببتولية الأساقفة".

فتمتم نكتاريوس:

-"الحياة المهنية للطالب الجامعي، وحسن الحرفة، والنجاح كما يقال في الغرب... لكن ليست الحياة المهنية علىهذه الأرض هي التي تؤمن لنا البطاقة.

-"أية بطاقة؟

-"البطاقة الى الحياة الأخرى، الى الأبدية".

فابتسم الزائر وقال:

-"ان كل كلمة يمكن أن تناقضها كلمة أخرى* يا صاحب السيادة. الا ان هناك مفتاحاً من الذهب: فاذا أراد بعض الأشخاص المتنفذين مثلاً أن ينشروا مؤلفاتك ويؤمنوا لها النجاح لاستطاعوا. واذا لم يريدوا فيمكنهم أن يحيكوا حولها مؤامرات من الصمت، فتتلاشى وتسقط في النسيان.

-"لم أكتب في سبيل المجد، بل بدافع من الواجب.

-"هذا هو المفتاح بالضبط. أنت تقول اننا لسنا بحاجة للمجد، وهذا أمر مضحك. اذ عندما أرى أن احدى مقالاتي قد نشرت مع اسمي بالخط العريض في الصحف الواسعة الانتشار، فاني أشعر بالسعادة. وأكون فريسياً لو قلت عكس ذلك. انها مكافأة روحية بالنسبة اليّ ورضى داخلي. فهل هذا سيئ؟ اني أشعر بأني أعمل روحياً وقد نلت المكافأة على تعبي، وأن عملي مفيد.

-"حسناً ما العمل؟ لنتكلم عن أمر آخر بما أننا لسنا من الرأي نفسه.

---

* قول للقديس غريغوريوس بالاماس (الثلاثيات).٢٣٩.

-"لماذا يا صاحب السيادة؟ هل أنا على خطأ؟ وهل من المسموح أن يكون شخصان جامعيان ومدرّسان للعلم المقدس على خلاف؟
-"هذا متعلق بوجهات النظر. ان رأي العالم ومجده لا يهمانني في شيء يا صديقي العزيز. أنا لا أهتم الا بما يعرضه عليّ الرب، وبحسب ما يلهمني اياه.
-"وهل الرب هو الذي أمرك بأن تنعزل في هذا المنفى مع هذه النسوة الجاهلات؟
-"لنتكلم عن شيء آخر... سوف تكون لنا كلنا النهاية نفسها، عاجلا أم آجلا. ولن يستطيع أحد أن ينجو من الاستجواب. هل تناولت بالدرس القديس يوحنا السلّمي؟ أقول لك من جديد يا صديقي العزيز ان لا أحد سينجو من..."

لكن الزائر لم ينفك يقاطعه ليدافع عن آرائه بمهارة كبيرة. وكان يجد لكل كلمة ما يناقضها مباشرة. وقد استعمل أسلوب المناقضة بكثير من البراعة والمنهجية لدرجة أنه كان من الصعب الرد عليه بالاستناد الى المنطق وحده.

وفي الليلة التالية بقي وجه هذا التلميذ السابق، الأشقر والزهري اللون، ماثلاً أمام نكتاريوس طوال الليل، مبتسماً بتحدٍ وسخرية ومتمتما له دون توقف:
-"عمود من أعمدة الكنيسة في المنفى... كم يتفاقم الشر في أيامنا هذه !..."

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، بعد القراءة التي تلي وجبة الطعام، وحوالي منتصف الليل، اقترب نكتاريوس من الايقونسطاس في غرفته، ومن أيقونة والدة الاله الكبيرة التي أرسلها اليه الراهب من جبل آثوس. ورسم اشارة الصليب على صدره ثلاث مرات، وجثا على ركبتيه وهو يقاوم دموعه. ثم قال ببطء وبكثير من الحنان:
-"سيدتنا، أنت التي تتشفعين من أجلي، لقد جاء اليوم المخادع القديم لكي يمزقني ارباً، وربما لاحظت ذلك... وهو يستعمل سلاحاً لا يقاوم : حجة أن واجب الأسقف الاسهام في عمل الكنيسة المجاهدة. وقد يكون على حق بالطبع لو أنني ابتعدت عن القطيع الكبير والشعب السائر في الصحراء بحجة الصلاة لابنك قليلاً بتحسّر... لكنك أنت عالمة يا سيدتي بحقيقة الوضع لأنك تعرفين جميع العذابات التي لا أستطيع وصفها والآلام التي عانيت منها

مؤخراً في قلبي. فأتوسل اليك الا تتخلّي عني، والا تدعيني وحدي في الشك والاضطراب. فاني رجل من دون أهمية وأقوم بعمل دون أهمية..."

وبدا أن العذراء الكلية المجد تبتسم بوجهها الفتي، وكأنها تريد التعبير عن الحنان والحماية والعطف.

فهدأ نكتاريوس وأحسّ بنسيم السلام العليل يهب في قلبه.

وفي تلك اللحظة خيّل اليه أنه يسمع جرس صلاة السحر. فرسم اشارة الصليب وأشعل قنديله. فرأى حينئذ في غرفته ثلاثة ظلال أصبحت بعد قليل خيالات نسائية، وبدا أنه يعرفهن. فقال في نفسه:
-"انها رؤيا. لا بد أني مرهق بسبب قلة النوم".

لكن الغريب أن هؤلاء الأشخاص كانوا يروحون ويجيئون بصمت الواحد خلف الآخر، من مكتبه الى غرفة نومه دون توقف.

فاستوى في مقعده وقد ملأه العجب، وحبس أنفاسه وجحظت عيناه. وتساءل:
-"هل هن حاملات الطيب؟"

ثم لم يعد يراهنّ للحظة، وقد توقفن عن الرواح والمجيء. فنهض وهو يتمايل، وعاد الى الأيقونسطاس واقترب مجدداً من الأيقونة الكبيرة وقال:
-"سيدتنا، أهو العدو من جديد؟ هل يستعمل الفخاخ للايقاع بي؟ أنت تعرفين بأني كثير الحذر تجاه الأحلام وخصوصاً تجاه الرؤى. وأعرف أنه بانكار الذات وباحتمال جميع أنواع الآلام يمكن للمرء أن يصل الى هذه المنطقة الالهية التي أهِّلتِ للاقامة فيها، أنت يا صاحبة القلب الكثير العذوبة الذي جاز فيه السيف الرهيب..."

وما ان عاد الى هدوئه حتى راح يبدل ملابسه. وفي تلك اللحظة ظهرت من جديد الخيالات الرائعة الثلاثة. فترنّح نكتاريوس لكنه حافظ على هدوئه وقال: "يا الهي".

وعندها سمع كالموسيقى المتناغمة لسمفونية، تشابه خاتمة صلاة مرنّمة: ألحان رائعة أرضية وسماوية في آن. وتلا ذلك صمت سمع نكتاريوس خلاله أصواتاً بشرية قريبة وبعيدة في الوقت نفسه. وقالت احداهن:

-"سيري أمامي يا ثيودوسيا."

وسألت الأخرى:

-"هل تتبعينني يا باراسكيفي؟

-"دائماء وأنت يا أناستازيا؟"

وقالت الثالثة بصوتها الشجي الذي يشبه غناء العصفور، وكأنها تقول الخاتمة:

-"سأصل بعد نهاية الترتيلة الملائكية".

ثم اختفت الرؤيا.

وجمد نكتاريوس في مكانه، وهو يحمل جبّته في يده، هذه الجبة السوداء كثوب الحداد في وسط العالم.

هكذا فقد كلّ المجاهدات الثلاث المحبوبات، العذارى الشهيدات اللواتي طالما أنشد لهن وأكرمهن أثناء السنوات الصعبة في بداية حياته الرهبانية.

لقد أعطى اسم ثيودوسيا الى احدى راهبات ايينا الصغيرات السن. وكانت صاحبة عينين زرقاوين ونظرات ملائكية، وقد حصلت على موهبة الاذن الموسيقية وكانت ترتل الألحان البيزنطية بطريقة رائعة.

فتمتم نكتاريوس:

-"من الضروري أن أكمل هذه الثلاثية المقدسة وأن أجد الاثنتين الباقيتين".

أينما كان ودائماً رقم الاله المثلث الشموس، الرقم الالهي.

ثم ارتدى ملابسه، ومشط شعره وخرج باتجاه الكنيسة لاقامة الصلاة. وبعد الصلاة شرب كوب الشاي الجبلي مع قطعتين من البسكويت الجـــاف، ومن ثم جلس يكتب رسالة الى جبل آثوس، الى الاخوة دانيال، ليطلب منــــهم أن يرسموا له أيقونة من القياس الوسطي تمثل الشهيدات الثلاث العظيمـــات: القديسة ثيودوسيا، والقديسة باراسكيفي، والقديسة أناستازيا.

وامتلأ قلبه بفرح لا يوصف عندما وصله طلبه بالبريد بعد شـــهرين. ففتح الطرد بتأثر مكتوم، وتناول الأيقونة وبدأ يديرها في يديه مثــــل تلميـذ صغير تلقى كهدية، كتاباً زاهي الألوان. وقبّلها باحترام ثلاث مرات ثم حملها مباشرة الى الكنيسة ليضعها على المذبح. وقد بقيت هناك حتى وفاته، وبعدها ببضع سنوات.

الفصل الرابع

+ (مر ١٢ : ٢٤) "فأجاب يسوع وقال لهم: ألستم لهذا تضلّون، لأنكم لم تعرفوا الكتب ولا قوة الله ؟"

في تلك الأثناء رأى نكتاريوس أحد مؤلفاته الروحية من أجل الحقيقة يحظى ببركة الرب ويُطبع ويُنشر في جزئين وُضعا تباعاً في الأسواق.

منذ زمن وهو يحزن لما يصدر من رسائل بابا روما وللمحاضرات اللاهوتية العالمية بصدد انشقاق الكنيستين.

وبدءاً من العام ١٨٩٥ بشكل خاص، كان قد باشر بالقيام ببحث تاريخي منهجي دقيق، باصرار وصبر. وكتب دراسة ممتازة تناول فيها دواعي الانشقاق التاريخية، وأسباب استمراره، وطرح مسألة وحدة كنيستي الشرق والغرب. وجاء عمله لاهوتياً جميلاً جداً، والأرجح أنه كان فريداً من نوعه. وقد ألقى ضوءاً صافياً على الحقيقة المرّة: ان الأرثوذكسية الشهيدة هي دائماً ضحية للافتراء، ودائماً مهاجمة، ومهانة.

وكان يرى أن عصمة الكرسي الرسولي في روما ورئاسته هما من ابتداع سياسة دنيوية مليئة بالغرور.

وقد اهتم أحد رهبان جبل آثوس بطبع الجزء الأول من الكتاب عند باراسكيفا ليونيس، ويدعى بناريتوس الكريتي، وهو رسّام أيقونات. وقد وُضع الكتاب في الأسواق في العام ١٩١١ مع اهداء حار بقلم الناشر: "الى ملكتنا الكلية القداسة، والدة الاله الدائمة البتولية مريم التي تحمي وتصون جبل آثوس وجميع المسيحيين الأرثوذكسيين، من الراهب الحقير بناريتوس من سكيت "القلالي المحروقة" المقدس في جبل آثوس، تعبيراً عن احترامه وعرفانه بالجميل..."

بعد ذلك وضعت المقدمة التالية للكتاب بقلم القديس نكتاريوس:"الى القراء الأحباء: يشرّفنا أن نعلن لجميع المؤمنين في الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية الوحيدة، عن نشر كتابنا حول الانشقاق الذي حصل بين الكنيستين الشقيقتين الشرقية والغربية. ونتناول في هذا الكتاب دوافع الانشقاق وسبب استمراره، وامكانيات وضع حد له، الى جانب أسباب صعوبة الاتحاد.

"ويمكن أن يكون عنوان هذا الكتاب: "تاريخ الانشقاق"، لأنه قد كتب بدقة وحياد استناداً الى الحوادث التاريخية. اذ ان هدفنا هو البحث عن الحقيقة، والحقيقة وحدها، واعلانها من أجل الدفاع عن كنيسة الشرق. والواقع أن لاهوتيين خطرين وأخصائيين في الشرع الكنسي في كنيسة الغرب قد درسوا هذا الموضوع من وجهة القانون الكنسي، وهم يتهمون كنيسة الشرق بأنها المسؤولة عن حدوث الانشقاق واستمراره".

وكان سبق لنكتاريوس أن نشر قسماً كبيراً من الجزء الأول من الكتاب في صحيفة جمعية اكليروس أبرشية أثينا عام ١٨٩٥.

ثم نشر الجزء الثاني على نفقته الخاصة بمساعدة حوالي عشرة أصدقاء. واليكم أيضاً مقتطفاً من مقدمة القديس:

"ان ما دفعني لأكتب حول انشقاق الكنيسة هو بالدرجة الأولى الرسائل البابوية التي يدعو فيها كل مرة بابوات روما القديسون والمغبطون كنيسة الشرق للاعتراف برئاسة خليفة الرسول بطرس، ويدعوننا الى الوحدة معهم، شرط أن نعترف بطاعة كاملة بأولية الرسول بطرس، تلك الأولية التي تحوز العدالة الالهية. والسبب الثاني هو احتقار حقوق كنيسة الشرق، وتشويه الحقيقة، وأخيراً الاهانات العديدة التي توجّه الى كنيسة الشرق من قبل مناصري البابا المتعصبين.

"ولقد دفعتني الى هذا العمل رغبتي في ايجاد الحقيقة التاريخية والدفاع عنها. وفي تقصينا لهذه الحقيقة، عدنا الى المنابع التاريخية التي تفحّصناها بعناية في العمق، حتى اذا اهتدينا بنور التاريخ نُظهر بواعث الانشقاق وحقوق الكنيستين المنفصلتين، وحتى نستطيع بالتالي أن نبدي رأياً حول امكانية اتحادهما. وأما الذين يبحثون هذا الموضوع مؤيدين أولية البابوات، فانهم يأخذون موقفاً عقائدياً، ويلقون مسؤولية الانشقاق على كنيسة الشرق، ويوجهون الى رؤسائها الشتائم الكثيرة معتبرين اياهم المسبِّبين

الوحيدين للانشقاق. وهؤلاء الكتـاب أنفسهم يلقون الحرم على أولئك الرجال القديسين، فمم كنيستنا الجامعة الرسولية، ويعتبرونهم المحرِّضين الوحيدين على انشقاق كنيسة المسيح، والمسؤولين الوحيدين عن استمراره، لأنهم يصرون على هذا الانشقاق ويجعلونه يستمر بسبب حبهم للمجد، ودون أي احترام للعدالة والحقيقة التي ينادي بها البابويون في خطاباتهم. ان هذه الخطابات الوقحة تعطي صورة خاطئة عن كنيستنا المقدسة ورؤسائها، وكل ذلك بنتيجة تشويه العدالة والحقيقة. وهذا ما يحزن قلب كل أرثوذكسي ورع. نعم ان أصل كل شيء هو أولية البابا..."

ان هذا الكتاب يُغني اللاهوت الأرثوذكسي غنىً كبيراً. وما دام في الغرب باباوات، وما دامت أوليتهم وعقيدة "انبثاق الروح من الآب والابن"، فان هذا المؤلَّف النضر، الصادق والأمين والنزيه، سيعيد الى كلمة حق المسيح مكانها الصحيح.

الفصل الخامس

+ (تك ١٨ : ٢٧) "فأجاب ابراهيم وقال اني قد شرعت أكلم الرب وأنا تراب ورماد".

+ (نح ٤ : ١و٢) "ولما سمع سنبلط أننا آخذون في بناء السور غضب وحنق حنقاً شديداً وسخر من اليهود. وتكلَّم بين أيدي اخوته وجيش السامرة وقال ماذا يفعل أولئك اليهود الضعفاء. هل يتركون، هل يذبحون، هل يُتمون في يوم واحد؟ هل يُحيون الحجارة من كوم وهي محترقة؟"

لم تكن الصعوبات لتنقص أبداً: كان يجب الحصول على الماء، وتحطيم الصخور، وشق الطريق، وبناء دار صغيرة للضيافة خارج الدير حتى يأتي ساكوبولوس ويمضي فيها نهاية الأسبوع. هذا الشاب الذي يمثل الدير في العالم بأمانة، ويعجز عن الانفصال عنه. وقد استطاع كوستي لحسن الحظ أن يجد له عملاً في مصرف ليونيد امبيريكوس، في ساحة القديسَين ثيودوروس، لحسن الحظ.

كثيراً ما تكون الضائقة المالية سبباً لليأس والتعاسة. لم يتوقف توارد المبتدئات الى الدير. ولم يكنّ كلهن بالطبع على مثال كريزَنتيا الضريرة، ذوات نفوس مختارة ومهيأة. بل كنّ يأتين من جميع فئات المجتمع، وكانت منهن الفقيرات والأميات والحالمات والواقعيات.

وصارت جميع هذه الصعوبات تؤلف الحياة اليومية لهذا الأسقف ـ الراهب الصبور، هذا الكاتب البحّاثة والرجل المعتاد على مآسي الحياة، وقد كانت لتنهك أياً كان وترهق كاهله. لقد صارت نسكه الذي ارتضاه فعلاً، وجهاداً متواضعاً وغير منظور.

ولا شك في أن هذا ما جعل العدو، سيد الجحيم، يزداد غيظاً تجاهه ويصرف بأسنانه. فقد رأى في نكتاريوس ليس فقط الوريث البغيض الذي سيأخذ مكانه في ملكوت السماوات، بل عاملاً في كرمة الرب سوف يجتذب غيره أيضاً.

وقد انتهز الفرصة المناسبة وطلب من البلاط السماوي الاذن بتعذيب نكتاريوس دون شفقة، عن طريق المفاجأة والغم.

لكن العدو القديم الذي لا يعرف الرحمة يجهل قدرة النفس البشرية على مقاومة العذابات والمكائد، ومقدار احتمالها ثقل الصليب، ومقاومتها لعذابات الافتراء الغادر. واذ يتلقى الاذن من العرش المقدس، ينقض على فريسته كالحيوان المفترس وكالطير الجارح الجائع، ويغرز براثنه في لحمها الطري بلذة. وعندما يفشل في عمله التدميري من الضربة الأولى، فانه يتراجع ويختبئ بانتظار العودة بطريقة أكثر وحشية وتدميراً.

لقد طلب من العرش المقدس وحصل على الاذن...

وها نحن على عتبة الحرب الأوروبية الأولى. عندما راح غليوم قيصر ألمانيا يزرع التهديدات يمنة ويسرة. وقد تجمعت ممالك أوروبا حوله أو ضده. وخافت الشعوب، ولكنها بقيت غير مبالية. وكانت أحياناً تغني وأحياناً أخرى تحبس أنفاسها منصتة الى صوت ريح الفاجعة.

أما في وطننا، فقد سارت الأمور بشكل أفضل نوعاً ما بعد الحروب البلقانية الظافرة. وعاد البلد لينعم تدريجياً بشيء من الازدهار الاقتصادي ، وقد استتب الوضع بعض الشيء.

وفي الدير استمرت الصلاة كالعادة، الى جانب التقتير والكد والعمل اليومي، والكثير من الدموع.

لقد انتهى بناء دار الضيافة خارج الدير، وهي تحتوي على ثلاث غرف.

وقد أصبح في الدير الآن أكثر من أربع وعشرين عذراء ينشدن الحياة النسكية: من مبتدئات وراهبات ومتوحدات.

وعندئذٍ وصل فجأة من أثينا والبيريه خبر مفساده أن المتروبوليت ثيوكليطس قد عاد عن موافقته الشفهية على بناء الدير، وأنه مغتاظ جداً، وهو يهدد بطرد الساكنين فيه وبتفريقهم، وهدم الدير.

وكانت حينئذٍ جميع مدخرات مؤسِّس الدير قد صرفت من أجل هذا العمل، تلك المدخرات التي دفع ثمنها من دمه، صابراً في التجارب والتعليم والنسك. وكذلك مدخرات الكثير من الفتيات اللواتي أتين للعيش في الدير كراهبات، وأموال عدد كبير من الأصدقاء والمتبرعين والقرّاء والزوار.

وينبغي أن نشير الى أن عدداً كبيراً من الأصدقاء الأوفياء قد بدأوا في ذلك الوقت يتحدثون عن هذا العمل العظيم بكثير من المديح، وكانوا يأتون للزيارة ويقدمون المساعدات.

ان عمل عشر سنوات، عملاً تـُعقد عليه الآمال، ويُتوقع له مستقبل عظيم، وبرج الأجراس الكبير ذا الزوايا المحددة بدقة، والذي تم بناؤه حجراً فوق حجر، والأحلام والأمل والتفاني، كل ذلك أصبح مهدداً بالتقوّض والانهيار في لحظة واحدة، ليتبدد في الريح، فقط بسبب اعتراض أسقف غاضب وحسود.

وراح نكتاريوس يتمتم:"لن يسمح الله بذلك".

لكن هذا الخبر السيئ صار يتأكد يوماً بعد يوم، كلما وصل مركب جديد وزائر جديد. وحتى ساكوبولوس الحبيب المقيم في أثينا، فقد اشترك في المعركة: كان يصل في نهاية كل أسبوع على ظهر حماره حاملاً كدسة كتب دينية مع الأغراض المطلوبة، حاني الظهر، حزيناً، ويقول:
-"لقد جنّ ثيوكليطس من الغضب بسبب توسّع الدير، هذا ما يهمس به الاكليروس في أثينا. وسوف يأمر بحلـّه بين يوم وآخر".

أما الراهبات فقد استسلمن للبكاء والاضطراب والفزع. الى أين سيتم ارسالهن؟ وأين سيتابعن حياة الاستشهاد هذه؟ لقد كانت الأديار الأرثوذكسية الحقيقية والخلايا الروحية نادرة. وكانت تفتقد للموارد والحماية. وكان منها ما هو كثير الغنى والأملاك، الا أن الأساقفة كانوا يضعون فيها رجالهم المقربين ليصيبوا من مداخيل هذه الأديار حصة الأسد، ولهذا فقد كانوا يسمحون فيها بحياة كثيرة التهاون، مليئة بالخزي والتهتك.

وقال لهن نكتاريوس في أحد الأيام:
-"لا تخفن، فان الذي ترى عيناه كل شيء لا يدع أحداً يخدعه. وهو لن يسمح بتفريقنا. لنحافظ على نقاوة القلب، ولنبق متحدين بقوة. لنتحلَّ بالروح

الرهبانية، والايمان المنزه عن الرياء. ومن جديد سوف تتشفع بنا والدة الإله أمام ابنها ملك الملوك. والحقيقة أن المتروبوليت قد أعلمني في المدة الأخيرة بأنه يجب ألا أضيّع وقتي في الاهتمام بمباني الدير وحاجاته. ولمّح اليّ بأنه يفضل أن أسافر للوعظ في المدينتين الكبريين وضواحيهما، بسبب الجماعات الهرطوقية الجديدة. ولقد سبق أن اهتممت بالأمر وكرّست بعض الليالي لكتابة دراسة تاريخية حول الصليب المقدس، كان قد طلبها مني المتروبوليت ونشرت في صحيفة "الاتحاد" الخاصة بالكهنة، بغية تصحيح بعض الآراء المغلوطة التي نشأت في أذهان أشخاص يجهلون تماماً الحقائق التاريخية حول العثور على الصليب المقدس.

"وسوف أتم هذه الدراسة وأنشرها في أقرب وقت ممكن، وأهديها اليه. وآمل أن أجعله يغير رأيه وأن يصبح أكثر تسامحاً".

وفي فجر اليوم التالي، كتب الرسالة التالية:

"ايينا في ٧ آب ١٩١٣.
الى قداسته، ثيوكليطس متروبوليت أثينا ورئيس المجمع المقدس.

صاحب السيادة، لقد كنت أفضل ألا أهدر وقتك بكلامي عن ديرنا لعلمي بمقدار انشغالك، الا أني أجد نفسي مضطراً لذلك لحاجة ملحة. فان دير ايينا الذي تأسس ببركتك هو اليوم في وضع خطير وملح: اذ يلزمنا دعمكم المعنوي لكي يعترف القانون بشخصيته المعنوية، وأن تُقبل أنظمته الداخلية، ويصبح بامكانه تلقي الهبات والقيام بمعاملات الشراء والبيع، ويكتسب صفة المُلكية. والحقيقة أن الممثل الشرعي لحكومة أثينا في ايينا، السيد ليكوديس، قد أعلمني أن جميع العقود المبرمة والمشتريات التي أتمّت حتى اليوم هي دون قيمة بالنسبة الى الدير لأن جماعتنا لا تقتني الشخصية المعنوية. وباستطاعة البائعين أن يستعيدوا أملاكهم بسهولة، ودون عناء. وهكذا، وللاحتفاظ بالدير للراهبات، فقد جعلت منه ملكاً خاصاً بي، ولكن قيل لي بأن أخي وأبناءه سوف يرثونه بعد وفاتي. وسيكون لهم الحق بالمطالبة بالأملاك المنقولة والغير المنقولة. وعندما علمت الراهبات بكل ذلك أصابهن اليأس لما سيكون عليه مستقبل الجماعة. وأنا لم أقم بأي عمل حتى الآن لكي أحصل على موافقة الحكومة بالنسبة الى الدير لأن قداستكم قد أخبرتموني — وأنتم حتماً تذكرون ذلك — بأن موافقتكم كافية. ولكني علمت منذ مدة قصيرة

بأن قداستكم لا تعترف بالدير. وقد تكون هذه الاشاعة صحيحة أو مغلوطة، الا أنها انتشرت وقد جلبت الأذى للدير وما زالت حتى الآن.

"لقد قدّم السيد ميلونوبولوس لابنة أخيه وهي في الوقت نفسه ابنته بالتبني، بيتاً تفوق قيمته ثلاثين ألف دراخما، على سبيل الجهاز، لأنها تريد أن تصبح راهبة. الا أنه فرض عليها أن تكتفي بتقاضي الايجار خلال حياتها، على أن تعود ملكية البيت الى ميتم البيريه بعد موتها، لأن الدير لا يستطيع أن يقبل شيئاً بموجب وصية، لافتقاده الى الوجود القانوني. وقد تكررت هذه الحالة نفسها عندما رغب أحدهم بأن يهب لنا بيتاً آخر عن طريق الارث. والى ذلك فان الدير يوشك على فقدان مبنى ثالث أوصت به سيدة للدير بعد أن قدّم لها المساعدة الروحية.

"ومن جهة أخرى فان السيدة مارينا كرانيوتو قد أودعت في المصرف الوطني ألفي دراخما لصالح الدير، الا أننا نواجه خطر فقدان المبلغ لعدم استطاعتنا ارسال شخص موكل يحمل ختم الدير. ولقد أصابنا العجب الشديد عندما علمنا بما يطلبه المصرف. وهكذا ولاعطاء المصرف ومحامي السيدة الواهبة مستنداً رسمياً، قمنا بتوقيع وثيقة عند كاتب العدل يوكل بموجبها الدير الراهبة أناستازيا. ولكن المحامي أصرّ على وضع ختم الدير. وقد فكرت بالتزوّد بوكالة عند كاتب العدل، بصفتي المالك. ولكني أعجز من جديد عن اثبات كوني مؤسس الدير لكي أقوم مقام رئيس الدير. وهكذا فقد بقيت هذه القضية معلـقة ودون حل.

"ومن جهة أخرى فعندنا ثلاث راهبات ــ واحدة من أثينا تملك قطعة أرض في فاليرا، واثنتان من البيريه تملكان بيتين في هذه المنطقة ــ ونحن نريد أن نبيع هذه العقارات ونودع المال في المصرف الوطني باسم الدير. ولكن ما دامت الكنيسة لا تعترف رسمياً بالدير، فهو لا يملك الشخصية القانونية، ونحن نعجز عن التصرف.

"فنحن لا نعرف ما العمل.

"وقد دفعتني جميع هذه الأسباب الى الطلب من وزارة التربية والشؤون الاكليريكية الاعتراف بالدير وختمه. ولم أكلـّم قداستكم بالأمر لئلا أسبب لها الانزعاج. وقد فكرت بأن الأفضل هو أن تطلب الوزارة من

قداستكم الموافقة، لا أن تدعم قداستكم هذا الطلب لأن هذا كان ليزعج قداستكم برأيي.

هاكم الآن اذن المأزق الذي نحن فيه: فاما أن يحصل الدير على اعتراف الكنيسة والحكومة على أنه دير عادي تابع لأبرشية أثينا، ويعمل بحسب القوانين الكنسية الرهبانية، واما أن يغيّر اسمه وشخصيته، فتعترف به الحكومة كمؤسسة ثقافية جميع موظفاتها راهبات، على غرار ما يحدث في الكنيسة الغربية. ان حلّ هذا المأزق متعلق بورع قداستكم ومحبتها.

واسلموا بكل احترام، الى أخ قداستكم الحقير في المسيح.

أسقف المدن الخمس".

أنهى هذه الأسطر الأخيرة بحزن عميق: "مؤسسة ثقافية..." هل كان باستطاعته أن يفعل شيئاً آخر؟ والا فماذا يفعل ليحمل الصليب الذي تفرضه عليه معارضة أسقف أرثوذكسي مهووس؟

لو كان الأمر يخصه وحده لما كان الوضع خطيراً، فان "الجبال معتادة على الثلوج". لكن حوله مجموعة من النساء اللواتي يفتقدن للحماية وينتظرن باكيات. نساء تركن العالم وملذاته، ولبسن الثوب الأسود، ثوب التوبة والحداد السعيد.

كان الرب يرى ويعرف كم يتألم نكتاريوس لأجل الأرثوذكسية المصابة بجرح بليغ، والتي خانها الأمراء الذين يحكمونها.

في ذلك المساء، وفي ساعة متأخرة تقرب من منتصف الليل، تحاور نكتاريوس طويلاً مع والدة الاله:
-"سيدتنا، ها هي مشكلة أخرى تقلقني وتعذب نفوس الراهبات. ان مستقبلنا معلق بخيط رفيع. أنت تتنازلين دائماً لتغدقي عليّ نعمك. وأنا الشقي، ماذا يمكنني أن أهبك في مقابل جميع نعمك الثمينة للغاية؟ بعض الأبيات، وبعض الأناشيد الصغيرة... ولكني أثق ببساطة أمومتك، وأدير نظري عن جميع الغيوم السوداء، ولا أفقد الشجاعة. صلّي من جديد لسيد الكلّ الذي هو ابنك، لكي لا يدير نظره عن هذا المجهود التافه. على الأقل بسبب ألم هذه

النفوس البسيطة، فأنا أعتقد بأن لها منزلة أكثر رفعة عنده منا نحن الرجال الذين يقال اننا متعلمون".

وعندما أنهى هذه المناجاة المتوجّعة، التقت عيناه بنظر العذراء الكلية القداسة العذب، وكالعادة شعر بالاطئنان وبالارتياح العميق. لقد انتهت هذه المناجاة كحوار، اذ كانت ثقته بالحصول على موافقةٍ سرية ومباركة تتعاظم في سريرته كل لحظة.

وفي اليوم التالي، وبعد خدمة ليتورجية مليئة بالخشوع شارك فيها ما لا عدّ له من الملائكة ورؤساء الملائكة، استدعى الى مكتبه جميع الراهبات، "أعضاء الشركة المقدسة"، كما كان من عادته أن يدعوهن. واذ نظر اليهن بابتسامة عذبة، هادئة ومليئة بالايمان، قال لهن:

-"لقد كتبت الى المتروبوليت ما يجب أن أكتب. لا تجزعن، بل ثابرن على التوبة والأعمال الحسنة بفرح وثقة. نحن نؤمن بالله الحيّ والكامل الذي لا يخفى عليه أمر. فاذا سمح بالتجارب، فذلك لاتمام مهمة خلاصنا، تأكدن من هذا. والآن عدن الى عمل الفضيلة، ولتتابع كل واحدة منكن مهامها. وليكن أمام عيونكن دائماً مثل الرسول بولس الكبير وسيلا في وسط تجاربهما، عندما كانا في ظلمة السجن.

"ولننشد مثلهما، ودون توقف، أناشيد الرب، كما فعلا في تلك الليلة التي لا تنسى.*

"وليكن الرب معكن".

---

* (أع ١٦ : ٢٥ وما بعدها).

الفصل السادس

+ (يو ١٤ : ١) "لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي".

+ (أيوب ٣٨: ٣٣-٣٤) "هل عرفت سنن السماوات أو جعلت تسلطها على الأرض؟ أترفع صوتك الى السحب فيغطيك فيض المياه؟".

ومرّ الخريف وتبعه الشتاء، ولم يردّ ثيوكليطس على الرسالة. وقد زاد الحديث عن نزعاته المعادية ورغبته بهدم الدير. وكان ذلك يبدو أكيداً.

ولم يستطع ساكوبولوس أن يتبين حقيقة الأمور بوضوح، رغم الأسئلة التي كان يطرحها في محيط المتروبوليت. وكان حزيناً لهذا الأمر. لكنه كان يرجو في قرارة نفسه أن تكون تلك ارادة الرب، حتى ينجو الشيخ من كل هذا الفقر ويعود من جديد الى المكانة التي تليق بشخصيته الاكليريكية الفذة. وما كان ينفك لحظة واحدة عن انتظار اشارة من فوتيوس المقيم هناك في الاسكندرية: دعوة منه، أو حتى اعتزاله لأسباب صحية.

في هذا الوقت بدأ التحضير لطبع الدراسة التاريخية حول الصليب المقدس عند السيد باراسكيفا (١٦ شارع بيريكلس في أثينا)، وقد وُضعت في الأسواق في العام التالي. وكُتب الاهداء التالي على ورقة الغلاف الثالثة من الكتاب بأحرف كبيرة:

"الى قداسة متروبوليت أثينا ثيوكليطس الجزيل الاحترام، ورئيس المجمع المقدس، عربون اجلال كبير ومحبة أخوية، من نكتاريوس أسقف المدن الخمس".

واستمر العمل في الدير. وكان الايمان والصلاة والنسك يعطيهم من القوة والشجاعة ما يكفي لكل يوم. وكان نكتاريوس يعمل كل يوم تقريباً، إما في الحقول وإما في مهام التصليح، وإما في أعمال البناء الاضافية. وكان باتكاله على الارادة الالهية يقدم المثل الأول في الصبر، والبراعة في تفادي

المشكلات. وما تبقى له من الساعات القليلة الحرة، كان يخصصها بالدرجة الأولى للشعب.

ان نفوس هؤلاء المستعبدين لعملهم اليومي، نفوس هذا القطيع الصغير المتروك، كانت تعزية دائمة لنكتاريوس، كسلسلة من الزمرد بين السماء والأرض، وشهادة للرحمة الالهية.

وكان صياد من جزيرة بوروس يأتي كثيراً لزيارة نكتاريوس. كان محارباً للبحر والصخور، وأباً لعائلة، أحنى ظهره التعب وبدت على وجهه علامات السهر وضربات الموج المالح في الصيف كما في الشتاء. وكان يدعى العم ثيودوروس. وقد التقاه بالصدفة خلال صلاة غروب أحد الأعياد وتبادل الحديث معه بفرح، كعادته مع الكثير من المؤمنين الذين يجهل أسماءهم. وفي البداية طلب منه الصياد ببساطة أن يستمع الى اعترافه. وكان نكتاريوس يتمتع في ذلك الوقت ببعض اللحظات من الهدوء على رغم تعبه، فوافق مع أنه قد قرر عدم الاستماع الى الاعترافات، وحتى من قبل الذين يعرفهم.

ومنذ ذلك اليوم، وكلما وصل مركب العم ثيودوروس الى مياه ايينا بحثاً عن القريدس، كان الصياد يصعد الطريق ماشياً لمدة ساعتين، يملأه الاحترام وعرفان الجميل، ليقدم لنكتاريوس إما سمكة أبو مصقار أو أخطبوطاً، أو أية سمكة أخرى. وكان نكتاريوس يتأثر كثيراً بهذه الهدايا المفعمة بالحب وصفاء النية، والممتلئة بالبساطة والعطر السماوي. وكان كثيراً ما يفكر بها أمام المذبح، ويصلّي من أجل ثيودوروس وامرأته وأولاده الذين يجهلهم.

وفي أحد الأيام المريرة من بداية العام ١٩١٤، وكانت قضية ثيوكليطس ما زالت عالقة، وصل العم ثيودوروس الى مكتب نكتاريوس حاني الظهر، بثيابه الرثة وحذائه المثقوب، وهو يبكي بصمت ويداه فارغتان. وما أن التقت عيناه بنظرات نكتاريوس حتى أجهش بالبكاء. فسأله:

-"ماذا يحدث يا ثيودووس، ولماذا تبكي؟ هل فقدت أحد أفراد عائلتك؟

-"لا يا أبتِ، ان الأمر أسوأ بكثير.

-"أسوأ من ذلك؟ ماذا اذن؟

-"هناك كلاب تهجم على شباك صيدنا وتتلفها. وأنا أكثر من وضع الطعم ولكني لا اصطاد شيئاً. وأوشك على فقدان أدوات عملي، فأضطر لبيع مركبي وأفقد معه كل ما أملك. ها ان أولادي يبيتون دون طعام منذ أربعة أسابيع. وأخجل من أن أمد يدي لطلب الاحسان.

-"ما هي هذه الكلاب؟ أنا لا أفهم ما تقول!

-"ماذا يقال لها؟... أسماك القرش! انها قطعان من أسماك القرش! وهي تحمل معها المرارة والخراب أينما تحل.

-"على طول الشاطئ؟

-"أينما كان يا أبتِ العزيز، أينما كان. من أرميوني حتى أغيستري.

-"ولا ترحل؟

-"لا يا أبتِ العزيز، اذ عندما تحل مثل هذه المصيبة، فانها تبقى حوالي خمس سنوات، فتقضي على كل الأسماك. صدقني انها كارثة".

وعاد الى البكاء. فقال نكتاريوس:

-"لا تبكِ. اجلس وكل شيئاً. سنعطيك ما تيسّر عندنا، رغم أن وضعنا المادي سيئ جداً. ولكن أين هي أدواتك؟

-"تحت، في ايينا.

-"هل تمانع في احضارها الى هنا؟

-"أمانع يا أبتِ العزيز؟ بالطبع لا. فان المسيح، المعلم الكبير يستمع اليك أنت على الأقل."

فقال نكتاريوس:

-"وأنت أيضاً أكثر مني".

وفي الحال خرج العم ثيودوروس مسرعاً، وعاد في وقت متأخر من بعد الظهر حاملاً على رأسه سلتين مليئتين بالحبال السوداء والصنارات: لقد كانت هذه شباكه.

فابتسم نكتاريوس وتناولها منه دون كلمة. واذ رفعها بين يديه تنشق رائحة البحر. ثم أخذها الى الكنيسة ووضعها أمام المذبح وهو يفكر في صيادي بحيرة طبرية الأقدمين، المتواضعين والأنقياء، الذين جعل منهم الرب نواراً للبشرية.

ثم قال للعم ثيودوروس وهو يبتسم بلطافة:

-"خذها وارمها من جديد في البحر. وأرجو أن ترحل الكلاب".

وبعد خمسة عشر يوماً عاد العم ثيودوروس راكضاً وهو يقفز من صخرة الى أخرى حاملاً بين يديه سمكتين كبيرتين. وكان يصرخ كالولد الصغير وهو ما زال في الأسفل، عند الجسر الصغير:
-"يا أبتِ العزيز. يا أبتِ العزيز. تعال وانظر. تعال وتأمل يا أبتِ العزيز. قديسة هي يدك العزيزة ومباركة هي روحك. لقد رميتها حالاً بعد أن باركتها. وبالكاد تسنى لي الوقت حتى أرفعها. لقد رحلت الكلاب الملعونة وعاد الشاطئ مليئاً بالبركة. هناك أسماك لا عدّ لها ولا حصر يا أبتِ العزيز. أسماك يسيل لها لعابك. وطالما بقي العم ثيودوروس على قيد الحياة، فسيحضر لك منها. وحتى أسماك السلّور التي تحبها كثيراً".

فتبادلا النظرات وبدآ بالبكاء معاً. وقال نكتاريوس:
-"ان الرب طيب للغاية... شكراً للهدية. تعال، سوف ننشد له ذكصولوجية صغيرة".

الفصل السابع

+ (رو ١ : ٢١) "اذ انهم مع معرفتهم لله لم يمجّدوه كاله ولم يشكروه، بل سفهوا في أفكارهم وأظلمت قلوبهم الغبية".

+ (مت ٢٣ : ٣٧) "يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها، كم مرة شئت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها... ولم تريدوا!"

وتواصلت الشائعات عن الغاء الدير. حلّ الصيف ولم يكن نكتاريوس قد استلم كلمة شكر من ثيوكليطس لاهدائه الكتاب اليه. عند ذلك كتب نكتاريوس الالتماس التالي:

"التماس من نكتاريوس كيفالاس، متروبوليت المدن الخمس، بخصوص قيام دير في ايينا على اسم الثالوث القدوس، والاعتراف الرسمي به.

"ايينا في ٢٠ حزيران ١٩١٤.

"موجّه الى قداسة متروبوليت أثينا، رئيس المجمع المقدس، ثيوكليطس الجزيل الاحترام.

"لقد رغبتُ يا صاحب السيادة ببناء مذبح الهي لعبادة الاله الواحد الثالوث، فشيدتُ كنيسة في جزيرة ايينا على أساسات قديمة. وتقع هذه الأساسات في وسط أنقاض يقال انها كانت في الماضي لدير نسائي. وقد كرّستُ هذه الكنيسة الى الاله الواحد الثالوث الذي نعبده بالعقل والروح. ورغبت بمتابعة هذه المؤسسة المقدسة واعادة تشييد دير مقدس للعذارى في هذا المكان، كما كان في الماضي.

"وقد أردتُ من ناحية أخرى أن أحسن الى بعض العذارى اللواتي نذرن أنفسهن للرب، فكرّستهن للخدمة الالهية. وقد تحولت هذه الأنقاض الى دير الهي للعذارى، وهو برأيي يجمّل هذه الجزيرة الواقعة ضمن أبرشيتكم.

"ولم يكن هذا الأمر في البداية سوى محاولة. أما الآن فاننـــا نتقـدم بمعونة الرب، ولهذا أتجرّأ على ابلاغكم بالموضوع رسمياً وبكـل احـترام، لأنكم تمثلون السلطة الاكليريكية التي نتبعها. لذا جئت أطلب اليكم أن تدعموا بناء هذا الدير وأن تعترفوا به على أنه دير نسـائي واقـع تحـت الحمايـة المعنوية لأبرشية أثينا المقدسة.

"وأرغب يا صاحب السيادة في أن يصبح هذا الديـر مثـالاً لبقيـة الأديار، وفخراً لأبرشيتكم، ونموذجاً لجميع أديار هذه البلاد، وأن يكون مفيـداً لجميع اللواتي يقصدنه. وثقتي كاملة بأن قداسـتكم سـوف تعـالجون هـذه القضيـة وتضعون قانوناً للراهبات حتى يصبحن نماذج للفضيلة والكمال.

"لقد اهتممنا بأمر معيشة الراهبات، ووفرنا لهنّ ملكية صغيرة يمكـن أن تتوسع كثيراً في المستقبل، بعد الموافقة والاعتراف الرسمي بالدير.

"واقتناعاً مني بمحبتكم الكاملة في الرب وتقواكم، فاني أنتظر واثقـاً موافقتكم واعترافكم بديرنا المكرّس الى الثالوث القدوس.

" وتقبلوا فائق الاحترام والطاعة".

وبعد ثلاثة أشهر نزل غضب ثيوكليطس كالصاعقة في رسالة رسمية وصارمة، مليئة بالاسنادات الى القانون الكنسي، وببغض شرس للرهبانيـة. وكان أهم ما تحتويه هذه الرسالة زعم ثيوكليطس أنه يجهل كل شـيء عـن حياة الدير في ايينا ووجوده.

ولم يكن من العسير القراءة بين السطور لاستشفاف بعـض الغيرة والحسد من المواهب الروحية الكثيرة، ومن أهمية هـذه الشخصية التـي اعتزلت العالم لكي تؤسس الدير. ان ساعي البريد هو الـذي أحضـر هـذه الصاعقة بشكل رسالة مضمونة مع اشعار بالوصول، وتحمل الرقـم ١٣٦٣. وقد جاء فيها:

"... ان روحنا تتعذب يا صاحب السيادة، لعلمنا بـأن قداسـتكم قـد أسست في ايينا شركة رهبانية نسائية يتزايد عددها كل يـوم، دون موافقتنـا ودون أخذ رأينا، وعلى مسؤوليتك الرعوية الخاصة. وأنك قد بنيـت قـلالي

معظمها من نفقة هذه النسوة، وشيّدت كنيسة، وأنك تدير كل ذلك وكأنك رئيس الدير بصورة رسمية.

"أنت لا تُلبس الفتيات ثوب الرهبنة فحسب، بل انك تجعلهن يقدمن النذور أيضاً... أنت تتصرف وكأنك كاهن هذه الشركة الجديدة، وتقوم بالخدم الليتورجية بمساعدة نساء ألبستهن الثوب الكهنوتي مع الأكمام والبطرشيل.

"ان روحنا تتعذب. انك تعرف جيداً قوانين كنيستنا المقدسة، وبخاصة القانون الرابع من المجمع المسكوني الرابع الذي ينص على أن "لا يخطرنَ في بال أحد تشييد دير أو كنيسة من دون علم أسقف المنطقة. فيجب عدم قبول أحد في الحياة الرهبانية من دون موافقة هذا الأسقف نفسه". وأنت تعرف أيضاً المقطع الأول من القرار الثاني عشر: "...يجب ألا يبني أحد ديراً من دون علم الأسقف وموافقته، ودون اخضاعه للسلطات الأسقفية".

"ولم تعمل قداستكم بالحجة المبينة أعلاه بل ضربت صفحاً عن كل ما جاء فيها. لقد قمت اذن بهذه الأعمال بمبادرتك الشخصية، ولهلاكك.

"أجل ان روحنا تتعذب يا صاحب السيادة، ليس لما تجرّأت قداستكم وقامت به فحسب، بل لأنك بحسب هذا القانون الرابع نفسه الصادر عن المجمع المسكوني الرابع ــ الذي يوجب علينا أن نكون حريصين فيما يختص بالأديار ــ تلزمنا الطلب اليك، نحن أسقفكم الشرعي بأن تكتب لنا تقريراً حول هذه الأمور:

١- لماذا وبأي هدف أسّست هذه الشركة دون علمنا ولا موافقتنا؟

٢- ما هو بالضبط عدد النساء اللواتي يؤلفن هذه الشركة؟ ولمزيد من المعلومات نرجو أن تتكرّم بارسال لائحة متسلسلة تفيدنا باسم كل فتاة وعائلتها وعمرها ومكان ولادتها، وتاريخ انضمامها الى الشركة، وتاريخ ارتدائها الثوب الرهباني، والشخص الذي سامها راهبة، وان كانت مكرّسة.

٣- ما هو عدد القلالي المشيّدة لسكنى هذه النساء؟ وما هو مبلغ المال المصروف؟ وما هو مصدر هذا المال؟ (اسم كل متبرع مع المبلغ الذي تبرّع به بشكل دقيق).

٤- ما هو القديس الذي بنيت الكنيسة على اسمه؟ وكم ارتفعت كلفة البنـــاء، ومن تبرع بالمال؟ ومن هو الأسقف الذي كرّســـها؟ وهــل تمــت مراســيم التكريس بحسب طقوس كنيستنا المقدسة؟ في أي تـــاريخ؟ وفـــي التأســيس والتكريس، هل تمت مراعاة جميع الاجراءات الاعدادية؟

٥- هل صحيح أن هذه النسوة يقمن بالخدمة خلال القداس الالهي وبقية الخدم الليتورجية وهن مرتديات الثياب الكهنوتية المذكورة أعلاه؟ وما هي وظيفـــة كل واحدة منهن؟

٦- علامَ تقوم الحياة اليومية للشركة، من وجهة قواعد الصحة، أي الطعـــام والسكن واللباس؟ ومن هو المكلـّف بالتموين، ومن هم الخدم، وكيـــف يتـم تنظيم المشتريات الضرورية؟

٧- كيف تدير قداستكم حياة الجماعة بشكل عام؟

٨- ما هو نظام الحياة الروحية والجسدية بشكل عام وبالتفصيل؟

"وكلنا أمل بتلقي رسالة سريعة بقلم قداستكم للاجابة على جميع النقاط المذكورة أعلاه.

ودمتم، أخوكم المخلص في المسيح،
ثيوكليطس متروبوليت أثينا".

وقد قرأ نكتاريوس هذه الرسالة وأعاد قراءتها. لقـــد قرأهـــا ســـبع مـــرات على الأقل.

ثم دخلت عليه مبتدئة شابة أصبحـــت فيمـــا بعـــد معروفـــة جـــداً، وأحضرت اليه القهوة التي لا غنى له عنها في أوقات الشدة. فسمعته يحـــدث نفسه قائلاً:
-"ليسامحك الله يا أخي! هكذا اذن، أنت لا تعرف شـــيئاً عـــن انشـــاء هـــذه المؤسسة المقدسة... لا تعرف شيئاً على الاطلاق؟"

ثم وقف ورسم على صدره اشارة الصليب ثلاث مرات وقال:
-"يسوع المسيح المخلـّص هو الغالب. لقد أتى غالباً لكي يغلب".

ثم عاد الى غرفة نومه، وركع أمام أيقونة والدة الاله وصلّى من أعماق النفس قائلاً:

-"اني أتألم يا سيدتنا، وأكثر مما أستطيع وصفه. ليس من أجلي شخصيً. وأنت تعرفين أني أنا العجوز أستطيع أن أعيش أينما كان. وقد كتب اليّ بعض النسّاك القديسين من جبل آثوس الواقع تحت حمايتك، داعين اياي لمشاركتهم نسكهم.

"اني أتألم بصورة خاصة من أجل هذه العذارى القديسات، هذه النفوس البسيطة والشريفة التي أوكلها اليّ ابنك".

ثم خرج من باب جانبي الى باحة تقع خارج الدير كانت تنمو فيه شجرة صنوبر أخرى. وكانت صلبة كالأولى، خضراء وذات ابر قوية. وكان المشهد الخريفي رائع الجمال. فبعد أن بدأ نزول المطر منذ بضعة أيام. عادت الأرض تتنفس من جديد مسرورةً. وكانت الشمس تدفع الضباب الى ما فوق الغابات، هذا الضباب الأحمر الذي ترتجف فيه شموس صغيرة. كان كل شيء يبدو ضاحكاً، حتى أصغر ذرارة من العشب. وبدت الغابات القريبة والبعيدة مثل أمواج من الذهب السائل. وكان السلام الخريفي يسيطر على كل شيء.

بعد ذلك صفت السماء واتسعت، وظهرت فيها سلسلة من الغيوم البيضاء الصغيرة التي راحت تخترقها من الشرق الى الغرب مثل قطيع من الخراف. وفي مكان ما من الأفق طار مالك الحزين مهاجراً خافقاً بجناحيه.

وتمتم نكتاريوس:

-"أيها الرب الكلي القدرة، ان كل فن وكل جمال هما من صنع يديك. وطالما أنشدت لك عصافير السماء وغنّت لك القبّرات، فان قلب الناس سيستمر في طلبك، أنت يا مصدر الحب. لا تبتعد عن عبيدك المتواضعين في وقت المحنة".

وقبل أن يكتب دفاعه الى هذا المتروبوليت الغاضب والمتصلّب، فكر في طريقة اخفاء الخطر عن الشركة، لتجنّب الذعر والاضطراب. وكان يجب خصوصاً ألا يستفيد الشيطان، أمير الظلمات وقاتل البشر، من يأس عام فينتصر.

الفصل الثامن

+ (يشوع بن سيراخ ٢ : ١ و ٢) "يا بني ان أقبلت لخدمة الرب الاله فاثبت على البر والتقوى وأعدد نفسك للتجربة. أرشد قلبك واحتمل، أمل أذنك واقبل أقوال العقل ولا تعجل وقت النوائب".

حوالي الساعة الحادية عشرة، وقبل الغداء، دعا نكتناريوس رئيسة الدير الأخت كساني الضريرة الى مكتبه. وكان وجهه في تلك اللحظة وجه الراهب المعتاد على المعاناة، تنيره نظرات حارقة تتأمل العالم بحرية ونقاوة. واذ رآها تقترب من مكتبه وهي تتحسس طريقها، قال لها بعذوبة:
-"أيتها الأخت الجليلة، الرب معك".

فأجابت:

-"بارك يا سيد."

فقال لها:
-"نعم حتى ولو مشيت في وادي ظل الموت فاني لست أخشى شراً لأنك أنت معي.* هل تؤمنين بذلك؟"

فأجابت بصوتها الشجي العذب:

-"تماماً يا صاحب السيادة.
-"لقد باشرنا عملاً نبيلاً ومفيداً لمجد الله، بقلب نقي وصادق، ولذلك فمن الطبيعي أن نتعرّض للتجربة، فهل أنتِ من هذا الرأي؟
-"نعم يا صاحب السيادة.
-"ان المخادع القديم يحارب هذا النوع من الأعمال. وبما أننا نسير بايمان نحو الهدف الالهي، فسوف يضع لنا العوائق. سوف يزرع طريقنا بالفخاخ ويعرّضنا للخطر. أتفهمين ما أعني؟
-"هذا يعني أن قرار المتروبوليت قد وصل؟
-"نعم.

---

* (مز ٢٢ : ٤) .

-"وهو يطلب حلّ الدير؟
-"كلا، بل مبرراتنا، وتقديم تقرير مفصـــل.
-"أي نوع من التبرير؟
-"ما يتعلق بالدير ونموه.
-"لكن، ألم نكن قد نلنا موافقته الكاملة عندما...؟
-"بالطبع.
-"اذن؟"

وهنا حلّ الصمت. ثم قال نكتاريوس:
-"لا تحزني، لقد سبق وقلنا ان الرب يرى كل شيء. سوف أحضـر التبرير للغد بهدوء وتأنٍ. وأما من جهتك أنتِ، فحضـرّي تقريراً يتضمـن لائحـة مفصلة بأسماء جميع أعضاء الشركة، اضافة الى تقدماتهم الماليـة، ووقعـي التقرير. هذا كل ما نستطيع أن نفعله.
-"هل تعتقد يا صاحب السيادة أننا سوف نطرد من هنا؟
-"لا أعلم، ولكني لا أعتقد ذلك. هل هذا الأمر يخيفك؟
-"سوف أبقى وفية لنذوري، وسأكون على استعداد دائم لتقديم حياتي للـرب. فهل هناك أجمل من ذلك؟ لكني أقلق على الأخوات، وعلى البعـض منـهن اللواتي قد ينهزمن بسهولة، ويتألمن، ويفقدن الشجاعة.
-"اذا كان الله معنا فمن علينا؟
-"اني أشكرك من صميم القلب.
-"أكرر أننا نعمل لمجد الرب، فسوف يترتب علينا أن نجاهد كل يوم تقريباً. ولا شك في أننا سنصاب بالجروح خلال هـذه الصراعـات... وسنقع... وسنواجه أهوال الاحتضار. ولكن في نهاية الأمر فان الرب هو الذي سيضع ختمه. ما رأيك؟
-"انك تتألم يا صاحب السيادة. انك تتألم بسببنا. وأتساءل ان كنا أهلاً لمثـل هذه التضحية من قبلك.
-"لقد قبلتُ بخوف الله أن أكون حاميكن، لذلك فاني سأبقى وأجاهد. وطالمـا حييت ووجدت أنكن وفيات للرب فاني لن أتخلى عنكن. ان افراحكـن هـي أفراحي وأحزانكن أحزاني".

فنهضت الضريرة، واذ انحنت لتقبل يده أجهشت بالبكاء.

الفصل التاسع

+ (١ كور ٤ : ١٥) "لأنه وان كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح ليس لكم آباء كثيرون لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالانجيل".

وفي اليوم التالي كتب نكتاريوس رسالة تبرير سريعة. وساعد رئيسة الدير الأم كساني في كتابة تقريرها المفصل حول تاريخ الدير، على قدر استطاعته. وقد احتوى هذا التقرير على تاريخ دخول كل راهبة وتصبيرها، وكان موجهاً الى "قداسة متروبوليت أثينا ورئيس المجمع المقدس، ثيوكليطس".

وهنا نورد مقطعاً من هذا التقرير لما له من فائدة في القاء الضوء على نفسية الأم كساني الضريرة، أول رئيسة للدير:

"اجابة على طلبكم، سوف أبدأ بسرد قصة وصولنا الى الدير. فعندما كنت أقطن في أثينا، ارتبطت مع بعض الشابات بعلاقة صداقة مبنية على الأفكار المشتركة والرغبة في الحياة الرهبانية.

"ولقد تعرفنا الى قديس المدن الخمس الذي عرفناه من خلال موعظاته كمعلـّم حقيقي للحياة الروحية. فذهبنا اليه وطلبنا منه أن يقبلنا كتلميذات عنده. وقد تكشفت لنا الحقائق الانجيلية بتأثيره، واهتدينا الى الطريق الحقيقي للحياة الروحية.

"وبنعمة الرب قَبِل طلبنا المتواضع، وصار يستقبلنا بعطف، وكنا مجرد فتيات مسكينات، وحدد لنا يوماً ثابتاً كنا نحضر فيه الى مدرسة ريزاريو. وقد دربّنا بمحبة وتفان، وكان يوجهنا ويقود خطانا لكي نسلك طريق الحياة السماوية. وبهذا كان قداسته يروي برفق عطشنا الى المعرفة، لا رغبة قلوبنا. والحقيقة أننا كنا نرغب بالابتعاد عن ضجيج العالم لكي نعبد محبوبنا، الرب يسوع المسيح، ولكي نستطيع أن نسكب قلوبنا في الصمت ودون انقطاع..."

وفي تمام العاشر من شهر تشرين الأول من العام ١٩١٤، وضع نكتاريوس رسالته التبريرية في البريد. وقد كتب فيها:

"الى قداسة متروبوليت أثينا ورئيس المجمع المقدس... فائق الاحترام. حمداً لله على كل شيء.

"اجابة على رسالتكم رقم ٦١٦/١٣٦٣ المؤرخة في... أفيدكم علماً بما يلي:

١- لم يتم تأسيس أي دير جديد في ايبنا، وخصوصاً دون علم...

٢- لقد زرنا بموافقة قداستكم أنقاض دير ايبنا القديم، لكي... بعض الفتيات المسكينات والتقيّات اللواتي رغبن في اعتناق الـ... النسكية. وقد أخذت على عاتقي أمر معيشتهن ومصاريف اقامتهن وأسهمت في اعادة بناء هذا الدير بمباركتكم وموافقتكم.

"وقد رافقني المختار، السيد بيباس، في زيارتي الأولى الى الدير، وكذلك الأب ثيودوروس، رئيس دير خريسيوليوتيسا الذي قال لي انه سوف يطلب من قداستكم تخصيص جزء من ميزانية ديره لدعم ديرنا. وقد عبّر لي السيد بيبياس عن رغبته في اعادة تشييد هذا الدير. ولدى عودتي الى أثينا، أطلعت قداستكم على زيارتي ومحادثاتي، وطلبت منكم الاذن بمباشرة هذا العمل على نفقتي الخاصة، وبأخذ مسؤولية هذه الشابات على عاتقي. وفي هذه الأثناء ذهبت الشابات الى ايبنا لزيارة الدير، وللاستعلام من مخفر الدرك عن امكانية سكنهن هناك دون خطر.

"وعندها أطلعتهن على ردكم في رسالة ما زالت موجودة حتى اليوم.ولإنعاش ذاكرتكم بهذا الخصوص، اذكّر قداستكم بأنكم أطلعتموني على رغبتكم في أن ترسلوا الينا الأم شياتراكو مع بناتها اللواتي يعشن حياة رهبانية، وقد رحّبنا بالفكرة وتمنينا حضورهن.

٣- بين أنقاض الدير كانت هناك كنيسة باسم سيدة الينبوع المحيي. وكانت على وشك الانهيار. فهدمتها بموافقة السيد المختار، وبنيت على أسسها كنيسة جديدة باسم الثالوث القدوس. وقد احتفلت بتكريسها بعد الحصول على اذنكم، وبعد أن استلمت الزيت المقدس من المطرانية... وأقمت الخدمة بالمشاركة مع ممثل قداستكم وكهنة... دعاهم مندوبكم بناء على طلبي.

٤- أما فيما يختص بالمبتدئات، فقد سألت قداستكم ان كان عليّ أن أطلب الاذن بالنسبة الى كل مبتدئة، فأجابتني قداستكم بأن هذا غير ضروري. ثم طرحت هذا السؤال من جديد في رسالة الى قداستكم عندما أعلمني تيموثاوس، أسقف كالافريتا وأيغاليا بأنكم غير موافقين على أن أستقبل المبتدئات من دون اذنكم. لكني لم أستلم أي رد على رسالتي فاعتبرت صمتكم بمثابة موافقة.

٥- فيما يختص بمساعِدات الشمّاسات، فأعلمكم بأنهن بالحري قندلفتات. ان لباسهن هو لباس القارئين في كنائس المدن. وقد أبقينا على الأكمام للأسباب التالية: لا وجود لشماس في دير للراهبات، كما انه لا وجود لكاهن. ومن جهة أخرى فاني لا أستطيع أن أهتم بنفسي بعملية تنظيف الكنيسة، ولا أن أقوم بوظيفة القندلفت. وأخيراً فلقد كان من الضرورة القصوى ايجاد أشخاص مكرّسين لتنظيف الأواني المقدسة، وتغيير أغطية المذبح، وحمل سلة القربان، والقيام بجميع مهام القندلفت في الكنيسة.

"لذلك فكرت أنه من الضروري تكريس راهبتين للتناوب على القيام بمهام القندلفت. وعند الضرورة القصوى فانهما تحملان الافخارستيا للراهبات في حالة المرض الشديد، في كأس صغير مخصص لهذا الاستعمال. وما خلا هذه الضرورة الاستثنائية، فانهما تقومان في جميع الحالات بعمل القندلفت.

٦- أما نظام حياة هذه الشركة النسائية، فهو كما سبق وقلت لقداستكم، نظام حياة رهبانية.

٧- وقد أوكلت ادارة الدير بكل بساطة الى الأقدم عهداً، لحكمتها وفضيلتها. وهي كريزنتيا ستروغيلوس الضريرة التي أصبحت الأخت كساني. انها هي التي تدير شؤون الدير، ولها يكشف أعضاء الشركة أفكارهم.

٨- وتعود اليّ شخصياً المهام الكهنوتية والسهر على الناحية المالية، وانهاء تشييد الدير وتوجيهه نحو الهدف الذي اختاره بملء ارادته.

"وها نحن نوشك على نهاية الأعمال التي باشرناها بموافقتكم يا صاحب السيادة، فنضع مسؤولية هذا الدير وحمايته بين يدي قداستكم لكي

تجعلوا منه ديراً نموذجياً، وهو الأمر الذي نرغب فيه، والـــذي سيشـرّف أبرشيتكم ويزيدها مجداً.

٩- تـُختصر قاعدة الحياة الجسدية والروحية بهذا: صوم معتـدل للجسـم، وتوحّد للنفس.

وأما فيما يختص بعائدات الدير، فقد طلبت من رئيسة الدير أن تكتـب لي لائحة مفصلة بمداخيله ومصاريفه، وتجدونها مرفقة بالرسالة.

بكل طاعة، نكتاريوس أسقف المدن الخمس."

الفصل العاشر

+ (١ بط ٤ : ١٧-١٩) "لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله. فان كان أولاً منا فما هي نهاية الذين لا يطيعون انجيل الله؟ وان كان البار بالجهد يخلص، فالفاجر والخاطئ أين يظهران؟ فاذن الذين يتألمون بحسب مشيئة الله فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين في عمل الخير".

+ (مز ٣٦ : ١-١١) "لا تغتظ من أجل الأشرار ولا تحسد عمال الاثم. لأنهم مثل الحشيش سريعاً ييبسون، ومثل البقل الأخضر عاجلاً يذبلون. اتكل على الرب واصنع الخير. واسكن الأرض وارع الأمانة. اطلب الرب فيعطيك سؤال قلبك. اكشف طريقك للرب واتكل عليه وهو يُجري وينشر برّك مثل النور وقضاءك مثل الشمس في الهجير. سلّم أمورك الى الرب وتضرع اليه، ولا تغتظ من أجل الذي ينجح في طريقه. من أجل الذي يرتكب المنكرات. أكفف عن الغضب ودع عنك السخط. لا تغتظ لئلا تأثم. لأن عمال الاثم سوف يستأصلون. أما الذين ينتظرون الرب فانهم يرثون الأرض".

كان الوقت يمر وقد ضعفت الشائعات حول تدخل المتروبوليت وحلّ الدير، وتوقفت. ولم يردّ المتروبوليت على الرسائل التي وصلته رغم أنها كانت تحرك المشاعر. لكنه لم يتوقف عن نشر التهديدات أينما حلّ، وكان يؤكد بأنه سينظف هذه البؤرة الملوثة في وقت قريب. وكان يقال من جهة أخرى ان المتروبوليت يواجه مشكلات كثيرة مع الحكومة.

في هذه الأثناء اندلعت الحرب العالمية الأولى وبدأت تنتشر. ووقعت أوروبا وجزء كبير من العالم في دوامة المجازر المتبادلة والتدمير. وسيطر الحرمان والمجاعة والخوف على شعوب كثيرة، فيما كانت البلقان عرضة لاضطرابات متواصلة.

يقال ان الوقت يحمل معه النسيان، الا انه يحمل معه أيضاً الاعتياد. وكان لا يزال يبقى ذلك الحل السيئ، وهو العمل على الاعتراف بالدير كجمعية ثقافية أسوة بالجمعيات الكاثوليكية، كمخرج من وضع بالغ القسوة.

وكانت سنة ١٩١٥ بكاملها تقريباً سنة حافلــة بالاضطرابــات فــي البلقان، وبجميع أنواع الفتن في بلادنا الصغيرة.

كانوا يعيشون في الدير في الخشوع ويتابعون عملهم مــع الصــلاة والأمل. ولكن نفس هذا الشعب، هذه الجماهير التي لا اسم لها، كانت تظــهر دائماً في مكان ما من حولهم...

وكانت نفس الشعب النقية التي يوجهها الرب نحو الخير والملكــوت السماوي لم تتوقف عن التفتيش والتعلـّم دون انقطاع، وعن مساعدة ســكان الدير بكل قواها في جميع حاجاتهم وجهودهم. وعلى سبيل المثال فقــد كــان عليهم في مساء أيام الجمعة أن يدفعوا أجرة العمال الذين يشتغلون في أشجار الزيتون أو في الحقول، والذين يعملون في البناء، أو فــي صيانــة الديــر. وعندما كان الصندوق يفرغ، كانت الراهبات العجوزات يضطربن.

وفي هذه الحالة كانت كل دقيقة من دقائق النهار تتحول لــهن الــى كابوس. وكن يقتربن من مكتب نكتاريوس حانيات الظهر، يائسات، فيسألهن:

–"ماذا يحصل؟

–"غداً هو السبت يا صاحب السيادة...

–"اذن؟

–"هل يعود العمال يوم الاثنين؟

–"بكم ندين لهم؟

–"بحوالي عشرة أيام عمل.

–"غداً أجيبكن...

–"غداً؟ في أية ساعة؟

–"قبل الظهر".

وعند المساء، وقبل أن يخلع ملابسه، كان يقترب من والــدة الالــه ويقص عليها بالتفصيل هذه القضية التي لا تنتــهي. وكــان يفــرح بســرد التفاصيل، وكثيراً ما كان يقدم لها تقريراً مالياً.

وفي اليوم التالي، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، وعندما يصــل ساعي البريد على حصانه الصغير مع الكيس المليء بالرسائل والصحــف، كان من المستحيل ألا تصل معه الهبات والمال من مصادر غير متوقعة على الاطلاق. وكان المال يصل أحياناً كثيرة من مصر، وكثيراً أيضاً من كندا.

وكانت النساء الهرمات يفركن عيونهن عندما كان يدعوهن قبل الغداء بساعة ونصف تماماً ليعلن لهن بلطف وبكل بساطة:

-"يمكن للعمال أن يعودوا نهار الاثنين.

-"ماذا؟ هل نملك المال يا صاحب السيادة؟

-"لقد أرسلت لنا سيدتنا المال، ونستطيع أن نسدد ديوننا.

-"وماذا عن الأسبوع المقبل؟

-"لا تتصرفن كناكرات للجميل. في الأسبوع المقبل سوف ترسل لنا أيضاً العناية الالهية شيئاً آخر".

والحقيقة أنها كانت دائماً ترسل الجديد، ولكن فقط في الدقيقة الأخيرة.

وفي تلك السنة، وبينما كان جسد نكتاريوس الأرضي يزداد ثقلاً بسبب الشيخوخة والتعب، كان عالم روحه الداخلي يولد باستمرار؛ ويزداد يقظة وحيوية وشفافية مع الوقت، ويقترب من الكمال: "يجب أن تولدوا من فوق. الروح يهب حيث يشاء... الذي يولد من الروح هو روح..."

وفي احدى الأمسيات، بعد صلاة الغروب، وعندما تسددت الديون كلها بمعجزة، رسمت احدى الراهبات الهرمات اشارة الصليب ثلاث مرات وشق تنهدها الصمت. وهي من الراهبات اللواتي كن هناك قبل مجيء نكتاريوس. فسألها بلطف:

-"لماذا تتنهدين يا أختي؟"

فأجابت بخجل:

-"ان كل شيء يتدبر الآن يا صاحب السيادة. ولكن ماذا سيحل بنا فيما بعد عندما تغادر هذا العالم، وتستدعيك السماء؟

-"آه لا تقلقي. فبعد أن أستدعى وأرحل سوف يصبح هذا الدير منارة مضيئة. منارة تلمع فوق جميع المحيطات. وسوف تعيش الجزيرة في سعادة.. ويرتوي سكانها من الذهب..."

وفي فجر أحد أيام الصيف، صعد نكتاريوس الطريق الضيق المتعرجة باتجاه المدينة القديمة. وراح يقترب من الكنيسة القديمة المهداة الى قديسه المحبوب ديونيسيوس، حيث كان يصلّي صلوات السحر ويقوم بالخدم الليتورجية. وكان ينصت الى غناء العصافير التي يحبها كثيراً

وفجــأة انتصب أمامه ثعبان. وضرب الهواء بذيله، ورفع رأسه مهدداً. لكن نكتاريوس لم يفقد هدوءه، بل رفع عصاه ورسم اشارة الصليب وقال:
-"ابق في مكانك ولا تتحرك! يسوع المسيح هو الغالب".

فزحف الثعبان مبتعداً قليلاً، ثم جمد في مكانه ورأسه مرفوع.

وبعد ثلاث ساعات، وعند انتهاء الصلاة، كانت الراهبات يحضــــرن القهوة فوق موقد يعمل على الكحول أحضرنه معهن. ولم يقــــل نكتـــاريوس شيئاً، بل استدعى أجيرين كانا يعملان في الكروم في مكان بعيد، وقال لهما:
-"خذا جحراً كبيراً واذهبا الى مكان كذا على التلة، وسوف تجدان ثعباناً نائماً في الأسفل. اقتلاه دون أن تخبرا أحداً."

ففعل الرجلان كما قال لهما: ورميا الحجـــــر مـــن الأعلـــى وقتـــلا الثعبــان. لكنهما دهشا كثيراً اذ لم يرَ أحد مثل هذا الوحش في المكان مــــن قبل على الاطلاق. لكن لمَ كان نائماً بهذا الشكل؟

أمر رهيب لا يصدق! ولم يستطيعا حفظ الصمت، ولا السكوت عـــن الحادث. فأقلقهما الفضول ليلاً ونهاراً حتى أجبرا نكتـــاريوس أخـــيراً علـــى اخبارهما القصة بكاملها، فأصيبا بالذهول التام.

*   *   *   *

وفي العام التالي اضطرب الوضع السياسي في بلدنــــا، فـــأدى الــــى النكبات. وكانت احدى أعظم هذه النكبات وأكثرهـــــا هــــولاً الانقســـام بيـــن اليونانيين الذي أدى الى سفك الدماء وذرف الدموع.

وفي الوقت الذي انتشرت فيه شائعة مفادها أن المتروبوليت سيحضر الى الدير برفقة عضوين من المجمع المقدس لحل القضية التي تكلمنا عنـــــها آنفاً، انفجرت أخبار الحصار من قبل الفرنســـــيين والانكلـــيز. ثـــم عُلـــم أن ثيوكليطس قد خضع لضغوطات عدة: فلقد انجرّ بالسياسة الى درجــــة القائـــه الحرم على الرئيس فنيزيلوس بشكل رسمي، واجتذب كامل المجمع المقـــدس الى صفه لما كان له من نفوذ. وكانت النتيجة أنه عندما فاز حزب الرئيـــس فنيزيلوس وتبع البلد كله الفرنسيين والانكليز الذين انتصروا، انعقدت محكمة

اكليريكية عليا وأدانت ثيوكليطس وجميع أعضاء المجمع المقدس وعزلتهم كلهم.

وحتى ذلك الوقت كان ثيوكليطس يرسل الى الدير كل شهر تقريباً أرشمندريتاً مكلفاً بالتحقيق، فيزج أنفه في كل مكان ويجمع الافادات حسب مزاجه.

وبعد سنة تقريباً اعتلى ملاتيوس ميتاكساكيس كرسي أثينا بعد أن كان متروبوليت كيتي في قبرص، وقد صار فيما بعد بطريركاً على القسطنطينية أولاً ثم على الاسكندرية.

وأدت جميع الأحداث التاريخية الغير المنتظرة الى تهدئة روع سكان الدير لبعض الوقت. وتمكنوا خلال تلك الفترة التي تفاقمت فيها المجاعة، وفرض فيها الانكليز الحصار البحري، أن يكتفوا بالقليل متفادين الخوف والقلق والموت. لقد كان دائماً على طاولتهم طبق ساخن يكفيهم للصمود والبقاء بصحة جيدة، من جهة بفضل غلال حقولهم ومن جهة أخرى بفضل المساعي الفعالة التي كان يبذلها كوستي ساكوبولوس، الذي انتقل من مصرف امبيريكوس للعمل في وزارة التموين كموظف منتدَب؛ وكان تارة يحضر القمح وتارة أخرى الخضار المجففة. وأيضاً بفضل الأصدقاء العديدين والتبرّعات التي لم تكن تنقطع.

وهكذا يمكننا القول انهم عاشوا في زاويتهم الصغيرة في ايبتا بالأمل الهادئ، خلال كل تلك الفترة التي كانت مأساوية ومضطربة بالنسبة الى العالم أجمع.

وكانت الحياة الروحية المرتكزة على دراسة الكتاب المقدس وخدمة الأسرار المقدسة، والنسك الرهباني والصلاة، تنتزع الأهواء وروح الشقاق ووساخات الغرور من جميع القلوب حتى أكثرها ضعفاً.

وتجاوز المؤسس والشيخ الروحي عامه السبعين وصار شعره يضاهي ببياضه بياض أشرعة المراكب. وعندما كان يقيم الخدم الليتورجية، وخصوصاً القداديس السابق تقديسها، كان يشعر بأنه اقترب من الرحلة الكبيرة. وكثيراً ما كان يشاهد الرؤى التي يلتقي فيها بالشهداء الأبطال المحببين اليه. وكانت تظهر له الملائكة ويرى صوراً سماوية، لكنه لم يكن

يقول عنها شيئاً. لم يكن يقول شيئاً لأحد، كان فقط ينحني بتقــوى، ويركــع بصعوبة ويقبــل المصلوب بعينين دامعتين. وكانوا يســمعونه يتمتــم مــن خــلال دموعه هذه الكلمات:

-"يا مصدر كل النعم، أيها المخلـّص، الحمل المذبوح وابن العذراء".

وكان مرة في دفن كاهن من ابينا، فرآه بعض أولاد الشاطئ مرتفعــاً عن الأرض مسافة متر تقريباً، فخافوا وركضوا الـــى أمهاتـــهم يخبرونـــهن بالأمر. فذهلت الأمهات ورسمن اشارة الصليب.

كان ذلك بالتحديد خلال مأتم الأب نيقولاوس موتساتســوس، كــاهن كنيسة القديس نيقولاوس الأثرية القريبة من الشاطئ. وكان هذا الكــاهن قـد الحق بالكنيسة منذ زمن طويل. وقد ماتت زوجته قبل أن يرزقا أولاداً. وكان رجل الله بحق، يحس بما هو خارج هــذا العــالم، منجذبــاً الــى الملكـوت اللامنظور، وصاحب قلب طيب وعذب مثل عشب الربيع. وقد أحـب الأولاد الذين حُرم منهم، وخصوصاً أولاد الصيادين الفقــراء، ولا سـيما صيــادي الاسفنج . فكان يجمع لهم ملبّس جميع الأعراس وجميع السكاكر ويضعها في أكياس صغيرة، ثم يذهب ويوزعها عليهم بحنان أبوي متنقلاً من مركب الــى آخر.

وكانت نفوس هؤلاء الأولاد التي ذاقت العذاب في وقت مبكر، تشعر بحضور هذا الكاهن وكأنه أم. وفي صباح أحد الأيام، وعندما ذاع خـــبر موته حزن جميع الأولاد الفقراء، جميـــع أولاد الصيــادين، ولا سـيما صيادي الاسفنج، وبدت عليهم ملامح التفكير الجدي. لقــد أحســوا بخــوف غريب أمام مظهر الموت والألم العميق. وقد حضر دفـــن الأب نيقــولاوس أكثر من مئة وخمسين ولداً أتوا عفوياً.

وكثيراً ما كان الأب نيقولاوس يستأجر حماراً ويذهب لزيارة مؤسس الدير الجديد خلال سنواته الأخيرة. وقيل انه كان يعترف لنكتاريوس.

وقد يكون لهذا السبب أو لسبب آخر أن دعـــا اكلــيروس الجزيـــرة نكتاريوس للمشاركة في خدمة الجناز. الا أن أولاد الشاطئ، هـــؤلاء الأولاد الذين عانوا كثيراً من مآسي الحرب، وارتموا باكراً في صراعات البحر، قــد رأوه بقرب التابوت وقد ارتفع عن الأرض حوالي المتر وخافوا.

وتناولت الأشعار الشعبية هذا الحدث وحولته الى أغنية تناقلها الناس بسرعة على هذا الشكل:

"الأب نيقولاوس الرحيم
أسلم الروح ورحل
والأسقف الراهب
المتوشح بالذهب
طار في العلى".

الفصل الحادي عشر

+ (أيوب ١ :٨-١١) "فقال الرب للشيطان: هل أملت بالك الى عبدي أيوب، فانه ليس له مثيل في الأرض. انه رجل يتقي الله ويجانب الشر. فأجاب الشيطان وقال للرب: أمجاناً يتقي أيوب الله؟ ألم تكن سيَّجت حول بيته وحول كل شيء له من كل جهة، وقد باركت أعمال يديه فانتشرت أمواله في كل الأرض؟ ولكن أبسط يدك وامسس جميع ما له فتنظر ألا يجدّف عليك في وجهك".

+ (لو ٢٢ : ٣١) "وقال الرب : سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة".

لقد ذكرنا آنفاً أن الأحداث التاريخية المفاجئة قد أبعدت من الدير لبعض الوقت أسباب القلق والمخاوف، وكذلك الاستجوابات والمضايقات المتواصلة التي كانت تسببها هجمات ثيوكليطس. وقد أدى ذلك الى حلول السكون الروحي وبعض السلام.

الا أن الشيطان، أمير الظلمات، كان قد حصل من العرش المقدس على الاذن بأن يخرق بسهمه المسموم قلب هذا المجاهد والكاهن الفذ، فبدأ يحضّر بغضب هجومه الأكثر هولاً وجريمته الأكثر دناءة.

فقد توقف حصار الانكليز في بداية العام ١٩١٨، وانتهت الحرب في أوروبا بهزيمة الألمان. فأصبح ملاتيوس ــ أسقف كيتي السابق في قبرص ــ متروبوليتاً على أثينا. وكان رجل كنيسة كثير الخصائل، حيوياً، متعلماً، وذا نشاط سياسي واكليريكي هام، إن فيما يختص بقبر السيد المسيح أو بالمشكلات الداخلية في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية.

وقد فاجأ الجميع في صباح ربيعي بدخوله دير ايينا بغتة برفقة شماسه، وقضى على كل أمل.

لقد وجد مؤسس الدير يحفر الأرض بالمعول، فامتعض للأمر، اذ رأى رجلاً متقدماً في السن يلبس الثياب الغير اللائقة ويتصبب عرقاً لكدّه في العمل المضني، وقد اتسخت يداه من الوحل. فأنّبه لذلك وأعطاه بعض

الملاحظات في هذا الشأن. فقد كان يرى أنه من غير المقبول ولا المنطقي أن يضيّع أسقف وقته في الأعمال اليدوية. وأمر بأن تقدّم اليه جميع الراهبات، وقام بطرح جميع أنواع الأسئلة وقد بدت عليه سيماء الصرامة والشك. ثم هزّ رأسه بطريقة غامضة ورحل.

وفي تلك اللحظة بالذات، وفي أسفل ايبنا، كان الشيطان يصرف بأسنانه ويتأنى بتحضير الضربة القاضية في هجومه بواسطة أحد المخلصين اليه: امرأة تخصته لم "تعرف الرب في حياتها". فقد كانت روحها تزداد غرقاً يوماً بعد يوم في وهم مأساوي وفان. لم تكن هذه المرأة من ايبنا، بل من جزيرة سيفنوس، وتعيش منفصلة عن زوجها. ويعرف عن زوجها أنه رجل هادئ، يملك مقهى ويديره مع ابنته التي كانت جميلة. وكانت هذه المرأة تدعى ايريني فراغودي. وهي تدّعي الفقر وتشكو من ظلم القدر وترتاد الأسواق والبيوت لتبيع الشموع والبخور. وكان الجميع يعرفها بلقب "بائعة الشموع". وكانت تقوم كمحترفة بعمل هو في الأصل مخصص للأرامل اللواتي لا تترتب عليهن مسؤوليات عائلية، وذلك بغية الوصول الى بعض اليسر بأي ثمن.

كانت تشعر أحياناً بفراغ عميق في داخلها ومن حولها، فتبدأ بالصياح وتضرب نفسها ثم تنتهي بالنواح والأنين. وكانت ابنتها ماري ميّالة الى الخير، الا أن أمها كانت تضمر لها الغيرة والحسد. فاذا التقتها في بيت أحد الأصدقاء وطلبت منها أمراً لم تطعها في تنفيذه، كثيراً ما كانت تهجم عليها كالوحش المفترس وتضربها على رأسها. حتى انها قدّمت لها مرة في احدى الأمسيات قطعاً من الحلوى المسمومة.

وكانت اذا قارنت بينها وبين ابنتها شكّت في أن فتاة بجمالها وعمرها قد بقيت طاهرة وبعيدة عن الملذات الرديئة. وهكذا فقد كانت على ثقة بأن ابنتها تكذب عليها وتكتم أمر لقاءاتها بالرجال وترفض مساعدتها مادياً لأنها لا تأخذ أمها على محمل الجد. وكانت تثق بأنها كانت لتصبح شديدة الثراء لو أن ابنتها وافقت على العيش معها.

ولهذا كانت تبصق في وجهها أمام الناس وتصرخ قائلة:

-"اذهبي من هنا أيتها المنافقة، أيتها الساقية الصغيرة الهادئة".

وكثيراً ما كانت الشابة تصعد الى الدير. وقد طلبت في أحد
مقابلة المؤسِّس المتنسك والصامت. فارتمت عند قدميه واعترفت بـ
شيء. ورجته باكية أن يسمح لها بالبقاء في الدير كمبتدئة. وعرضت
بالأعمال التنظيفية، ولم تطلب غير القليل من الغذاء.

وكانت قد طلبت هذا منذ سنتين، في وقت المواجهة الأولى بين نكتاريوس وثيوكليطس، ذلك اليوم نفسه الذي وصل فيه الأرشمندريت للتحقيق. فاستشار نكتاريوس الأرشمندريت، وبعد موافقته قبل الـ الدير. وهكذا فقد استـُقبلت وعُهد بها بصورة خاصة الى الأخت التي اهتمت بها وكانت تراقبها بحنان أمومي. الا ان هذه الشابة تخرج أحياناً عن الطريق القويم: فتخترع الأعذار المختلفة وتنزل لتزور والدها، وتغيب عن الدير لأيام عدة.

وكانت والدتها، "بائعة الشموع"، تذهب كثيراً الى الدير، فتبـ بالشتائم وتحمل اليهم أحياناً أخرى الهدايا والزيت والشموع بوجه هادئ ومبتسم. ولكن وبما أنها كانت أداة للمخادع القديم، الشيطان عدو الشر، فقد جاء وقت عملها لنشر الاضطراب والقلق ولتنفيذ الخطة التي أوكلت اليها.

وهكذا فقد وصلت في صباح أحد الأيام نصف ثملة والتمست رؤية رئيسة الدير وطالبتها باستعادة ابنتها في الحال. وصرخت في وجهها بعينين منتفختين حمراوين ترسلان اللهيب:
-"إما أن تسلميني اياها حالاً وفي هذه اللحظة بالذات فأصطحبها ونرحل معاً، وإما أحرقكم كلكم هنا كما تُحرق الأوراق".

وكان من الطبيعي أن تضطرب رئيسة الدير. فشعرت بـ
وركضت تطلب نكتاريوس الذي أبدى رفضه بغية حماية الفتاة من براثن الأم. ومن جهة أخرى فان ماري نفسها لم تكن ترغب بالعودة الى أمها.

فذهبت بائعة الشموع وهي تشتم بأعلى صوتها وتهدد سكان
بهزّة أرضية سوف تقلب كل شيء رأساً على عقب.

وبالفعل فقد قلبت كل شيء رأساً على عقب.

الفصل الثاني عشر

+ (أم ١٨ : ٢) "ليس للجاهل هوىً في الفطنة بل في كشف ما في قلبه".

ولكي تستطيع امرأة جاهلة مثل هذه، بائعة شموع بسيطة من عامة الشعب، أن تقرب ملاتيوس ميتاكساكيس، فقد كان يلزمها بالفعل قدرة شيطانية، وفكراً مخادعاً لا حد له، وبراعة خبيثة وتصميماً كبيراً.

والواقع أنها توصلت الى دخول دار المطرانية وتجاوزت البوّاب، ووجدت نفسها وجهاً لوجه أمام رجل الكنيسة هذا، ذي الأصل الكريتي، صاحب القامة المهيبة الذي تنقل كثيراً في الأسفار. وانفجرت أمامه باكية وقالت له:

-"أنقذني يا سيدي الأسقف، فلقد أغروا طفلتي الوحيدة التي أعطاني اياها الرب بنعمته. لقد أغروها وقادوها الى الهلاك... كم أنا حزينة...

-"من أغراها؟

-"ومن تظنه يكون؟ انه بالطبع نكتاريوس، هذا الراهب من ايبنا الذي يزعم أنه يعيش الحياة النسكية. والواقع أنه يستميل الشابات اللواتي لا خبرة لهن، ويلقيهن في الهلاك.

-"نكتاريوس؟

-"أجل، هو وعصابته. لقد حلت عليّ المصيبة والتعاسة، أنا الشقية أنقذني يا أسقفي".

وأجهشت بالبكاء أكثر فأكثر، وارتمت عند قدميه وتمرّغت في الأرض شادّة شعرها ومنتحبة ومعولة بطريقتها المعتادة الشديدة البراعة.

وقد وقع ملاتيوس في الفخ دون أن يدري رغم خبرته الكبيرة في الادارة وجميع مزاياه.

وبعد يومين ذهبت بائعة الشموع الى قصر العدل في البيريه. وقد بحثت بعناية وجمعت المعلومات. والتمست في النهاية مقابلة قاضي التحقيق غريغوارت. وقد تفوقت على نفسها خلال هذه المقابلة في النفاق والنميمة. وبدت ممثلة بارعة على مستوى سارا برنار. وقد سألته:

-"يا لتعاستي يا سيدي القاضي! هل أنت متزوج؟ هل لك أولاد؟"

فابتسم القاضي لدى سماعه هذه الكلمات وردّ بنبرة مازحة:
-"أعتقد هذا، وماذا بعد؟
-"يا لتعاستي! ان لي ابنة مثل زنابق الربيع! هل نظرت مرة الى الزنابق الصباح؟ ان بياضها أجمل من بياض البجع، ورائحتها تحيي الأموات. يا لتعاستي! فأنا وحدي أعلم الثمن الذي دفعته لتربيتها واطعامها، الرب وأنا.
-"تابعي.
-"هذه الزهرة، هذه الفتاة الوحيدة قد انتـُزعت مني وأغريت وأبعدت عن الطريق القويم.
-"ومن فعل هذا؟
-"من غيره؟ انه نكتاريوس، هذا الراهب الشيطاني من ايبينا. ليت قدماه لم تطأ يوماً أرض هذه الجزيرة.
-"هل أنتِ من ايبينا؟
-"لا بل من سيفنوس، يا ولدي المحبوب. ولكني تزوجت في ايبينا وعشت فيها أجمل سنوات حياتي، وتنفست بعض الهواء المنعش.
-"ولكن ماذا فعل هذا الراهب لإغوائها؟
-"هل يجب أن أصنع لك رسماً يا سيدي الطيب؟ لقد استعمل الدين بكل بساطة، وبعض السكاكر... وقد انتزعها مني، ومنذ ذلك الوقت احتلت مكانها بين نعاجه. والآن يمكنك أن تتحسّر عليّ يا سيدي الطيب! فأنا أم تعيسة ومهانة..."

وأجهشت بالبكاء من جديد، وكعادتها ارتمت عند قدميه، وراحت تبكي وتعول.

وأصيب القاضي بالذهول، اذ لم يكن قد سمع ولا رأى في حياته أمراً مماثلاً. وبدأ يضطرب، ووقع في الفخ كما حدث مع ملاتيوس. وخصوصاً أنه كان رجلاً راقياً، يقرأ مؤلـفات الكتـّاب الأوروبيين المعاصرين، وقد فقد منذ زمن بعيد ايمانه بخلود الروح في ذلك العالم الآخر الروحي والغير المادي.

فأدخل المرأة الى مكتبه الخاص، وأجلسها. وشجعها على الكلام وعلى التلفظ بكل الوساخات والافتراء التي أوحاها اليها أبوها، سيد الشر. فملأ من اتهاماتها الكاذبة الرهيبة سبع صفحات كاملة، ثم جعلها توقـّعها.

فأجهشت بالبكاء من جديد وقالت له:

-"يا لتعاستي، فأنا لا أعرف الكتابة يا ولدي! أعطني المحبرة لأضع عليها اصبعي".

فغطت اصبعها بالحبر وضغطت به على أسفل الصفحة. ثم انصرفت باسمة وهي تصرف بأسنانها. وكانت تتمتم وهي تنزل درجات قصر العدل:

-"أيتها الراهبات الوسخات. سوف أعلمكن أنا من هي ايريني..."

الفصل الثالث عشر

+ (يع ٤ : ١٢) "واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلّص ويُهلك. فمن أنت ي
تدين غيرك؟"

وجاءت الضربة الأولى من ملاتيوس نفسه.

فقد وصل الى ابينا في مساء يوم ربيعي من العام ١٩١٨ برفقة شماسه الشاب أثيناغوراس (الذي أصبح فيما بعد أسقفاً في أميركا ثم بطريركاً على القسطنطينية).

وقد استقبله المختار بالطريقة الرسمية، وبعد وقت قصير أعلمه ملاتيوس أنه يرغب بلقاء نكتاريوس، مؤسّس الدير، لمسألة عاجلة. فأُخذ المختار على حين غرّة، اذ كانت زوجته مريضة، ولم يكن في بيته مكان لايواء الجميع. فأرسل من يخطر نكتاريوس بالأمر، ثم اقتاد ملاتيوس وشماسه في عربته الى مكان يقرب من العاصمة، حيث كان السيد جان سيماندونيس يملك منزلاً كبيراً، وهو صديق حميم للمختار، ومعجب بشيخ الدير الجليل.

وكانت في المنزل غرفة مريحة مليئة بالأيقونات والكتب الدينية، وقد استُبقيت لنكتاريوس، وخصوصاً في الأمسيات التي يتأخر خلالها في الساحل.

وقُدمت لملاتيوس القهوة والحلويات، ثم استقبل بعض الكهنة وممثل الأبرشية، ومرّ الوقت. وفي وقت متأخر من الأمسية سُمعت في الخارج بعض الجلبة، ثم نزل شيخ الدير عن مطيته، وابتدأ يصعد بثقل درجات السلم الواحدة بعد الأخرى. لقد أنهكته السنوات والشدائد المتواصلة والتجارب الت
لا تنتهي، الداخلية والخارجية على السواء. كان شاحب الوجه، حاني الظ
يحبس أنفاسه من وقت لآخر، واضعاً يده على قلبه. والى ذلك فقـ
من مرض خطير في البروستات، فيصاب بالآم نادرة ولكنها حادة حـ

وما ان رآه ملاتيوس حتى طلب من الجميع أن يغادروا ا
ليَدَعوهما بمفردهما. وفي تلك اللحظة بدأ هجومه المخيف على نكتـ

وراح يصرخ بصوت عالٍ لدرجة أن ربّة المنزل وابنتها واحدى صديقاتها قد سمعن كل ما قاله تقريباً، واضطربن كثيراً.

صرخ ملاتيوس:

-"لم يكن يعنيك أن تهتم بالنساء وبالرهبنة لقد أهنت الكرامة الأسقفية ! أنا أحمل اتهامات دقيقة بشأنك. يا للعار! أنا لا اسمح لك ولن أسمح لك... سوف أرسل القاضي. لقد تسببت بفضيحة كبيرة، فضيحة للكنيسة كلها!"

وبقي يشتمه ويهدده لأكثر من ساعة. وبعد وقت قصير سُمع نكتاريوس يقول له:

-"ليكن الرب مع روحك أيها الأسقف الجليل. ومعنا أيضاً".

وكان الشماس أثيناغوراس في الخارج يعاين حجلاً موضوعاً في قفص برفقة بعض من موظفي السيد سيماندونيس. وفجأة فتحوا باب القفص بحركة غير ارادية فطار الحجل، وذعر الموظفون فراحوا يصرخون. وفي تلك اللحظة دخل رب البيت عائداً من الحقل بعد عمله، وفتح باب الغرفة حيث كان الأسقفان.

وكان السيد سيماندونيس منزعجاً بسبب فقدان حجله، ومظهر الشماس الذي كان ينظر الى بعيد وعلى وجهه امارات الأسف. ثم وجد نفسه أمام ملاتيوس الذي بدا ساخطاً، وأبيه الروحي الحبيب الذي كان يبدو عليه الحزن. فقال لهما بلطف:

-"أهلاً وسهلاً بكما. ماذا يجري يا صاحبَي السيادة؟"

فصرخ ملاتيوس بغضب:

-"لقد فوّتنا الباخرة بسبب قصص أسقف المدن الخمس الكثيرة وأعماله الشائنة".

فردّ رب البيت وهو ما زال تحت وطأة العجب الشديد:

-"سوف نهتم بايجاد فندق تمضون فيه ليلتكم".

لكن ملاتيوس أعلن بشكل قاطع:

-"أنا سأبقى هنا. ان فنادق ايينا هي دون المستوى..."

فاعترض سيماندونيس بحزم:
-"لكن الغرفة الموجودة عندنا مخصصة لهذا الرجل القديس، أسـقف المـدن الخمس."

فقال نكتاريوس بتوسّل:
-"أرجوك، أرجوك. أنا سأذهب حالاً. ليبقَ صاحب السيادة هنا".

فألح عليه سيماندونيس قائلا:
-"لكن الوقت قد تأخر. لقد حلّ الليل تقريباً. وسوف تتعب يا صاحب السيادة. ان الوقت متأخر جداً... وماذا ستفعل اذا هطل المطر؟
-"لا بأس. فأنا أعرف الطريق، والطريق تعرفني".

وخرج الى حيث كانت مطيته، وكان ما زال حاني الظهر، وطـ... من الموظفين أن يساعدوه على امتطاء حماره.

*   *   *   *

ووصل الى الدير بعد مضي ساعتين، منهك القوى جسدياً ونفسياً.

وأحاطت به الراهبات وقد أصبن بالهلع الشديد. فرفـع نكتـاريوس عينيه نحو السماء وقال:
-"سمعان، سمعان، هوذا الشيطان قد طلبكم لكي يغربلكم كالحنطـة. ولكنـي طلبت من أجلك لكي لا يفنى ايمانك. وأنت متى رجعت ثبّت اخوتـك". (لـو ٢٢ : ٣١).

فصرخت الأخت كساني بقلق:
-"ماذا يحدث الآن أيضاً يا صاحب السيادة؟"

لكنه تمتم وهو يجرّ نفسه متجهاً الى مكتبه الصغير ويده علـى قلـ... وامارات العذاب على وجهه:
-"لا شيء، أرجو أن تحضرن لي كوباً من عصير الليمون".

وصعد ملاتيوس في اليوم التالي الى الدير برفقة حاشية كبيرة. و... برفقته عدد كبير من كهنة الجزيرة. هؤلاء الذين لم ينظروا بعين الرضـ...

الدير الذي كبر وصار يجتذب الناس. وتهيّأ لهم أن الأسقف الراهــب يــزداد اثراءً على حسابهم، وأنه يأخذ منــهم خــدم جنــانيز الموتـــى، والقداديــس المسائيـــة. وكانوا على استعداد ليقولوا عنه أموراً سيئة، وأن يلقـــوا عليــه الحرم، ويبرزوا أي خطأ صغير يلحظونه. ليت كل ما يقــول المــتروبوليت عنه صحيح! ليته يطرده من الجزيرة.

الا ان التفتيش الذي طاول كامل الدير لم يشر الى وجـــود أي أمــر مخالف للقوانين، ولم يدل على أي ذنب وأي أمر غريب عن الكنيسة. كـــانت الراهبات، بوجوههن الشاحبة والزاهدة، على أتم الاستعداد: يمسكن بطاقاتـــهن ويتهيّأن للرحيل الى الملكوت العلوي. لقد كنّ مرتعبات، وكـــانت نظراتـــهن تعبّر عن الألم العميق والتوسّل الشديد.

وقال ملاتيوس بصوت منخفض:
-"يتهيّأ لي أننا هنا أيضاً أمام احدى الدسائس. ولكن ماذا دهاك يـــا صديقـــي حتى تضيع في هذا الدير مع النساء؟ ان المرأة نار وماء..."

وقد عاد الكثير من الكهنة ساخطين لأن ملاتيـــوس لطـــُف ولان، وعاد بنفسية مختلفة.

الفصل الرابع عشر

+ (١ مك ٢ : ٦١-٦٢) "...ان جميع المتوكلين عليه لا يزلـون ... كـلام الرجل الخاطئ لأن مجده يزول الى ...

وجاءت الضربة الثانية على يد القاضي، وكانت أقسى ... وتركت أثراً لا يمحى.

لقد وصل بعد أيام قليلة وانقضّ هو الآخـر علـى ... كالصاعقة. لقد وصل بنظرات متوحشة وشريرة، كنظرات ... وكان برفقته شرطيان. ولم يلق بالاً الى الراهبتين اللتيـن ... الديـر وسألتاه راجيتين عن سبب حضوره. وكان على وشك ... مظهراً الاحتقار الكامل لقوانين الأديار. ثم دخل مباشرة على ... مكتبه الصغير.

فاضطربت الجماعة كلها، وراحت جميع الراهبات تقريباً يبكيـن، وخصوصاً المريضات منهن، وكنّ يصرخن "يا رب ارحم".

وحافظ نكتاريوس على رباطة جأشه، واستقبل الرجل مبتسماً وسـأله بلطف:

-"عمن تبحث؟

-"يا لك من راهب! لقد حوّلت هذا الدير الى حريم، ولا تخجل مـ...ك؟ أين هو البئر الذي تلقي فيه لقطاءك مـن هـذه اللابسـات الأ... ذه المرائيات الشقيات؟"

فنظر نكتاريوس بحزن، وحاول أن يتكلم، ولكن ... ـار بأصبعه الى السماء.

-"ألا تقول شيئاً؟"

لا شيء. لم تـُسمع أية اجابة.

فضرب القاضي بقبضته المكتب وصرخ:

- لا تقول شيئاً؟"

ومن جديد لم تُسمع أية اجابة. فنظر اليه نكتاريوس بعينين كالأطفال وبقي صامتاً.

ففقد القاضي صوابه وقال للمرة الثالثة:
-"ألا تقول شيئاً؟"

ثم وقف مهدداً:
-"قل لي حالاً أين يوجد البئر الذي تلقي فيه الأطفال عند ولادتهم، وإلا فسألقيك أرضاً وأضع قدمي على عنقك وأنتزع شعرات ذقنك واحدة واحدة، أيها القذر"

فقالت الأخت كساني وهي تجهش بالبكاء:
-"يا صاحب السيادة..."

لكن نكتاريوس بقي صامتاً. وجمد في مكانه ونظره مثبت الى السماء وهو يصلّي بالتأكيد.

وعندها طلب القاضي الراهبات للاستجواب كل واحدة على حدة في غرفة أخرى. ثم دخل على المريضات، حتى انه دخل على راهبة كسيحة تدعى افنيكي، وكانت تقوم بوظيفة رئيسة الدير في المدة الأخيرة. ثم أمر الشرطيين بنزع الأغطية، لعله قد أخفي تحتها أحد الأطفال المولودين حديثاً. وأخيراً عاد الى الشيخ وقال له ختاماً وهو يستشيط غيظاً:
-"غداً أزجك في السجن أيها العجوز الوسخ. وسوف أرسل الى هنا طبيباً شرعياً لاجراء فحص جسدي للجميع. سوف يفحص جميع أجسادكنّ الساقطة... والويل لك أيها الباشا العجوز. وسوف يعاين أولاً الفتاة التي أغريتها مؤخراً، الفتاة فراغودي".

فقال نكتاريوس:
-"الله يعلم ان كان كل ما تقوله صحيحاً.
-"اخرس!"

وتابع كلامه وصراخه وتهديداته للجميع. ثم اختفى بسرعة البرق.

وراح الجميع في الدير ينتحبون، ينتحبون ويئنون بيأس. ثـ
احدى الراهبات، وكانت من ماني، ولم تكن تحتمل مثل هذه الاهانة:
-"يجب أن نقدم شكوى يا صاحب السيادة. ألم يعد هناك من عدل في
على الاطلاق؟ هل يستطيع أي شخص كان أن يأتي ويدوسنا بقدميه؟

فأدار الشيخ وجهه الهادئ نحو وجه الراهبة الغاضبة وقال:
-"ان الرب يا ابنتي يدير كل شيء. ولا يتم أي أمر من دون ارادته. لا تتزعزعن ولا تفقدن الصبر. اذهبن بسرعة الى الكنيسة لتمجدن اسمه القدوس، فان كل ما حدث هو من أجله".

فقالت راهبة أخرى من ميثانا:
-"لكن يا صاحب السيادة، ألم يجدر بك على الأقل أن تقول شيئاً؟ لقد تركتـ
يتلفظ بكل تلك الافتراءات من دون أن تبرر نفسك.
-"أما بالنسبة اليّ، فاني لن أبرر نفسي. صلّين من أجل هذا الرجل، فـ
أرى عليه العذابات الكثيرة. أرجوكن أن تصلّين فالرب قد صلب من اجـ
هو أيضاً".

ورفع عينيه من جديد نحو العلاء وجمد في مكانه.

الفصل الخامس عشر

+ (أم ٢٤ : ١٩-٢٠) "لا تستشط على الأشرار ولا تغر من المنافقين، لأنه ليس للشرير رجاء الآخرة ومصباح المنافقين ينطفئ".

وبعد عشرة أيام حضر من استدعى ماريا فراغودي، ابنة بائعة الشموع، لتخضع للمعاينة من قبل الطبيب الشرعي. ولحسن الحظ أنها كانت قد حافظت على عذريتها رغم أمها الخاطئة، ورغم اهمالها وتعرّضها لجميع أنواع المغريات، ورغم طبيعتها المتقلبة.

وكانت هذه ضربة قاسية للقاضي الغضوب غريغوار ت. الذي وجد نفسه في مأزق.

ولا شك في أن الرب يسمح بأن ينوء مختاروه تحت ثقل الصليب، لكنه لا يسمح أبداً بأن يقعوا في مأزق، بل يجنّبهم العار والمصيبة.

وهكذا فقد تدبرت الأمور الآن. ومرت الأيام ببطء، فيما كانت الأحداث العالمية تكتب صفحات تاريخية جديدة بالدم والدموع. ثم انتهت الحرب، وتأسست عصبة الأمم، وعوقب المنهزمون.

وكان المتروبوليت ملاتيوس يواجه مشكلات اكليريكية لا عدّ لها، وكان قد نسي تقريباً قضية ايينا.

وبعد أشهر حضرت الى الدير امرأة أنيقة الملبس شاحبة الوجه، والتمست مقابلة الشيخ. فسألوها عند الباب:
-"ماذا تبتغين؟
-"من الضروري جداً أن أراه".

وكانت كثيرة التجهم، فاعتقدوا بأنها مريضة، وأنها حضرت للصلاة، فسمحوا لها بالدخول. وما ان رأت نكتاريوس حتى ارتمت عند قدميه وهي تجهش بالبكاء وتصرخ قائلة:
-"اغفر لي أيها الأب القديس".

وأجهشت بالبكاء أكثر فأكثر، وقالت:
-"اغفر لزوجي، فهو مصاب بالغرغرينة وحياته في خطر".

فسألها:
-"أرجوك أن تقولي لي من أنت.
-"أنا زوجة غريغوار ت. من البيريه. انه القاضي الذي شتمك منذ بضعة أشهر".

فأنهضها نكتاريوس وباركها وقال لها:
-"لقد غفرت له منذ اللحظة الأولى يا ابنتي. وسوف أصلّي من جديد. سأصلّي هذا المساء الى والدة الاله لكي تتشفع به. كيف أصيب بالغرغرينة؟
-"ان الأطباء عاجزون عن فهم أسباب مرضه يا صاحب السيادة، والغرغرينة تنتشر. انها تزداد انتشاراً في كل دقيقة. والأسوأ أنه يتألم ويتعذب. لقد أرادوا أن يستأصلوا ذراعه عند الكتف فرفض. ان حياته في خطر أيها الأب القديس. فما العمل؟ أنا حزينة، وأحياناً أفقد صوابي.
-"أين هو؟
-"في مستشفى البشارة، في الجناح الشمالي.
-"كان بودي أن أزوره، لكن للأسف ان صحتي لم تعد تسمح لي [illegible] فاني أعاني كثيراً في المدة الأخيرة من مرض شديد الإيلام.
-"وأنت أيضاً تتألم؟ آه لا، لم يعد ينقص الا هذا: أن تقوم بالسفر [illegible].. لقد أحضرت لك قميصه في حقيبتي. صلِّ من أجله، أرجوك.

ثم أعطته صرّة صغيرة، وانحنت لتقبّل يده، ورحلت [illegible] جاءت.

وقد صلّى مؤسس الدير الشيخ المتوحد بحرارة، ومن [illegible] أمام المذبح المقدس. لكن القاضي فارق الحياة بعد خمسة أيام عند [illegible] الليل، وهو يعاني من آلام فظيعة. وكان وحيداً في سريره في [illegible] والرب وحده يعلم كيف ولماذا لم يشفَ.

الفصل السادس عشر

+ (حك ٩ : ١٤-١٥ و١٧) "ان أفكار البشر ذات إحجام وبصائرنا غير راسخة. اذ
الجسد الفاسد يثقّل النفس والمسكن الأرضي يخفض
العقل الكثير الهموم ومن علم مشورتك لو لم تأتِ
الحكمة وتبعث روحك القدوس من الأعالي؟"

كانت قضية الاعتراف بالدير عالقة ولم تحلّ رسمياً بعد. وقام كوستي ساكوبولوس، الذي بقي أكثر اخلاصاً للمؤسس القديس من أي شخص آخر، بآلاف المساعي في أثينا دون جدوى.

وكان ملاتيوس متورطاً في عدد من المشكلات الاكليريكية المزمنة، ويكافح من أجل حل مشكلة الرعايا المعقدة، ومن أجل أن يتقاضى جميع الكهنة رواتب شهرية، فلا يعوزهم المال. وكان يكافح أيضاً لاعادة بناء كنائس الرعايا، وللحصول على بطاقة اكليريكية رسمية. حتى لم يعد لديه الوقت لقراءة الصحف. وكان كل من أعضاء المجمع المقدس مشغولاً بالمحافظة على منصبه، وبإنجاح أعماله الخاصة.

وكان نكتاريوس قد كتب منذ وقت طويل التماساً الى وزير الشؤون الاكليريكية والتعليم العام. وعرض فيه ما يلي:

"...ولهذا الهدف فاننا نبتغي تأسيس مدرسة تحضيرية ذات أهداف أخلاقية، دينية وتطبيقية. حيث تتلقى الشابات التعليم الأخلاقي والديني ويتعلمن القيام ببعض الأعمال اليدوية، والاهتمام بالأمور المنزلية. واذا بارك الله عملنا، فاننا ننوي أن نجعل من هذه المؤسسة في المستقبل مدرسة عليا، لاعطاء الأمهات اليونانيات حماساً قومياً ودينياً يستطعن أن ينقلنه الى أولادهن".

كانت هذه الرؤية كثيرة الأهمية، وفريدة من نوعها بفعاليتها القومية والروحية على السواء. واذا كانت البطاقة الكنسية الرسمية التي شغلت ملاتيوس على شيء من الأهمية، فان رؤية هذا الشيخ المنسيّ كانت مفتاح السر الكبير، سر السعادة في جميع المجالات. ولو أن كل شابة وكل زوجة عتيدة وأم تقبّلت وتمثّلت هذه القواعد المتينة والمبادئ الثمينة، لكانت قد

أسهمت حقيقة في اضافة كل ما هو جميل وكل ما هو عظيـــم الـــى تـــراث شعبها، أياً كان هذا الشعب.

لقد عرف هذا الشيخ الذي مُنح نعمة الرب المقدسة، أن ســـر تقـدم الشعوب كامن بين يدي الشابات. فان المؤرخ الكبير بابـــاريغوبولوس كـــان يقول: "لا شك في أن الرجال هم الذين يكتبون التاريخ، لكـــن النســاء هـــن اللواتي يملينه عليهم!"

فعندما تفقد الشابة ايمانها واحترامها للقيم الخالدة، وتتخلـــــــى عــن التواضع والاحتشام، فان هذا يبشر بالخراب والمصائب.

كان نكتاريوس قد كتب رسالته الى الوزارة منذ بعض الوقت. وفـــي بداية شهر آذار كتب من جديد الى "جناب المجمع المقدس لكنيسة اليونـــان"، متوسلاً اليه لكي يعترف بالدير.

لا شيء. لم يكن أحد يعيره اهتماماً. كانوا كلهم منشغلين، غارقين في السياسة: في عصبة الأمم، والحروب المحلية، والمشكلات الملتهبة التـــي لا تنتهي. ولم يعد نكتاريوس يعرف في الحقيقة ما العمل. لقد أصبـــح مســناً، ضعيفاً، ومريضاً في أغلب الأوقات، ومتعباً. ولم يكن أحد من الشـــخصيات البارزة ليهتم بهذا العجوز الضعيف، فقط الرب وحده كان يسهر عليه ويـــهتم به، الله الذي ينتفي أمامه كل الآخرين. ومعه الملائكة ورؤســـاء الملائكـــة، والعروش والرئاسات والأعين التي لا تحصى، أعين الكنيسة الظافرة هنـــاك في الأعالي.

كان مسناً ومريضاً في أغلب الأوقات ومتعباً... وقد اقترب موعـــد استدعائه ليُنقل الى حيث لا وجع ولا حزن ولا تنهد. وها قد مُنح وقتاً اضافياً قصيراً، ربما بسبب بعض النفوس النقية، مثل الأخـــت كســـاني الضريـــرة وغيرها. وكان جميع الذين يقربونه في تلك الفترة يشعرون بلهب يشتعل فـــي قلوبهم، لهب لا ينطفئ.

وقد ابتهجت روح نكتاريوس عندما قـُدِّمت اليه مرة شابة من ايينـــا كانت تبتغي اعتناق الرهبنة، وقد وجد أنها ذات كفاءة. كانت تدعى مطرونـــة لأن أمها كانت تفقد أولادها خلال فترة حملها، فنذرت أن تسمي ابنتها وقـــت العماد على اسم هذه القديسة الصانعة العجائب من جزيرة خيوس، لانقاذهـــا

من الموت. وقد طلبت الشابة من نكتاريوس عدم تغيير اسمها لدى دخولها الحياة الرهبانية، فقد كان لائقاً براهبة. ومع ذلك فقد أعطاها عند التكريس اسم القديسة باراسكيفي، وقد امتلأت روحه بالفرح والسعادة.

وكان نكتاريوس قد لاحظ منذ مدة طويلة فتاة جميلة جداً ومتحفظة، من بين زائرات الدير المجهولات. وقد توقع أنها سوف تُقبل بنفسها على الحياة الرهبانية، وفي وقت قريب. وقد دهش جميع الذين أخبرهم بالأمر اذ كانت تبدو على هذه الفتاة امارات التعلق بالعالم، وما كانت تُظهر أي اهتمام بالحياة الرهبانية.

ومع ذلك فقد تعرضت هذه الفتاة لتجربة شخصية وكان بنتيجتها أن قدّمت نفسها للرب بالكامل. وقد اهتم بها نكتاريوس ودعاها أناستازيا. وهكذا فقد أرضى رغبته الالهية قبل أن يغادر هذا العالم، بتأليفه ثلاثية عذارى ايينا المكرّسات للرب. هذه الثلاثية الشبيهة بثلاثية شفيعاته المباركات اللواتي ظهرن له بطريقة حية منذ سنوات: القديسة ثيودوسيا، والقديسة أناستازيا، والقديسة باراسكيفي. وما زالت أيقونتهن ـ التي أوصى الاخوة دانيال من جبل آثوس برسمها له ـ على المذبح، في الكنيسة الجديدة المهداة الى الثالوث القدوس.

ولكن يبدو أنه كان عليه أن يشرب كأس الصبر الى المنتهى، وحتى آخر يوم في حياته. اذ لم يحظ عمله بالاعتراف الرسمي. ولم يكن من بين جميع الشخصيات الرسمية والبارزة من يكلّف نفسه عناء القاء نظرة واحدة على زانطا، لمعاينة عقد الزمرد الذي يجمّل جزيرة تسالونيكي، هذه الجزيرة التي كانت منذ سنوات قليلة محرومة من المطر، جرداء، فقيرة ومنسية.

الفصل السابع عشر

+ (حك ٣ : ١-٧) "أما نفوس الصديقين فهي بيد الله، فلا يمسها العذاب. وفي ظن الجهّال أنهم ماتوا، وقد حُسب خروجهم شقاءً وذهابهم عنا عطباً، أما هم ففي السلام. ومع أنهم عوقبوا في عيون الناس فرجاؤهم مملؤ خلوداً. وبعد تأديب يسير لهم ثواب عظيم لأن الله امتحنهم فوجدهم أهلاً له. محّصهم كالذهب في البودقة وقبلهم كذبيحة محرقة. فهم في وقت افتقادهم يتلألأون ويسعون سعي الشرار في القصب".

+ (٢ كور ٤ : ٧) "الا ان هذا الكنز نحمله في آنية خزفية لكي يتضح أن هذه القدرة الفيّاضة هي لله وليس منا".

والحقيقة أن بلادنا كانت مسرحاً لكثير من الأحداث المفرحة والمحزنة في تلك الفترة من الزمن. وتتلخص الأحداث المفرحة بتحرير مقدونية وتراسّا، وحرب الاستيلاء على سميرنا في ٢ آذار ١٩١٩ بقيادة الحلفاء المنتصرين. وتوسيع مساحة البلاد حتى ثلاثين كيلومتراً من أبواب القسطنطينية. ولكن لنتوقف هنا لنتطرّق الى الأحداث المحزنة.

فقد تميز العام ١٩٢٠ ببداية الأحداث المحزنة في تاريخنا القومي، وفيه وقّع الرب الاله دعوة الشيخ القديس الى الليتورجيا السماوية المتناغمة.

لقد عانى نكتاريوس من مرض البروستات زماناً طويلاً، وكان عرضة لآلام فظيعة تخترق قلبه. وكانت الآلام تشتد حدة مع مرور الوقت. وصار يمضي أيامه ولياليه بالأنين. ولم يكن يقول لأحد عن عذابه ولياليه المضنية. وكثيراً ما كان يضطر لتجميع قواه عند الفجر ويجرّ نفسه نحو الكنيسة ليقوم بصلاة السحر والقداس الالهي، وهو شاحب الوجه، وكأنه بقايا انسان. ثم يرفع نظره في الحال الى الصليب الجليل، ويستعيد قواه ويتمتم:
-"يا رب!"

كان الخريف يتقدم حافلاً بألوانه الفضية والزرقاء، ومزيناً بأقواس القزح المرجانية. وقد دعا صديق نكتاريوس وحاكم ايينا جان سيماندونيس

أحد الأطباء من أثينا لمعاينته. فأمر بادخاله الى المستشفى على جناح السرعة، الى قسم المسالك البولية لمتابعة العلاج والخضوع للعملية. وقال له:
-"سوف أعمل على ايجاد مكان لك في مستشفى أريتيون يا صاحب السيادة.
-"اذا أراد الرب، سوف نرى".

وبعد أسبوع أمضى نكتاريوس ليلة كاملة عانى فيها من آلام لا تحتمل ومن ارتفاع الحرارة. ولم يتوقف خلالها عن التحدث الى والدة الاله وهو يبكي أمام أيقونتها. وفي الصباح طلب أن تحضَّر مطيته لزيارة دير خريسوليونتيسّا والسجود أمام أيقونته العجائبية. في ذلك الوقت كان هذا الدير مخصصاً للرهبان.

وسار في وقت مبكر بعد القداس الالهي، راكباً مطيته. ومعه راهبة ومبتدئة سوداء البشرة، قصيرة القامة، نحيلة الجسم، كان قد سمّاها أغابي.

فوصلوا قرابة الظهر. وكان نكتاريوس منهكاً من التعب، فجرّ قدميه باتجاه الأيقونة العجائبية وركع أمامها وسجد في رهبة مقدسة. وقد سمعه جميع الموجودين يقول لها:
-"يا والدة الاله، سيدتنا. اني أشعر بالنهاية تقترب. فأرجوك من أعماق القلب ألا تنسيني. تشفعي أمام ابنك لكي يغفر لي. اني أجزع من المثول أمامه وأمام درجات عرشه الرهيبة. أنت تعرفين كل ما فعلته. وقد ساعدتني وقدمتِ لي الحماية في أحيان كثيرة وبطرق عديدة. وأنا لم أقدِّم شيئاً من عندي. ولكن أرجوكِ أن تنظري الى هذه الشابات الورعات والنقيات، وأن تأخذيهن تحت رعايتك. احمي جهادهن وحياتهن. وعندما أصبح على الضفة الأخرى، آمل أن أرى نسكهن وقداستهن وجلال حياتهن القديسة وحكمتهن وتقواهن وفضيلتهن "

وبعد أن صلّى ثلاثة أرباع الساعة راكعاً أمام الأيقونة والدموع تنهمر من عينيه، أصبح وجهه هادئاً وسعيداً. فرسم اشارة الصليب ثلاث مرات وتنهد ووقف. وكان رئيس الدير بانتظاره، فاستقبله وقاده الى مائدة الطعام. غير أن نكتاريوس لم يكن يحس بالجوع، فأكل تفاحتين فقط وقليلا من الأرز. ثم دخل الى قلاية وارتاح لبعض الوقت. وفي وقت متأخر من بعد الظهر طلب كوباً من النفاعة، ثم أخذ طريق العودة مع مرافقتيه.

وكانوا يسيرون بخطى بطيئة، فوصلوا الى تلـــة خضــراء مغطـــاة بأشجار الزيتون وبزهور الحقول والأعشاب. وفي تلـــك اللحظـــة أصيــب نكتاريوس بالألم الرهيب، فطلب المساعدة للنزول عن مطيته. والتمس البقــاء منفرداً لبرهة. فدخل الغابة واختفى بين أشجار السرو. وبقـــي فـــي الداخــل حوالي عشرين دقيقة، فانتاب الفتاتين القلق.

وكان الليل قد حلّ لأن الخريف كان في منتصفه. وبـــدأت النجــوم تظهر نجماً بعد آخر في السماء الزرقاء الشديدة الصفاء. كان المطر قد هطل مرات عدة في الأسبوع الماضي، فالتمعت التلال المجاورة بالعشب الجديـــد فيما كانت شجرات السرو تتبختر كأسياد الصمت والسكينة.

ثم رأتاه يعود ببطء وبخطى صغيرة، وهو حاني الظهر، فاضطربتـــا بشدة. وصاحت السمراء الصغيرة الثرثارة:
-"كنا ننتظرك يا صاحب السيادة. لقد تأخرت!"

فأجاب:
-"ما أجمل المنظر هذه الليلة! ان الأرض رائعة من مجدك يا رب! ومع ذلك فسيأتي يوم ويزول كل شيء. أيها الخالق! أنت تحضّـــر ســماوات جديــدة وخليقة جديدة. أنت الثابت، الكلي الوداعة، الحمل الذبيح وابن الله الحيّ..."

ووقفت الفتاتان بقربه حابستين أنفاسهما، مشدوهتين. فتمتمت أغابي:
-"انه يهذي".

فوجهت اليها الأخرى ضربة قوية بمرفقها وطلبت منها أن تصمــت. وعندها استدار نكتاريوس نحو الشرق، باتجاه ميناء البيريـــه وباركـــه. ثــم استدار وبارك الغرب والشمال والجنوب. لقد رسم اشــــارة الصليــب علــى الجهات الأربع الرئيسية. وبعد صمت قصير بدا أنه تذكر شيئاً، فقال بصوت أعلى:
-"أيها العزيز المحبوب، أيها القديس المحبوب قزما قزما الايتولي. ها هـي بلادك. انها تملك الآن المدارس، وقد شُيدت فيها كنائس باهرة الجمال. كنـتُ قد صممت مشروع مدرسة للشابات، ولكني لم أستطع تنفيذه. صلِّ الى ربنـــا يا شهيد المسيح... وكلـّمه عن فتيات كنيستنا الأرثوذكسية الكثيرة الوداعــة. فقد حاصرتها الذئاب من جديد في المدة الأخيرة".

وحلّ الصمت من جديد. ثم قال:
-"ان الملوك يملكون القصور، والأسياد الكبار أيضاً. وأما أنا فعندي ديري الصغير في زانطا ولن أستبدله بأي شيء آخر في العالم... بركة الرب. لنعد يا شقيقتيّ، ساعداني على ركوب مطيتي".

فاقتربتا دون كلمة وهما تحبسان أنفاسهما، ودفعتاه بصعوبة كبيرة.

وفجأة صاحت الأخت أغابي:
-"لا أريدك أن تموت يا صاحب السيادة! لا، لا أريد..."

وحلّ الصمت من جديد، فتابعت:
-"لأمُت أنا المسخة، صاحبة الجسد العديم النفع".

فنظر اليها نكتاريوس وابتسم وقال:

-"بل ستعيشين. ستعيشين وتتجاوزين عامك الخامس والسبعين... وأينما تحلـّين سوف تستخدمين اسمي. أينما كان ودائماً".

وبدأوا يقتربون من الدير. وكان نكتاريوس طوال الطريق يتنهّد ويئن ويتكلم. وكان يصلـّي من أجل الناس الذين يعرفهم والذين يجهلهم، من أجل الشبان والشابات، الاكليروس والشيوخ، البحارة وصيادي الاسفنج والعمال والفقراء، وجميع سكان الجزيرة تقريباً.

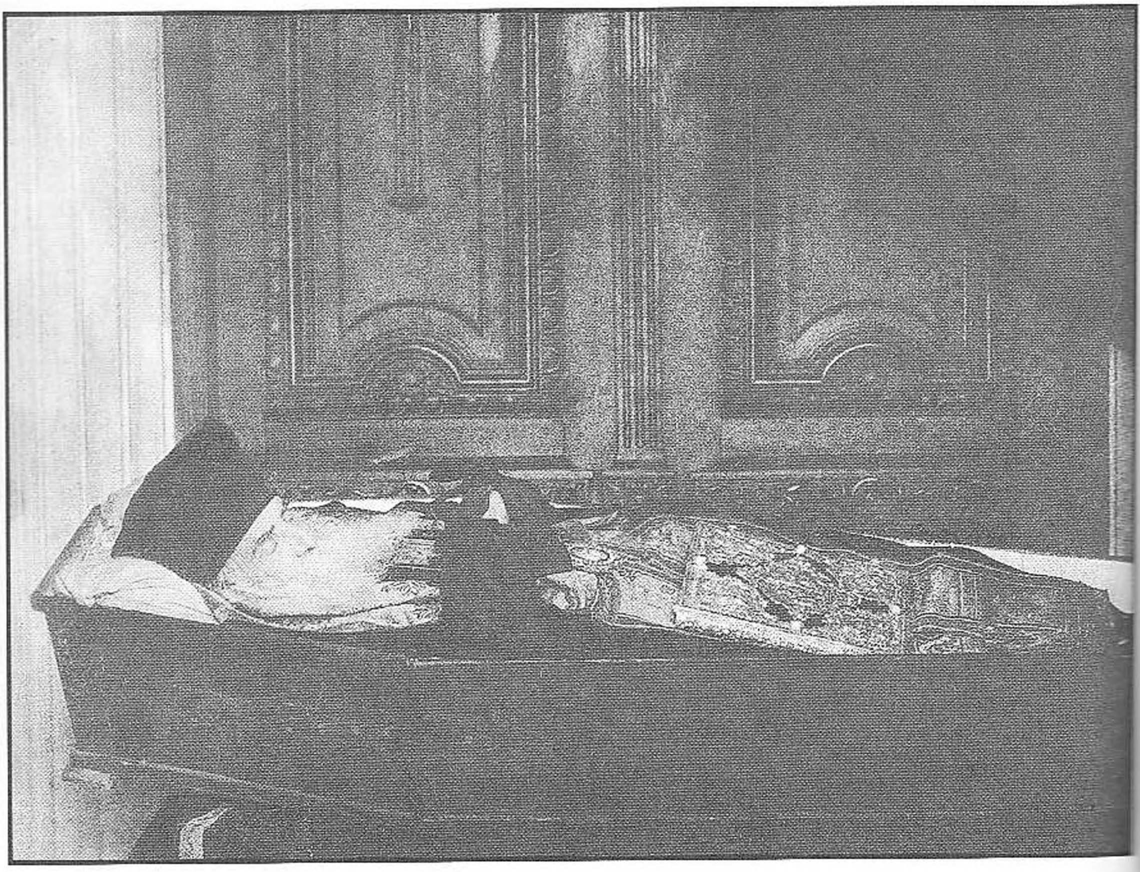

الفصل الثامن عشر

+ (٣ كور ٤ : ١٣) "فالموت اذن يعمل فينا والحياة فيكم".

كانت أمانة سر مستشفى أريتيون، الواقع خارج أثينا، قد تلقـت أمراً من الخارج بحجز سرير في غرفة مخصصة للصحة العامة، من أجل راهـب شيخ من ايينا.

فوصل عند ظهر أحد الأيام ترافقه راهبتان ورجل أربعيني متوسـط القامة، بدا عليه القلق منذ دخوله. وكان يبكي في السر.

فأتمّوا جميع المعاملات المطلوبة لدخوله وبقائه في المستشـفى، ثـم رحلت احدى الراهبتين.

وكان في غرفته أربعة أسرّة أخـرى، الا ان سـريرين فقـط كانـا مشغولين. وأما السرير المجاور لشيخ ايينا، فكان يشـغله رجـل أربعينـي مشلول الساقين. وكان رب عائلة من الريف وقد سقط يوماً مع مطيته في أحد الوديان. ومنذ ذلك اليوم كانوا ينقلونه في نقالة. وأما السرير الآخـر فكـان يشغله مدرّس عجوز متقاعد، وكان هو الآخر مصاباً بأحد الاعتـلالات فـي المسالك البولية.

ووقف الرجل القلق مع الراهبة في الرواق، وسألها بكلمات متقطعـة وهو يحبس دموعه:

-"ما رأيك أيتها الأم أوفيميا، هل سيتحمل العملية؟"

لكن الراهبة بقيت شاردة الذهن. فتابع الرجل:

-"ماذا سيحل بنا من دون توجيهه المبارك؟ وكيف سنعيش من دون صلاته؟

أخيراً أجابت الراهبة:

-"أرجو أن يتحمل العملية يا سيد ساكوبولوس. ان الله طيب جـداً. سـوف يشفق على شركتنا، ولن يسمح بأن تصبح ثمانية وعشرون نفساً يتيمة!

-"آه يا أخت أوفيميا، اني أدين له بكل شيء. وخصوصاً بكنز روحي. هــو الذي علــّمني عظمة الرب وسموّه وجماله. لقد فقدت والدتي في وقت مبكر، فتغلبت على مصيبتي. ولكن اذا غادرنا أيضاً هذا الشيخ القديس، هـــذا الأب الروحي والمرشد والشفيع لدى الله، فاني سأحزن كثيراً وأبقى وحيداً كشــجرة في وسط الصحراء..."

فنظرت اليه الراهبة بحنان وأومأت برأسها.

* * * *

ومرّ شهر وتبعه آخر. ولم يتسنَّ لهم أن يجروا له العملية. كانت أثينا تعيش في الغليان بسبب فشل فنيزيلوس فــي الانتخابــات، وبســبب تغييــر الحكومة وعودة الملك قسطنطين من المنفى. وكانت النـــدوات الاكليريكيـــة تناقش وتعلــق على سقوط ملاتيوس وعودة ثيوكليطس في الوقت الذي كـــان هذا الناسك الشيخ الشاحب، هذا الراهب من ايينا، يرى السماوات تنفتح فجــأة أمامه والملائكة تأتي لاستقباله بالآلاف.

وقبل أن يموت بوقت قصير، جمد لبرهة، وكأنه ينصت. لقد ســـمع صوتاً أليفاً يأتيه من العلى، صوتاً عذباً وبعيداً يناديه قائلاً:
-"ادخل يا ولدي الى فرح ربك! فان اكليل البر ينتظرك".

فأجاب:
-"هل توجِّه الكلام اليّ يا رب؟"

وكانت هذه الكلمات الأخيرة التي تفوّه بها. وفتح فمه للتنفس فوجـــد أنه قد انتقل. لقد أسلم روحه القديسة والصبورة الى معلمـــه الحبيـــب، ســيد السماء والأرض والجحيم.

واضطربت الأم أوفيميا وصرخت باكية:
-"يا صاحب السيادة! يا صاحب السيادة! ســيد ســاكوبولوس، أيــن الســيد ساكوبولوس؟...الهاتف لو سمحت، الهاتف!..."

ثم حضرت العاملة في المستشفى والمسؤولة عن تنظيف الأمـــوات، وجاءت لمساعدة الراهبة.

وكان الجسد يفوح بالعطر... أيها الرب الاله!

وحاولت الراهبة العجوز أن تتكلم، لكنها بقيت دون صوت. وعندما نُزع عن نكتاريوس رداؤه الصوفي، ألقي باهمال على السرير المجاور.

ولم تكادا تنتهيان من مهمة تنظيف الجسد الميت حتى نهض المريض الذي كان مشلول الساقين، وهبّ فجأة واقفاً ورسم اشارة الصليب. وصرخ بأعلى صوته:
-"لقد نهضت! اني أمشي! يا الهي، لقد شفيت! ما سرّ هذا الرداء يا ترى؟"

والواقع أنه كان واقفاً بالفعل، وأنه كان يمشي. ولم يفهم أحد ما يحصل، كان الجميع مدهوشين بينما كان العطر يفوح من الجسد.

فتناولت الراهبة العجوز الرداء ودسّته تحت ثوبها بيد مرتجفة.

الفصل التاسع عشر

+ (لو ٢٤ : ٢٦) "أما كان للمسيح أن يكابد هذه الآلام، ويدخل الى مجده؟"

وتعجب الأطباء وموظفو المستشفى جداً عندما علموا بأن هذا الراهب الفقير من ايينا كان سابقاً مدير مدرسة ريزاريو. وقيل أيضاً بأنه كان أسقفاً...

وأمضت العجوز أوفيميا ليلتها في الأنين. وعند الصباح حضر بندلايمون فوستينيس، وهو صديق لنكتاريوس، وكان أرشمندريتاً وواعظاً. وبعد وقت حضر أيضاً رئيس الكهنة أنجلوس نيسيوتيس، وكان أحد أفضل تلامذة مدرسة ريزاريو، وقد صار فيما بعد ممن نظـّموا التعليم الديني. كما وصل كوستي ساكوبولوس، وكان في حالة يرثى لها.

وطـُلب النعش وعربة الموتى. وبعد وقت قصير ساروا في طريقهم الى البيريه.

وكان على المركب الصغير الذي يؤمّن الانتقال الى ايينا ــ ويدعى "المجنّحة"ــ أن ينطلق عند الثانية من بعد الظهر. وقد استغرق اجراء المعاملات بعض الوقت، فوصلت عربة الموتى الى أمام كنيسة الثالوث القدوس في البيريه بعد الظهر بقليل. وكانت الكنيسة مغلقة، وقد ذهب الجميع الى الغداء، حتى القندلفت.

فتحلـّقت جمهرة من الناس في الشارع بصورة عفوية. وانتقل الخبر من شخص لآخر، فعلمت مدينة البيريه بأسرها بموت شيخ ريزاريو. فتجمّع الناس حول التابوت. وأرادوا على الأقل أن يأخذوا له صوراً في هذا المكان الذي أحبه كثيراً وألقى فيه الكثير من العظات. ثم وضعوا النعش على درجات الكنيسة ورفعوا الغطاء.

فجمدوا في أماكنهم وقد أصابهم الدهش لدى رؤيتهم العرق العطِر يتصبب من الوجه الهادئ والصافي... أيها الرب الاله !

وركض ساكوبولوس وهو في حالة الارتباك الشديد الى حانوت صغير، وابتاع قطناً ليمسح العرق العطِر. فهجم عليه بعضهم وانتزعوا منه القطن ووضعوه بتقوى على جباههم. وخبأه آخرون في جيوبهم، ودسّه آخرون داخل قمصانهم.

وصرخ الرجال الذين رفعوا النعش ليحملوه الى عربة الموتى:

-"انه لا يزن شيئاً، انه خفيف كالريشة!"

الفصل العشرون

+ (مز ٧٠ : ٣٠-٣٣) "ما أكثر وما أمرّ الأحزان التي أريتني! لكنك عدت فـــأحييتني ومن أعماق الأرض أصعدتني. وزدت في كرامتـــي وعـــدت فعزيتني ومن أعماق الأرض أصعدتني. فاياك أحمد يا الله من أجل أمانتك بآلة المزمار، ولك أرتل يا قدوس اسرائيل علـــى القيثار. شفتاي تتهللان حين أرتل لـــك ونفســي التــي أنــت افتديت".

ووصلت "المجنحة" الى ابينا حوالي الساعة الرابعـــة بعـــد الظـــهر، وعلمها منكــّس. وقبل أن ترسو على الشاطئ أطلق القبطان الصفارة ثـــلاث مرات حداداً.

على مياه خليج تسالونيكي الزرقاء كان يبحر جثمان مقدس، جثمـــان رجل من رجال الله، كاهن لم يحظ في حياته بأي مجد من أعمالـــه، راهـب أرضى العرش المقدس بطاعته واتضاع فكره وصبره وايمانه ومحبته.

واحتشد الناس أمام رصيف المرفأ، وقـــد حضـــر جميـــع أعضـــاء الاكليروس تقريباً، وجميع الرهبان والراهبات من الأديار المجاورة. وكـــانت بعض النساء يبكين بصمت، وبعضهن الآخر ينتهدن. وكانت بينهن من يرتلن مراثٍ جنائزية.

-"يا أبانا المحبوب، حامي الفقراء، ماذا ســيحل بنـــا الآن بعـــد أن تركتنـــا يتيمـــات ووحيدات؟"

وكان هناك حوالي مئتي رجل يتنافسون على حمل النعـــش، وكلـــهم أصدقاء له: بحارة الميناء وصيادو الاسفنج الذين كانوا يذهبون حتـــى الـــى تونس، وبعد مضيق جبل طارق ، ويحضرون له اسفنجاً مباركاً يظهر عليـــه رسم الصليب الجليل. وأجَراء عملوا في الدير وتناولوا خبزهم مـــن يديـــه، وبنّاؤون ومزارعون وتجار...

ولفضّ الخلاف، استعان المختار بشرطي لفرز المتنازعين الى فـــرق من أربعة رجال. وقـــسَّم زمن المسيرة الى الدير الذي يتجاوز الساعتين، الى أوقات متساوية. وسُوّي الوضع في وقت قصير، وتحرك الموكب.

كان المنظر مهيباً ومؤثراً، ولم تكن ايينا قد شهدت من قبل مثل هـذا الموكب على الاطلاق. فالشعب يتناول بعفوية الجسد الثميـن، جسـد ولـده المختار، وينقله بصمت الى زانطا. وغطـت زينة الحداد المدينة والمرفـأ. وراحت الكنائس تقرع أجراس الحزن كما في يوم الجمعة العظيـم. وكـان الجميع يحرقون البخور أمام بيوتهم، والنساء الشابات والعجائز على السواء يرمين الأزهار النضرة وعدد من طلاب مدرسة ريزاريو الاكليريكية يتبعون بصمت. والرجال يصرخون كلما تبدلت فرقة لحمل النعش:
-"انه لا يزن شيئاً. انه خفيف كالريشة".

* * * *

وامتلأ الدير بالناس من جميع الأنواع: معروفين ومجهولين، ريفييـن وسكاناً من السهل والشاطئ. والجميع يريدون الصلاة والسهر والبكاء. وفـي وسط هذه الجمهرة كانت الراهبات يبكين كالأطفال. ويظـهر بينـهن وجـه رئيسة الدير، الأخت كساني الضريرة. وقد وقفت للحظة أمام النعش، مقـابل الوجه النبيل والهادئ والشبه النائم، وجه أبيها ومرشدها الروحي والمحسـن اليها وحاميها. ولم تكن تستطيع رؤية العرق الذي يتصبب على جبينه، ولكنها شمّت العطر، وقالت:
-"ان أبانا لم يمت، انه حي يرانا ويصـلي هذه الليلة من أجلنا. هـذا الديـر سيكبر، ولن يتخلـى عنه الرب أبداً. هذا ما كان يقوله لنا دائماً في حياتـه. واننا نستطيع أن نفرح بوجوده معنا، وانه سيكون دائماً مرشدنا. كان يتنبأ لنا قائلاً: "بعد سنوات يا بناتي، سوف تأتي الى هذا المكان المقفر سيارات كثيرة وجماهير من الناس، حاملين التقدمات والذهب والشموع". وكنا نشك، نحـن المبتدئات، ونتعجب، ونتساءل بقلق ان كان قداسته يهذي. لا تبكين يا أخواتي ولا تنحن. فلقد حصلت ايينا واليونان علـى قديـس جديـد وشـفيع لـدى المصلوب".

لقد أعطتها نعمة الله القدرة على اخفاء ألمها للتلفظ بـهذه الكلمـات. وكانت هذه الكلمات القليلة للحشد كالموسيقى التي تهدئ جميع القلوب. وقـد طردت عنهم كآبة الموت خلال قسم من الليل.

ودام اكرام الجسد ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ولم يكـن العـرق العطِـر ليتوقف عن التصبب. فقلقت احدى المبتدئات وقالت للأخت كسـاني وهـي شديدة الاضطراب:

-"يجب أن نعجّل بدفنه أيتها الأم، فهذا لم يعد ممكناً. انها جثة، وسوف تصبح نتنة".

وفي الليلة نفسها رأت نكتاريوس في الحلم، مرتدياً الحلة الأسقفية. فصاحت:
-"يا صاحب السيادة".

وانحنت لتقبل يده، فسألها بلهجة مؤنبة:
-"هل يدي نتنة؟"

فتمتمت:
-"بل انها تفيض بالعطر يا صاحب السيادة.
-"وما هو هذا العطر؟
-"انه عطر البخور والعنبر.
-"اذن لا تقلقي بخصوص الجثمان".

فاستيقظت خائفة وركضت الى النعش وقبلت أصابع يديه ثلاث مرات. ولاحظت أن العرق ما زال يتصبب من وجهه.

وكان من الطبيعي أن تُحضَّر مراسيم الدفن. وقد تقرر دفنه قرب الكنيسة، تحت شجرة الصنوبر. تلك الشجرة الخضراء القوية التي كان يتأملها ويحبها كثيراً. وفي المكان نفسه الذي حدّده الصوت الغريب قائلاً للمرأة العجوز التي كانت تقطن هناك، وتحفر لزرع الشجرة:
-"اتركي متسعاً لتابوت".

لقد اتضح الآن كل شيء: ان الله لفرط صلاحه قد سبق وحضّر مكاناً لجسد ابنه المفضّل.

وقبل اغلاق النعش نهائياً، تقدمت جميع المبتدئات والراهبات ورمين زهوراً قطفنها من أشجار الحامض التي زرعها الشيخ بنفسه في أماكن عدة حول الكنيسة والدير.

الفصل الواحد والعشرون

+ (رؤ ١ : ١٩) "...لقد كنت ميتاً، وها أنذا حيّ الى دهر الدهور ولي مفاتيح الهاوية والموت".

+ (رؤ ٥ : ٩) "ولما أخذ الكتاب خرّت الحيوانات الأربعة أمام الحمل، وكذلك الأربعة والعشرون شيخاً، ومع كل منهم كنّارة، وجامات من ذهب ممتلئة بخوراً، هو صلوات القديسين".

في هذه الأثناء عاد ثيوكليطس الى كرسي الأسقفية في أثينا، بينما أصبح ملاتيوس بطريرك القسطنطينية.

وفي الدير أصبح الصمت والحداد يسودان في القلوب. وكانت معظم الراهبات يجاهدن روحياً ليل نهار، غير عابئات بالعالم وبأسياده.

وكما أسلفنا، فقد كان من عادة ثيوكليطس قبل عزله أن يرسل كاهناً أو أرشمندريتاً كل شهر تقريباً، ليجري تحقيقاً ويراقب كل ما يحصل. وما عرف أحد ان كان سيستأنف عادته السابقة أم لا.

ومرّ الشتاء، وحل من جديد شتاء قاسٍ وغزير الأمطار. ولكن أخبار الأبرشية انقطعت تماماً عن الدير. ولم تتعرض الراهبات لأي ازعاج.

وبقي كوستي ساكوبولوس وحده، مندوب الدير المخلص، يأتي كثيراً ويرحل للاهتمام بكل ما تحتاجه الراهبات في الخارج. وكان السيد كوستي كثير الشحوب، بعد أن فقد شهية الطعام، وتقوّضت أحلامه بالسفر الى مصر، وبدا كخيال حيّ للشيخ. ومع ذلك فقد كان متعلقاً بايينا.

وعندما حلّ شهر أيار، حين ظهور أول الورود، واقتضى وضع البلاطة المهداة من مدرسة ريزاريو على الضريح، استغلت هذه المناسبة لتحسين وضع القبر الذي كان قد صنع على عجل. وقرّ الرأي على تجميله بالرخام أو بما شابه.

وفي تلك الأثناء كان الشيخ يظهر في الليـــل للراهبـات: فيكلمـــهن ويرشدهن، تماماً كما كان يفعل في حياتـــه. وكـــان أيضـــاً ينـــاقش معـــهن المشكلات التي تعترضهن، والأخطاء التي يرتكبنها. وكان يبدو عليهن عنـــد اليقظة الجمود والرهبة. كما قام نكتاريوس بشـــفاء الراهبـــات المريضـــات، وبابعاد الخوف، وطرد الشياطين.

واذ تقرر فتح القبر، قام أحد البنائين، ويدعى العم ميتسوس، بحفـــر الأرض بالمعول، ثم رفع غطاء التابوت بساعديه القويين، ووضعه أولاً على جدار صغير للباحة.

فعمّ الدهش جميع الموجودين، اذ كان الجسد سليماً تماماً!

وبدا وجهه الأليف وكأنه غارق في اغفاءة خفيفة وعذبة. وكانت يـداه بلون الاصفرار الباهت، شفافتين كالعنبر. فرفعوا النعش ووضعوه في مكتبه، داخل حجرته السابقة.

فامتلأت الغرفة بعطر لا مثيل له. واذا بزهـــرات الحـــامض التـــي وضعتها الراهبات نضرة ندية، وكأنها مرسومة. وكنّ قد وضعنـــــها ســـاعة الدفن، أي منذ ستة أشهر. أيها الرب الاله!

ودنت كل راهبة تأخذ من هذه الزهرات. ثم وضعنها في قلاليـــهن، واحتفظن بها بمثابة ذخائر، لتحميهن وتمدّهن بالقوة الالهية.

وبقي النعش مفتوحاً في مكتب نكتاريوس لثلاثة أيام وثلاث ليال، الى أن أصبح القبر جاهزاً. وكان العطر منتشراً في كل مكان، وبقيت نقاط العرق العطِر تتصبب من وجهه الهادئ.

فصرخت بعض الراهبات:
-"انه قديس! يجب أن نخطر السلطات!"

لكن الأخت كساني قالت:
-"لا، بل ننتظر المهلة القانونية المحددة بثلاث سنوات".

وكان أحد كهنة ابينا حاضراً، وهو خادم رعيــــة كنيســة العديمــي الأجساد. واذ عاين عجائب الله، ارتعب. واستغرق في التأمل ثم قال:
-"يبدو أنه قد أرضى الله... كان متواضعاً، وديعاً. لا يحقــد عندمسا يتلقــى الضربات، صبوراً... بالصبر تقتنون نفوسكم".

وسمعت رئيسة الدير الضريرة، الأخت كســاني، كلماتــه. فتوقفــت قليلاً، وكتــفت يديها، ثم رسمت اشارة الصليب، وأجالت على الموجوديــن ابتسامتها العذبة التي لا تنسى، وقالت:
-"ان الأشخاص الذين يرسلهم الرب الاله من وقت لآخر ليزيدوا بحضورهــم الأرض جمالاً، هم وسيكونون دائماً ذوي نفوس صبورة. فالانسان الصبــور، ولو كان ضعيفاً، فانه يتفوق في الجهاد الروحي على الانسان القوي والفــاقد الصبر".

ولم تعش زهرات الحامض يوماً واحداً في قلالي الراهبات، فقد ذبلت بعد اخراجها من النعش بحوالي ثماني أو عشر ساعات.

فحزنت الراهبات أشد الحزن لعجزهن عن الاحتفـــاظ فـــي أيديــهن الترابية بدليل "محسوس" على عجائب الله، لاعطاء الأصدقاء والمعارف نوعاً من ذخيرة ودليلاً على المعجزة.

الفصل الثاني والعشرون

+ (أش ٦٦ : ٢٢) "لأنه كما ان السماوات الجديدة والأرض الجديدة التي أصنعها تدوم أمامي يقول الرب، كذلك تدوم ذريتكم واسمكم".

+ (رؤ ٢٢ : ١١) "فليستمر الظالم في ظلمه والنجس في نجاساته، والبار أيضاً في برّه، والقديس في قداسته".

وبعد سنة ونصف أخرج النعش من القبر مرة أخرى، فاذا كل شيء كما كان. أيها الرب الاله! كان الجثمان سليماً، ويفوح بالطيب! وامتلأت جميع القلوب بفرح سري. وتناقشت الراهبات من جديد عما اذا كان يجب اعلام المطرانية بالأمر. فاعترضت رئيسة الدير، وكانت ترى بأن الوقت ما زال مبكراً جداً لذلك. فأطعن.

كان الأمر مدهشاً حقاً! فهل هذا معقول في القرن العشرين، المنحرف والمادي والشهواني بهذا المقدار؟

فأجابت على هذا السؤال المقلق راهبة عجوز تبلغ التسعين من عمرها، وهي حانية الظهر، منتفخة الساقين، تنتظر الموت بين ليلة وضحاها. فقالت:

-"ان الرب لا يقيم وزناً للعصور عند اتمام كتابه للنفوس التي ينتظر".

وأرادت راهبة أخرى من جزيرة بوروس أن تبدي رأيها، فقالت

-"كان أبونا المحبوب قديم العهد فقد ولد في القرن التاسع عشر ... خميرة صافية. كانوا يأكلون خبزهم مبللاً بالدموع، وهم يشكرون الرب".

ولم يحدث أي جديد خلال فترة من الزمن. بعد ذلك حضر ... المطرانية للتحقيق. ولكن لم يتسنّ له تفتيش ادارة أعمال السنوات ... بسبب وقوع الكارثة الوطنية الكبرى: أي هزيمة الجيش اليوناني في ... ساغار، وكارثة آسيا الصغرى.

وتوافدت من البلد المقابل، من أرض ايونيا، جموع غفيرة من الهاربين، المسيحيين المذعورين من جميع الأعمار. وملأوا

اليونانية والمرافئ والمدن. جموع غفيرة من الناس يحملون الصرّات ويلبسون الأسمال. وقد ظهر الرعب واليأس على جميع الوجوه. وأدى هذا الوضع الى الذعر أولاً، ثم الى الخوف وأخيراً الى الحزن. وتحوّل الى حداد وطني.

وخلال أسابيع تلاشى حلم اليونان، حلم آيا صوفيا، وقيصر بيزنطية... ذلك الانتظار الذي دام ستة قرون...

ولم يعد أحد يتذكر تلك الزاوية الصغيرة ابينا، ودير الراهبات في زانطا، في خضم كل هذه المشكلات والاحتياجات الناتجة عن هجرة مليون نسمة، وفي وسط الدم المهراق والدموع واليأس، وفي وسط غضب الشعب والثورة، وتكاثر المجالس الحربية والأحكام العرفية. وكانت جميع هذه الأحداث تعبر ببطء بقرب الراهبات ومن فوقهن مثل غمامة طويلة سوداء...

ان رئيسة الدير، الأخت كساني الضريرة، التي كانت تؤلف أبياتها البسيطة وتصلـّي ليل نهار، كثيراً ما كانت ترى في الليل، أكثر من الراهبات الأخريات، راعيها وأسقفها المحبوب، كما كان في حياته، فيتبادلان الأحاديث. وكانت تحدثه عن معاناتها الخفية، وعن المآسي التي تحل على بلدنا آنذاك، وعن الشعب الأرثوذكسي. فيجيبها بأن تتحلـّى بالصبر والايمان والثقة بالله. ويقول لها:
-"لن يخلص البلد الا بنور المسيح، فقط بنور المسيح".

كان في حياته هو أيضاً يرى الشقاق والخصامات والمجازر والأحقاد التي نزلت على هذا الشعب، فيضطرب قلبه ويهتز كالقصبة.

كان وطننا الصغير المتألم يحكمه أشخاص تنكروا لايمان المسيح المخلـّص، وللأحاسيس التي جعلت قلوب أبطال ١٨٢١ تخفق. لا بد أن كناريس ومياوليس كانا يبكيان في السماء.

"تفتح يدك فيمتلئ الكل خيراً. تصرف وجهك فيضطربون".

* * * *

وصارت رئيسة الدير، الأخت كساني الضرير...
من عذوبة الحمل البريء بأصوامها وصلواتها وأسهارها...
المتواضعة هبة نقية لمشيئة الرب، على مثال راعيها، مؤمنة...
تقترب أكثر فأكثر ممن هو أكبر من الجميع، من الحمل الذبيح...
الله، وروحها تتحرر وتتنقى من الأهواء ومن كل خبث أرضي

وفي احدى الليالي هطلت الأمطار بغزارة مصحوبة بالبرق والرعد... وخرجت الأخت افروسيني الى الباحة، بعد أن صحت على أصوات الرعد. وتوجهت نحو الكنيسة بشجاعة. واذ بلغت الكنيسة، بهتت لرؤية الأخت كساني جاثية على ركبتيها وهي تصلّي. يا الهي! لم تصدق عينيها: كانت الأخت كساني الضريرة تطفو في الهواء على ارتفاع مترين عن الأرض، وكان وجهها مضيئاً! فتساءلت ان كان ما تراه وهماً. فهل اضطربت بسبب أصوات الرعد؟ أم هي أهوال هذه الليلة وضجة السيول المنحدرة من الجبل؟ ومع ذلك فقد كانت عيناها مفتوحتين جيداً. أيها الرب الاله! ان ما تراه حقيقي...

فنادتها مرتجفة:
-"أيتها الأم كساني!"

وفوجئت الأخت كساني وأدارت رأسها فعادت الى الأرض، والى الوضعية الطبيعية. فسألتها:
-"ماذا جئت تطلبين في هذا الوقت؟
-"لقد خفت من الرعد وخرجت.
-"ماذا؟... أرجوك يا أختي، أرجوك، اذا كنت قد ر... أنا
لا أهمية لي، ولا أستحق شيئاً.
-"لكني لا أفهم.
-"لا أهمية لذلك يا أختي. لا أهمية لذلك، أرجوك...

وكانت الأخت كساني قد حصلت على م...
حيث يشاء. وكثيراً ما كان يزور الدير أشخاص...
الأخت كساني تقول لهم بأنها كانت تنتظر حض...
لاستقبالهم والاستماع اليهم ومساعدتهم. وعندما ح...
الرحلة الكبيرة، تحضّر جمع من الملائكة...

والصبورة، بأمر من الحمل. وتبين ذلك من خلال كلماتـــها الأخـــيرة التـــي تلفظت بها على سرير الموت، وهي:
-"ها هي السماوات والمصاف النيّرة".

وكان من الطبيعي أن يكون لها حوار أخير مع الأســـقف. فتحادثـــا كثيراً بلغة يجهلها البشر، لغة "صافية" لا خبث فيها ولا ابتذال، لغة المزامـــير والأناشيد...

وكانت هذه المرة الأولى التي يظهر فيها الشيخ لمرافقة رحيل نفـــس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته وعمله.

فرقدت بصمت، كعصافير السماء، في الواحد والثلاثين من تشـــرين الأول من العام ١٩٢٣، قبل أيام من الذكرى الثالثة لرقـــاد أبيـــها الحبيـــب ومرشدها الروحي.

الفصل الثالث والعشرون

+ (مز ١٦ : ٩-١١) "وجسدي أيضاً يرقد مطمئناً. لأنك لن تترك نفسي في الجحيم ولن تدع قدوسك يرى فساداً. عرفتني سبل الحياة. أمامك شبع سرور فرحاً أمام وجهك. عن يمينك نعيم إلى الأبد".

وفي الذكرى الثالثة لرقاد نكتاريوس، فُتح النعش من جديد بعض الخشية، وفرحت الراهبات اللواتي ما زلن على قيد الحياة في الدير الجديدة، لرؤيتهن بأن كل شيء ما زال على حاله: لقد كان الجسد سليماً والوجه في سكون تام، وكأنه غارق في اغفاءة هادئة. وكانت اليدان شاحبتان كالعنبر، وقد فاح العطر المعروف ووصل الى الخارج.

وانتقل خبر المعجزة المدهشة بين الناس؛ ورأى فيه البعض والبعض الآخر خرافة. وكان بعض المسيحيين في الجزر بوروس يقولون غير مصدقين: "هل من المعقول أن تنحدر الأرض لتسمح بمثل هذه العلامة، في عصرنا الخاطئ، الفاسد؟" فيجيب بعض الشيوخ المتعلمين والمستعدين الأبدية:

-"ان الرب هو هو نفسه على الدوام. والاكليل جاهز في كل العرش المقدس من أجل من ينكر نفسه ويحمل صليبه من كل قلبه".

في هذه الأثناء كان أصدقاء المادة والزمن الحاضر، بعقيدة خلاص العالم التي وضعها اليهودي ماركس، يلازمون متظاهرين بأن لا علم لهم بما يحدث، وأنهم لم يسمعوا بالخبر. أنهم كانوا عاجزين عن تفسير هذه الظاهرة، كما كانوا عاجزين عن وعن القول بأن الراهبات قد رتّبن كل ذلك لمصلحتهن. "تعال وانظر".

في هذا الوقت، وبعد رقاد الأخت كساني أعلنت وصية الشيخ الملأ: وفيها يهب جميع ممتلكاته الروحية والمادية الى الدير. واذ خاف عدم سداد رأي الأساقفة، ومن أن يكون لهم التأثير السيء، تمنى أن الدير حياته كشركة رهبانية مستقلة تخضع لقاعدة واحدة، هي لروحانية الكنيسة الأرثوذكسية.

وقد سويت مشكلة الاعتراف الرسمي بالدير تدريجياً. ففي خلال الكارثة الوطنية والثورة، وفي أيام القلق، وبينما كانت وفود النازحين من آسيا الصغرى تتواصل دون انقطاع، والأحكام العرفية تستمر ،عُزل ثيوكليطس من جديد. واعتلى الكرسي الأرشمندريت خريزوستوم بابادوبولوس الذي كان قد خلف الشيخ في مدرسة ريزاريو، وبدا أنه يبغي السير على خطى سلفه المبارك. فقد تسنى له خلال اقامته في مدرسة ريزاريو أن يفهم جيداً ذلك الرجل المنفي من مصر. كما فهم أن نهضة الشعور الديني عند الشعب في هذا القرن المادي المضطرب، انما هي ناتجة بدرجة كبيرة عن كرازة نكتاريوس الملهَمة، المفعمة بالايمان العميق، وعن مثاله الصالح.كما نتجت أيضاً عن العديد من الكهنة الذين كانوا تلامذته في ريزاريو، أمثال مرقس تساكتانيس، وجورج مكريس، وأنجلوس نيسيوتيس، وجرفاسيوس باراسكيفوبولوس العجيب، وكثيرين غيرهم كان قد أدفأهم واعتنى بهم كصيصان صغيرة، وبثّ فيهم القوة والحياة والنعمة المقدسة، نعمة قلبه المخلص لله.

وكان خريزوستوم هذا أيضاً كاتباً اكليريكياً محباً للدراسة. وقد فهم جيداً قيمة وعمق المؤلفات اللاهوتية التي وضعها ذلك العامل الصامت الذي طرده البطريرك صفرونيوس، ونفاه دون سبب.

ولهذا كله، فما ان أصبح متروبوليت أثينا وسائر اليونان حتى أسرع الى حلّ جميع المشكلات. كما أسرع بالتخلّي عن جميع حقوق الصندوق الاكليريكي على ملكية الشيخ. وفي الوقت نفسه اعترف رسمياً بالدير على أنه شركة رهبانية خاصة، تماماً كما رغب مؤسّسه. وقد تدبّرت كل تلك الأمور بعد وفاته لكي يجرع كأس الصبر حتى الثمالة.

وفي ١٥ آذار ١٩٢٤ سجّل بابادوبولوس رسمياً كل ما أوردناه، وأضاف بعض الاقتراحات القانونية، ومن بينها: "...عندما نزور الدير بمعونة الرب، فسوف نهتم بالتفاصيل. وبمناسبة الاعتراف الرسمي بهذا الدير، نرغب في أن نوفر له كل حمايتنا. كما نود أن تؤدي كل راهبة واجب الأمانة ومخافة الله، وأن تخضع لمجلس رؤساء الأديار دون أي تحفظ، وتكرّم رئيسة ديرها كأم روحية، بالسلام والمحبة الأخوية".

الفصل الرابع والعشرون

+ (مز ٧١ : ٤) "يقضي لمساكين الشعب بالعدل. ويخلص بني البائسين ويذل الباغي".

+ (أستير ٣ : ٨) "...يوجد شعب منتشر متفرق بين الشعوب في جميع أقاليم مملكتك، سننهم مخالفة لجميع الشعوب..."

أما بقية قصة الشيخ القديس بعد رقاده، وجميع الاجراءات التي تمت، وقصة اعلان قداسته أو تبنيها رسمياً في أماكن العبادة والكنائس، فالجميع تقريباً يعرفونها.

ومع ذلك فهناك أمر يخفى على الكثيرين. ولا شك في أنه حدث صعب التصديق. ولذلك فقد أجريت التحقيقات والتدقيقات، وقُدِّمت الدلائل، وأبديت الآراء المتضاربة من قبل الاختصاصيين والوجهاء. ولكن قبل كل ذلك كان الله نفسه قد تكلم. كان قد كلّم أولاده المفضلين، قطيعه الصغير، نفوس الشعب.

...أجل سوف نكرر، ولكن الواقع أن الجماهير التي لا اسم لها، ونفوس الشعب، هي التي تحتوي على الخمير الذي يخمّر العجين في الصمت: ذلك القطيع الصغير، وتلك النفوس الضعيفة والمنهكة التي لا أهمية لها ازاء العالم ومجده. كم عدد هذه النفوس؟ ومن هي؟ لا أحد يعرف. الله وحده يعرف. انها النفوس المعتادة على مآسي الحياة والتي تقاسي أهوال الجلجلة، وتعرف كيف تتثمر في الصبر. انها تحمل الصليب دون أن تتذمر، وتستدعي كنز النعمة المقدسة الذي لا يثمّن، وتحصل عليه. وقد يكون بفضل هذه النفوس أن كوكبنا لم يتعرّض بعد للانهيار.

لقد تكلّم الله اذن، وعلّم القطيع الصغير، الشعب، مباشرةً. وبدل أن يتم اعلان القداسة بعد الوفاة بمئة سنة، بحسب العادات والقوانين، فقد تم قبل ذلك بكثير. بل انه تمّ بسرعة لا تصدق بالنسبة الى الذين كانوا شهوداً. وجاء من الأسفل، من الشعب لا من السلطة.

قد كتب مؤلـّف احدى طروباريات القديس: "هلموا أيها المؤمنون نكرّم نكتاريوس الذي ظهر في الأزمنة الأخيرة..."

فانه بعد تلك المعجزة الأولى التي تمّت بالقاء رداء نكتاريوس على الرجل الكسيح في المستشفى، أنعم الله على الشعب بحضور كاهنه المحبوب، أسقف المدن الخمس السابق، بشكل متواصل. وهكذا فقد أنعم عليه بشفيع مبارك وعطوف ومساعد ومعزٍ وشافٍ من الأمراض المستعصية.

وكثيراً ما حصل لأشخاص أرثوذكسيين في أمكنة مختلفة من الكرة الأرضية، ممن كانوا يشعرون ببرودة الموت، أو يعانون من آلام غير محتملة، أو ممن أصيبوا بأمراض مستعصية ودون امل بالشفاء، أن رأوا راهباً شيخاً، كما لو كان حياً، بقلنسوته السوداء، يبتسم لهم بوداعة ويعزيهم. ويؤكد لهم بأنهم سيشفون، وأن الله لن يتخلّى عنهم. وأن عليهم أن يتحلّوا بالصبر والايمان. وكانوا يسألونه في ذهول:
-"من أنت أيها الأب المحبوب؟"

فيجيب قبل أن يختفي:
-"أنا نكتاريوس من ايينا، أسقف المدن الخمس السابق".

ولن يفيدنا أن ندخل في جميع تفاصيل المعجزات، ونورد الأسماء ونقصّ الأحداث. فقد الـّفت كتب كاملة وعديدة فقط لسرد معجزاته التي قامت في معظمها على طرد الشياطين المسيطرة على الناس. وما زالت الكتب تولـّف لأن عجائبه الباهرة تتواصل. ومع ذلك فهناك قصة تستحق السرد، عن امرأة من البيريه كان يسكنها شيطان مخيف، واسمها كاترين كراكاري. وقد عذبها سنوات طويلة.

لقد أصبحت هذه المرأة راهبة في العام ١٩١٧، ولكن ليس في دير ايينا، واتخذت اسم برثانيا. وقامت بزيارة الشيخ القديس حوالي العام ١٩١٩، وقد اضطربت نفس نكتاريوس بينما كان يتلو الصلاة.

لا شك أن الكثيرين من أهالي البيريه الذين لا يزالون أحياء يذكرون حتماً ناظر مدرسة البيريه، مرقس كراكاري الذي كان يقطن مجاناً في بعض الغرف الصغيرة في المدرسة نفسها. فكان اذاً لهذا الرجل ابنة رائعة الجمال اسمها كاترين. ومنذ طفولتها كان كل من يراها يقول انها

عندما تكبر سوف تأخذ الألباب بجمالها، وتصبح [illegible] رجلاً واسع الثراء، لما لها من الجمال. لكن اباها [illegible] سفيهاً، وكان يجدّف حتى على المقدّسات. وفي أحد [illegible] قال لابنته أن تذهب الى الجحيم. وفي الحال تغيّرت الفتاة [illegible] أزرق اللون. وصرخت بصوت شبيه بصوت العجل الصغير، وارتمت على الأرض تتدحرج وتصطدم بالجدران. وأصبحت منذ تلك اللحظة أسيرة شيطان مرعب لا يُقهر.

وفي أحد الأيام اعترف هذا الشيطان الى شيخ جليل معرّف كان يقرأ أفاشين طرد الأرواح الشريرة، فقال له:

-"نحن ثلاثة: أحدنا بعيد، في الصين، والثاني في روسيا، والثالث هو الذي يكلّمك".

وسيطر الألم والرعب على المنزل الفقير في البيريه. وعندما كانت هذه الابنة البالغة السادسة عشرة تصاب بنوبة مدمِّرة، لم يكن يستطيع ضبطها ثلاثة رجال أقوياء مع أبيها. فكانوا يضطرون لربطها بقوة ومراقبتها دون انقطاع، ودون أن يتركوها لحظة واحدة بمفردها.

وقبل أن تدخل الحياة الرهبانية، صاروا ينذرونها لله باستمرار، ويجعلونها تشارك في خدم ليتورجية تدوم الليل كله. ان الكنيسة الصغيرة على اسم القديس أليشع في موناستيراكي في أثينا هي اليوم مهدّمة كلياً، وكان الكاهن ورجل الله نيقولاوس بلاناس يخدم فيها وراهبان عظيمان متواضعان من جبل آثوس هما مورايتيس وباباديامانتيس يقومان بالترتيل. وقد زارت الشابة هذه الكنيسة مرات عدة، وكان الشيطان الرهيب يتفوه من فمها بتجديفات مرعبة. وكانت أحياناً تصرخ بصوت كالخنزير، وأحياناً أخرى تنهق كالحمار. ولم يكن الشيطان يسكت ويختفي الا وقت الاستحالة.

وفوق كل الخيبات والهموم التي واجهتها هذه الفتاة وعائلتها، وصل من مصر في أحد الأيام أرشمندريت "محترف" كان يقوم بالخدم الليتورجية وبالذبيحة الغير الدموية بشكل آلي، من دون ايمان ولا فهم ولا توبة.

واذ كان منبهراً من بهاء هذا العالم الوقتي والوهمي، لابتعاده عن النعمة المقدسة، كان يعتقد أن الايمان بالمسيح المخلّص انما هو ايمان رمزي بديانة، كما بأي ديانة أخرى. وهكذا كان يقوم بمهمته كأنه موظف في

شركة. وإذ وصل بالصدفة الى أثينا بداعي أعماله، سمع عن هذه الشابة التي من البيريه، وعن الشيطان الذي يسكنها ويتنبأ بواسطتها من وقت لآخر. فابتسم باحتقار وأعلن:
-"لم يعد هناك من شياطين في أيامنا الحاضرة. يبدو لي أن هذه الفتاة مصابة بانفصام في الشخصية".

والملاحظ أن الأشخاص الذين يبتعدون عن الله ينفون أيضاً الشيطان، ولا يعتقدون بوجوده.

ولكن بعضاً من أصدقاء الارشمندريت ومعارفه أصرّوا وشرحوا له بالضبط ما يحدث للفتاة... وهكذا في أحد الأيام نزل هذا السيد العزيز الى البيريه مرتدياً جبته المكوية جديداً، مورّد الخدين، يفيض بالعافية. فاستقلّ عربة خيل ووصل أمام المدرسة في ساحة البيريه.

وفي تلك الأثناء، وقبل وصوله أمام منزل الشابة، كانت الفتاة متكوّمة على نفسها في احدى زوايا الغرفة، وهي تعلّق على مراحل مجيئه بسخرية، وبالتفاصيل الصغيرة، وتعلن عن وصوله الوشيك. وكانت تصيح من وقت لآخر:
-"آه... يا عصفوري الصغير. ان الرجل اللابس الجبّة والآتي من الاسكندرية يوشك على الوصول. انه الآن في ساحة أومونيا... انه يأخذ بطاقته لركوب القطار... ها هو يجلس بفخر في مقصورة الدرجة الأولى في فاليريا... وها هو عصفوري الصغير يخرج مع جميع الركاب الى الساحة. انظر اليه، انه يبحث عن عربة خيل... سوف أتسلى كثيراً... سوف أتدبر أمره كما يجب".

وكان أهلها يعرفون قدرة الشيطان على التنبؤ، فعلموا بأن هناك من يأتي لزيارتهم. فوصل وطلب رؤية والد المريضة. فتقدّم وعرّف عن اسمه ورتبته، وأعلن عن هدف زيارته.وقد استُقبل بحفاوة واحترام كبير يليق برجل الدين الذي يلبس الصليب. ثم اصطحبوه الى الحجرة حيث كانت الشابة متكوّمة على نفسها.

وبدت الشابة في البداية معادية وغامضة. ولكنها أصبحت فيما بعد أكثر لطافة، وراحت تنظر اليه بصمت. ثم ابتسمت، وبعد ذلك بدأت تسخر منه قائلة:

-"يا كاهني الحبيب. كم أنت جميل، وكم تبدو جذاباً..."
أما هو فكان يراقبها "من أعلى علمه"، وهو واثق تماماً مـــن سداد رأيه. لحسن الحظ أننا اليوم نملك العلم! ثم تمتم:
-"انه لأمر شديد الغرابة، فهي تبدو طبيعية تماماً... انها حالة مألوفة. ولكـن عندما تقترب النوبة..."

وفجأة اقتربت منه، ووضعت يدها على صدر الارشمندريت بدالـــة، وأخرجت ساعته من جيب سري. فصاحت الأم:
-"انتبه يا أبتِ، فسوف تكسرها لك.
-"تكسرها؟ أنت تمزحين. فلا أحد يكسر الفولاذ بسهولة".

ولم يكد ينهي جملته حتى سُمع صوت تحطـّم، وتهشـمت السـاعة الى أربعة أجزاء. فنهض الأرشمندريت مذعوراً. ولكن يدي الشابة كانتا فـي تلك اللحظة بقرب عنقه، تشدّان سلسلة تحمل صليباً من الذهب كانت معلقـة في عنقه. وأصبح فمها ملتهباً كالنار، وراحت تتلفـظ بكلمـات مرعبـة لا توصف:
-"أيها القذر النتن، أيتها الدودة! ألست أنت من لم تدع امرأة واحدة ولا شـابة من غير أن تدنسها هناك في الاسكندرية؟ وتجرؤ على الادعاء بـأني غـير موجود؟ سوف أخبر بكل القذارات التي فعلتها أيها الكاهن المهرّج...ألم تفعل كذا في ذلك التاريخ؟ ألم تدبر تلك الدسيسة في مكان ما في كفر الزيّات؟..."

فخارت قوى الارشمندريت الآتي من مصر، وتهالك على الأرض.

فركض أهل البيت يطلبون المساعدة، واضطروا لنقله بصعوبة خارج الغرفة الصغيرة، فيما استمرت المريضة تحكي وتروي... وكانت تجأر مـن وقت لآخر كحيوان مفترس.

ثم أصبحت فيما بعد راهبة، وذهبت في زيارة الى ايينا عام ١٩١٩، حين كان القديس ما زال حياً. كانت كل الدلائل تشير آنذاك الى أن الشـيطان قد خرج منها، لأنه كان يصمت وينام. ولكن ما أن يوشكوا علــى الابتـهاج والاحتفال بذلك، حتى كان يظهر من جديد بمكر ودهاء.

وقد نُقلت الى الكنيسة في أحد الأيام برفقة عدد كبير من الأشخاص ، وكانت تقام صلاة المساء. فصلـّى أهلها من أعماق القلب لكي يرأف الله بهم

ويخلـصها من الشيطان، أو ليستدعيها اليه، فهم لفقرهـم عـاجزون عـن احتمال مثل هذه التجربة. وبينما كانوا يصلـّون، فتحت الشابة فمـها فجأة وتلفظت ببعض الكلمات الرمزية والغامضة. وقالت:
-"عبثاً تغطونني بالأثواب الرهبانية وتصطحبونني الى الكنائس، لأنكـم لـن تتوصلوا الى شيء. فأنا قوي جداً ولن يقوى أحد منكـم علـى إخراجـي... رجـل واحد قادر على ذلك... الرجل ذو الأظافر الطويلة".

فانذهل الجميع وسكتوا عن الكلام. وتساءل الأهل والأصدقاء:
-"من هو هذا الرجل ذو الأظافر الطويلة؟ الى من تلمّح؟ انه لسرّ!"

وفيما بعد، بعد رقاد شيخ ايينـا، وعندمـا ذاع صيـت معجزاتـه، وخصوصاً منها المتعلقة بشفاء الممسوسين، قرّر أهل الشابة المحاولـة مـن جديد ونقلها الى حيث وضع نعش القديس. وقد حملوها الى المركب ونقلوهـا الى الدير بصحبة خمسة رجال وثماني نساء من الأقارب. وقد تكبدوا عنـاءً شديداً في إصعادها الى فوق. فقد كادت تلقي بهم مرات عـدة مـن أعلـى الجرف الشاهق. وكادت أيضاً تنجح في دفعهم عنها لتلقي بنفسها الى الأسفل وتنتحر.

وما ان اقتربوا من النعش المقدس حتى بدأت تصيح:
-"الرجل ذو الأظافر الطويلة! الويل لي. انه يتفوق على القديس جراسيموس من جزيرة كيفالينية. والحق يقال انه أسقف هو الآخر..."

وأخيراً في اليوم التالي، وبعد القداس الالـهي، وبعـد أن مُسـحت الشابـة بالزيت من سراج النعش برسم اشارة الصليب، انطرحـت أرضـاً وهي عرضة لارتعاشات تهز أعضاءها كلها. وخرج الزبد من فمها، فـاعتقد الحاضرون بأنها تلفظ أنفاسها. وقـد أصبحـت شـديدة الشـحوب، وبـدت كالأموات. ولكنها فتحت عينيها بعد نصف ساعة وتمتمت:
-"أين أنا؟ يا الهي لقد تحررت!..."

وفيما بعد فهم الجميع أن الشيطان قد دعا مؤسس الدير: "الرجـل ذو الأظافر الطويلة" لأن جسده لم يكن قد تحلـل بعـد، وكـانت أظـافر يديـه العنبريتين تتابع نموها.

وكان ذلك في آذار من ربيع العام ١٩٢٦. وقد طلبـ...
الى الدير والتكرّس للحياة الرهبانية. وفيما بعد أصبحت متوحدة
أحد ما تحلـت به من التقوى العظيمة، ولا الدراسة العميقة التـــي و...
حول الكتاب المقدس. وقد عملت في الشركة الرهبانية كأمينة سر ودار...
للكتاب المقدس حتى نهاية حياتها في أيلول ١٩٦٨. وما زال خطها الجميـــ...
على صفحات سجل الدير الى اليوم.

الفصل الخامس والعشرون

+ (اش ٥٣ :٣-٣و١٣) "...لا صورة له ولا بهاء، فننظر اليه ولا منظر فنشتهيه. مزدرى مخذول من الناس، رجلُ أوجاع ومتمرس بالعاهات... مزدرى به فلم نعبأ به [...] فلذلك أجعل الكثيرين نصيباً له والأعزاء غنيمته لأنه أفاض للموت نفسه وأحصي مع العصاة، وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة".

بعد مرور عشر سنوات على وفاة نكتاريوس، فـُتح القبر من جديد، ورُفع الغطاء عن النعش، فاذا الجسد سليم. وكان يبدو عليه الهدوء والصفاء، وكأنه قد نام لتوّه، وكان ما زال يشيع العطر.ولم يسمح الرب بأن يستحيل جسده الى تراب كغيره من البشر الا بعد مرور عشرين عاماً، فاستطاع الناس أن يأخذوا منه الذخائر.

الا أن العطر بقي يفوح من عظامه، وما زال الآن. وأكثر من ذلك، فان كل غرض يلامس عظامه يصبح مصدراً للعطر.

وكانت هناك امرأة عجوز من عائلة عريقة عرفت نكتاريوس وجاءت الى الدير واعترفت له مرات عدة. وقد حزنت هذه المرأة كثيراً على أثر انحلال الجسد. ولم تكن تنفك عن البكاء، اذا انها كانت تردد على الجميع بايمان واصرار أن الكنيسة الأرثوذكسية قد اكتسبت جسداً قديساً جديداً. وبما أنها كانت بالأصل من جزيرة زانطا، فقد اعتقدت بأن هذا الجسد سوف يبقى دائماً سليماً، لأن هذا القديس من مسقط رأسها.

فرأته في احدى الليالي أمام سريرها، كما كان في حياته، بابتسامته الالهية. فقال لها:
-"لمَ أنت حزينة؟ فأنا الذي رجوت الرب أن يسمح بأن ينحلَّ جسدي. وقد فعلت هذا بسبب تقوى المسيحيين ولأجل تعزيتهم، وحتى تتوزع عظامي في جميع أرجاء الوطن اليوناني وفي العالم أجمع".

فاستيقظت مضطربة أشد الاضطراب، وقد ملأها شعور العرفان بالجميل.

يا لقوة الروح القدس! هكذا فقد رأت الشيخ القديس أمامها، هذا الناسك والمعرَّف، صخرة الصبر وكأنه ما زال حياً!

* * * *

وفي تلك الأثناء ألحقت ايبنا بأبرشية هيدرا بقرار من المجمع المقدس، وأصبح بروكوبيوس كاراماناس متروبوليتاً.

كان رجلاً متقدماً في السن، وقد سبق أن كان أسقفاً في هذه المنطقة لبعض الوقت، وممثلاً اكليريكياً لجزر خليج تسالونيكي التاريخية. وكان يحب الحياة، وقد ازدوج قلبه: فقد كان رجل ايمان وتقوى، الا انه فضّل أمجاد هذه الدنيا. وقد تنقّل خلال الفترة الطويلة التي كان فيها أسقفاً لأنه كان قريباً من البيريه. فصار يروح ويجيء متردداً على المدينتين الكبريين. وعيِّن عضواً في المجمع المقدس مرات عدة، ووُجد متورطاً في كثير من القضايا التي كانت مدعاة خزي وخجل للاكليروس ولاخوته الأساقفة. كما كان شاهداً لعدد كبير من عمليات تهريب الذخائر المقدسة من قبل الرهبان وسائر أنواع رجال الدين المشعوذين.

وفي هاتين المدينتين أيضاً كان هناك بالطبع أوزيبيوس مانطوبولوس وأخويته، وجرفاسيوس باراسكيفوبولوس، وأنجلوس نيسيوتيس، وكثيرون غيرهم ممن تعمقوا في الأمور وطبّقوا الانجيل بكل جدية، وكانوا مستعدين للتضحيات والحرمان والتفاني بالكامل. وبالقرب من هناك أيضاً كان نكتاريوس المنفي والمطرود من مصر...

وقد اكتفى بروكوبيوس بالتسامح تجاه الجميع وابداء الاعجاب ببعضهم وتوزيع البركات والعلامات الجيدة. لكنه بقي هو نفسه سجيناً للعالم، لميله للسلطة والاطراء والتشريف، وللرفقة الحسنة المتوفرة في الصالونات.

هكذا فقد توالت السنوات الواحدة بعد الأخرى دون أن يستطيع الشعب نسيان نكتاريوس، المنفي السابق، وحضوره الحيّ.

وفي أحد الأيام قام بروكوبيوس كاراماناس بزيارة للدير بصفته أسقف المنطقة. فلقي استقبالاً حافلاً. وحُضِّر له عشاء يليق بأسقف، وأعطي غرفة المؤسس المأثور ليمضي فيها ليلته. وبعد العشاء تكلمت الراهبة نكتاريا (وكان اسمها السابق أغابي) عن معجزات نكتاريوس المدهشة، والمرات

الكثيرة التي فاح فيها العطر، وعن الأشفية وطرد الأرواح الشريرة. ولـدى سماع الأسقف ذلك ابتسم وسخر في نفسه، ثم قال هازئاً:
-"هيا، هيا، هل تعتقدن بأن نكتاريوس هو الـذي يقـوم بـهذه المعجـزات والعجائب، وأنه هو الذي ينشر العطر؟
-"أجل يا صاحب السيادة، ومن غيره؟
-"لا تلححن يا فتياتي. فعندما تسردن عليّ مثل هذه القصص تنتابني الرغبـة في أن أغضب عليكن أشد الغضب وأطردكن. لقد سخرتن كفاية من النـاس، وتبتغين الآن أن أصدّق هذه الخرافة أنا أيضاً؟
-"لكن يا صاحب السيادة...
-"من دون "لكن". استمعن اليّ! نكتاريوس؟ ها! هـا! هـا!... ومـن كـان نكتاريوس؟ كان رجلاً صغيراً يرتجف أمام صفرونيـوس ويزحـف أمـام السلطات".

فاضطربت نكتاريا التي كانت قد أصبحت راهبة متوحـدة مكلـّفة بشؤون الدير الخارجية، وارتجفت. ونظرت الى صورة نكتاريوس وقالت له:
-"هل تسمع يا أبانا المحبوب سخرية هذا الأسقف؟"

ومرّ الوقت، وما أن حل الليل حتى بدأ بروكوبيس يحسّ بالانزعـاج وبثقل في المعدة. وقد تجشأ مرتين أو ثلاثاً، وانسحب الى الغرفة المجـاورة ليقضي الليل في سرير الشيخ المأثور.

ولكن ماذا كان يحصل له؟ ومن كان يعذبه بهذا الشكل كلما اقـترب النعاس؟ وما هذا الخوف الذي يعتريه ويجعله يئن بصوت عالٍ وكأنه علـى وشك لفظ أنفاسه؟ كان يتمتم "نكتاريوس... نكتاريوس..." ويصرخ كحيـوان يتعرض للذبح، ويتدحرج على الأرض.

وكانت نكتاريا تنام في الغرفة الملاصقة، ومن عادتـها أن تسـتيقظ لأقل حركة. فسمعت الأصوات ونهضت متعجبة، وفتحت البـاب بخشـية. فوجدت نفسها أمام مشهد محزن: كان يبدو أن بروكوبيوس وقع من سريره، وقد غطـّاه العرق، وهو يرتجف كالسمكة التي أخرجت من الماء.

وعندما ركضت الراهبات لاسعافه، هدأ أخيراً واستعاد أنفاسه، وقال: "الأمر بغير أهمية". ولكن ما أن ارتدى ثيابه واستعاد قدرته علـى المشـي، حتى وقف شارد الذهن. وبعد أن تخبّط حوالي ساعتين تقريباً بيـن ضمـيره وكبريائه، قال أخيراً لرئيسة الدير:

-"يبدو أنكن على حق. لقد أصبح نكتاريوس قديساً بالحقيقة... هلم بنا الى قبره".

وذهبوا الى القبر" فوضع اصبعه على أثر المسامير"، وعاين بنفسه عجائب الله وتنشق العطر. ومنذ ذلك الوقت اعترف هو الآخر بالحقيقة. لقد فهم الدرس وراح يتصرف بصلاح وتقوى. حتى انه كتب في مقدمة أحد الكتب التي تروي سيرة القديس هذه الكلمات:

"... لقد سمح لي الرب، أنا متروبوليت الأبرشية التي يقع فيها الدير حيث عاش ودُفن هذا الأسقف العظيم في الكنيسة، بأن أكون حاضراً عند العثور على ذخائره العطرة في العام ١٩٥٣. وقد كان هذا لي مدعاة فرح وسرور عظيمين".

* * * *

وهناك حدث يستحق الذكر وقد حصل عند الوضع النهائي في القبر: أي عندما كان بروكوبيوس لا يزال تحت تأثير الرؤيا، أمر بنقل الجسد على وجه السرعة.

عندما تحصل المعجزة تحلّ الدهشة، ولكن عاجلاً ما تتلاشى الكلمة الآتية من اللامنظور، فتنخفض حياة الروح من جديد الى الوقائع الموجودة تحت الشمس. وما أسرع النفس في الوقوع بالبلادة والنسيان، فتعود ويا للأسف لتقع في قبضة الحياة اليومية لاغرائها الهائل ولما تقدّمه من الاحساس المزيف بالأمان.

وكان بروكوبيوس ومن رافقه الى الدير خاضعين لقوانين الطبيعة والجاذبية... فلم يجدوا أمامهم غير قبر كغيره من القبور، وهيكلاً عظمياً، وبعض العظام؛ وسرّ الصمت وعلامة الموت الخالد والمرهوب. الا ان ذلك لم يكن عادياً: فقد كانت العظام تشيع العطر فيما حولهم. وكان ذلك العطر غريباً وأخاذاً. فتصوّر البعض أنهم يشمّون الياسمين، وتهيأ للبعض الآخر أنه عطر زنبق البشارة، كما اعتقد آخرون أنها رائحة زهور الحقول في غابة بريّة.

ان أحد عمالقة الأرثوذكسية، نيقوديموس الآثوسي، قد فهم عظمة معطي الحياة وقوته عندما تأمل عظاماً أخرى عطرة، مثل عظام مراهق جزيرة هيدرا، الشهيد الجديد قسطنطين. فكتب في هذا الخصوص: "ان المعزي، روح الحق، يعمل بطريقة معينة في الشهداء والمختارين، حتى ان كل ما يخضع فيهم للفساد ويتحوّل الى غبار ونتانة، يبقى محفوظاً ويشيع

العطر..." ولم ينتشر هذا العطر الذي نتكلم عليه الآن في الدير وباحاته فحسب، بل في الدروب والغابات أيضاً، ووصل حتى الى ساحل الجزيرة والى شارع ايينا الكبير، والى الباصات.

وفي ذلك المساء بالضبط، كان الباص الذي يعمل على خط "ايينا القديسة مارينا" يمر عند أسفل الدير. ولم يكن الباص بالطبع غير كومة من الصفائح الحديدية الممتلئة بحمولتها الانسانية. ولم يكن الركاب يعرفون بعضهم البعض: فمن كان باستطاعته أن يعرف حياة كل واحد من الموجودين؟ ومن يستطيع أن يدرك كنه النفوس، وأسرار القلوب؟ وقصة حياة كل انسان؟ ان ما نراه من الناس هو الجسد. والجسد لا يعرف الجسد.

وكانت على متن الباص امرأة شابة تدعى ماري X وكانت في الثلاثين من عمرها، ذات جسد جميل ووجه ساحر وعينين زرقاوين رائعتين، وتتمتع بجاذبية كبيرة. والى ذلك فقد كانت انسانة كثيرة الخبرة، سحرتها حكمة هذا العالم وأميره، مفسد النفوس، وجميع ملذات الحياة. وكانت قد ارتبطت بموعد في اليوم السابق مع أحد "الأصدقاء" لقضاء فترة من اللذة في نزل صغير عند شاطئ البحر. وكان قد مر زمان طويل وهي تستفيد من شبابها بهذه الطريقة، ومن الوقت الذي يمر دون رجعة... فلمَ لا تدع نفسها تنساق وراء أحاسيس الحياة السهلة وملذاتها؟

ولكن السائق اضطر للتوقف فجأة بسبب انفجار أحد الاطارات. وكانت أجراس الدير تقرع في الأعلى. وراحت ماري تسمع صوت الأجراس وتتنشق في الوقت نفسه ذلك العطر الذي لا يوصف. فسألت:
-"ماذا يحدث هنا؟"

فأجاب أحدهم:
-"انهم يحرقون البخور".
الا أن ماري اعترضت قائلة:
-"لكن هذه ليس برائحة بخور. هذه الرائحة... يا الهي! أعتقد أنه سيغمى عليّ".

فقال رجل قصير، حاد النظر، يعتمر قبعة صغيرة:
-"انهم يُخرجون رفات الشيخ الذي شيّد هذا الدير".
وسأل آخر:

-"كيف عرفت هذا؟
-"لقد سمعت الكهنة يتحدثون في هذا الموضوع عند الميناء، قبل انطلاقنا".

وبدأت ماري بالسير، وراحت تتسلق التلة وساقاها مشدودتان بجوارب الحرير. وكلما تقدمت في السير، كانت رائحة العطر تزداد قوة، فتشعر بساقيها تضعفان وتكادان تعجزان عن حملها. آه يا أمي! ما هو هذا العطر؟ هل هو طيب سماوي؟ وفجأة صدمتها فكرة واخترقت قلبها: "الى أين تذهبين أيتها الحمقاء؟ سوف يصلحون الاطار في خلال عشر دقائق، أو ربع ساعة على الأكثر. وهل نسيت كل ما كنت قد خططت له؟ ها! ها! ها!"

لكن الغريب أن قلبها كان يزداد ارتخاءً، وهي مذهولة وكأنها ثملة. والأغرب أيضاً أن ساقيها كانتا ترفضان الانصياع لها. فكانت تمشي من تلقاء نفسها، وبخلاف كل منطق، باتجاه هذا السحر المجهول.

وفي هذه الحالة من النشوة سارت خطوة خطوة حتى وصلت الى فوق. فانسلّت من الباب الرئيسي دون أن يراها أحد، ثم وجدت هذه الجميلة نفسها في الباحة. فأحسّت ببعض الجلبة فيما حولها، واسترعى انتباهها قبر مفتوح من الرخام. ها هو اذن مصدر هذا العطر القوي المتعذر وصفه، الذي يعجز قلبها عن احتماله. أيها الرب الاله! هل ما زالت على الأرض؟

فسألت احدى الراهبات بانفعال شديد:
-"من دُفن هنا؟
-"يا ابنتي، انه أسقفنا وأبونا الذي اصطفاه المصلوب".
فرنّت هذه الكلمات في أذنيها كموسيقى العود، وراحت تردد: "المصلوب!" آه يا أمي، أين هي الآن؟ "المصلوب... هو الذي..."

فترنحت وسقطت على ركبتيها بعفوية، وبطريقة كأنها غريزية، ودون أن تفكر بشيء. ثم انحنت وقبّلت الحجر. واذ لامست شفتاها هذا الرخام البارد والعطر، ارتقصت ألسنة نارية أمام عينيها، ثم دخلت الى صدرها واشتعلت فيه وفي أحشائها وحتى الى عروقها. فصرخت: "الرحمة يا أمي!"... وأجهشت بالبكاء. وكانت تضع حول عنقها عقداً برّاقاً غالي الثمن، فتناولته بيديها ووضعته على البلاطة الرخامية. وصرخت:
-"سامحيني يا أمي".
وطفقت تبكي. فسألتها راهبة أخرى بعذوبة:

-"ما اسمك؟ ومن أين أتيت؟"

فأجابت من خلال دموعها:
-"ماري... لقد أتيت... اني... شقية.
-"لماذا؟
-"لأني مغمورة بالوحل.
-"صلـــّي. فقد جاء ربنا ليفتش عن الخروف الضال وينقذه".

فاستدارت ماري نحوها ونظرت اليها بتوسل، ثم بيأس. وصرخت:
-"لا بعد الآن! لا اطلاقاً!"

وقد سُمعت صرختها هذه الى بعيد، وحملها الهواء الـــى الأعـــالي. وقالت وهي تصر بأسنانها:
-"اطلاقاً! صلــّين لأجلي حتى يتشفع بي. اشفقن عليّ، فاني شقية".

وكان أحد الحجاج واقفاً هناك صدفة ففكر في نفسه:
-"ها هي المومس تبكي..."

أجل كانت المومس تبكي، وكان ذلك العقد أول نذر يحصل على قــبر القديس الجديد في الأساقفة، وقد ولــّده الندم.واليوم أيضاً ما زال بالامكـــــان رؤية هذا العقد الرائع في واجهة النذور. الا أن الندم يحمل معه الخـــلاص. وقد غيّرت هذه المرأة الباهرة الجمال طريقها. ومنذ ذلــك الوقــت صـــاروا يطلقون عليها لقب مريم المصرية الجديدة. ويقول بعض الشهود الموثوقـــون ممن عرفوها لاحقاً، بأن التغيير قادها الى الطريق الضيّق، طريق الدمـــوع. فكرّست حياتها لمن تجسّد حتى يحول الجسد الخاطئ الـــى هيكـل للــروح القدس.

خاتمة

+ (١ يو ٣ : ١٦) "بهذا قد عرفنا أن ذاك قد بذل نفسه من أجلنا، فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الاخوة".

+ (مت ٢٥ : ٣٤-٣٥) "ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ انشاء العالم. لأني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فآويتموني".

ولن نكون عادلين اذا أنهينا هذه السيرة من دون أن نضيف بعض الكلمات لتكون كأزهار حقول متواضعة مهداةً لذكرى كوستي ساكوبولوس، هذا الرجل الذي كان الرفيق الأمين للقديس.

لا يحتاج القديس نكتاريوس كيفالاس الى أن نصفه، فان أسطورته قد تجاوزت ايينا وسيليفريا ومصر. وكل الأرثوذكسيين يحجّون اليه. والحقيقة أن المسيح المحسن ، رب السماء والأرض، قد جعله أهلاً لمجد يشعّ الى بعيد. وهذا الاشعاع جعل خليفة بروكوبيوس، المتروبوليت الجديد، متروبوليت جزر هيدرا وسبيتسيا وايينا، ينحني أمام هذه الحياة القدوة ويبذل قصارى جهده لتشجيع العبادة الحقيقية للكلمة المتجسد.

ان الكثيرين من عامة الشعب الذين تنقصهم المعرفة المسيحية، يتأثرون جداً بالمعجزات التي لا تحصى، والأشفية من أمراض مستعصية في أنحاء العالم كافة، وأيضاً بعدد كبير من تجار الهيكل، فيتوافدون الى الدير، ويهبون كل ما يملكون لذكراه المقدسة، حتى انهم يقعون أحياناً في الافراط بالعبادة.

ولكن الختن الكلي الجمال يقبل هذا أيضاً في كثير من الأحيان، لشدة تواضعه، لأن القديسين هم اخوته: لقد رفعهم عالياً جداً وتوّجهم.

ولكن لنعد الى موضوع خاتمتنا.

منه حماره. وفي النهاية أعطاه بدلاً منه بعض الفاصولياء الجافة اذ لم تكـــن للمال أية قيمة في ذلك الوقت. وكان الحمار صغيراً جداً ومماثلاً للحمار الذي حمل في الماضي ملك الكون المتواضع الى المدينة المقدسة.

فامتلأ قلبه بالفرح لهذه القنية. وفكر بأنه لن يتكلـــف شـيئاً علـــى اطعامه لأن العشب متوفر بكثرة في ايينا. ولكنــــه اضطـــر، رغـــم التعـــب والشيخوخة، أن يقطع ماشياً مسافة سبعين كيلومتراً وهو يئن، اذ كان عليه أن يأخذ هذا الحمار الصغير من كوروبي الى أثينا والبيريه، وصولاً الى مينـــاء بايكوتسي. وهو الذي كاد في الماضي أن يلقى حتفه ثلاث مرات في رحلات مماثلة. فلو ضبطه الألمان في الطريق بعد منع التجول، وهو يسير حـــاملاً الطرود، لرموه بالرصاص. الا أن نعمة أبيه الروحي كانت تحميه.

* * * *

وقد رغب دائماً بكتابة قصة حياة قديس ايينا وجهاداته، ولكنــــه لـــم يستطع بسبب الصعوبات والعقبات الكثيرة التي واجهته، وبســـبب المـــرض والهموم العديدة والتعب.

كان وكيلاً وفياً لأبيه الروحي الجليل لأكثر من خمسين سنة، ومنفـــذاً متفانياً لجميع مشيئاته، ومساعداً له وصديقه ومتمماً لعمله بعد رقاده.

وكلما جاء في مهمة الى الدير، كان عليه أن يقضي الليـــل فـــي دار الضيافة خارج السور، بحسب القانون الذي وضعه الشيخ البار، لأنه لم يكـــن كاهناً. وحتى بعد رقاد الشيخ، فانه لم يفكر مرة واحدة بمخالفة هذه القـــاعدة، ولا حتى في الحالات التي اقتضت مجيئه تأميناً لحاجات ملحة للشـــركة، أو عندما كانت بعض المعضلات تتطلب حلاً فورياً، أو للقيام بـــأي نـــوع مـــن الأعمال الصعبة والمرهقة.

كان كوستي لدى ذلك الرجل العظيم المنفي من مصر، رجلاً مخلصاً ورصيناً، على غرار سمعان القيرواني، وذلك خلال حياته وبعد رقاده.

وفي كانون الأول من العام ١٩٤٧ أصيب بمـــرض شـــديد. وكـــان الشخص الثاني من رفاق الشيخ المحبوب ــ بعد الأخت كساني ــ الـــذي رآه في الحلم كما كان في حياته، وذلك قبل انطلاقه خفيفاً في الرحلـــة الكبـــيرة.

فتكلما بهدوء عن أمور كثيرة، وجرت بينهما مناقشة كما في مدرسة ريزاريو. وقد أنهى أبوه المجيد الحوار بمباركته، وقال له:
-"يا ولدي في المسيح قسطنطين، يا ولدي المحبوب جداً".

قال هذا وتردد صوته في الصمت كما بجوار سرير ميت. ولكن كوستي كان يتكلم في نومه بصوت عالٍ وهو يتحدث الى القديس نكتاريوس. وكان انسباؤه ينصتون اليه بتعجب. وبعد نصف ساعة فارق الحياة عن عمر سبعين سنة في حالة من الفقر المدقع والضعة، ودون أن يترك وراءه شيئاً.

وقد وجدوا في أوراقه رغبة واحدة: أن تدفنه الراهبات خارج السور، أقرب ما يمكن من قبر الذي أحبه أكثر من الجميع في هذا العالم الباطل.

ولهذا يوجد اليوم في زانطا – ايينا، في باحة كنيسة القديس خارلمبوس، قبر صغير لا يلاحظه أحد، يحتوي عظامه.

انه قبر مخفي تحت الأعشاب البريّة، على غرار حياته التي جرت بصمت وبساطة بقرب الذي يلمع اليوم كنجم في الكنيسة الأرثوذكسية.

لقد عاش اذن كوستي ساكوبولوس بعض السنوات الأخرى على الأرض محروماً من سيده ومرشده. ولم يصبح كاهناً رغم نصائح الشيخ، بل عاش حياة حزينة ، وبقي عازباً ودون عائلة، موظفاً في مصرف اليونان.

ان بلدنا احتمل خلال الحرب العالمية الثانية الاحتلال الألماني الفظيع، وناح كأنه على أبواب الموت.

وفي تلك الفترة بالذات استيقظ وأتى وسكن فيه روح أبيه الروحي ومرشده. فخصص وقته ونفسه بالكلية للراهبات المعتزلات في ايينا، ولأيتام الجزيرة الثمانين، هؤلاء الأولاد الذين مات أهلهم من الجوع، أو على يد الألمان. وصار يعمل نهاراً وليلاً برفقة الأخت نكتاريا العجوز، فيقرعان كل الأبواب، ويهزّان عواطف الذين يمكن أن يتأثروا، للحصول على قليل من الشمس والحياة. ولم يكونا يرفضان شيئاً حتى ولا بعض حبات الفاصوليا غير المطبوخة تماماً، أو بعض حبات البازيلا، أو قليلاً من الطحين، أو من الزيت أو السكر... ليحملاها الى المعوزين.

وقد عبر ساكوبولوس آلاف الأخطار والأتعاب والحسرات وأمّن حاجات الدير والأطفال، ضحايا هذا الاعصار الذي كان كل شيء يضعف أمامه ويستسلم ويموت.

كان قد تقدم في السن وكان وضعه وضع وكيل: رجل لا مكان له تحت الشمس، لا يملك شيئاً، حتى ولا بيتاً ولا مدخرات. ولكنه كان ملهَماً بتعاليم معلّمه العظيم. وكان يتألم ويشعر بالقلق عندما يفكر بأن عمل نكتاريوس في ايينا قد يتقوّض ويتلاشى. فبذل كل الجهود الممكنة لتلبية حاجات الدير. وقد وصل به الأمر الى حد الاستجداء. فراح يستجدي الحديثي النعمة الذي أثروا من السوق السوداء. وأحنى رأسه وتذلل أمام بعض الصناعيين ذوي القلوب القاسية الذين لم يعودوا يفكرون الا بأرباحهم. وليس هذا فقط، بل ان المشكلة الأصعب كانت تنقله: اذ ان وسائل النقل كانت نادرة في تلك الحقبة. ولم تكن هناك غير بعض قوارب الصيادين الذين كانوا ينطلقون في الليالي من الساحل بالقرب من فاليريا ويصلون عند الفجر الى ايينا. وبعد ذلك كيف كان السبيل للوصول الى زانطا؟

وبعد التفكير تذكر ساكوبولوس مزارعاً عجوزاً من أتيكي، كان يسكن في كوروبي، وكان صديقاً للقديس. فذهب اليه لدى أول فرصة وطلب

الفصل الثالث عشر

- (أم ١٦ : ١٩)   "تواضُع الروح مع الودعاء خيرٌ من اقتسام الغنيمة مع المتكبرين".

- (١كور ٦ : ٣)   "أما تعلمون أننا سندين الملائكة، فبالأحرى نقضي في أمور هذه الحياة".

لحسن حظ نكتاريوس لم يتم انتخابه بطريركاً. مع أن الشعب هناك كان معه، ولكن لا الاكليروس. كانت الملكة أولغا تتمتع بنفوذ كبير كونها شقيقة القيصر. وعندما وصل نكتاريوس استُقبل ببرودة شديدة وكأنه غريب، وكأن حضوره يسبّب مشكلة لم يحسب لها حساب. وأخيراً تم انتخاب فوتيوس، الذي أوصت به الملكة أولغا.

وعندما عاد نكتاريوس، وجد عند الأعيان تعاطفاً كبيراً، وعند صدقائه خيبة أمل عظيمة. وأما هو فقد كان يشعر بارتياح داخلي، وكأنه جتاز نفقاً مظلماً انتهى منه الى غابة مخضرّة الأشجار. وكان يحس بسلام وارتياح ويقول في كل لحظة : "المجد للرب"، وتبدو على وجهه ابتسامة طفولية. وفي كل لحظة كان يشكر سيدتنا والدة الاله بحرارة من أعماق القلب.

وفي مساء أحد الأيام سأله صديقه كوستي بحزن ومرارة ودون حماس:
-"ماذا تريدنا أن نفعل ببذلتك الاحتفالية التي في الحقيبة يا صاحب السيادة؟"

فرفع اليه نكتاريوس نظرات شاردة وكأنه لم يفهم ما يقول. فتابع كوستي:
-"هل أحضرها الى هنا يوماً ما؟
-"وهل يزعجكم وجودها؟
-"آه يا الهي، بالطبع لا".

فأجاب نكتاريوس مبتسماً:
-"حسناً لتبقَ عندكم اذن". وتابع:

يكاد القديس نكتاريوس يكون معاصراً لنا،
اذ رقد في العام ١٩٢٠، ولذا نحسّ بأنه قريب منا جداً.
وعلاوة على ذلك فان سيرته مؤثرة للغاية. اذ هي مفعمة بالفقر والمشقات منذ الطفولة، ثم بالاضطهاد المجاني والظلم القاسي والتحقير والدموع.
كل ذلك في صبر واتضاع وتسامح أقصى وتفانٍ في الخدمة والعطاء والصلاة الحارة الدائمة...
وقد بدأت عجائبه ساعة رقاده (بل أثناء حياته أيضاً)، وهي لا تزال تحصل بكثرة،
اذ يلجؤون الى شفاعته في كل العالم الأرثوذكسي.
أما الدير الذي أسَّسه في جزيرة ايينا في اليونان، فقد أصبح محجّاً شهيراً يؤمه المؤمنون من كل الجهات للتبرك والاستشفاع...
فبشفاعته يا رب ارحم وخلِّص ووفِّق الطالبين اليك، آمين.